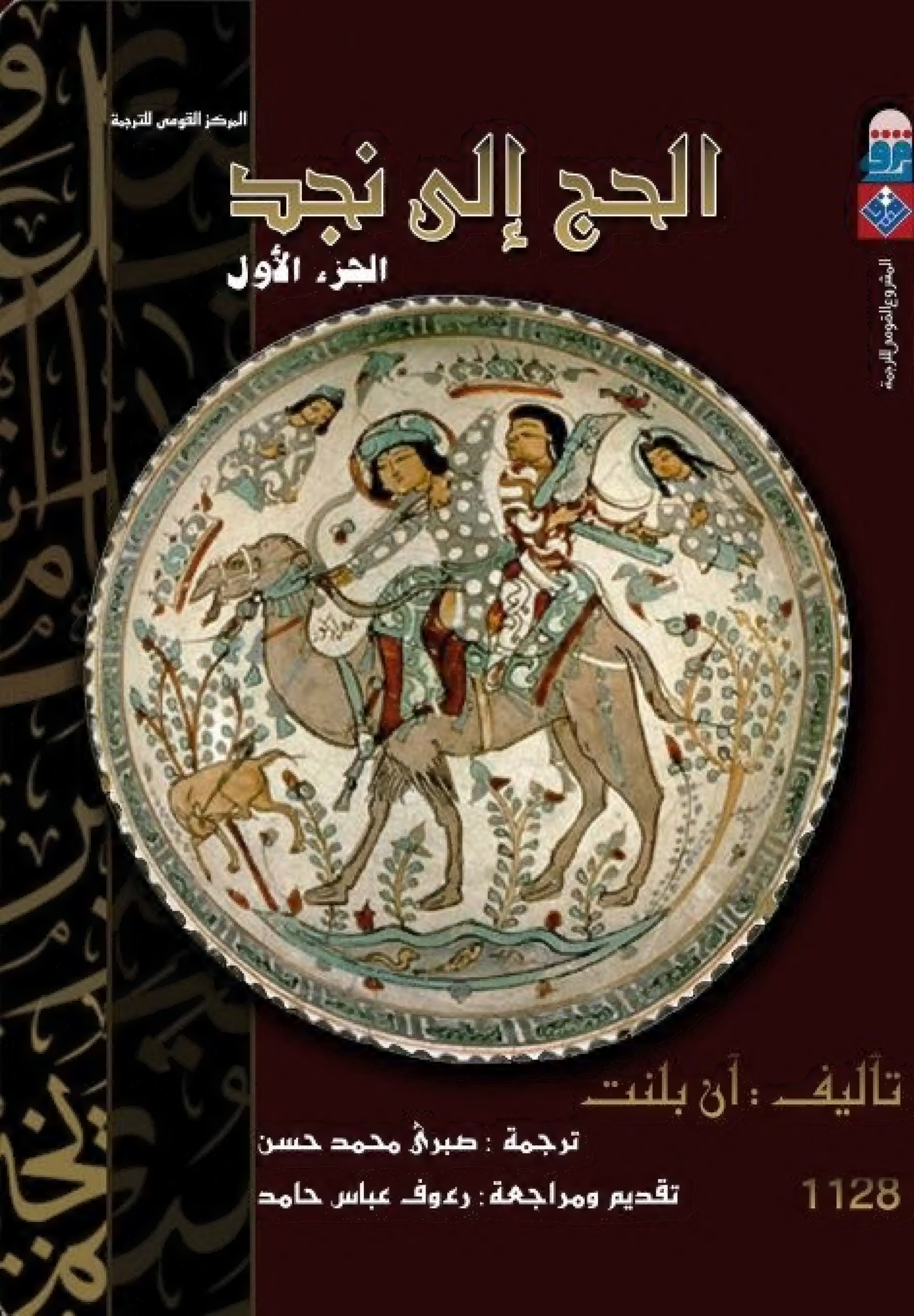


المركز القومي للترجمة
الحج إلى نجد
الجزء الأول
تأليف : آن بلنت
ترجمة : صبري محمد حسن
تقديم ومراجعة: رءوف عباس حامد
1128
المشروع القومي للترجمة

الحج إلى نجد

مهد العرق العربى

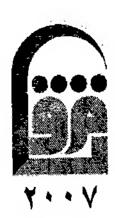
زيارة بلاط الأمير العربى ، ورحلتنا الفارسية

(الجزء الأول)

تـأليـف : آن بلنت

ترجمة : صبرى محمد حسن

تقديم ومراجعة : رءوف عباس حامد



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بلنت، آن
الحج إلى نجد : مهد العرق العربى ... /آن بلنت ؛ ترجمة : صبرى محمد حسن ؛ تقديم ومراجعة : رءوف عباس حامد - ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
٢٩٦ ص ، مج ١، ٢٤ سم
١ - السعودية - وصف ورحلات
٢- الحج
(أ) حسن ، صبرى محمد (مترجم)
(ب) حامد ، رءوف عباس (مراجع)
(جـ) العنوان
٩١٥,٣١

رقم الإيداع ٢٠٠٧/١٣٨٨٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-437-373-1

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الحج إلى نجد
(الجزء الأول)

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١١٢٨
- الحج إلى نجد : مهد العرق العربى (الجزء الأول)
- آن بلنت
- صبرى محمد حسن
- رءوف عباس حامد
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧ م

هذه ترجمة كتاب :

A pilgrimage to Nejd :
The Cradle of the Arab Race
A Visit to the Court of the Arab
Emir, and "Our Persian Campaign"
By : Lady Anne Blunt
Volume I

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت : ٢٧٣٥٤٥٢٦ - ٢٧٣٥٤٥٢٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo. **Tel :** 27354526 - 27354524.

المحتويات

مقدمة المراجع

بلنت والشرق

لقيت الجزيرة العربية اهتمامًا خاصًا من الرحالة الأوروبيين فى القرن التاسع عشر على وجه الخصوص ، فقصدها عدد منهم اختار كل منهم لرحلته مسارًا يتفق مع اهتمامه ، وسجل وصفًا للمناطق التى ارتادها من الجزيرة العربية فى كتاب تم نشره ، ليصبح مصدرًا أساسيًا للهيئات المعنية بأمر الجزيرة العربية فى أوروبا ، بعضها كان رسميًا ، وبعضها الآخر كان أهليًا خاصًا (كالجمعيات الجغرافية). ويرجع هذا الاهتمام باستطلاع أحوال الجزيرة العربية الطبيعية والبشرية ، إلى الموقع الذى احتلته جزيرة العرب بين الإمبراطورية البريطانية فى الهند والبحر المتوسط؛ حيث أوروبا ودولها ذات التطلعات التوسعية التى تريد لنفسها موطئ قدم بالقرب من الهند (مثل فرنسا مثلاً) ، وبين بريطانيا نفسها التى تريد أن تجعل من الجزيرة العربية منطقة حاجزة بين الطامعين فى إمبراطوريتها الهندية وبين خط الدفاع الأول عن تلك الإمبراطورية فى الخليج الفارسى / العربى .

وتنوعت دوافع الرحالة الأوروبيين الذين ارتادوا الجزيرة العربية فى القرن التاسع عشر ، كما تنوعت الأساليب التى اتبعوها فى تجميع المعلومات التى يعنيهم أمر جمعها . ولكنهم جميعًا تزودوا بمتطلب ضرورى للرحلة وهو إتقان اللغة العربية ، وادعاء الإسلام والتستر وراء أسماء عربية ، فيما عدا ولفرد بلنت وزوجه آن بلنت ، فقد جاءا إلى نجد دون إخفاء لهويتهما وعقيدتهما الدينية ، معتمدين على إتقانهما العربية ، وعلى رصيد الصداقة التى ربطتهما ببعض القبائل العربية . ورغم أن الرحلات التى قاما بها جاءت بمبادرة خاصة من جانبهما ، وبترتيب من عندهما وعلى نفقتهما الخاصة ، فقد حرصا على إتاحة ما تحصلا عليه من معلومات لمن يعنيهم الأمر فى بريطانيا خاصة ، وأوروبا عامة .

ويمثل كتاب " الحج إلى نجد " ذروة اهتمام الزوجين آن وولفرد بلنت بالشرق ، وولعهما الشديد بالبدو والحياة البدوية باعتبارها خزانة الثقافة العربية الأصلية بمختلف مكوناتها ، وكانت تمثل الدعائم القوية التى قام عليها بناء تلك الرابطة التى ربطت آل بلنت بالمشرق العربى عامة ، ومصر خاصة ، وجذبتهم إلى عالم الإسلام والمسلمين .

والكتاب بجزئيه هو أول وصف تفصيلى عرفته أوروبا لجنوب بادية الشام وشمال نجد ، وطريق قافلة الحج الفارسى بين نجد وفارس ، وهو أول محاولة أوروبية لرسم خريطة للمنطقة التى غطتها الرحلة ، ووصف طبوغرافيتها وسكانها ، وعادات قبائلها ، اعتماداً على اليوميات التى درجت الليدى آن بلنت على تسجيلها طوال الرحلة التى شاركت فيها زوجها ولفرد سكاون بلنت من دمشق إلى نجد ، ثم استطلاعهما لإقليم جنوب غرب فارس المطل على الركن الشمالى الشرقى للخليج ، حتى إلقائهما عصا الترحال عند ميناء بوشهر الفارسى على الخليج حيث توقفت آن بلنت فيما سجلته من أخبار الرحلة فى هذا الكتاب ، وإن كانا قد تابعا الرحلة من بوشهر إلى الهند .

كانت بداية اهتمام آن وولفرد بلنت بالصحارى العربية وسكانها تلك الرحلة الأولى إلى الشرق العربى التى قاما بها فى شتاء ١٨٧٥ / ١٨٧٦ عندما جاءا إلى مصر للزيارة للمرة الأولى لذلك البلد الذى اجتذب السياح الأوروبيين للوقوف على آثار تاريخه الممتد عبر العصور ، بعدما استطاعت شركة توماس كوك الترويج لتلك الرحلات السياحية التى نظمتها . ولم يكتف آل بلنت باتباع برنامج الزيارة شأنهما فى ذلك شأن غيرهما من السياح ، بل كان لهما ميل خاص للمغامرة جعلهما يختاران زيارة القدس بغير طريق البحر الذى اعتادت توماس كوك تنظيمه لزبائنها ، فيتجهون بحراً إلى حيفا ثم يبدأون زيارة الأماكن المقدسة بفلسطين وخاصة القدس براً . ولكن الزوجين آن وولفرد بلنت عقدا العزم على تنظيم قافلة خاصة بهما - اشتريا خيلها وإبلها واستأجرا البدو الذين عملوا على خدمتهما - لتشق بهم سيناء وصحراء بئر

السبع فى الطريق إلى القدس . وقدر الزوجان أن هذه المغامرة فرصة للتعرف على المنطقة وسكانها وطباعهم وقيمهم ، ولم يكن لديهما سوى النزر اليسير من المفردات العربية ، فرأياها فرصة ذهبية لتعلم العربية من أهلها ، لذلك لم يستأجرا ترجمانًا أو دليلاً ، كما كان يفعل غيرهم من الرحالة الأجانب .

ولا ريب إن التجربة الأولى للرحلة فى الصحراء عبر سيناء دون دليل برفقة مجموعة من بدو الشرقية الذين يفتقرون إلى الخبرة بدروب سيناء ، لا ريب أنها كانت تجربة مثيرة ، فقد كادت تكلفهما حياتهما عندما ضلت القافلة الطريق ، ونفد مخزون الماء ، وكاد الجميع يموتون عطشًا لولا الصدفة التى قادت بعض أبناء قبيلة العزازمة إليهم ، فرووا عطشهم ، وأكرموا وفادتهم ، ودلوهم على الطريق إلى بغيتهم ، وبذلك كان العزازمة أول من صادق بلنت من القبائل العربية البدوية .

هذه المغامرة خلبت لبهما ، وجعلتهما يعقدان العزم على تعلم العربية ومعرفة المزيد عن البادية العربية وأهلها ، فكانت رحلتهما الثانية التى بدأت من حلب فى العام التالى (يناير ١٨٧٧) ، استفادا فيها بدروس تجربتهما الأولى حيث قام القنصل البريطانى بحلب (وكان صديقًا لأحد معارف بلنت وعاشقًا للترحال فى البادية) ، قام بمعاونتهما فى اختيار الخدم والأدلة الأكفاء وشراء الخيول العربية الأصيلة وما يلزم قافلتهما الصغيرة من الإبل والمؤن ، بل أحضرت آن معها من إنجلترا بعض مستلزمات الطعام المجففة ، وبدلاً من أن تتجه القافلة جنوبًا عبر بادية الشام إلى نجد ، استمعا لنصيحة القنصل بالاتجاه شرقًا عبر بلاد عرب الجزيرة الفراتية ، ومن هناك جنوبًا إلى بغداد ثم العودة . كان مسار الرحلة – على هذا النحو – فى بلاد لم تظهر تفاصيلها على الخرائط التى رسمها كسنى **Chesney** عام ١٨٣٧ عندما أرسلته شركة الهند البريطانية لإجراء مسح لأنهار العراق تمهيدًا للحصول على امتياز إقامة خط البخارية النهرية فى الفرات .

لم تكن نصيحة القنصل البريطانى فى حلب للزوجين بلنت مجرد اقتراحٍ من خبير بالترحال فى الصحراء إلى مغامرين يهويان اكتشاف المجهول ، بل لعل القنصل

أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد : فيشبع فضول آل بلنت إلى اكتشاف ما يجهله غيرهم من الأوروبيين وزيارة بلاد لم تطأها قدم أوربى من قبل ، هذه واحدة ، أما الهدف الآخر والأهم فهو رسم خريطة دقيقة لطبوغرافية المنطقة وأحوال سكانها حتى يمكن الاستفادة بها فى دعم الفكرة البريطانية لإقامة مشروع خط حديدى يربط حلب ببغداد عبر الجزيرة الفراتية ، وقد أوصاهما القنصل باستطلاع طبوغرافية الأرض ومدى صلاحيتها للمشروع . وقد تم نشر تفاصيل هذه الرحلة من يوميات آن بلنت فى مجلدين عام ١٨٧٩ فى لندن بعنوان " القبائل العربية فى الفرات " وأضاف ولفرد بلنت ملاحق كونت نحو نصف المجلد الثانى من الكتاب ضمنها وصفًا لطبوغرافية المنطقة ، وأحوال الإدارة العثمانية فيها ، ونفور القبائل العربية منها ، كما أضاف تقريرًا حول جدوى مشروع الخط الحديدى حلب - الدير - بغداد ، انتهى فيه إلى عدم صلاحية هذه المنطقة لإقامة خط حديدى .

وسواء كانت الرحلة التى نصح القنصل البريطانى فى حلب بها توظيفًا منه لحب المغامرة عند آل بلنت لخدمة التطلعات السياسية فى المنطقة ، أو كان النصح بريئًا ، فالأرجح أن الزوجين بلنت قبلا بالاقتراح لإضفاء قيمة علمية لمغامرتهما من ناحية ، ولأن القنصل زودهما بخطابات التقديم لبعض الشخصيات التى تفيدهما فى العراق . غير أن ما يلفت النظر أن الرحلة الفراتية زادتهما ميلاً إلى القبائل العربية والبادية والثقافة العربية البدوية الأصيلة ، بل تآخى ولفرد بلنت مع الشيخ فارس الشمرى وأصبح وزوجه آن ينتسبان إلى الشمر بحكم تقاليد "الخوة" (أو الأخوة) ، لهما على القبيلة حق الحماية ، والثأر لهما ممن يصيبهما بسوء ، مما أثار إعجابًا شديدًا عندهما بالأخلاق والقيم العربية الأصيلة التى كان البون شاسعًا بينها وبين الأخلاق والقيم الأوروبية .

طوال هذه الرحلة المثيرة التى مثلت حجر الزاوية فى ولع آل بلنت بالعرب وتقاليد البادية ، سمع الزوجان أكثر من مرة أن أصل القبائل العربية فى بادية الشام والجزيرة الفراتية ينحدر من نجد ، ومن ثم عقدا العزم على أن تكون رحلتهما التالية

إلى المنطقة التى تمتد إليها جذور القبائل التى اتصلا بها فى بادية الشام والفرات . كانت الرحلة عندهما بمثابة الحج إلى البلاد التى قدمت للإنسانية تلك القبائل العربية ذات التراث الثقافى المتميز ، ولعل ذلك يتضح من العنوان الذى اختير لذلك الكتاب الذى قام على ترجمته الدكتور صبرى محمد حسن وكلفنى المركز القومى للترجمة بمراجعة الترجمة .

وقد زادت الرحلة إلى نجد آل بلنت إتقانًا للحديث بالعربية إلى درجة تذوق الشعر النبطى وفهم الأهازيج الشعبية والتغنى بها ، كما زادتهما معرفة بالقبائل العربية وعاداتها وتقاليدها ، وقيم مجتمع البادية وأعراف البدو ، وكيفية التعامل مع أشرار الناس وأخيارهم . شاركا فريق قافلتهما طعامهم وشرابهم ، وعانوا معهم ندرة الطعام فى بعض الأوقات حتى اضطروا إلى أكل الجراد عندما كان يعز الصيد وهم من جاءوا من نخبة الأرستقراطية الإنجليزية . وبلغ إعجابهما بالقبائل العربية وأعراف البادية حد التعصب للعرب وتفضيلهم على الفرس ، بل إيمانهم بحق العرب فى أن تكون لهم دولتهم التى يديرون شئونها بأنفسهم .

فمن هم آل بلنت ؟ وما شأن الشرق معهم ؟

ولد ولفرد سكاون بلنت **Wilfrid Scawen Blunt** عام ١٨٤٠ لأسرة تنحدر من نبلاء ساسكس **Sussex** بإنجلترا ، مات والده بعد عامين من مولده ، فقامت الأم بتأجير الضيعة التى ورثها الأب عن أسلافه والتى عرفت باسم كرابيت بارك **Crabbet Park** , وتنقلت بأولادها الثلاثة بين بيوت أقاربها . كانت امرأة شاعرة ، ذكية ، تعانى من القلق الذى قادها عام ١٨٥١ إلى ترك الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية والانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وعمَّدت ولديها وابنتها فى الكنيسة الكاثوليكية بعد شهور . وهكذا تلقى الأبناء تعليمًا كاثوليكيًا خالصًا ترك أثرًا كبيرًا على تكوينهم ، وخاصة أن الأم - التى قضت نحبها - كانت قد أوصت بأن يتولى الكاردينال الكاثوليكى الوصاية على أولادها بعد موتها ، مما جعل عمة بلنت وزوجها جورج ويندام **George Wyndham** ينازعان الكاردينال الوصاية على أولاد بلنت حتى كسبا الحق فى

ذلك وانتقل الأولاد إلى العيش مع العمة وزوجها فى ضيعة الزوج فى بتوارث Petworth بإنجلترا ، وكانت بيت العمة أحد البيوت الإنجليزية الكبيرة ذات الأبهاء الواسعة ، ازدانت حوائطه باللوحات البديعة ، وكانت للبيت حديقة واسعة بها غزلان مستأنسة وحيوانات أليفة يلعب معها الأولاد ويطعمونها بأيديهم ، وكان لكل ذلك أثره فى طفولة وصبى ولفرد وشقيقه وشقيقته . ورغم أن العمة وزوجها كانا من المؤمنين بالبروتستانتية ، فإنهما لم يتدخلا فى عقيدة الأولاد التى اختارتها أمهم الراحلة ، فظلوا على كاثوليكيتهم ، يتلقون تعليمهم فى المدارس الكاثوليكية . وقد كان للكاثوليكية أثرها البالغ فى حياة الأبناء الثلاثة ، فاختارت الأخت طريق الرهبنة ، وتولى الأخ الأكبر رعاية الدير الكاثوليكى الذى بنى على أرض ضيعته التى ورثها عن والده عند بلوغه سن الرشد ، وعندما اختطفه الموت إثر مرضه بالسل ، دفن فى ذلك الدير . أما ولفرد فكان له مع الكاثوليكية شأن آخر .

كان ولفرد فى حيرة من أمره ، فأعز الناس لديه : عمته وأسرتها من البروتستانت ، الذين يسمع لعنات القس فى الكنيسة الكاثوليكية تنصب عليهم كل صباح ، وتحض الصغار على عدم التعامل معهم لأنهم أهل النار ، فالجنة من نصيب الكاثوليك وحدهم !! كما كان ولفرد يرى فى الكثير من المعتقدات الكاثوليكية ما يتناقض مع الطبيعة الإنسانية ، وما يجرى فى المجتمع . وما كاد يتم تعليمه الثانوى بالمدرسة الكاثوليكية حتى سعت عمته لإلحاقه بالسلك الدبلوماسى ، الذى كان الالتحاق به لا يتطلب الحصول على شهادة جامعية بقدر ما يتطلب الانتماء إلى إحدى الأسر الأرستقراطية الإنجليزية العريقة الثرية ، واجتياز اختبار القبول التحريرى والشفوى الذى يقيس إتقان المتقدم للغات الأجنبية التى كان ولفرد بلنت يجيد منها الفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية ، كما كان الامتحان يتضمن بعض الأمور المتصلة بالثقافة العامة . اجتاز ولفرد الامتحان عام ١٨٥٨ (وهو فى الثامنة عشرة من عمره) وعين ملحقًا بدون أجر ، ولكنه تلقى سنويًا سبعمائة جنيه إنجليزى من أخيه . وقد خدم بالسفارات البريطانية فى أثينا واستانبول ولشبونه ، ومدريد ، وفرانكفورت

والأرجنتين ، وباريس ، ثم استقال من خدمة الخارجية البريطانية عام ١٨٦٩ ليتفرغ لحياته الخاصة .

كان العمل الدبلوماسى انقلاباً فى حياة الفتى ولفرد ، وقد تأثر بالغ الأثر بالعمل فى موقعين : فرانكفورت واستانبول . فى فرانكفورت تعرف على فكر داروين الخاص بالنشوء والارتقاء وأصل الأنواع ، وطلب من راعى الكنيسة الكاثوليكية أن يأذن له بقراءتها ، فكتب إليه رافضًا محذراً من الوقوع فى هذه الخطيئة الكبرى ، فلم يجد مفراً من ارتكاب الخطيئة الأولى (وإن لم تكن الأخيرة) فى حياته ، فانكب على قراءة داروين وهيجل ، وأخذ إيمانه بالكاثوليكية يتلاشى حتى فقد اهتمامه تمامًا بالدين ، وانعكس ذلك على شعره .

كان ولفرد بلنت على درجة كبيرة من الوسامة والجاذبية جعلت فتيات ذلك الزمان يتقربن إليه ويثرن غريزته ، مما عجل بطرحه قيود الكاثوليكية جانبًا والانغماس فى معاشرة النساء ، وتلقى تدريبه الأول على يد كاترين والترز - إحدى شهيرات العصر من وصيفات البلاط - التى عشقت اصطياد نجوم المجتمع من شباب العصر الفيكتورى ، واحتفظت بصداقة عشاقها بعد أن تقضى منهم وطرها ، وعرفها رفاقها باسم سكيتلز **Skittles** وقد ظل ولفرد على قائمة أولئك الأصدقاء . ظلت تجربته مع سكيتلز باقية طوال حياته ، خلدها فى قصائده ، وهيأته للانطلاق فى علاقاته النسائية حتى أضاف إلى شهرته صفة زير النساء ، وقالت عنه ابنته جوديث أنه عاشر الكثير من نساء الأرستقراطية الإنجليزية ، ولم تسلم بناتهن من غوايته . ولا يخلو الأمر من المبالغة ، لأنها لم تقل ذلك إلا عندما تفاقمت الأمور بين والدتها ووالدها إلى حد القطيعة ، مما جعل جوديث تفقد احترامها لوالدها .

أما المرأة التى ارتبط بها ولفرد بلنت ، واتخذها زوجة شاركته مغامراته فى البوادى العربية ، فكانت من طراز آخر من النساء اللاتى وقعن فى غرامه فى مختلف البلاد الأوروبية . كانت الشابة آن إيزابيلا بويل **Anne Isabella Noel** البارونة الخامسة عشرة لمنطقة وينتوارث **Wentworth** بإنجلترا ، ولدت عام ١٨٣٧ ، تكبر

ولفـرد بلنت بثـلاث سنوات ، والدهـا وليم كنج William King لورد لافـلاس Lord of Lovelaceوأمــها أدا Ada ليدى لافلاس الابنـة الشـرعية الوحيـدة للشـاعر اللورد بايرون Lord Byron (كانت له ابنة غير شرعية أنجبها من أخت له غير شقيقة) . شغلت الأم أدا عن تربية ابنتـها الوحيدة آن بانكبابـها على دراسة العلوم وخاصـة الرياضيـات ، ولازمت مخترع أول آلة حاسبة وكان يدعى باباج Babbage وعشقت المقامرة حتى أنها خسرت كل إرث الأسرة من المجوهرات فى مراهنة وهى على فراش المرض ، وقضت نحبها بعد معاناة شديدة من آلام مرض خبيث (لعله السرطان) ، تاركة ابنتها الوحيدة آن فى عمر الزهور .

وإذا كان ولفرد قد حرم من والديه طفلاً عندما اختطفهما الموت ، فإن آن حرمت أيضًا من والديها وهما على قيد الحياة ، فقد عهدت أدا إلى أمها الليدى بايرون بتربية الابنة آن ، ولم يبد والدها اهتمامًا برعايتها لانشغاله بأمور أخرى ، فزكى أمر ترك تربيتها لجدتها التى أحسنت تربيتها على نحو ما تربى بنات الأسر الأرستقراطية العريقة ، فكان الحزم والانضباط وتنمية القدرات الذهنية والرياضية (وخاصة ركوب الخيل) هو قوام برنامج الليدى بايرون فى تربية حفيدتها الوحيدة آن ، بما فى ذلك قضاء بعض الوقت فى تعلم الفرنسية والإيطالية والفنون فى باريس وروما . وهكذا برعت آن فى فن التصوير (الرسم) ، والموسيقى ، والعزف على الكمان ، والكتابة ، وعشقت الأدب باللغات التى أتقنتها : الفرنسية ، والإيطالية ، والألمانية ، والإسبانية ، إلى جانب الإنجليزية ، (ثم أتقنت العربية فيما بعد) .

بلغت الليدى آن إيزابيلا نويل التاسعة والعشرين ، وكان دخلها السنوى من ضيعتها ثلاثة آلاف جنيه إسترلينى ، دون أن ترتبط بأحد شباب طبقتها الاجتماعية ، حتى كان لقاؤها بالدبلوماسى الشاب (الذى تقاعد لتوه) ، الشاعر ، عاشق السفر والترحال ، ولفرد بلنت . كان اللقاء فى فلورنسا بإيطاليا عام ١٨٦٩، لفتت أنظاره باحتشامها وجاذبيتها وثرائها . وصفها بلنت بعد رحيلها بقوله : " كانت تعتبر نفسها امرأة عادية ، ليس فيها ما يجذب الرجال ، ولكنها كانت امرأة جميلة جمال الطائر ،

جمال البلبل ، مريحة الملامح ، وإن لم تكن ذات جاذبية طاغية ، لها ثغر بديع ، بشرتها أميل إلى اللون القمحى ، متوسطة الطول ، ممشوقة القوام". كانت ترتدى فستانًا سكرى اللون (بيج) تزينه على صدرها وردة حمراء عندما التقاها أول مرة ، وهو طراز شاع فى تلك الأيام ، يغلب عليها الوقار والذكاء .

إذن كانت الليدى آن مختلفة عمن تهافتن عليه من نساء الطبقة الأرستقراطية التى كانت له معهن صولات وجولات ، كما جذبه إليها كونها حفيدة الشاعر العظيم اللورد بايرون الذى كان بلنت من معجبيه . وقد تم الزواج فى لندن فى الثامن من يوليو ١٨٦٩ ، وفيما بين زواجهما حتى أنجبا جوديث فى فبراير ١٨٧٣ حملت آن وفقدت الجنين حوالى ثلاث مرات ، ووضعت مرة طفلة ماتت بعد ولادتها ، وأخيرًا وضعت توأمًا أنثى ماتت إحداهما بعد الولادة ، وقدر للأخرى أن تعيش لتصبح جوديث ابنتهما الوحيدة .

ورغم أن ولفرد أحب الطفلة فقد أحس بالتعاسة ، لأنه كان يريد أن ينجب ذكرًا ليرث الضيعة واللقب الذى ناله ولفرد بعد وفاة أخيه فى ربيع ١٨٧٢ فأصبح وريث كرابيت بارك فى ساسكس التى بلغت مساحتها ٤٠٠٠ إكر ، مع بيت كبير به ١٢ من الخدم ، ودخل سنوى بلغ ٢١ ألف جنيه إسترلينى . كانت آن الزوجة المخلصة التى تعيش فى ظل زوجها ، شريكته فى مغامراته وأسفاره ، تحب ما يحبه ، ولكن ذلك لم يمنعه من الدخول فى مغامرات غرامية ، ولكن مع نساء الطبقة الأرستقراطية كلما عاد من رحلاته إلى الشرق ، وكانت علاقاته تلك حديث الجميع ، ولكن آن ظلت صابرة ، لا تلقى بالاً لذلك ، حتى بلغ أمر حد إحضار إحدى عشيقاته لتقيم فى البيت بكرابيت بارك عام ١٩٠٦ ، ففضلت آن مغادرة إنجلترا والتوجه إلى مصر لتقيم فى العزبة التى تبلغ مساحتها ٤٢ فدانًا بالشيخ عبيد بالقرب من الزيتون التى كانت تقع على أطراف الصحراء . وكانت الشيخ عبيد مملوكة لإبراهيم باشا شقيق الخديوى وتضم بستانًا للفواكه (أشجار البرتقال والمشمش والليمون) وبها إسطبل للخيول العربية وبعض الإبل ، وتقوم على خدمتها مجموعة من البدو . وقد اشتراها الزوجان بلنت عام ١٨٨٢ .

استقرت آن بالشيخ عبيد بصفة دائمة من عام ١٩١٥ حتى وفاتها عام ١٩١٧ ، قيل إنها طوال إقامتها بمصر كانت لا تتحدث بغير اللغة العربية حتى وفاتها فى ١٥ ديسمبر ١٩١٧ حيث دفنت بناء على وصيتها فى قبر أقامته على طرف الصحراء بجوار الشيخ عبيد . ومات ولفرد بلنت فى ١٠ سبتمبر ١٩٢٢ ، وأوصى بأن يدفن دون صلاة جنائزية ملفوفًا بالسجادة العجمية التى رافقته فى رحلاته ، فى مكان يقع على مسافة قصيرة من ضيعته فى كرابيت بارك بمقاطعة ساسكس بإنجلترا .

وقد ذاعت شهرة آن بلنت فى بريطانيا كمربية للخيول العربية إذ حرصت وولفرد على اقتناء خيول من السلالات العربية الأصيلة ، التى تم تربيتها وتكاثرها فى ضيعة كرابيت بارك ، وتصدير بعضها إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا ، وعندما آلت المزرعة إلى ابنتهما جوديث قامت بتهجين الخيول العربية بالخيول البولندية وأنتجت سلالة جديدة اشتهرت فى أوروبا وأستراليا وأمريكا .

أما ولفرد بلنت فقد اشتهر بأفكاره السياسية التى بدت غريبة على العصر الفكتورى ، عصر الإمبراطورية البريطانية ، فقد عارض بشدة الطريقة الاستبدادية التى كانت تدار بها المستعمرات ، وطالب بأن تترك الشعوب تحكم نفسها بنفسها ، وكان يرى أن الحكم الذاتى ضرورى للبلاد الإسلامية ، متأثرًا فى ذلك بصداقته للسيد جمال الدين الأفغانى ، كما عرف بتأييده للحركة الوطنية المصرية ، ورعايته لقضية أحمد عرابى ورجاله ، ومعارضته الشديدة لسياسة اللورد كرومر فى مصر وتنديده بحادثة دنشواى ونشر كتابه الشهير عن " التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر " و " فظائع العدالة البريطانية فى مصر " ويومياته ، كما نشرت يوميات الليدى آن بلنت فى سبعينيات القرن الماضى .

رءوف عباس حامد

إهداء

أهدى هذين المجلدين إلى :

السير : هنرى كريزويك راولنسون

من المؤلفة

مقدمة المترجم

آل بلنت : الإنسانية والأعمال

الدكتورصبرى محمد حسن

إذا كان المجلس الأعلى للثقافة قد ابتدأ ترجمة باقة جميلة من كتب الرحلات والمصادر الكلاسيكية النادرة إلى العربية ، واستهل الجانب الإنجليزى من تلك الباقة برحلة بالجريف " وسط الجزيرة العربية وشرقها " التى نشرت فى العام ١٨٦٢ ، ومن بعدها رحلة دوتى فى العام ١٨٧٦ ، التى صدرت تحت اسم " ترحال فى صحراء الجزيرة العربية " ، ثم بعد ذلك رحلة هيرجورنجى فى العام ١٨٨٥ ، ثم رحلة فيلبى " قلب الجزيرة العربية " فى العام ١٩١٧ ، إذا كانت هذه الأعمال الرائعة قد صدرت ضمن مطبوعات المجلس ، فإن هناك رحلة أخرى سبقت رحلة هيرجورنجى ، وقامت بها صاحبتها فى العام ١٨٨١ ، وصدرت تحت اسم " حج إلى نجد " . صاحبة هذه الرحلة هى السيدة / آن Anne بلنت Blunt . فمن هى آن بلنت هذه ؟ وما قيمة هذه الرحلة التى قامت بها أنثى ؟

اسمها بالكامل : آن Anne إيزابلا Isabella نويل Noel بلنت Blunt، التى ذاع صيتها تحت اسم آنابلا Annabella. آن بلنت هى بارونة ونتورث Wentworth؛ ولدت هذه السيدة فى اليوم الثانى والعشرين من شهر سبتمبر من العام ١٨٣٧ وتوفيت فى شهر ديسمبر من العام ١٩١٧ الميلادى . ويعنى هذا أن هذه السيدة توفيت عن عمر يناهز الثمانين عامًا . ذاع صيت هذه السيدة من ناحية أخرى تحت اسم حرم السيد بلنت . بلنت هذا هو ولفريد Wilfrid سكاون Scawen بلنت Blunt : الشاعر والكاتب

الإنجليزى . ولد هذا الرجل فى اليوم السابع عشر من شهر أغسطس من العام ١٨٤٠ الميلادى ، وتوفى فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر من العام ١٩٢٢ ؛ أى أنه بلغ من العمر اثنين وثمانين عاماً ؛ هذا يعنى أيضاً أنه توفى بعد زوجته آن بعامين .

تزوجت آن Anne من ولفريد بلنت ، الذى عمل فى السلك الدبلوماسى من العام ١٨٥٨ إلى العام ١٨٦٩ ؛ وبعد أحد عشر عاماً من الخدمة فى السلك الدبلوماسى راح الرجل وزوجته يترحلان على نطاق واسع فى الجزيرة العربية وفى الشرق الأوسط وفى الهند . كان بلنت معارضاً للإمبريالية البريطانية ، مما جعله بطلاً من أبطال القضية الأيرلندية ، الأمر الذى أودى به إلى السجن فى العام ١٨٨٨ الميلادى .

أسست آن Anne مع زوجها مزرعة كرابيت Crabbet لتربية واستيلاد الخيول . وبعد أن تزوجا فى اليوم الثامن من شهر يونيه فى العام ١٨٦٩ ، شرعا فى أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر ، أو بالأحرى فى العام ١٨٧٠ الميلادى ، فى التجوال على نطاق واسع فى الجزيرة العربية ، والشرق الأوسط طلباً لشراء الخيول العربية من البدو ، ومن على باشا شريف فى مصر . نقلت آن بلنت هى وزوجها جياداً أصيلة إلى بريطانيا منها الجواد المسمى الأزرق ، ودجانيا ، والفرس ملكة سبأ ، والحصان رودانيا ، كما نقلا إلى إنجلترا أيضاً حصان على باشا شريف المسمى مسعود Mesaoud . وإلى يومنا هذا فإن السواد الأعظم من الخيول الأصيلة يرجع نسبها إلى واحد من الأفراس أو الخيول العربية سالفة الذكر .

آن بلنت : الحياة والأعمال

آن : هى ابنة وليام William كنج King، ياور لفليس Lovelace الأول ، والسيدة آدا Ada، سيدة لفليس . جداها من ناحية الأم هما جورج George غوردون Gordon بايرون Byron، بارون بايرون السادس ، والسيدة آنابلا Annabella بايرون ، بارونة ونتورث Wentworth الحادية عشرة .

كانت آن بلنت تجيد اللغة الفرنسية بطلاقة ، كما كانت تجيد أيضًا اللغات : الألمانية والإيطالية والإسبانية، فضلاً عن إجادتها للغة العربية ، إضافة إلى أنها كانت عازفة كمان ممتازة ، كما درست الرسم أيضًا على أيدى جون John رسكن Ruskin . وعلى الرغم من أن الكتابين : قبائل نهر الفرات ، وحج إلى نجد ينسبان إليها ، فإن زوجها ولفريد بلنت قد أعاد صياغتهما . صوت هذه الكاتبة المبدعة يتعالى بشكل واضح تمامًا فى كتابها المعنون : السيدة آن بلنت : يوميات ومراسلات . هذا الكتاب أعدته روزمارى Rosemary آرشر Archer وجيمس James فلمنج Fleming، وجرى نشره فى العام ١٩٨٦ الميلادى . كما ألفت روزمارى آرشر هى وكولين Colin بيرسون Pearson وسيسل Cecil كوفى Covey كتابًا مميزًا بعنوان : مزرعة كرابيت لتربية واستيلاد الخيول العربية : تاريخها وتأثيراتها .

لم يكن زواج آن بلنت فى العام ١٨٦٩ الميلادى زواجًا سعيدًا . فقد أسفر إجهاضها المستمر عن طفلة واحدة بقيت على قيد الحياة . هذه الطفلة هى جوديث Ju-dith آن Anne دوروثيا Dorothea بلنت – ليتون Blunt-Lyton . بارونة ونتورث Wentworth السادسة عشرة . لم تمكن آن Anne الحزن مطلقًا من تملكها جراء الإجهاض الذى كان يصيبها ، والأطفال الذين كانوا يموتون بعد الولادة مباشرة . وعلى الرغم من أن ولفريد بلنت كان متيمًا بابنته جوديث Judith، فقد كان يفضل أن يكون المولود ذكرًا . ولفريد بلنت هذا ، كانت له عشيقات متعددات ، حتى عندما كان يعيش مع زوجته . وفى العام ١٩٠٦ وعندما بدأت دورثى Dorothy كارلتون التردد بصفة منتظمة على منزل ولفريد ، انفصلت عنه آن Anne . وفى صيف العام ١٩٠٦ جرى تقسيم مزرعة تربية واستيلاد الخيول العربية إلى قسمين . احتفظت السيدة آن بنصيبها من المزرعة فى إنجلترا ، لكنها كانت تمضى أشهرًا عدة كل عام فى حديقة الشيخ عبيد بالقرب من القاهرة ، التى تبلغ مساحتها ٣٢ فدانًا . هذه الحديقة عبارة عن بستان مزروع بأشجار المشمش ، سبق أن اشتراه ولفريد بلنت هو وزوجته فى العام ١٨٨٢ . وغادرت السيدة آن بلنت إنجلترا بصفة نهائية فى شهر أكتوبر من العام ١٩١٥ ، لتمضى البقية الباقية من حياتها فى حديقة الشيخ عبيد .

الميراث

تنازع ولفريد بلنت وابنته جوديث ، عقب وفاة أمها فى العام ١٩١٧ ملكية خيول المزرعة. وأحيلت القضية إلى القضاء ، الذى أصدر حكمًا لصالح جوديث فى العام ١٩٢٠ الميلادى . وتوفى ولفريد فى العام ١٩٢٢ . وأصبحت المزرعة بكاملها خاضعة لإدارة جوديث . يدور جدل كبير حول القرار الذى اتخذته جوديث ، ويقضى بالاستفادة من الحصان سكورونيك Skowronek البولندى ، ومع ذلك بقيت مزرعة كرابيت لتربية واستيلاد الخيول طوال خمسين عامًا أو بالأحرى إلى العام ١٩٧١ ، عندما جرى تنصيف المزرعة بفعل طريق جديد تقرر أن يمر عبر المزرعة . وهنا قامت جوديث ببيع هذه الخيول فى سائر أنحاء العالم ، بما فى ذلك الولايات المتحدة ، وأستراليا ، وروسيا ، الحصان الماره Al-Marah فى أمريكا ، وكذلك الحصان فنويك Fenwick فى أستراليا ، يرجع أصلهما إلى الخيول التى باعتها جوديث . فى السبعينيات تدهور حال سلالات مزرعة كرابيت ، وتحول كثير من المربين العرب إلى الخيول المصرية ، والخيول البولندية ، والروسية والإسبانية . مع ذلك ، نجد أن أكثر من ٩٠ ٪ من الخيول العربية المسجلة فى الولايات المتحدة على سبيل المثال ، ترجع سلالاتها إلى خيول مزرعة كرابيت لتربية واستيلاد الخيول .

حج إلى نجد

يقع الكتاب فى جزأين : الجزء الأول يشتمل على أحد عشر فصلاً تقع فى مائتين وثلاث وسبعين صفحة ، أما الجزء الثانى فيضم أحد عشر فصلاً ، منها خمسة فصول تعد تكملة للجزء الأول وسبعة فصول مخصصة للرحلة التى قامت بها آن بلنت إلى بلاد فارس . هذا بخلاف الملاحق والجزء الثانى من الكتاب يقع فى مائتين وثلاث وثمانين صفحة .

ترى ، لماذا اختارت آن بلنت هذا العنوان " حج إلى نجد " ؟ هل اختارت العنوان ، لأن نجد فى خيال بدو شمال الجزيرة العربية ، هى منطقة الخيال والحكايات والبطولات ؟ أم لأنها هى مهد العرق البدوى ، ومهد أفكار الفروسية التى مازالوا يعيشون عليها إلى يومنا هذا ؟ من ناحية البطولات نجد أن عنترة بن شداد قام بأعماله وبطولاته الشبيهة ببطولات هرقل فى نجد . ونجد فى نجد أيضًا حاتم الطائى أكرم الأكرمين إلى ضيوفه .

هل اختارت آن بلنت العنوان لأن العنزة والشمر ، أهل الشمال ، يرجعون موطنهم الأصلى إلى نجد قبل هجرتهم إلى الشمال ؟ وهل صحيح أن هذه الرحلة جمعت بين عريس من تدمر ، كان يبحث عن عروس من أبناء جلدته وعثر عليها فى الحريق ، تلك الواحة التى تقع على حافة الصحراء الجنوبية ؟ وما دور نقاء العرق والأصل فى عملية الزواج عند البدو ؟

هل استطاعت آن بلنت أن تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن " وصف بالجريف لخصائص النفود الطبيعية هى وجبل الشمر ، وهو الوصف الوحيد الذى نشر لهذين المكانين " لا يمت إلى الواقع بصله ؟ وهل وجود البارومتر هو والمعدات الأخرى مكَّن آن بلنت هى وزوجها من إثبات أن ارتفاع هضبة حائل عن سطح البحر يصل إلى ضعف الارتفاع الذى سبق أن تحدد لتلك الهضبة عن سطح البحر ؟

هل صحيح أن آن بلنت فى هذه الرحلة قامت مع زوجها ولفريد بلنت بتقديم المنظومة السياسية ، التى أطلقا عليها حكم الرعاة ، وأن هذه المنظومة هى أقدم منظومات الحكم فى الجزيرة العربية ؟ وهل صحيح أيضًا أن هذه المنظومة تعد أفضل المنظومات التى تلبى احتياجات هذه البلاد ؟

الرحلة تتناول أيضًا سقوط ابن سعود ، والمعلومات التى قدمها العقيد روس **Ross**، الذى كان ممثلاً مقيمًا لبريطانيا ، فى بوشهر فى ذلك الوقت ، كما يعرض الكتاب أيضًا لتحلل المذهب الوهابى فى الجزيرة العربية ، ويتجلى ذلك

فى الجزء الثانى من الكتاب . ولم يغب عن بال آن بلنت تناول النتائج البالغة التى أسفر عنها الحكم الإقطاعى المستبد فى بلاد فارس . وهنا يجب التنويه إلى أن هذه المعطيات كلها كانت توضع أمام صانع القرار البريطانى يوم أن كانت بريطانيا فى أوج عظمتها .

ومن باب الخوف على الأموال والاستثمارات البريطانية فى الخارج ، حاولت آن بلنت من خلال هذه الرحلة ، إثبات " حماقة وغباء المشاريع التى راحت تتردد بين الحين والآخر ، على مسامع المتأملين تحت مسميات [وادى الفرات] وشركات السكك الحديدية [الهندية – المتوسطية]".

إذا كان بالجريف كتب عن النساء العربيات ، على شكل نتف صغيرة وردت فى كتابه ، وبخاصة القطريات منهن ، فإن دوتى من بعده ، أورد هو الآخر إشارات طفيفة هنا وهناك فى ثنايا كتابه المعنون " ترحال فى صحراء الجزيرة العربية " . فيلبى فى كتابه المعنون " قلب الجزيرة العربية " فعل الشيء نفسه ، لكنه ركز على نتف صغيرة أوردها عن ساكنات القصور ، بركخاردت استفاض فى هذا الموضوع ، وهيرجورنجى تكلم عن نساء مكة ، كل هؤلاء الرجال تكلموا من منظور الرجال ، ولكن آن بلنت ، بحكم كونها أنثى ، وُجدت فى هذا المجتمع المغلق وانفتح لها باب الاتصال بحريم البدو والحضر على حد سواء ، من هنا جاءت كتابتها فى هذا الاتجاه فريدة ودقيقة .

يزيد على ذلك أن آن بلنت كانت تجيد الموسيقى وصاحبه ذوق رفيع ، ومن باب حبها للفن ، والفن التشكيلى بالذات تعلمت آن بلنت الرسم على يدى الفنان جون رسكن **Ruskin**، وأسفر ذلك التعليم عن أربع عشرة لوحة رسمتها هى بريشتها لتزيد بها الجزء الأول جمالاً على جماله وأشهر هذه اللوحات لوحة رسمتها لعاصفة رملية فى وادى الراجل ، ولوحة أخرى لواحة الجوف ، ولوحة لحفل الاستقبال الذى أقامه ابن الرشيد ، حاكم (أمير) حائل لها هى وزوجها . يضاف إلى ذلك لوحة بريشة الفنانة مولونى ، للسيدة آن بلنت وضعت فى صدر الجزء الأول .

الجزء الثانى من الكتاب تتصدره صورة رسمتها الفنانة مولونى للسيد ولفريد سكاون بلنت ، فى حين أضافت آن بلنت إلى ذلك الجزء ثلاث عشرة لوحة : من بينها لوحة لأفراس ابن الرشيد ، وأخرى لموكب الحج وهو يغادر حائل ، ولوحة لتأثيرات السراب فى جبل الشمر ، ولوحة جميلة لقلعة عقدة ، كما أضافت لوحة أخرى تشتمل على النقوش والرسوم الصخرية فى جبل الشمر .

الرحلة إلى بلاد فارس تضم ستة فصول أولها يتناول مغادرة آن بلنت هى وزوجها وقافلتها بغداد إلى بلاد فارس وثانى هذه الفصول يتعلق بسقوط القافلة فى أيدى مجموعة من اللصوص ، ومخاوف الليل أثناء الترحال واللجوء إلى طلب الحماية من أمير فارسى . والفصل الثالث تتجلى فيه قدرة آن بلنت على الوصف الدقيق الأخاذ للأكراد وقبائلهم وطباعهم ، وفى الفصل الرابع تورد آن بلنت المزيد عن الحياة فى الريف الفارسى فى ذلك الوقت : حلوه ومره . والرحلة عامرة بالكثير والكثير الذى يرسم صورة محددة للتداخل القبلى على الحدود : بين قبائل نجدية الأصل موجودة على أرض بلاد فارس ، وقبائل كردية موجودة أيضًا على الأرض نفسها . ولعل هذا الوصف يفسر كثيرًا من الصراعات السياسية الدائرة حاليًا وجذور هذه الصراعات .

حج إلى نجد : رحلة كتبتها مؤلفتها ، بلغة شاعرية ، وهنا يجب ألا يغيب عنا أن آن بلنت هى حفيدة اللورد بايرون ، أمير الشعراء الرومانسيين فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر . من هنا نجد أن الرحلة فيها الكثير والكثير ، ويستطيع المتخصص وغير المتخصص أن يجد فيها بغيته ، فضلاً عن كونها مصدرًا من المصادر الكلاسيكية القيمة .

تصدير : بقلم المحرر

هؤلاء الذين قرءوا الكتاب الذى أصدرناه عن مغامراتنا فى العام الماضى ليسوا بحاجة إلى أن نشرح لهم الأسباب التى حدت بنا إلى القيام بهذه الرحلة ، أو الأسباب التى جعلتنا نختار لفظة " الحج " عنوانًا لهذا الكتاب . هذه الرحلة التى قمنا بها إلى نجد هى فى واقع الأمر تكملة لتلك الرحلة التى قمنا بها إلى بلاد الرافدين ، وإلى بادية الشام ، فى حين أن نجد ذاتها ، هى والاهتمام الرومانسى الذى يرتبط بالاسم نفسه يعد شيئًا جديرًا بالاهتمام الدينى ، الذى إن تولد لدى صاحبه فإنه يجعله يعجل بزيارة ضريح من الأضرحة . نجد فى خيال بدو الشمال ، وهى منطقة الخيال والحكايات والبطولات ، ومهد العرق البدوى ، ومهد أفكار الفروسية التى مازالوا يعيشون عليها إلى يومنا هذا – فى نجد قام عنترة بن شداد بأعماله وبطولاته الشبيهة ببطولات هرقل ، وفيها حاتم الطائى أكرم الأكرمين إلى ضيوفه . وإلى يومنا هذا ما يزال عشائر عنزة وشمر ، أهل الشمال بصفة خاصة يرجعون موطنهم الأصلى إلى نجد ، قبل هجرتهم إلى الشمال ، منذ أجيال قليلة ؛ نجد ما تزال تمثل نوعًا من السحر والجاذبية عند عرب الفتوح الأولى ، وعند الحضر فى كثير من المدن مثل البصرة ، وتدمر ، والدير ، كما تشد أيضًا بدو طيء ، الذين كانوا سادة على جبل شمر فى يوم من الأيام ، نجد لها جاذبية وسحرًا يفوق الجاذبية والسحر اللذين للحجاز نفسه . نجد عند كل هؤلاء فى منزلة فلسطين عند اليهود . وإنجلترا عند المستوطنين الأمريكيين والمستوطنين الأستراليين ؛ لكن هناك فارق مهم هو أن هؤلاء المستوطنين محرومون من توقيرهم البَنَوِيّ من الناحية العملية عنها بذلك الخليج الصحراوى الأقل كرمًا وسخاء عن البحار . من هنا يندر أن تجد من بين أهل الشمال أحدًا استطاع عبور صحراء النفود الكبرى .

وبالنسبة لنا، وما كنا عليه من أنهار بالصحراء ، كانت تكتسب منذ زمن طويل الطابع الرومانسى للأرض المقدسة ؛ وعندما قررنا زيارة جبل شمر ، مركز الحياة البدوية ، بدت رحلتنا لنا كأنها عمل دينى ؛ إلى حد أننا ، وأنا لست مبالغًا فى هذا ، وبعد أن انتهت رحلتنا ، وعدنا مرة ثانية إلى أوربا من جديد ، مازلنا نتحدث عنها وكأنها حج بحق . هى حج فعلاً بالنسبة لنا ، على الرغم من أن الرومانسية كانت ديننا فى هذه الرحلة.

ظروف هذه الرحلة – على الرغم من بعض الإحباطات التى سوف تكشف الرحلة عن حقيقتها – كانت أقل رومانسية وإثارة من الفكرة ذاتها . لعل قراءنا الذين تابعوا أسفارنا السابقة إلى منتهاها يتذكرون تلك الشخصية التى اسمها محمد عبد الله . محمد عبد الله هذا ، هو أحد أبناء شيخ تدمر ، شاب ، رافقنا ، بناء على أوامر من الباشا ، فى سفرنا من بلدة الدير Dyr إلى بلدته ، أو إن شئت فقل : موطنه ، هذا الرجل ساعدنا ، مخاطراً بإغضاب السلطات ، فى تجنب السلطات التركية ، وعاوننا فى القيام بالزيارة التى قمنا بها إلى عنزة Anazeh . يجب ألا يغيب عن ذهن القراء أيضًا ، أننا فى مقابل هذه الخدمة ، ونظراً لحبنا الشديد لمحمد عبد الله (إذ اتضح لنا أنه شخص واسع الأفق) ، طلبنا منه أن يختار بين مبلغ من المال ، وبين أن يحظى بشرف أُخوَّة البك ؛ وقد نجح الرجل فى اختياره بأن فضل " الأخوة " على المال . وهنا قطعنا معه وعداً ، مفاده أننا إذا ما سار معنا كل شىء على ما يرام ، فسوف نعود إلى دمشق فى الشتاء التالى ، ونسافر بصحبته إلى نجد ، التى يعتقد أن له فيها أقارب ، وأن نساعده هناك على الزواج من واحدة من بنات عشيرته .

وكانت الفكرة والوعد ، هما فى نطاق الأفكار البدوية ، وقد انشرح صدر محمد هو ووالده لهذه الفكرة وهذا الوعد ، بعد أن أبلغناهما بذلك فى الوقت المناسب . عادات الزواج العربية لم تتغير كثيراً عما كانت عليه فى أيام (سيدنا) إبراهيم ؛ وكان من الطبيعى للأب وللابن أن يرغبا فى تزويج ابنهما من قريبة لهما ومن دمهما ؛ وأنه يتعين عليه الذهاب إلى أبعد الحدود من أجل الحصول على زوجة بهذه المواصفات .

يزاد على ذلك ، أن المساعدة التى عرضنا تقديمها ، (إذ كان من الصعب عليه الذهاب وحيداً إلى نجد) كانت تليق بعلاقتنا الجديدة . المساعدة فى اختيار الزوجة عند البدو ، ترقى إلى مستوى من يقدم فرساً على سبيل الهدية ، أو من يقدم مساعدة شخصية أثناء الحرب ، لأن هذين العملين الأخويين يسبغان الشرف على من يقدمان لهما . كان لدى محمد أيضاً سبب خاص بالظروف التاريخية لعائلته ، وهذا السبب نفسه يضاعف من الترحيب بهذا العرض . فقد وجد محمد عبد الله نفسه فى وضع محرج فى محل إقامته ، وبخاصة فيما يتعلق بمسألة الزواج ، الأمر الذى اضطره إلى البحث عن زوجة من مكان آخر . وتاريخ أبناء العروق **Aruks** التدمريين ، وهى الأسرة التى ينتمى إليها محمد عبد الله ، هو تاريخ عجيب وأصيل فى الجزيرة العربية ، وهو الذى يفسر قصة هذا الزواج ، الأمر الذى يجعلنا هنا نعرج على هذا التاريخ فى شىء من الإيجاز .

يبدو أنه قبل سبعة أو ثمانية أجيال مضت (أى فى حوالى تأسيس الإمبراطورية الوهابية) اختلف ثلاثة أشقاء من أسرة العروق **Aruks** العريقة ، أو بالأحرى ثلاثة من شيوخ بنى خالد فى جنوب شرقى نجد ، اختلفوا مع أهليهم على نحو اضطرهم إلى ترك القبيلة . كان أبناء العروق فى ذلك الزمان يُكَوِّنون أسرة ذائعة الصيت والشهرة ، وأصحاب سلطة وسلطان على مدن وبلدان مثل الإحساء والقطيف ، بل إنهم كانوا أصحاب سلطة وسيادة مستقلة فى المناطق التى كانوا يعيشون فيها . كانت تلك المنطقة التى يعيش فيها هؤلاء الناس تقع فيما بين الخليج الفارسى وبلدة الحريق ، تلك الواحة التى تقع على حافة الصحراء الجنوبية الشاسعة ، وقد احتفظ هؤلاء الناس بهذه السلطة وذلك السلطان ، إلى أن تم إخمادهم هم وبقية شيوخهم بأيدى محمد بن سعود ، إلى أن أصبحوا يشكلون كياناً هامشياً . ومحمد بن سعود هذا هو أول سلطان وهابى على نجد(*) .

(*) هذا هو تاريخ أسرة ابن العروق كما تناقلته الأخبار. وقد كتب نيبور فى العام ١٧٦٥ الميلادى وأطلق الاسم عريعر على شيوخ بنى خالد.

مع بداية القرن الماضى تحررت الجزيرة العربية كلها واستقلت عن السلطة المركزية ، وتحولت كل قبيلة ، بل وكل بلدة إلى حد ما ، وأصبح لكل منها وجود مستقل ، أو إن شئت فقل : ولاية مستقلة . مما يعنى أن الدين بشكله البدوى البدائى ، كان قد اختفى من المناطق الداخلية ، ولم يبق مسلمًا من الناحية الاسمية فقط سوى الحجاز واليمن . كان العنصر البدوى هو السائد فى ذلك الزمان . يعنى هذا أن كل قرية بل وكل بلدة كانت تعد ملكًا لشيخ من الشيوخ القريبين منها ؛ وكانت تلك القرى والمدن تدفع إتاوة لهؤلاء الشيوخ نظير حمايتهم لها . كان الشيخ فى كثير من الأحيان يبنى أو ينشئ لنفسه منزلاً أو قلعة داخل جدران المدينة أو القرية ، لتكون مقرًا صيفيًا له ، علاوة على خيمته الموجودة خارج هذه القرية أو البلدة . فى مثل هذه الأحوال كان الشيخ يتحول إلى ما هو أكبر من صاحب السلطة ، بأن راحت سلطته هذه تمتد إلى أهل القرية أو البلدة ، وإقامة العدل عند بوابة القرية أو البلدة صباح كل يوم ، كما راح يتحكم فى الشباب أيضًا ويجعل منهم حرسًا خاصًا لنفسه ، وبخاصة فى زمن فرض الضرائب . وحصل هذا الشيخ بعد ذلك على لقب أمير **Emir** . وربما كانت تلك الطريقة الوحيدة التى حصل بها " ملوك " مصر " الرعاة " على مناصبهم وسلطاتهم ؛ ويمكن الوقوف على كثير من مميزات هذا النظام فى سائر أنحاء الجزيرة العربية .

على كل حال ، قام ابن عبد الوهاب ، مارتن لوثر الإسلام ، فى منتصف القرن الثامن عشر بحركته الإصلاحية الدينية فى نجد **Nejd**، وأدخل ابن سعود فى هذه الحركة ؛ إذ كان ابن سعود في ذلك الوقت فى الدرعية . وبفضل عون ابن عبد الوهاب تحول ابن سعود من مجرد شيخ لقبيلة ، ومدينة واحدة مستقلة ، إلى سلطان على الجزيرة العربية كلها وراع يخضع منافسيه من الشيوخ الواحد بعد الآخر . ووصل به الأمر فى نهاية المطاف إلى القضاء على منظومة الإتاوة والحماية ، التى كانت أساسًا لسلطته ، وبعد أن أنشأ جيشًا نظاميًا من أهل الحضر ، جعل تلك المدن مستقلة عن الحكم البدوى . وبذلك أصبحت الجزيرة ، ولأول مرة ، موحدة بعد وفاة محمد ، أصبحت دولة واحدة لها حكومة مركزية دائمة . لابد أن يكون ذلك قد حدث فى العام

١٧٦٠ عندما استاء أبناء العروق الثلاثة من الأحوال الجديدة التى طرأت على نجد ، الأمر الذى أضطرهم إلى التفرق بحثًا عن حظوظهم فى أماكن أخرى . واستناداً إلى تاريخ الأسرة المتمثل فى قصيدة شعبية ما تزال ذائعة بين الناس فى الجزيرة العربية ، نجد أن كل واحد من أبناء العروق الثلاثة كان راكبًا على جمل ، ولم يكن مع أى منهم سوى سيفه ، ونسبه الذى يكسبه مصداقية بين الأغراب والأجانب . ترحل أبناء العروق فى بداية الأمر فى اتجاه الشمال ووقفوا أول ما وقفوا فى بلدة الجوف ؛ أقصى الواحات الشمالية فى الجزء الأوسط من الجزيرة العربية ، وبقى فيها واحد من هؤلاء الرجال الثلاثة . الأخوان الآخران تشاجرا فيما بينهما وافترقا ؛ لم يذكر التاريخ المتوارث ، أو بالأحرى القصيدة الشعبية ، المكان الذى قصده الأخ الأصغر من بين هذين الأخوين ، فى حين واصل الأخ الأكبر مسيره فى اتجاه الشمال ليستقر فى تدمر فى نهاية المطاف ، وتزوج الرجل بواحدة من نساء هذا المكان ، وأصبح شيخًا على ذلك المكان فيما بعد . فى ذلك الزمان لم تكن تدمر تتكون إلا من بضعة منازل قلائل . كان اسم ذلك الرجل على ؛ وانحدر عن هذا الرجل كل من محمد ووالده عبد الله ، وعمه فارس ، العميد الحقيقى للعائلة فى تدمر .

كان لدى محمد عبد الله ، مبرر منطقى ، بحكم نسبه الأبوى ، يجعله يتفاخر بأصله ومولده ، وينظر إلى الأعلى عندما يعقد العزم على " الارتباط " عن طريق " الزواج " ؛ لكن نسبه من ناحية الأم لم يكن عريقًا ؛ ولما كان نقاء العرق والأصل من الجانبين أمراً ضرورياً بين العرب ، فإن أهل تدمر ظلوا طوال أجيال عدة لا يعترفون بأصالة أو نبل نسب محمد عبد الله هذا . هذا يعنى أن أولاد العروق هؤلاء كانوا قد تزوجوا من بين أهل الحضر الذين ليس لهم أصل على الإطلاق ، أو مثلما فعل والد محمد ، بين أهل الموالى ، تلك القبيلة مختلطة الأصول . وكانت قبيلة عنزة لايزوجون بناتهم لمن لا ينتسب إليها ، لا يزوجون بناتهم للعروق . كان ذلك هو السبب الخفى وراء حزن محمد عبد الله ، ووراء حزن والده من قبله ، وكان لابد من إزالة هذه الوصمة النسبية . الأمر الذى جعل الابن يوافق على اقتراحنا عن طيب خاطر ويقبله على الفور .

كانت خطة رحلتنا غامضة بطبيعة الحال ، بسبب انطواء هذه الرحلة على البحث عن عائلتين بينهما قرابة ، ولم يسمع عنهما أحد منذ حوالى مائة عام . كانت آخر علامة أو مؤشر من المؤشرات الدالة على بقاء ابن العروق فى الجوف على قيد الحياة قد ظهرت عندما قتل والده عبد الله ، ظهر خلاله عضو من عائلة الجوف ، وجاء إلى تدمر ليثأر لقريبه . هذا القريب لم يبق فى تدمر أكثر من الوقت الذى استغرقته عملية الثأر ، إذ اختفى الرجل مباشرة عقب قتله الغريم . لم يكن أحد يعرف أى شىء عن الأسرة الثانية ؛ واقع الأمر أن نجد فى ذلك الوقت لم تكن شيئًا مذكورًا عند أبناء العروق ، ولم يكن سكان تدمر يعرفون عن نجد شيئًا سوى الاسم فقط ، الذى يدل على بلاد قديمه ورد ذكرها فى قصيدة النسب ، لكنها لم يزرها أى أحد من الأحياء الذين تربطهم صلة بتلك البلاد .

هذه الاعتبارات الفريدة ، مثلما قلت ، كانت الفكرة الرئيسية وراء رحلتنا ، وآمل أن تولد هذه الفكرة اهتمامًا غير اهتمامنا بمغامراتنا الشخصية فى هذين المجلدين . كان محمد هو والعرب الذين رافقونا فى أسفارنا ، وكذلك العرب الذين التقيناهم أثناء الرحلة ، يجعلون من تاريخ أسرة محمد حكاية مستمرة ، وكانوا يرددون ويقتطفون عن قصيدة ابن عروق فى كل مناسبة وحين ، كانوا يرددون تلك القصيدة بمناسبة وغير مناسبة ، وكأنهم جوقة تردد لازمة من اللوازم . وبغير ذلك ربما استحال القيام بالرحلة ؛ وفى أكثر من مناسبة ، كنا نجد أنفسنا نمضى مضيًا سهلاً بفعل هذه القصيدة التى مكنتنا من التغلب على بعض الصعوبات التى لو واجهتنا فى ظل الظروف المعتادة قد توقف تقدمنا وتعترض طريقنا . لكن حظنا الأوفر ، فى ظل ما ستكشف عنه الأحداث ، هو الذى جعلنا نهتدى إلى فرعى هذه العائلة التى شرعنا فى البحث عنها ؛ كان الفرع الأول يتمثل فى مواطنى واحة الجوف ، أما الفرع الثانى فيمثل البدو الذين فى نجد ، ووجدنا أننا كلما زاد توغلنا ازددنا علمًا بأخبار العروق من ناحية ، وازداد أيضًا تدفق الأقارب علينا من كل حدب وصوب ، وكان الجميع يتسابقون فى إكرامنا وتقديم يد العون لنا .

وهكذا جرى تمريرنا من قريب إلى قريب ، حيث كان يجرى استقبالنا استقبال الأصدقاء للأصدقاء فى كل مكان ؛ ولن أبالغ إن قلت : أننا أثناء مقامنا فى الجزيرة العربية كنا نحظى بميزة فريدة تتمثل فى قبولنا كما لو كنا أعضاء من أسرة من أسر الجزيرة العربية . وقد أعطت لنا هذه الميزة الفريدة فرصة مشاهدة وتفهم كل ما رأيناه ؛ ولن نلوم إلا أنفسنا إذا ما فشلنا فى تحويل تلك الميزة إلى مكاسب شديدة الأهمية .

يجدر بنا . هنا التوقف عن الحديث عن الحكايات والمغامرات ، وبذلك يمكن أن نوجز ما أسفرت عنه أسفارنا فيما يلى :

أولاً الجغرافيا : على الرغم من أننا لم نكن أول الأوربيين الذين زاروا جبل الشمر ، فقد كنا أول من قام بهذه الزيارة فى العلن ، وكما يحلو لنا ، إذ كانت معنا بوصلة وجهاز بارومتر(*) ، وكنا أحرارًا فى تدوين الملاحظات عن كل ما رأيناه . الثلاثة الذين سبقونا : والين Wallin، وجوارمانى ، وبالجريف ، كلهم ترحلوا وهم متنكرون . وأشهر رحلاتهم هى الرحلة التى قام بها بالجريف . هذا البالجريف مبشر يسوعى Jesuite، مستعرب قدير ، وكان الرجل قد عهد إليه نابليون الثالث القيام بمهمة سرية ؛ ونفذ بالجريف المهمة بإذن وتصريح من رؤسائه وأسياده . دخل بالجريف نجد ، متنكرًا فى زى تاجر سورى ، من بلدة معان . ومر خلال حائل فى العام ١٨٦٤ الميلادى ليصل بعد ذلك إلى الرياض ، عاصمة الدولة الوهابية ، ثم يصل فى نهاية المطاف إلى الخليج الفارسى ، أو بالأحرى بلدة القطيف . الرواية التى أوردها بالجريف عن وسط الجزيرة العربية هى الأكمل ، وهى الأكثر نبضًا بالحياة دونًا عن سائر الرحلات المنشورة كلها ، بل ويمكن الاعتماد على هذه الرواية فى كل ما يتعلق بأمور الحضر وسلوكياتهم . لكن ملكة الملاحظة عند بالجريف تبدو كأنها جُبِلَت على

(*) البارومتر : جهاز لقياس الضغط الجوى (المترجم).

دراسـة المجتـمع ، يزاد على ذلك أن الطبـيعـة التى يتناولهـا بالجـريف بالوصف هى الطبيعة الإنسانية فقط . وبلغ الرجل من عدم التعاطف مع الصحراء حداً جعله لا يدون ملاحظات دقيقة عن تلك الصحراء ، ولا عن ظروف رحلته التى حالت بينه وبين ملاحظة تلك الصحراء بعين الجغرافى . كانت رحلة بالجريف فى فصل الصيف القائظ ، ولذلك كان السواد الأعظم من ترحاله يجرى أثناء الليل ، يزاد على ذلك أن الرجل بحكم تنقله متنكراً لم يكن حراً فى مراجعة ذلك الذى رآه عندما كان يخلد إلى نفسه . بالإضافة إلى أن وصف بالجريف لخصائص النفود الطبيعية ، هى وجبل شمر ، وهو الوصف الوحيد الذى نشر لهذين المكانين ، لا يمت إلى الواقع بصلة ؛ وبالتالى فإن ملاحظاتنا التى دوناها بهدوء ، خلال الجو الصحو فى شتاء الجزيرة العربية ، تعد الأولى من نوعها فى أوروبا . استمرارنا فى تدوين تباينات الضغط طوال ترحالنا ، هو الذى مكننا من إثبات أن ارتفاع هضبة حائل عن سطح البحر يصل إلى ضعف الارتفاع الذى سبق أن تحدد لتلك الهضبة عن سطح البحر . فى حين يزيد ارتفاع سلسلة جبال شمر عن ارتفاع هضبة حائل بحوالى ٢٠٠٠ قدم . يزاد على ذلك أن طريق الحج الكبير القادم من منطقة الفرات ، وعلى الرغم من أنه معروف للجغرافيين ، فلم يسبق لأى أوربى السير فيه ، ولذلك قمنا بعمل بعض التصحيحات فى خرائط هذا الطريق وخرائط بعض المسارات الأخرى ، وبذلك يمكن القول : إن الخريطة الملحقة بالمجلد الأول يمكن الاعتماد عليها إلى حد بعيد .

فى مجال الجيولوجيا ، وعلى الرغم من معرفتنا البسيطة والسطحية فى هذا المجال ، استطعنا ، على حد اعتقادى ، تصحيح بعض الأخطاء الطفيفة ، وإزالة الشكوك ، التى أثارها الأستاذ فيتزشتاين **Wetzstein**، حول مسألة التكوين الصخرى لجبل أجا وعلى الرغم من قصر التقرير الذى أرفقته بالكتاب ، عن التركيب الطبيعى للصحراء الرملية الكبرى ، فهو يحتوى على مادة أصيلة وربما قيمة . يزاد على ذلك ، أن الرسوم المبدئية التى توضح بعض النقاط فى هذين المجلدين ،

يمكن الاعتماد عليها باعتبارها تمثيلات دقيقة للخصائص الطبيعية الرئيسية فى وسط الجزيرة العربية .

قد يشعر علماء النبات والحيوان بالإحباط بسبب المعلومات الهزيلة التى أوردناها عن النباتات والحيوانات . لكن مسألة تأكيد وجود المها الأبيض فى نجد(*) ، أصبحت حقيقة واقعة الآن جديدة على العلم ، وأصبح المها الأبيض ، حقيقة واقعة مثل كل من الوبر Webber والمرموت وهما حيوانان من القوارض .

آمل أن يتم الاعتراف بذلك الإسهام المعرفى الكبير والمهم المتمثل فيما أسميته بحكم الرعاة ، الذى هو وصف للمنظومة السياسية فى نجد فى الوقت الحالى . وأنا أعرف أن أحداً لم يتعرض قبلى لهذه المنظومة ، ولم يحدث أن اقترب نيبور أو بوركهارت من هذه المنظومة فى شكلها الخام ، كما أساء بالجريف فهمها تماماً عندما نظر إلى حياة البدو باعتبارها نقيضاً لحياة الحضر . ومع ذلك يظل حكم الرعاة هو أقدم منظومات الحكم فى الجزيرة العربية ، كما أن هذه المنظومة تعد أفضل المنظومات التى تلبى احتياجات هذه البلاد . وفيما يتصل بهذا الأمر أيضاً ، أن تاريخ نجد القريب ، مع الأخذ بعين الاعتبار مسألة سقوط ابن سعود ، والذى أنا مدين به للعقيد روس Ross، الممثل البريطانى المقيم فى بوشهر ، وكذلك تخلل المذهب الوهابى فى سائر أنحاء الجزيرة العربية ، كل ذلك سوف تتجلى أهميته ، وسوف يتجلى ذلك بدرجة أقل فى المجلد الثانى من خلال الصورة غير الكاملة التى قدمناها عن هذه المسألة ، وبخاصة النتائج البالغة التى أسفر عنها الحكم الإقطاعى المستبد فى بلاد فارس ، وكذلك النتائج السيئة التى ترتبت على ضم الأتراك لمنطقة الإحساء إلى

(*) للمزيد عن المها الأبيض فى نجد راجع كتاب "مغامرة فى الجزيرة العربية" وهو من تأليف : دوجلاس كروزر، وترجم إلى العربية الدكتور صبرى محمد حسن ، وهو من منشورات كتاب الجمهورية ، الذى يصدر عن دار التحرير للطباعة والنشر . (المترجم)

ممتلكاتهم . وأترك قيمة هذه " الاكتشافات " لتقدير القراء ، وأترك لهم أيضًا الحكم عليها ، مكتفيًا هنا فقط بالإشارة إلى أن هذه الاكتشافات لم يجر التركيز على أهميتها وذلك من باب المحافظة على سلاسة السرد .

فيما يتصل بنتائج رحلتنا إلى الجزيرة العربية – التى تعد أطول رحلة من بغداد إلى بوشهر – لا أريد أن أقحمها على انتباه الجمهور ، وإنما أريدها أن تكون برهانًا ودليلاً إضافيًا ، إذا لم يكن هناك دليل بالفعل ، على حماقة وغباء تلك المشاريع ، التى راحت تتردد بين الحين والآخر ، على مسامع المتأملين تحت مسميات " وادى الفرات " وشركات السكك الحديدية " الهندية المتوسطية " . هذا البلد لا يصلح كلية للسكك الحديدية أو مشاريعها ، شأنه فى ذلك شأن المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط والخليج الفارسى ؛ هذه المناطق لم يحدث أن جرى اختيارها للقيام بعمليات من هذا القبيل ؛ وإذا لم يكن الكلام عن مرورنا عبر الأماكن غير المأهولة بالسكان ، التى تشكل تسعة أعشار الإقليم كله ، إذا لم يكن هذا الكلام كافيًا لمنع بنى وطنى من استثمار أموالهم فى مشروعات فاشلة من هذا القبيل ، فأنا أرى أن نشر هذا الكلام لن يكون بلا جدوى أو طائل .

أود إضافة كلمة واحدة قبل إنهاء هذا التصدير ، ففى أثناء اجتماع الجمعية الجغرافية الملكية ، جرى الاعتراض علىّ ، عندما كنت أقرأ ورقة قدمتها عن هذه " الزيارة التى قمت بها إلى نجد " ، وقال المعترضون : إننى على الرغم من عبورى الصحراء الرملية الكبيرة ، والزيارة التى قمت بها إلى جبل شمر ؛ فإنى لم أصل إلى نجد . قالوا لى ، وهذا استنادًا إلى " أوثق المصادر " ، أن المصطلح نجد ينطبق فقط على منطقة وسط الجزيرة العربية التى يحيط بها جبل الطويق ، والنفود الصغرى ، وأن جبل شمر والقصيم لا يدخلان ضمن نجد . وعلى الرغم من غرابة هذا الكلام على مسامع أناس عادوا للتو من هذه البلاد ، فقد عجزت فى ذلك الوقت عن دعم وتقوية رفضى لأى جدل حول هذا الموضوع نظرًا لأن سكان المنطقتين محل الجدل يطلقون عليهما اسم

نجد ، - وهذه حجه دامغة ، بدت غير كافيه عند البعض . وقد تحملت مشاقًا كثيرة ، فى دراسة أسباب ذلك الاعتراض من ناحية ، وتبرير اعتقادى الأصيل والقوى الذى مفاده أن حائل ليست مجرد جزء من نجد ، وإنما هى نجد بشحمها ولحمها .

أولاً ، ومن باب تكرار " الحجة الدامغة " أقول مؤكدًا ، إنه استنادًا إلى العرب أنفسهم فى كل القبائل والمدن التى زرتها ، فإن نجد تشمل الأراضى كلها الواقعة داخل صحراء النفود . نجد تعبير جغرافى يشمل ثلاث مناطق فرعية رئيسية هى : جبل شمر ، والقصيم فى الشمال ، والعارض فى الجنوب . والشك الوحيد الذى تناهى إلى مسامعى يتعلق بصحراء النفود نفسها ، سواء أكانت داخله أم لا ضمن هذا المصطلح . البدو أنفسهم يعدون صحراء النفود داخلة فى نجد ، نظرًا لأن صحراء النفود هى ذلك الجزء من نجد الذى درج البدو على الإقامة فيه ، وبخاصة أن الهضبة الصخرية الوسطى غير صالحة لحياة الرعى والرعاة . الجوف لا تدخل ضمن منطقة نجد ، وهى تقع على الحدود الشمالية لنجد ، وكذلك نجد أن كلاً من خيبر وتيماء فى الشمال الغربى لا تدخلان ضمن نجد ، فى حين تدور الشكوك حول كل من جُبَّة Jobba والحريق باعتبارهما من بلدان النفود .

ثانيًا ، دفاعى يستند إلى المصادر العربية : - ١) يدرج كل من : أبى الفدا والإدريسى ، اللذين اقتبس عنهما العقيد روس Ross بعض الأشياء فى مذكراته ، أن إقليم نجد يشمل كل تلك الأراضى الواقعة بين اليمن ، والحجاز ، والعراق . ٢) ياقوت ، ذلك الجغرافى العربى الذى عاش فى القرن الثالث عشر . والذى اقتبس عنه فيتزشتاين Wetzstein بعض الأشياء ، يدرج جبل أجاع Aja ضمن نجد . ٣) وها هو المسعودى يؤيد فى معجمه ذلك الذى قاله ياقوت . ٤) وهذا هو الشيخ حامد ، شيخ القصيم ، الذى اقتبس عنه فيتزشتاين يقول : " مصطلح نجد بمعناه الواسع يشمل وسط الجزيرة العربية كله ؛ - وبمعناه الضيق ، وفى ضوء الاستعمال الحديث ، يشمل فقط جبال شمر ، وأرض القصيم ، وكذلك الصحراء الكبرى التى تقع على حدوده من

الناحية الجنوبية . " ٥) وهذا نيبور ، أقدم الكتاب الأوربيين وأكثرهم احتراماً ، يحصى ويعدد بلدان نجد ويقول : " جبل شمر يقع على مسيرة عشرة أيام من بغداد ، ويشمل كلاً من حائل ، المنفوحة ، كيفرة البقعه...؛ " وبذلك يكون نيبور قد أضاف إلى المصطلح أكثر مما قلته أنا . ٦) وهذا هو Chesney، فى الخريطة التى أعدها للجزيرة العربية ، ونشرت فى العام ١٨٣٣ الميلادى يدرج القصيم وجبل شمر ضمن حدود نجد ، ويعطى بذلك حداً ثانياً يمتد ناحية الشمال ، مشتملاً على بعض المناطق ، التى يجرى " فى بعض الأحيان إدراجها ضمن نجد " . ٧) وهذا هو والين Wallin يحدد نجد على أنها المنطقة كلها التى ينمو فيها نبات الغاضة (الطرفاء) ، وهذا التحديد مأخوذ بطبيعة الحال عن البدو الذين كان يترحل بصحبتهم ؛ وهذا التحديد لا يشمل فقط جبل الشمر بل تدخل النفود ضمنه أيضًا ، كما يندرج ضمنه أيضًا النصف الجنوبى من وادى السرحان . ٨) أجد ما يلى فى معجم كازيمارسكى Kozimariski، الصادر فى العام ١٨٦٠ الميلادى : " أهل الغاضة ، اسم يطلق على سكان نجد أو على نبات الغاضة (الطرفاء) الذى يكثر وجوده فى هذه المنطقة . " أخيراً ، هذا هو ما يقوله جوارمانى حول هذا الموضوع ، وذلك بعد التحريات والاستقصاءات التى قام بها الرجل فى هذا الصدد : " الجبل هو المنطقة الأكثر ترجيحًا فى نجد . وعلى حد قول العرب هذا الجبل يعد نجداً واحداً من سبعة أنجاد ؛ " واستناداً إلى ما يقوله الزامل ، شيخ عنيزة ، نجده يفسر ويفصل هذه الأنجاد السبعة على أنها : العارض ، والأحساء ، والحريق ، فى الجنوب ، ثم الوشم فى الوسط ، ثم جبل الشمر ، والقصيم ، وسدير فى الشمال .

مقابل هذه المجموعة من الأدلة نجد من بين الرحالة مصدراً وثيقًا واحداً هو بالجريف ؛ بل إن رأى هذا الرجل يحظى بتأييد كبير . وبعد أن يوضح لنا بالجريف أن كلمة نجد تعنى " الأرض المرتفعة " ، وذلك على العكس من الساحل ، والمناطق البعيدة قليلة الارتفاع ، يقوم الرجل بإيجاز وجهة نظره على النحو التالى : " مصطلح (نجد) " يطلق على المساحة كلها الواقعة بين جبل شمر فى الشمال ، والصحراء الكبرى التى

فى الجنوب ، أى من أقصى جبل الطويق فى الجانب الشرقى إلى طريق الحج التركى أو درب الحج فى الجانب الغربى . ومع ذلك ، فإن هذه المنطقة الوسطى التى تشكل متوازى أضلاع ضخمًا ، ينحرف ناحية وسط الجزيرة العربية من الشمال شرق - شرق إلى جنوب غرب - غرب ، وذلك من خلال النظر إلى الخارطة ؛ متوازى الأضلاع هذا يجرى تقسيمه إلى أقسام فرعية بواسطة سكان البلاد إلى : نجد الأعلى ، ونجد الأوطى؛ وسوف نفصل هذا الفارق تفصيلاً كبيرًا فيما بعد ، جبل شمر يعد ملحقًا من ملاحق نجد ، وليس جزءًا من هذه المنطقة . ولكن العرب يستبعدون الجوف دائمًا من كتالوج الأراضى المرتفعة ، وذلك على الرغم من أن الأجانب يضمون الجوف ويدرجونه ضمن نجد ، والأجانب عندما يفعلون ذلك ، يكون من باب الخطأ من جانبهم ، نظرًا لأن الجوف تعد واحة مستقلة ، وهى مجرد باب إلى الأراضى المرتفعة أو المنطقة الداخلية من الجزيرة العربية ، وبذلك لا يمكن أن يكون الجوف جزءًا من نجد .

من هنا أرى أن الأمر فى حقيقته يتمثل فيما يلى : نجد بمعناها الأصلى ، ومعناها العام الذى يعنى " الأراضى المرتفعة " ، كان عبارة عن مصطلح جغرافى طبيعى ، وبالتالى كان يشمل جبل شمر ، أكثر أجزاء نجد ارتفاعًا ، كما يشمل أيضًا القصيم ، ومعروف أن القصيم تقع بين جبل شمر والعارض ؛ وبذلك عرف الناس نجد على هذا الحال منذ زمن نيبور ، ومازال بدو الشمال يعرفون نجد على هذا الحال أيضًا إلى يومنا هذا ، نظرًا لأن ذكريات هؤلاء البدو تعود إلى أزمان سابقة لزمن نيبور . ومع تأسيس الدولة الوهابية فى نجد . تحول المصطلح من مصطلح جغرافى إلى مصطلح سياسى ، وبالتالى أصبح المصطلح مرتبطًا بتقلبات مصير الدولة الوهابية . وبهذه الطريقة ، يمكن القول إن المصطلح " نجد " كان يشمل فى يوم من الأيام ليس مجرد الهضبة المرتفعة وحدها ، بل كان يشمل أيضًا كلاً من الجوف والأحساء ؛ وعلى الرغم من أن الأحساء تعد أرضًا ساحلية منخفضة ، وما تزال إلى يومنا الحالى تحتفظ بالاسم نجد ، فى ظل المسميات التركية الرسمية . فى الزمن الذى قام فيه بالجريف برحلته ، كان الوهابيون الذين حصل منهم بالجريف على معلوماته ، لا يعدون جبل

شمر جزءًا أساسيًا من دولتهم ، بل كانوا يعتبرونه ، على حد تعبيرهم ، ملحقًا لنجد . كان جبل شمر مستقلاً سياسيًا ، وبالتالى لم يعد جزءًا من نجد من وجهة نظرهم . لكن الدولة النجدية شهدت ، منذ زمن بالجريف ، المزيد من الانهيار والتفكك . استعاد القصيم استقلاله ، وجرى ضم الأحساء إلى الإمبراطورية التركية . وأصبحت نجد من جديد ، هى ذلك الذى كانت عليه قبل قيام الدولة النجدية ، أى مجرد مصطلح جغرافى طبيعى ، هذا يعنى أن المصطلح أصبح واسعًا وفضفاضًا مقتربًا بذلك من مصطلح وسط الجزيرة العربية .

من هنا ، فأنا أتمسك بالعنوان الذى أعطيته لرحلتنا ، على الرغم مما يقوله العلماء .

ولفريد سكاون بلنت

كرابيت بارك

أغسطس من العام ١٨٨٠ الميلادى

الفصل الأول

"هل كنت رحالاً كبيراً ، يا عُطارد ؟"

" لقد رأيتُ الدنيا "

" آه ، إنه منظر خلاّب . كم أشتاق للترحال . "

" الشيء نفسه يحدث مرة ثانية . تحديد قليل وتغيير كبير .

هدنى التعب ، ولو كان بوسعى الحصول على معاش لتقاعدت . "

" مع ذلك فالسفر يجلب الحكمة . "

" يشفينا من الهم . كثرة الرؤية تقلل الجهالة ، ونتعلم

مدى جمال الأشياء العظيمة التى تكلفنا الكثير من الشغف "

إكسيون هرافين

سحر آسيا – عودة إلى الأصدقاء القدامى – أخبار الصحراء – الجالية التدمرية فى دمشق – خيول وابل جديدة – السيدة دجبى وزوجها محول المزراب – صراع دموى – حياة عبد القادر – حديث مدحت باشا عن الترع والترام – طلب قرض .

دمشق ، فى اليوم السادس من شهر ديسمبر من العام ١٨٧٨ الميلادى . إنه لأمر عجيب أن تختفى الأفكار الحزينة عندما تطأ أقدام المرء أرض آسيا . حتى الأمس فقط كنا نسبح فى بحر الفكر الأوروبى ، بمنغصاته السياسية ، وأوجاعه الاجتماعية

وتطلعاته المشوبة بالقلق ، ذلك الميراث الذى آل إلى سلالة يافت (*) Japhet المصابة بالقلق والتوتر – ونحن الآن نبدو كأننا نبحر فى مياه هادئة ، بوسعنا أن ننال فيها قسطاً من الراحة ، وننسى آلامنا ، ونعبر عن شكرنا وامتناننا . سحر الشرق يتمثل فى غياب حياة الفكر فى هذا المكان ، فى تحرر عقل الإنسان من القلق فى النظر إلى الأمام ، وتحرر عقله من النظر إلى الماضى . لا أحد هنا يفكر فى الماضى أو المستقبل ، هم يفكرون فى الحاضر فقط ؛ وأنا أرى أن الحاضر هو السائد دوماً إلى أن يجىء لرؤيتنا . فى موقف العربة التى نزلنا منها ، وجدنا جماعة صغيرة من المعاونين تنتظر وصولنا – أولهم محمد بن عروق ، رفيق مغامراتنا فى العام الماضى ، الذى جاء من تدمر للقائنا والسفر معنا من جديد ؛ ويبدو أن الرجل كان ينتظرنا هنا طيلة شهر كامل . يجىء حنا بعد ذلك ، أشجع الجبناء وأشجع الطباخين ، وصاحب العينين المغرورقتين دوماً بالدموع ، وصف أسنانه البيضاء المزدوج ، راح هو الآخر يرحب بنا . جاء كل واحد منهما ومعه صديق ، أحد أقربائه على حد قول كل واحد منهما ، ومطلوب منا القبول بمشاركة الصديق فى خدمتنا ، وأن يقف إلى جانب راعيه فى وقت الشدة ، نظراً لأن الخدم هنا لا يتجولون إلا أزواجاً . ابن عم محمد ، شخص هادئ يبدو عليه الاحترام ، يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً ، متين إلى حد ما ، وعريض المنكبين . هذا الشخص هو الذى سيكون ريساً للجمَّالة ، ويبدو أنه أهل لهذه المهمة . شقيق حنا لا شبه بينه وبين أخيه مطلقاً . شقيق حنا ، شاب فارع الطول ، وجهه يوحى بالوهن ، ويدان كبيرتان مفلطحتان تبدوان كما لو كانتا تعانقانه بشكل مخيف . هذا الشاب يرتدى لباساً لافتاً للنظر ، عبارة عن تونك يشبه لباس رجال الدين الذى يسمونه " الدلماتى " ، الذى هو ثوب يرتديه رجال الكنهوت أثناء القدَّاس ، كما يلبس على رأسه عمامة ملونه . هذا الشاب يمكن لنا الإفادة منه ، غير أنه مسيحى

(*) أحد أبناء سيدنا نوح عليه السلام (المترجم).

الديانة ، تساورنا الشكوك حول مسألة اصطحاب خدم مسيحيين معنا إلى نجد ، فرحان ، جمّالنا العقيلى ، يغيب عنا هذه المرة ، وتلك خيبة أمل كبيرة لنا ؛ نظراً لأن فرحان كان أحسنهم طبعًا ، وأجدرهم فى الحصول على ثقة أتباعنا كلهم فى الماضى . وأنا أتصور أنه ينبغى علينا تفتيش دمشق كلها على ضوء الشموع قبل العثور على مثيل لهذا الفرحان .

أمضينا فترة المساء فى ذكر الأخبار وفى تلقيها . ولما كان محمد يحتل عند ولفريد Wilfrid مكانة الأخ، فقد دعوناه لتناول العشاء معنا ، وأمضى الرجل معنا نحو ساعة أو ساعتين ، ونحن نسمع منه كل ذلك الذى حدث فى الصحراء طوال فصل الصيف . حدثنا عن الحساسية التى نتجت عن شرائنا فرسًا من سلالة بطين ، والتى استطعنا الحصول عليها فى نهاية المطاف ، كما حدثنا أيضًا عن الغيظ والأحقاد التى ترتبت على ذلك . كما حدثنا أيضًا عن الأعمال الكبيرة والأحداث الكبيرة التى وقعت بين أصدقائنا من الحمد ، لقد تصالح فارس وجدعان، أو بالأحرى عقدا هدنة فيما بينهما ، وراح كل منهما ينفذ تلك الهدنة بطريقته الخاصة فى منطقة الفرات ، التى أصبح طريق القوافل فيها مهدداً وغير آمن بسبب هذه الهدنة . يبدو أن فرحان ابن صفوق تألّب على أخيه ، بمساعدة بعض القوات التركية ، الأمر الذى جعل فارس يتراجع منسحبًا عبر النهر ؛ لكن السواد الأعظم من الشمر ، انضموا إلى جانب فارس حسبما توقعنا فى العام الماضى . ومع ذلك لم تنته بعد حرب الروالة . وقد رفض ابن شعلان المقترحات التى قدمها له جدعان من خلالنا ، وأصر الرجل على استمرار احتلاله لمراعى الحمد فى الربيع الماضى ، الأمر الذى حدا بجدعان إلى الهجوم على ابن شعلان وطرده من تلك المراعى ؛ هذا يعنى أن ابن شعلان انسحب جنوبًا إلى حدود بلاده (منطقته) . يزاد على ذلك أن محمد الدوخى وجدعان افترقا ؛ هؤلاء هم السباع قد تخلصوا من عشرات المسائل مع الروالة ؛ وأصبحوا يكتفون بحملة الصيف ؛ فى حين ما يزال ولد على ماضين على طريق الصراع الدموى والأخذ بالثأر . محمد الدوخى رجل حكيم كبير السن ، لكن يصعب تبين تصرفاته مع صدام على الرغم من

تحالفه الجديد من ناحية مع فارس المزيد، شيخ المَسنَّة ، الذى ما يزال لديه حوالى مائة خيال ، يستعملهم فى تقديم العون والمساعدة لفارس المزيد ، وتحالفه الجديد أيضًا ، من ناحية ثانية مع محمد أغا جيرود . .وِلْد على يخيمون حاليًا بالقرب من جيرود ؛ وعليه فنحن نرجح ذهابنا إلى هناك ، لتكون تلك الزيارة بمثابة الخطوة الأولى لنا على طريق الذهاب إلى نجد .

من الطبيعى ألا يعرف محمد شيئًا عن الطريق المؤدية إلى نجد أو الجوف ، اللهم باستثناء أن هاتين الطريقين تقعان على بعد مسافة كبيرة فى اتجاه الجنوب ، وأن له بعض الأقرباء على هاتين الطريقين ، وأنا أشك فى وجود أحد فى دمشق يمكن أن يعطينا أكثر من هذه المعلومات . ومع ذلك ، قد يعرف ولد على المكان الذى يخيم فيه الروالة ، وبذلك يمكن للروالة أن يساعدونا على مواصلة رحلتنا من منطلق أن الروالة متعمقين فى الجنوب أكثر من العنزة . والمشكلة التى نخشاها ، تتمثل فيما سيترتب على عدم سقوط المطر منذ الربيع الماضى ، الأمر الذى يجعل الحمد فى حالة استنفار لقلة الماء. لو كان الحال غير ما هو عليه الآن ، لكان أفضل مسار لنا ، خارج حوران بلا أدنى شك ؛ ومعروف أن حوران تحفل دومًا بالأخطار ، ويقال إن هذه الأخطار تتجلى بصورة واضحة هذا العام . الناس يشبهون الصحراء دومًا بالبحر ، وهى فعلاً شبيهة بالبحر فى أكثر من جانب ، ومن بين هذه الجوانب ، أنك كلما ابتعدت عن الشاطئ ازداد الأمن والسلامة إلى حد ما ، فى حين إذا ما اقتربت من الشاطئ ازداد خطر وقوع الأحداث . وسوف نتبين هذا وذاك . ونحن فى الوقت ذاته نتحدث إلى محمد عن الجوف فقط ، ولا نبتغى من ذلك تخويفه أو ترويعه . نجد فى مخيلة عرب الشمال ، تقع على بعد مسافة كبيرة جداً ، ولم يسمعوا مطلقًا عن أحد سافر من دمشق إلى نجد . وهذا هو محمد يعرب عن ولائه غير المحدود لولفريد **Wilfrid** ويبدو أن الرجل مخلص بحق ؛ لكن المسافة الصحراوية التى تقدر بحوالى ستمائة ميل ، كفيلة بوضع إخلاص هذا الرجل على المحك . ونحن نرى أنه ازداد قدراً ، وأهمية عن آخر مرة لقيناه فيها ، وأصبح الرجل يسلك سلوك الشيخ ويحمل لقبه أيضًا ، وهذا يفيد

عند خدم الفنادق فى أضعف الأحوال ؛ يضاف إلى ذلك أن محمد لديه من السلوكيات الطيبة ، التى تجعل منه بدويًا بمعنى الكلمة .

هناك فى دمشق جالية صغيرة من أهل تدمر ، تقيم فى تلك الضاحية التى يطلقون عليها اسم الميدان ، ومحمد كان مقيمًا مع هذه الجالية . اصطحبنا الرجل هذا الصباح إلى تلك الضاحية لكى يعرض علينا الإبل التى كان يشتريها لحسابنا ، والتى توجد فى حوش من أحواش أصدقائه . هذه الجالية مكونة من أسرتين أو ثلاث ، تعيش كلها فى منزل واحد شديد البؤس . هذه العائلات تركت تدمر منذ حوالى ست سنوات بسبب "نوبة من الغطرسة والتخويف " ، على حد قولهم ، وهم ينتظرون فى هذه الضاحية يومًا بعد آخر أملاً فى العودة إلى تدمر . كان أرباب تلك العائلات خارج منازلهم فى مهام ، عندما وصلنا إلى تلك المنازل ، وسبب ذلك أن أرباب هذه العائلات يكسبون عيشهم مثل سائر أهل تدمر عن طريق العمل فى نقل البضائع ؛ لكن نساءهم استقبلونا استقبالاً طيبًا ، وطلبوا منا الجلوس وشرب القهوة ، قهوة ممتازة ، لم يسبق أن ذقناها منذ زمن طويل ، وأرسلوا فتاة صغيرة لإحضار الإبل من الحوش لكى نلقى عليها نظرة . قامت تلك الطفلة باقتياد الإبل مثلما يفعل الرجال تمامًا . يبدو أن محمد قد انتقى إبلاً طيبة بحق . هذه هى أربعة ذلل للركوب ، وتلك أربعة إبل لحمل الأمتعة ؛ إبل حمل الأمتعة هذه ، لها رؤس كئيبة ، لكنها تبدو قوية على نحو تستطيع معه حمل بوابات غزة ، أو أى شىء آخر نود تحميله على ظهور هذه الإبل . عند اختيار الإبل يجب على المرء أن يأخذ بعين اعتباره أربع نقاط رئيسية : عرض صدر الجمل ، وعمق جذع الجمل ، وقصر الأرجل ، واستدارة كفل الجمل . لقد شاهدت الناس وهم يختبرون عراقيب الجمل ، بواسطة رجل يقف فوق تلك العراقيب عندما يكون الجمل باركًا ، وإذا ما استطاع الجمل النهوض ، بغض النظر عن الوزن ، فذلك يعنى أن عراقيب الجمل سليمة . واحد فقط من الإبل هو الذى لم يعجبنى ، نظرًا لتشككنا فى إصابته مؤخرًا بأحد أمراض الإبل ؛ لكن عبد الله (ولد عم محمد) " يتعهد " بأن الجمل على ما يرام ، مثل سائر الجمال الأخرى . هذه الإبل ليست غالية الثمن ، بأى حال نظرًا لأن الواحد منها يقل ثمنه عن عشرة جنيهات إنجليزية . وأنا مشفقة على

هذه الحيوانات الضعيفة ، كلما تمعنت فى تلك الرحلة الطويلة التى تنتظرهم ، وضآلة احتمال وصولهم أحياء إلى نهاية تلك الرحلة . واقع الأمر ، ومن حسن طالع هذه الحيوانات أنها لا تعرف مثلنا مصيرها المكتوب لها . سوف نشعر بالتعاسة لو قدر لنا معرفة ذلك الوادى أو ذلك المنحدر الذى سترقد عنده تلك الحيوانات ، ونضطر إلى تركها تلقى حتفها وتنفق فى مثل هذا الوادى أو ذلك المنحدر ؛ وهذا هو مصير الإبل المحتوم . لو قدر لنا أن نعرف ذلك ، فلن نجرؤ على الإقبال على هذا العمل على الإطلاق .

تلى الخيول الإبل من حيث الأهمية ؛ هذه الخيول هى التى سوف نركبها . وهذا هو محمد قد أحضر فرسه الصغيرة التى يسميها جلفة ، التى كانت معه فى العام الماضى ، والتى لم يتعد عمرها بعد ثلاث سنوات ، لكن الرجل يقول إنها أصبحت تطاول قامته ووزنه أى أنها تبلغ من الوزن حوالى ثلاثة عشر حجراً ، ومبلغ علمى أن الرجل يفهم أفضل منى فى هذا الأمر . لقد أرسل لنا السيد س S فرسين من حلب مع حنا ، إحداهما يطلق عليها رأس الفداوى، وهى أنيقة وقوية جداً ، والفرس الثانية عبارة عن مهر يبلغ من العمر ثلاثة أعوام ، واسمه عبية شرّاك، وليس طيب الملامح ، ولكنه سريع ويقوى على حمل حمولة خفيفة . ركبنا خيولنا إلى أن وصلنا إلى ضاحية الميدان فى دمشق ، وراح لون الفرس الكستنائى يستلفت الأنظار والانتباه . الجميع يستديرون طلباً لرؤية الفرس ؛ وربما كانت الفرس أنيقة على نحو لا يسمح لها بالقيام برحلة من هذا القبيل .

اليوم السابع من شهر ديسمبر . أمضينا اليوم مع السيدة دجبى Digby هى وزوجها مجول المزراب ، ذلك الرجل طيب النشأة وبهى الطلعة ، الذى أسدى لنا كثيراً من النصائح القيمة عن رحلتنا . هذا الرجل له منزل جميل يقع خارج البلدة ، وتحيط به الأشجار والحدائق ، ويقع المنزل داخل حديقة خاصة به هو ، فيها قنوات صغيرة جارية ، وممرات ضيقة جوانبها عامرة بالورود الإنجليزية القديمة – وبخاصة الأشجار المتسلقة ذات الورود والزهور . الحديقة فيها أيضاً طيور وحيوانات ؛ وفيها أيضاً حمَامَ

ويَمام يهفهف بأجنحته بين الأشجار ، وفيها أيضًا بجعة تسبح بجوار نافورة مياه فى منتصف الفناء ، ويحميها كلب شرس من كلاب الحراسة . وهناك فرس جميلة تقف فى الإسطبل ، فرس واحدة فقط ، لأن الإكثار من الخيول أمر غير مطلوب هنا . القسم الرئيسى من هذا المنزل شديد البساطة بحكم أثاثه العربى البسيط ، لكن الحديقة فيها مبنى آخر مستقل مؤثث كما لو كان غرفة استقبال إنجليزية الطراز ، ومزود بالكراسى ، والأرائك ، والكتب ، والصور . ومن بين الرسوم التخطيطية الكثيرة والمهمة والجميلة ، شاهدت فى أحد الألبومات ، بعض المناظر الجميلة المرسومة بالألوان المائية ، التى تناسب الذوق الاجتماعى فى بلدة تدمر ، كانت تلك الرسوم من عمل السيدة دجبى ، التى رسمت تلك الصور قبل سنوات مضت ، يوم أن كانت بلدة تدمر أقل شهرة مما هى عليه الآن .

الشيخ كما يسميه الناس هنا ، وعلى الرغم من أن هذه التسمية غير صحيحة ، نظرًا لأن شقيقه الأكبر محمد هو شيخ المزراب ، دخل علينا ونحن نتجاذب أطراف الحديث ، وهنا تحول حوارنا إلى الأمور الصحراوية بطبيعة الحال ، التى تحتل الجانب الأكبر من فكره ، وتعد بالغة الأهمية لنا فى هذه الرحلة . أعطانا الشيخ من بين ما أعطانا بعض المعلومات الخاصة بقبيلة المزراب ، التى لم نوفِّها حقها فيما نشرناه عن القبائل .

لا يسعنى قبل تكرار بعض التفاصيل التى عرفناها من ذلك الشيخ إلا أن أورد هنا بعض الأشياء عن شخص مجول المزراب ، الأمر الذى سيبرر القيمة التى نعلقها على المعلومات التى تلقيناها منه ، من منطلق أنه شخص من حقه بحكم مولده وموقعه أن يتكلم من موقع السلطة . من حيث المظهر نجد أن مجول المزراب يتمتع بسمات الدم البدوى الأصيل . ومجول يميل إلى القصر ، ويداه صغيرتان ، وقدماه صغيرتان أيضًا ، وبشرته بلون الزيتون ، ولحيته سوداء ، وآخذة فى التحول إلى اللون الرمادى ، وعيناه سوداوان وحاجباه أسودان أيضًا . ومن الخطأ التسليم بأن العرب الخُلَّص هم شقر البشرة دومًا . قد نصادف فى الصحراء أناسًا شقر البشرة ، لكن هؤلاء

الأشخاص (فى حدود الخبرة والتجربة) تكون بعض ملامحهم أجنبية ، مما يكشف عن اختلاط عرقى . لم يحدث أن كان هناك عربى أصيل (بدوى) ليست له عينان سوداوان ، أو أنف غير معقوف .

كان والد مجول المزراب ، وهذا استثناء نادر بين العنزة ، يعرف القراءة والكتابة ، وأحضر لأبنائه عندما كانوا صبية صغاراً ، رجلاً متعلمًا يعلمهم القراءة والكتابة . ولكن مجول ، دونًا عن إخوانه التسعة ، كان هو الوحيد الذى اهتم بعملية التعلم هذه . والحادث الغريب الذى انطوى على زواج مجول المزراب من امرأة إنجليزية ، ابتعاده عدة شهور عن الصحراء ، لكن ذلك لم يجعله غريبًا على الصحراء أو مخاصمًا لها ؛ يضاف إلى ذلك أن الرجل لم يتأثر كثيراً باللباس الحضرى ، لكنه لا يرتدى الزى الأوروبى. صحيح أن مجول يتردد على المسجد المجاور ، ويؤدى الصلاة اليومية المفروضة عليه ؛ لكنه فى كل ما عدا ذلك لا يمكن تمييزه عن بنى شعلان ومرشد من الحمد . من السهولة بمكان التيقن من تعلق قلب الرجل بالصحراء ، من خلال حبه الذى تبادله إياه المرأة التى تزوجها ؛ إلى حد أنه إذا ما تولى المشيخة ، وهذا أمر محتمل الحدوث ، لأن شقيقه يبدو أكثر منه خبرة وحنكة ، سوف لا يهتم – وهذه هى وجهة نظرى – كثيراً بتزجية قسم كبير من وقتهما فى دمشق . ومع ذلك ، سوف يتأثران ، وبلا أدنى شك ، بالسياسات القبلية ، التى أرى أن مجول مستاء منها تمامًا ، إلى حد أنه يمكن أن يستقيل ويتنازل عن المشيخة لصالح ولده عافِد ؛ فى مثل هذا الحال ، قد يستمرا فى العيش ، كما هو الحال الآن ، فترة فى دمشق وفترة أخرى فى حمص ، ويصبحان بذلك ملهمين لقبيلتهما ، التى يمدانها بضروريات الحياة البدوية ، والبنادق ، والمسدسات ، فضلاً عن الذخيرة . من هنا ، وعلى الرغم من أن عدد خيام المزراب لا يزيد على مائة خيمة ، فكلهم راكبون وأفضل تسليحًا من الآخرين ، وقادرون على إثبات وجودهم فى المغامرات الحربية التى يقوم بها السباع .

استنادًا إلى ما يقوله المجول ، نجد أن المزراب ، بدلاً من أن يكونوا ، فى ضوء ما قيل لنا ، مجرد قسم من الرسالين ، هم يشكلون فى واقع الأمر السلالة الأصلية للرسالين ؛ وأن هذه السلالة هى التى تفرع منها الرسالين والمواهيب بل والجموسة أنفسهم . وقد حكى الرجل لنا ما يلى عن قبيلة الجموسة :

تزوج أحد الأعراب المزراب بنتًا صغيره من قبيلة السليمات ، ثم مات الرجل بعد ذلك مباشرة . وتزوجت أرملة هذا الرجل مرة ثانية خلال أسابيع قليلة ، واختارت لنفسها زوجًا من بين أهلها وأقاربها . وقبل أن تضع طفلها الأول ، ثار نزاع حول نسب هذا الطفل ، وقد أكدت أن الطفل من زوجها المزرابى ، فى حين ادعت قبيلة السليمات أن الطفل طفلها . وأحيل الأمر إلى التحكيم ، شأنه فى ذلك شأن كل أمور الصحراء الأخرى ، وجرى اختبار صدق الأم عن طريق وضع الجمر الحامى على لسانها . وعلى الرغم من هذه المصيبة ، أصرت الأم على أقوالها ، وحصلت على الحكم لصالحها .. ومع ذلك ، يبدو أن ابنها لم يكن راضيًا عن هذا القرار ، لأنه فور ولادته غضب من أمه ، وهو الظرف الذى جعل الناس يسمونه " الجموسة " بمعنى " الخدَّاش " من هنا انحدر اسم قبيلة الجموسة عن اسم هذا الطفل . هؤلاء الجموسة ظهروا أول ما ظهروا قبل حوالى سبعين عامًا ، عندما قاموا بمهاجمة قافلة بغداد وسلبها ونهبها ، عندما كانت تقوم بنقل كمية كبيرة من النقود . وبهذه الثروات المفاجئة اكتسب هؤلاء الجموسة أهمية جعلت منهم الجماعة القائدة للقبيلة ، وهم حاليًا ، وبلا أدنى شك مُلاك أفضل الخيول بين العنزة ، وما يزال شيوخ المزراب يؤكدون سموهم من حيث الأصل والمولد ، وما تزال مطالبهم القديمة تتردد فى حقهم الاسمى فى الجزية التى تحصل عليها تدمر .

وعافد ولد مجول ، (ويصح فيه أيضًا جافت Japhet)، الذى سبق أن التقيناه فى مخيم يطيِّن فى الربيع الماضى ، يبدو أنه لعب دورًا مهمًا فى العراك الذى دار مؤخرًا فى هذه المعركة التى انهزم فيها صدام على أيدى السباع وحلفائهم ، فى تلك

المعركة استسلم عميد عائلة ابن جندل (*) ، بعد أن طارده بعض خيالة أولاد على ، لعافد الذى أسره ؛ وعافد هذا هو والد زوجة صدام ، ولذلك عمل الرجل على حماية الأمير عن طريق طرح عباءته (بشتة) عليه . لكن أبناء سمير كان بينهم وبين أبناء جندل ثأر ، الأمر الذى أسقط أسباب اللجوء وأفرغها من محتواها . وهنا تقدم أحد أبناء محمد الدوخى ، وأخرج ابن جندل من مخبئه وقتله أمام عينى عاوز. فى ذلك اليوم استولى السباع على القسم الأكبر من الخيول والإبل التى خسروها فى المعركة السابقة ، من هنا نرى صديقنا ابن هديب مرتاحًا من جديد داخل خيامه ، وأثاث خيامه ، ودلال قهوته ، الأمر الذى جعله قرير العين . وآمل أن يكون ذلك الرجل صابراً فى السرَّاء والضراء .

من هنا يصبح بوسع مجول ، بطبيعة الحال ، إعطاؤنا من النصح ما هو أفضل بكثير عن نصائح أناس آخرين ، ومجول يقول لنا ، إن أفضل ما يمكن عمله بشأن رحلتنا ، هو التوجه أولاً إلى جيرود لأخذ رأى محمد الدوخى . معروف أن وِلْد على ، يجيئون بعد الروالة ، من منطلق أن ولد على هم أفضل من يعرفون الجانب الغربى من الصحراء ، ولذلك يجب أن نكون واثقين من حصولنا منهم على معلومات صحيحة ، ولا شيء أكثر من هذا . السباع لا يقتربون مطلقًا من وادى السرحان ، وسبب ذلك أنهم يقتصرون على النصف الشرقى من الحمد ؛ بل غزو السباع يصعب أن يطال ذلك الجزء الطارد من الصحراء . كان مجول ، قد وصل ذات مرة ، إلى مسافة كبيرة فى اتجاه الجنوب ، أوصلته إلى حافة صحراء النفود ، التى وصفها بأن الأعشاب تكسوها وتغطيها فى فصل الربيع . يرى مجول أن وادى السرحان فيه أبيار وليس فيه مراعى .

الزيارة المهمة الثانية التى قمنا بها فى دمشق كانت لشخص يدعى عبد القادر ، بطل الحرب الفرنسية فى الجزائر . هذا الرجل الوسيم كبير السن ، الذى تعد

(*) إحدى العائلات النبيلة بين الروالة .

شخصيته شرفًا لأية أمة من الأمم وتكريمًا لأى عرق من الأعراق ، يمضى أيامه الأخيرة كما بدأها ، متقاعدًا تقاعد أهل العلم ، ممارسًا شعائر وفروض دينه . عرب الغرب ، أو إن شئت فقل " المغاربة "، (ويصح فيه أيضًا المغرِّبين) ، يتميزون عن عرب شبه الجزيرة العربية ، بل عن سائر العرب الآخرين بحسهم الطبيعى وانجذابهم إلى التقوى والورع ، والفكر الذى يكسوه الطابع الدينى . معروف أن الجزيرة العربية ، لم تكن مطلقًا بلدًا متدينًا باستثناء العصر الأول من الإسلام ، ثم بعد ذلك الحكم الوهابى الذى دام قرابة المئة عام . ربما كان إغفال الجزيرة العربية وإهمالها للطقوس الاحتفائية ، وعدم تقديرها للأولياء ، والمعجزات وعالم الخوارق بشكل عام ، ناتجًا عن العداء مع بلاد فارس ، أقرب الجيران إليها . لكن الأمر يختلف بالنسبة للمغاربة والعرب الجزائريين . الدين عند المغاربة والعرب الجزائريين هو قوام حياتهم الاجتماعية ، وهو المحرك الأساسى لسياستهم . وقد جرت العادة ، وإلى يومنا هذا ، أن يقوم أحد الأثرياء بإيقاف ماله على مسجد من المساجد ، كما ينفق هذا المال فى مكان آخر على مزرعة خيوله ، والاحتفاء بالضيوف ، والشىء الوحيد الذى يعطى هذا التميز هو المداومة على الصلاة . هناك إلى جانب هؤلاء النبلاء العاديين ، طبقة أخرى من النبلاء المتدينين تحظى بمكانة عالية عند عامة الناس . أفراد هذه الطبقة هم أحفاد الأولياء ، والذين يشاركون بحكم مولدهم فى قداسة أسلافهم ، وورثوا عنهم بعض العطايا السماوية ، والعلاج الذى يوصف بالمعجزات . أفراد هذه الطبقة لهم المنزلة نفسها عند عامة الناس ، شأنهم فى ذلك شأن أبناء الأنبياء فى زمن النبى سول Saul .

كان عبد القادر الجزائرى ممثلاً لواحدة من تلك العائلات ، ولم يكن على حد زعم السواد الأعظم من الناس ، شيخًا بدويًا . واقع الأمر أنه كان من الحضر ، بل وتقيًا أيضًا ، ولم يكن الرجل عسكريًا بحكم مولده ، على الرغم من تدربه ، مثل نبلاء الأسر الأخرى على السلاح ؛ واقع الأمر أن مصادفة الحرب الدينية هى التى جعلت منه واحدًا من رجال الحدث والحركة . استطاع عبد القادر الجزائرى تحقيق انتصاراته الأولى عن طريق خطبه ومواعظه وليس عن طريق السيف ؛ والآن وبعد أن ألقى القتال أوزاره ،

تحول الرجل من جديد إلى مهنته الأولى ، التقى والورع والأدب . وبذلك اشتهر الرجل عسكريًا وراح الناس يوقرونه ويحترمونه فى دمشق لعلمه .

فيما يتصل بنا ، نحن نرى أن سحر هذا الرجل وجاذبيته يتمثلان فى بساطة شخصيته ، وسعة أفقه التى تصل إلى حد الحكمة . وعلى الرغم من أننا يمكن لنا القول : إن الرجل من " الأولياء ، بحكم ما هو عليه بالفعل " فهو ينظر إلى نفسه من هذا المنطلق ، بل إن هذه أيضًا هى نظرة أتباعه إليه ؛ زد على ذلك أن الرجل لا يصيبه أى أذى جراء منزلته العالية . وهو يرى أن منصبه هذا التزام عليه . إحسان عبد القادر لا يعرف الحدود ، وهذا الإحسان يصيب الجميع بلا استثناء ؛ مسألة الفقر والمعاناة تشكل عنده معضلة كبيرة . وقد فتح عبد القادر أبواب منزله أمام كل الهاربين من مذابح دمشق ؛ كان منزل الرجل مزدحمًا بالمسيحيين ، وكان الرجل على استعداد للدفاع عن ضيوفه باستخدام القوة إذا لزم الأمر . كان الرجل من المُحَبِّين لنا ، وكان يتحدث إلينا طويلاً عن العرق العربى والأنساب العربية والموروث العربى . كما أهدانى الرجل كتابًا ألَّفه مؤخرًا واحد من أبنائه عن سلالة الحصان العربى ، وكان الكتاب يهتم اهتمامًا واضحًا بأبحاثنا فى هذا الاتجاه . كان الرجل قد أدى فريضة الحج منذ سنوات كثيرة ، بأن قطع المسافة كلها عن طريق البر ، بدءًا من الجزائر ، ثم عاد عن طريق البحر إلى مشهد على ومنها إلى بغداد . كان ذلك قبل الحرب الفرنسية .

قام عبد القادر برد زيارتنا بكل أدب فى اليوم التالى ، وكان غريبًا علينا حقًا أن نرى هذا المناضل الجزائرى وهو يركب متواضعًا حماره السورى الصغير ، وليس معه سوى خادم واحد ، ليصل بعد ذلك إلى الحديقة التى كنا نقيم فيها . الرجل يرتدى ملابس واحد من الملالى ، كما يلبس عمامة تكشف عن قسم كبير من جبهته على الطريقة الجزائرية . ولم يحدث مطلقًا أن ارتدى عبد القادر الكوفية البدوية . وجه الرجل فى الوقت الراهن شديد الشحوب ، وابتسامته ابتسامة رجل كبير السن ، لكن عينيه ما تزالان تحتفظان ببريقهما ونظراتهما التى تشبه نظرات الصقر . من السهولة بمكان الوقوف على أن هاتين العينين لن تكشفا عن الغضب مرة ثانية . وفى ضوء

النظرية العربية والصبر العربى يمكن القول إن عبد القادر يمتلك فلسفة العقول النبيلة منذ زمن بعيد .

رجل آخر من نوعية مختلفة ، لكننا كنا مهتمين بلقائه ، هو مدحت باشا ، الذى كان قد وصل إلى دمشق منذ فترة وجيزة ليتولى فيها منصب والى الشام . وصل الرجل إلى دمشق بكثير من الزمر والطبل ، نظراً لأنه يمثل نظرية الإصلاح الإدارى ، التى كان الأوربيون يؤمنون بها إيمانًا راسخًا من منطلق أنها هى الوسيلة المثلى لإصلاح الإمبراطورية التركية . كان مدحت باشا تحت رعاية وزارة خارجيتنا ، وكنا ننتظر منه أشياء كثيرة . فيما يتصل بنا شخصيًا ، وعلى الرغم من تشككنا فى هذه الأمور ، وعلى الرغم من معرفتنا لتاريخ الأعمال والتصرفات التى أقدم عليها مدحت باشا فى بغداد ، وعلى الرغم أيضًا من عدم ثقتنا بهذا الرجل ، فقد كان يتعين علينا القيام بزيارة له ، من باب تقديم التحية من ناحية ، ومن باب الواجب من ناحية أخرى ، ومن باب ثالث يتمثل فى إشباع فضولنا . بدا لنا الأمر مستحيلاً ، نظراً لأن ذلك الرجل الذى ابتكر لتركيا شيئًا خياليًا من قبيل الحكومة البرلمانية لا يمكن أن يكون سوى غريب وأصيل فى الوقت نفسه . لكن تفكيرنا هذا باء بالفشل ، وسبب ذلك أننا التقينا شخصًا مبتذلاً ، بل ومتحدثًا سخيفًا ، وشخصًا مغروراً بنفسه ، لم يسبق أن التقيناه مطلقًا خارج أوروبا . ربما يكون مدحت باشا قد تصرف معنا على هذا النحو ، من منطلق أن ذلك هو ما يناسب الإنجليز ، غير أنى لا أصدق ذلك . من هنا قصرنا كلامنا على أننا ننتوى بل ونتطلع إلى زيارة كل من بغداد والبصرة والتوجه منهما إلى الهند ، لأن هذا هو ما كنا ننتويه فى النهاية . وعندما تطرق الحديث إلى هاتين المدينتين بدأ الرجل يطرى إدارته لهذين البلدين ، وبدأ يطرى أيضًا البواخر التى دشنها على مياههما ، وراح يتحدث أيضًا عن الأسوار التى هدمها ، والترام التى سيرها فى شوارعهما . تعجب مدحت باشا قائلاً : " آه من ذلك الترام . أنا الذى ابتكرته " . " وما يزال يعمل إلى يومنا هذا . الترام هى خطى الحضارة الأولى . سوف أسيِّر ترامًا فى سائر أنحاء دمشق . الناس جميعًا سوف يركبون فى عربات الترام . هذا الترام سوف يعود علينا بخمسة فى المئة من الأرباح . سوف تذهبان إلى البصرة ، وسوف تريان

البواخر فى النهر هناك . لقد تحولت البصرة بفضلى إلى مكان مهم . البواخر والترام هما ما تحتاجه هذه الدول الفقيرة . أنهار دمشق صغيرة جداً ولا تتسع للبواخر ، وإلا كنت قد سيَّرت بعض هذه البواخر فيها . لكنى سوف أنفذ مشروع الترام . لو تمكنا من تسيير الترام فى كل مكان فسوف تصبح تركيا بلداً ثريًا . " " والترع أيضًا " أبدينا هذه الملاحظة من باب الغيظ . إذ كنا نعلم أن تجاربه فى هذا الصدد هى التى أغرقت بغداد فى مياه الفيضان . وأردف مدحت باشا قائلاً : " نعم ، والترع أيضًا . الترع ، والبواخر ، والترام ، نحن بحاجة إلى هذه الأشياء كلها . " " وكذلك السكك الحديد . " " نعم ، السكك الحديد . أنا أتطلع إلى خط حديدى يمتد بطول طريق النقل القادم من بيروت . السكك الحديدية مهمة لتأمين النظام فى البلاد . لو أنشأنا خطًا حديديًا عبر الصحراء لتحاشينا المتاعب مع البدو . آه من هؤلاء البدو المساكين ، وآه من جلدى لهم فى بغداد . أنا أراهن أنهم لم ينسوا اسمى فى ذلك البلد . "وأمَّنا على هذا الكلام .

راح مدحت باشا يتحدث بعد ذلك عن الشراكسة قائلاً بالفرنسية : " هؤلاء الشراكسة المساكين " " Ces pauvres Circassiens. أتمنى أن أفعل شيئًا من أجلهم " . ليتنى أتمكن من إعطاء فكرة عن مدى الرقة والحنان التى اتسمت بهما نغمة مدحت باشا وهو يقول هذه الجملة ؛ بدا لنا أن الشراكسة كانوا عند الرجل أفضل من البواخر والترام . هؤلاء اللاجئون التعساء ، هم فى واقع الأمر ، مشكلة مخيفة أمام تركيا ، ونظراً لأن هؤلاء الشراكسة جرى طردهم من روسيا بعد ، فقد جرى نقلهم من مقاطعة ، أو منطقة ، إلى أخرى ، إلى أن وصلوا إلى حيث لا يمكن نقلهم أو تمريرهم إلى ما هو أبعد من ذلك . هؤلاء الشراكسة يشكلون منغصًا للسكان حيثما وجدوا ؛ وسبب ذلك أن هؤلاء الشراكسة جائعون ومسلحون ، ويصرون على السرقة طلبًا للعيش . هؤلاء الشراكسة يضايقون العرب السوريين بصفة خاصة ، لأنهم يقتلون ويسرقون ، وهذا على العكس تمامًا من الأفكار العربية . الشراكسة يشبهون الثعالب التى يلفها الصيادون فى أغطيتهم . صحيح أن هذا من باب الإشفاق على الحيوان ، غير أن هذه الثعالب لا يمكن أن تعيش فى سلام مع الأرانب والأرانب البرية . ومع ذلك ، نجد أن

مدحت باشا ، لديه نظام شهير لتصحيح الأمور . بوسع مدحت باشا إدراج أسماء هؤلاء الشراكسة ضمن الضبطية (الشرطة) التركية ، وبالتالى إذا ما قاموا بالسرقة فإن مثل هذه السرقة ستكون فى مصلحة الحكومة . كان هناك حوالى عشرين شركسيًا فى فناء المنزل ، ساعة أن قمنا بزيارة مدحت باشا ؛ كان هؤلاء الشراكسة فى انتظار وضعهم تحت الاختبار فترة قصيرة ؛ ومسألة الاختيار من بين هؤلاء الشراكسة أمر صعب .

على العموم ، استأذنا فى الانصراف ، ولدينا انطباع عن مدحت باشا ، مخالف تمامًا لما كان يدور فى دواخلنا . لقد أدهشنا الرجل ، لكن هذا الاندهاش لم يكن ناتجًا عن أى شكل من أشكال الحكمة . الحق يقال ، إن الباشا المصلح الذى من هذا القبيل يحدث لتركيا دمارًا يعادل الدمار الذى يحدثه الباشوات التقليديون بعشرات المرات . وإذا كان مدحت عاجزًا عن تنظيم حافظة نقوده الخاصة فمن الممكن الاعتماد عليه فى إفراغ الخزانة العامة فى دمشق ، مثلما فعل فى بغداد ، التى أنفق فيها مليون جنيه إنجليزى على أعمال غير منتجة خلال عام واحد . وبينما كنا نودعه استعدادًا لترك المكان ، لاحظنا استبقاءه للسيد السيوفى ، مدير البنك العثمانى ، الذى كان قد جاء برفقتنا ، للقاء مدحت باشا فى مؤتمر خاص ، مفاده أن أول عمل لحاكم سوريا ، يتمثل فى طلب قرض(*).

(*) دام حكم مدحت باشا لدمشق مدة عشرين شهرًا ، وهذا الحكم شهير بالمؤامرات التى حيكت فيه . وقد بدأ هذا الحكم بعمل قتالى تمثل فى إخضاع المستقلين فى حوران ، هؤلاء الدروز عبارة عن طائفة مسالمة ، قام مدحت باشا بتدميرها متعاونًا فى ذلك مع وِلْد على . وأنفق الرجل بقية الوقت والموارد فى محاولة منه للحصول على مرتبة ولقب خديوى ، الأمر الذى أسفر عن استدعائه إلى إسطنبول من جديد . ولم نسمع شيئًا عن إصلاحات مادية أو إدارية قام بها هذا الرجل ، لكن يجدر بنا هنا الإشارة إلى أن سلسلة من الحرائق جرت فى حكمه ، وأحرقت قسمًا كبيرًا من أسواق دمشق الشرقية ، وترتب على تلك الحرائق ضياع ممتلكات كثيرة ، وحلَّ محل هذه العقارات شارع كبير . وقد نقل مدحت باشا إلى سمرنا أزمير التى يقولون فيها عنه ما يلى :

....

" مدحت باشا . - ٢٨ سبتمبر : - ' مراسل خاص لجريدة جنيف ، يكتب من أزمير قبل عشرة أيام ويقول : اقتناعًا من مدحت باشا بأنه يحظى برضا السكان وأن بوسعه الاعتماد على تعاونهم ومساعدتهم له ، راح يتفكر مدة قصيرة فى مشاريع التحسين والإصلاح التى سينفذها لصالح المنطقة التى طُلب إليه إدارتها . كان أول الأعمال التى بادر مدحت باشا إلى القيام بها متمثلاً فى تجفيف حلقة البورنار (حمامات ديانا Diana عند القدماء) ، وتنظيف مجارى أزمير ، ورفع المخلفات التى تعج بها الشوارع ، والتى تلوث الهواء ، والتى تؤثر على صحة المدينة ، على حد قول أحد الأطباء ، والتى تهدد على المدى الطويل بانتشار الأوبئة . اقترح مدحت باشا بعد ذلك ، بناء على توصية من مهندس أفندى ، كبح جماح الأضرار التى تنتج عن نهر هرسس ، الذى يفيض فى فصل الشتاء على ضفتيه ويتسبب فى أضرار هائلة فى سهل منيمن . وصدرت الأوامر بالقيام بأعمال هندسية على نطاق واسع ، ظن الناس أنها سوف تصحح هذه الأخطاء ، وتعيد إلى الزراعة مساحات واسعة من الأرض الخصبة ، التى تعد أرضًا غير منتجة فى الوقت الحالى ، وجرى القيام بكثير من الإصلاحات الإدارية ، وجرى أيضًا إعادة تنظيم الشرطة ، كما جرى فرض النظام والأمانة على محاكم العدالة ، وجرى أيضًا السيطرة على الفظائع الشرطية ، الناتجة عن عدم كفاية رواتبهم ، مما جعلهم يدخلون فى تحالفات دفاعية وهجومية ، مع اللصوص ، والقتلة الموجودين فى المدينة - وفضيحة حصول القضاة على رشاوى من الأوغاد والمجرمين - كل ذلك جرى العمل على القضاء عليه على وجه السرعة . وصدرت الأوامر بإلقاء القبض وسجن كل قائمقام ، أو مدير ، أو رئيس شرطة ، أو رئيس محكمة يجرى اتهامه باستغلال سلطته أو السرقة . ومنع مدحت باشا البلديات من أن تكون هى الناطقة باسم الولاة ، وأن ينصب عمل هذه البلديات على مراعاة مصالح دوائرها فقط . وجرى التحقق من قصص الموظفين الذين يتقاضون ٨٠٠ فرنك فى العام ، ولكنهم يصرفون فعلاً ١٠٠٠٠ فرنك ، جرى التحقق من هذه القصص ، وتحريها ، ومعاقبة المذنبين عقابًا شديدًا ؛ وجرى أيضًا اتخاذ الكثير من الإجراءات الأخرى ، التى تستحق التنويه عنها . لكن الطاقة وحسن النية فى أى مصلح من المصلحين - سواء أكان مدحت أم حامد - ليسا كافيين - لسوء الحظ ، لتحقيق الإصلاحات وإنجازها . مسألة صرف مياه المستنقعات ، وعمل ضفاف للأنهار ، وتنظيف المجارى ، ورفع المخلفات ، ودفع أجور القضاة والشرطة ، وإيجاد محصلين نزيهين للأموال ، كل ذلك يحتاج إلى أموال . كيف يمكن الحصول على هذه الأموال ؟ لا يمكن الحصول عليها من متحصلات الميناء أو المقاطعة ؛ لأن هذه الأموال يجرى إرسالها بصورة مستمرة ، وإلى آخر سنتيم ، إلى إسطنبول ، نظرًا لأن مطالب الحكومة تكون عاجلة ولا تنتظر التأخير لم يستطع مدحت باشا تبين الاتجاه الذى يمكن أن يتوجه إليه ، ولذلك طلب انعقاد المجلس الذى عجز أعضاؤه أيضًا عن إيجاد حل لهذه المعضلة أو توفير الأموال المطلوبة . وهنا خطر ببال الحاكم أن هناك فرعًا للبنك العثمانى فى سمرنا ، ويقف أمامه حارسان عملاقان مما يوحى بأن ذلك البنك مؤسسة حكومية . لماذا لا يعطى البنك المعوزين ؟ راقت هذه الفكرة للباشا ، وطلب من مديره الحضور إلى قوناك Konak على وجه السرعة لأمر عام مهم . عندما وصل مدير البنك إلى قوناك عرض عليه مدحت باشا خططه الإصلاحية ، وأثبت

....

له بطلاقة لسانه ، أن الأعمال العامة التى يبتغى تحقيقها ، لا يمكن أن تكون فى غير مصلحة المقاطعة وازدهارها . وأكد مدحت باشا لمدير البنك ، أنه ليست هناك فرصة استثمار أفضل من هذه الفرصة التى ستتيح للبنك إقراض الحكومة بضعة ملايين قليلة من الفرنكات ، على أن تستخدم تلك الملايين فى الأغراض التى حددها مدحت باشا لمدير البنك . يزاد على ذلك ، أن تلك المشروعات المقترحة ، سوف تحقق أرباحًا فورية مما سيمكن البنك من استرداد القرض والفائدة خلال سنوات قلائل . من سوء الطالع أن هذه الحجج كلها لم تنطلِ على السيد م . هينتز Heintze، مدير البنك ؛ وأوضح لمدحت باشا أنه ، على الرغم من أنه يسعده شخصيًا أن يقدم الملايين المطلوبة ، فإن التعليمات التى لديه لا تسمح له بالتصرف الشخصى . وأضاف أنه موجود فى البنك للقيام بالعمليات المصرفية المعتادة عن طريق الضمانات ؛ لكن لديه تعليمات مشددة تقضى بعدم تقديم القروض مهما كانت وأيا كانت الإيحاءات الربحية . وكانت تلك بمثابة نهاية مشاريع مدحت باشا الكبيرة الخاصة بالإصلاحات العامة والإصلاحات الإدارية . فى ظل مثل هذه الظروف قد يكون من الظلم اتهام مدحت باشا بأنه لم يوف بالوعود التى قطعها على نفسه عندما تولى منصبه ؛ وسبب ذلك أن أى أحد ، بما فى ذلك الحاكم التركى العام ، يجب ألا ينتظر منه القيام بالمستحيل ، أو تحقيق المستحيل . "

الفصل الثانى

"هذه الصحراء الظليلة ، ذات الأشجار المتناثرة ،

أنا أفضلها على البلدان المأهولة المزدهرة . "

شكسبير

مناصب أخوية – الاستعداد للقيام بالرحلة – وصول محمد الدوخى إلى المحكمة – لص ليلى – السفر إلى نجد – حكاية التائب – مسألة الثأر – استقبالنا من قبل أقارب بسطاء – سوق مزارب .

أمضينا أسبوعًا فى دمشق ، لم يكن الأسبوع كله ممتعًا ، على الرغم من أنه كان آخر أسبوع لنا فى نطاق الحياة المتحضرة . كان علينا شراء عدد كبير من الأشياء ، كما تعين علينا ترتيب كثير من الأمور وتفكرها ، قبل إقدامنا على رحلة خطيرة من هذا القبيل ، والتى كنا نعلم أنها تختلف تمامًا عن رحلة المتعة التى قمنا بها فى العام الماضى . لم نكن فى حل أن نترك أى أمر من الأمور للمصادفة ، فى رحلة من التجوال قد تستمر ثلاثة أشهر ، نقطع خلالها ألف ميل من الصحراء ، يتعذر فيها ، بل يستحيل فيها الحصول على ضروريات الحياة بحالة طازجة . كانت الجوف أول محطة على طريق رحلتنا ؛ والجوف تبعد عنا مسافة أربعمائة ميل ، ثم يتعين علينا بعد ذلك عبور النفود ، التى تقدر مسافتها بمائتى ميل من الرمال ، قبل أن نصل إلى نجد . يزاد على ذلك أن رحلة العودة أيضًا ، إلى الخليج الفارسى ، يتعين القيام بها دون مصادفة أى شىء أوروبى حتى ولو كان مدينة تركية . لم يتحدث معنا أحد عن المؤن والتموينات التى يمكن الحصول عليها من نجد ، فيما عدا التمر والقمح . كلام

بالجريف عن جبل شمر ، كان فى واقع الأمر ، المرشد الوحيد الذى اهتدينا به فى رحلتنا ، مع أن الشكوك كانت تدور حول هذا الكلام ، الأمر الذى اضطرنا إلى أن نضع فى اعتبارنا احتمال أن تكون المدن النجدية مجرد واحات ؛ واحتمال أيضًا أن تكون الزراعة فيها مقصورة على النخيل فقط .

ولما كان محمد غير مبال أكثر من إخوانه ، بالأمور التى من هذا القبيل ، فقد راح يؤكد على فائدته ومنفعته لنا ، من خلال الساعات الطويلة التى كان يمضيها مع ولفريد فى الأسواق ، مثلما كنت أنا أمضى ساعات طوالاً مع الطباخ والجمَّال ؛ ونظرًا لأن محمد كان حضريًا وتاجرًا بحكم مولده ، فقد وفر علينا كثيرًا من المتاعب والوقت فضلاً عن النقود .

بدأ ولفريد ومحمد بشراء طاقم كامل من الملابس البدوية لولفريد ، لا من أجل التنكر ، لأننا لم نكن ننتوى التنكر مطلقًا ، وحتى لو كنا قد فعلنا ذلك ، لم نكن ننتوى أيضًا المرور على أننا لسنا أوربيين ، وقصدنا من وراء هذه الملابس عدم لفت الأنظار إلينا بدرجة كبيرة ونحن سائرين على الطريق . كان طقم الملابس البدوية مكونًا من جُبَّة مقلَّمة مصنوعة من الحرير ، وعباءة خليط من اللونين الأزرق والأبيض ، والتى تصنع فى بلدة قرياتين ، وكوفية سوداء غطاء للرأس ، مطرزة بالذهب ويجرى تثبيتها على الرأس بعقال بدوى ؛ والعقال عبارة عن حبل من صوف الغنم أسود اللون . أحضر محمد معه سيفًا كان مملوكًا لجده ، وهذا السيف فارسى جميل ومعقوف . أهدى محمد ذلك السيف إلى ولفريد ، وحصل فى مقابله على سلاح أنيق شبيه بسيف محمد إلى حد ما ، لكن له مقبضًا من الفضة وجداه فى السوق . وجرى أيضًا كسوة محمد من جديد من رأسه إلى قدميه (وكان فعلاً بحاجة إلى هذه الكسوة) ، ودرج الاثنان على التجوال فى دمشق كما لو كانا بدويين محترمين . كان ولفريد يلتزم الصمت ويبدو مثل صديقى محمد لا يهمه الأمر ، فى حين كان محمد هو الذى يساوم ويكاسر فى أسعار العباءات ، والكوفيات ، والأشياء الأخرى التى تصلح كهدايا يمكن تقديمها للشيوخ الذين سنتعرف عليهم . كان محمد خبيرًا فى المساومة ، فضلاً عن إلمامه

بالموضة السائدة فى كل قبيلة من القبائل ، إلى حد أنه على الرغم من أن ذوقه لم يكن يتفق دومًا مع ذوقنا ، فقد كنا نتركه يتصرف حسبما يريد . الخطأ الوحيد الذى وقع فيه محمد ، كان يتمثل فى بخسه لقيمة الهدايا المطلوبة لحائل . لم يخطر ببال أحد منا ذلك الترف الذى فى نجد ، ومحمد شأنه شأن السواد الأعظم من بدو الشمال ، كان قد بلغه أن ابن الرشيد ليس سوى شيخ بدوى ، وتخيل أن جبة حمراء يمكن أن تكون أكثر من رائعة عنده ، مثلما هى عند ابن شعلان أو ابن مرشد ، ومع ذلك أخذنا معنا بعض الهدايا المهمة ، التى تمثلت فى البنادق والمسدسات التى كنا نحملها معنا ، الأمر الذى جعلنا لا نخشى وصولنا ونحن صفر اليدين .

كانت المشتريات التى وقعت على عاتقى ، ومعى عبد الله والطباخ ، من النوع المفيد تمامًا ، وأنا لست بحاجة هنا إلى وصفها هنا وصفًا مفصلاً . فيما يتعلق بالملابس ، لم يتحتم علىَّ إحداث أى تغيير ، اللهم باستثناء استبدال الكوفية بالقبعة ، وارتداء عباءة بدوية فوق ملابس السفر المعتادة . أما حنًّا وعبد الله فكانا أستاذين فى المساومة ، وراحا ينافسان بعضهما فى تنزيل أسعار المؤن والتموينات . كانت مواد طبخنا عبارة عن : التمر ، والدقيق ، والبرغل (نوع من القمح المجروش يستخدمه السوريون بدلاً من الأرز) ، والجزر ، والبصل ، والبن ، وبعض الفواكه المجففة ، واشترينا من كل ذلك كمية تكفينا إلى أن نصل إلى الجوف . كنا قد أحضرنا معنا من إنجلترا شيئًا من مرق لحم البقر ، وشيئًا من مكعبات الحساء المصنوعة من الخضراوات ، وكمية صغيرة من الشاى ، التى ربما نحتاج إليها . كنا قد اتخذنا قرارًا بعدم الإكثار من المؤن والتموينات المحفوظة ، التى تؤدى إلى زيادة أوزاننا ، وزيادة أوزان أمتعتنا ، وفيما يتصل باللحم قد ننتهز فرصة صيد أرنب جبلى أو غزال ، أو قد نشترى خروفًا بين الحين والآخر .

بدأت الأمور بداية حسنة ، وبدا أن خدمنا كانوا كنوزًا ، ولم نجد صعوبة فى الحصول على اثنين من العقيليين ليكونا جمَّالَين معنا . وجدنا أن من الحكمة المحافظة على الاتجاه الذى عزمنا السير فيه ، ومن الطبيعى أن تكون بغداد أول أهدافنا . لم

نبلغ أحداً بالخطة الرئيسية سوى محمد وحنّا ، لأنهما هما اللذان نثق بهما . حنا هو الشخص الوحيد الذى كان يشعر بين الحين والآخر بشىء من القنوط مما نحن مقبلون عليه . لم يتظاهر حنا بأنه بطل ؛ كان لحنا زوجة وأبناء وكان يرتبط بها ارتباطًا شديداً ؛ كان حنا يحس ، وهو على حق فى ذلك ، أن وسط الجزيرة العربية لا يمكن أن يكون مكانًا له أو لأى أحد من أمته أو من ملته . جاءنا حنا ذات صباح ، ليقول لنا أنه انتوى العودة إلى الوطن حيث محل إقامته فى حلب ، وكان الرجل بحاجة إلى قدر كبير من خفة الظل والمرح قبل أن يستعيد حاله الذى كان عليه من قبل ؛ لكنى لم يخطر ببالى أنه يود تركنا وعدم تكملة المشوار معنا . لقد قطع المسافة كلها من حلب على أمل الانضمام إلينا ؛ يضاف إلى ذلك أن رفقة العملاق الشاب الذى أسماه " شقيقه " ، والذى تقرر له أن يشاركه خيمته ، أكدت أقوال حنا . وعندما بدأنا ، كنا نعلم أنه سوف يصبر على ما تسببه لنا الأقدار .

اكتملت التجهيزات كلها فى اليوم الحادى عشر ، وكنا على استعداد للرحيل . ومن باب التمهيد لبدء الرحلة ، انتقلنا إلى إحدى الحدائق الواقعة خارج البلدة ومعنا إبلنا وخيولنا حتى تكون لنا الحرية فى التحرك فى أى يوم فى فترة الصباح دون استرعاء الانتباه إلينا ، وفى الاتجاه الذى نختاره نحن . كان الناس فى دمشق يعلمون أننا ننوى السفر إلى بغداد ، وكنا نحن أيضًا قد عقدنا العزم على التحرك فى الاتجاه نفسه ، وذلك منعًا للتساؤل من ناحية ولأننا سوف نلتقى محمد الدوخى فى جيرود ، أولى القرى على الطريق المؤدى إلى تدمر من ناحية ثانية ؛ وكنا نعرف أن محمد الدوخى كان موجوداً عند ولِدْ على فى جيرود . بدا لنا أن محمد الدوخى هو أنسب من يمكن أن يضعنا على الطريق ومعروف فى مثل هذه الرحلات أن المسيرات الأولى تكون بالغة الصعوبة ، إن لم تكن أخطر المسيرات على الإطلاق . معروف أن أطراف الصحراء هى الأخطر بصفة دائمة ، هذا يعنى أننا كلما ابتعدنا عن الشاطئ تقل احتمالات لقائنا للناس ، سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء . خطر ببالنا أننا سوف نتمكن من الحصول من محمد الدوخى على رجل يقودنا فى خط مستقيم من جيرود إلى مكان

ما في وادي السِّرحان ، مع بقائنا خارج حوران تمامًا ، نظرًا لأن حوران هذه تعد أسوأ المناطق سمعة وصيتًا ، سالكين في ذلك خطًا أو طريقًا عامرًا بالبرك ، أو بالأحرى الأبيار التي يعرفها البدو . وبعد أن استقر حالنا على ما قررناه ، ظهر لنا محمد الدوخي فجأة في دمشق ، الأمر الذي أدى إلى تغيير خطتنا .

محمد الدوخي بن سمير ، هو أعظم شخصيات الصحراء الشمالية الغربية بعد ابن شعلان ، وكان في ذلك الوقت ، كما سبق أن قلت ، في حرب مع شيخ الرولة . كان محمد الدوخي يستهدف ما يلي منذ زيارته لدمشق : في فصل الخريف ، قامت مفرزة مكونة من خمسة عشر جنديًا تركيًا ، بالهجوم على مخيمه دون مبرر ، وفتحت نيرانها على ذلك المخيم ، وقتلت طفلاً وامرأة . لم يكن ذلك المخيم يتجاوز بضع خيام قليلة من حيث العدد ، وكانت خيام ذلك المخيم مبعثرة بسبب المرعى ، إضافة إلى أن الشيخ كان غائبًا عن المخيم بصحبة الرجال . حاول الرجال الذين كانوا في المخيم تطويق المفرزة وعزلها ، ونجحوا في ذلك ، وقتلوا واحدًا من الجنود في القتال الذي دار بين الطرفين . كان بوسع وِلْد على قتل أفراد المفرزة كلهم لولا وجود حربة (*)، زوجة محمد الدوخي ، التي اندفعت بين المتقاتلين ، معترضة على حماقة أهلها في توريط أنفسهم في معركة مع الحكومة . وقد أنقذت شجاعة هذه المرأة الجنود . وأخذتهم في حمايتها ، وفي صبيحة اليوم التالي أرسلتهم بصحبة حرس مرافق إلى مكان آمن .

ولما كان محمد الدوخي مشغولاً بحربه مع الرولة ، واضطراره إلى حماية نفسه من ابن شعلان مستخدمًا في ذلك أسوار بلده جيرود ، كان طبيعيًا منه أن يشعر بالقلق ويتطلع إلى تسوية مسألة الجندي المتوفي ؛ وسرعان ما سمع الرجل عن وصول مدحت باشا إلى دمشق ، وفطن الرجل إلى مهادنة الباشا الجديد عن طريق الحضور

(*) حربة : هي ابنة فارس المزيد ، شيخ المصونة.

إلى سراى الباشا ليكون من بين أوائل الزوار . كان ابن شعلان بعيداً عن هذا الاتجاه ، والمعروف أن الزائر الأول هو الذى يحظى بالمزيد من اهتمام الباشا . كان ابن سمير يدبر مكيدة صغيره للحرس المرافق للحجاج ، الذى كان يقوم بتزويده ببعض التموينات ، أو بالأحرى ، كان يتطلع إلى تزويده بالتموينات والمؤن . كان عبد القادر صديقًا لمحمد الدوخى ، يضاف إلى ذلك أن عبد القادر نزل أول ما نزل عند بيت الأمير ، كما عثرنا عليه نحن أيضًا فى منزل الأمير . وعلى الرغم من نبالة محمد الدوخى من حيث العرق ، فهو لا يعد عينة طيبة من شيوخ البدو الكبار . أدب هذا الرجل جم وغير طبيعى ، مما يذكرنا بسلوكيات الحضر أكثر من سلوكيات الصحراء ؛ تتردد أيضًا بعض القصص عن عدم تمسك محمد الدوخى بالدين ، وهو أمر لا يصعب على المرء اكتشافه إذا ما التقى ذلك الرجل . تظاهر الرجل بالسرور والفَرح عندما رآنا مرة ثانية ، وأعرب الرجل عن ولائه وإخلاصه التام لخطتنا وكل ما فيه راحة لنا . وقرر أن يصحبنا هو بنفسه فى المراحل الأولى من رحلتنا ، أو أن يرسل معنا أحد أبنائه أو رجاله فى أضعف الأحوال ؛ وقد تناقص ذلك كله إلى أن وصل إلى مجرد كتابة بعض رسائل التزكية ، وتقديم المزيد من النصح . وفيما يتصل بموضوع النصح هذا قال الرجل : إن رحلة من قبيل تلك التى نود القيام بها خارج حوران لن تكون رحلة عملية فى الوقت الراهن . قال الرجل : إن المطر لم يسقط فى فصل الخريف ، الأمر الذى ترك الحمد يعانون قلة الماء ؛ اللهم باستثناء وادى السرحان ، الذى لا تجف آباره مطلقًا ، وأبلغنا أيضًا عن عدم وجود مسقى فى اتجاه الجنوب من التلال . من هنا ، نصحنا محمد الدوخى ، بمغادرة دمشق عن طريق الحج ، الذى يحافظ على مساره خلال حوران ، ونصحنا أيضًا بالسير فى هذا الطريق إلى أن نصل إلى بنى صخر ، الذين سنجدهم مخيمين على مقربة من ذلك الطريق . كانت الفرصة سانحة للقيام بذلك بصحبة الجردة العسكرية ، التى كانت على وشك الاتجاه إلى الجردة ، التى هى محطة من المحطات على طريق الحج . شرح لنا محمد الدوخى مصطلح الجردة الذى كان جديداً علينا وقال : الجردة هى إحدى جماعات الغوث التى يجرى إرسالها كل عام من دمشق ، للالتقاء بالحجاج وهم فى طريق عودتهم إلى أوطانهم ، وتحمل الجردة معها

إمدادات الحياة الضرورية ، والمؤن والتموينات ، فضلاً عن الإبل الإضافية لاستبدالها بالإبل المصابة أو المكسورة . ومحمد الدوخى هو الذى يرافق هذه الجردة ، أو قد يرافقها رجال هذا الرجل ، وهنا راقت لنا فكرة مرافقة هذه الجردة ؛ على الرغم من أننا عندما شرعنا فى تنفيذ هذا الكلام وجدنا أنه كان كلامًا معسولاً مثل عروض الشيخ السابقة . وهنا تحتم علينا وضع خطة ، سيئة أم حسنة ، وهذا يعنى أن حملنا رسائل من رجل عظيم مثل ابن سمير ، ستكون لها قيمتها ، حتى وإن كانت غير موجهة لمن يهمهم الأمر .

وبناء على ما تقدم ، ودعنا فى اليوم الثانى عشر أصدقاءنا فى دمشق ، وكتبنا آخر رسائلنا من دمشق إلى أصدقائنا فى إنجلترا ، وودعنا متاعب وآلام الحياة الأوروبية وداعًا طويلاً . وشرعنا فى رحلتنا ، اعتباراً من اليوم الثالث عشر .

اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر . بدأنا رحلتنا بالفعل ، وكان ذلك مصادفًا ليوم الجمعة الموافق للثالث عشر من الشهر نفسه . وأنا هنا شخصياً لا أعترض على يوم بعينه من أيام الأسبوع ، أو حتى من أيام الشهر . لكن واقع الأمر ، أن الرحلة المشئومة الوحيدة التى قمنا بها بدأت بيوم الجمعة ، وولفريد يوضح أنه هو نفسه من المؤمنين بالخرافات ، وذاكرته عامرة بكثير من الظلال المظلمة . ومع ذلك ، أصر ولفريد نفسه على بدء الرحلة يوم الجمعة ، وأراه يجادل بطريقة غير منطقية إلى حد ما أن الطالع سعيد ، أو بالأحرى غياب هذا الطالع ، أو إن شئت فقل : التنبؤات أو النذر ، يعد من سوء الحظ ، وأن ليس من السلامة فى شىء أن يبدأ الإنسان رحلة وهو فى إطار ذهنى بهيج .

استيقظنا عند منتصف الليل على صياح استغاثة من اللصوص الذين دخلوا الحديقة ، وبعد أن انطلقنا جريًا من خيمتنا ، لنرى شجاراً دائرًا ، وعندما جاءت الأضواء ، اتضح أن ذلك الشجار صادر عن رجلين ، أحدهما حارس الحديقة والثانى جندى من الجنود ، وكانا يقتادان أسيراً . كان خدمنا واقفين حول هذين الرجلين ، فى حين كان حنًا يتأكد من تقييد الأسير تقييداً تامًا ومحكمًا ، وراح يلهبه بعصا وهو يقول

بين الحين والآخر : " يا لص ، يا كلب ، يا خنزير ! يا خنزير ، يا كلب ، يا حرامى ! " القصة التى رووها لنا مفادها أن البستانى وجد ذلك الرجل يتحرك فى أنحاء الحديقة ، وبعد جهد جهيد استطاع الإمساك به . لم يكن الأسير قد أصيب بجراح ، أو ينزف منه دم ؛ ولما كانت الأضرار الناجمة عن ذلك اللص تعد أمورًا طفيفة ، فقد أصدر ولفريد أوامره بإطلاق سراحه فور طلوع النهار . وأسباب إطلاق سراح هذا اللص تتمثل أولاً فى أن تسليمه للعدالة يمكن أن يؤدى إلى تأخير موعد رحلتنا ، ثانيًا ، يحتمل أن الحادث كان من تدبير البستانى هو والجندى بالاتفاق مع الأسير على أمل المكافأة التى يمكن أن يحصلا عليها من ولفريد . المهازل الصغيرة التى من هذا القبيل تعد أمورًا شائعة فى الشرق ؛ ونحن عندما رفضنا التعامل معها وأخذها مأخذ الجد ، اضطر الرجلان إلى التخلى عن الموضوع .

مع انبلاج أول خيوط الفجر ، قوضنا خيامنا ، وحملنا إبلنا ، وبعد شروق الشمس بقليل كنا نمتطى صهوات خيولنا ، وقطعنا مسافة لا بأس بها فى مسيرنا صوب نجد ! فى البداية درنا حول المدينة ، وتخطينا البوابة التى يقال إن القديس بولس دخل منها ، وتخطينا أيضًا المكان الذى يقال إن القديس بولس صعد عنده فوق الجدار ، ثم عبرنا ضاحية الميدان ، أو بالأحرى ذلك الحى الذى يحتله البدو عندما يجيئون إلى دمشق ، وهو أيضًا الحى الذى عثرنا فيه على الرجل التدمرى ، الذى حصلنا منه على الإبل . كان مفترضًا أن نلتقى الجردة فى هذا المكان ، وانتظرنا هنا بعض الوقت عند بوابات الله ، فى حين دخل محمد الدوخى لتحرى بعض الأمور والقيام ببعض الاستفسارات ، والاستئذان من أصدقائه التدمريين . معروف أن تلك هى البوابة التى يتجمع أمامها الحجاج ، ومنها يمتد طريق الحج على شكل خط مستقيم فى اتجاه الجنوب . وسوف نسلك طريق الحج إلى أن نصل إلى الجردة ، والطريق ليس سوى مدق واسع متهالك تمامًا ، على الرغم من أنه لا يرقى مطلقًا إلى مستوى الطرق حسب الأعراف الإنجليزية . ومع ذلك ، فإن ، هذا المدق له مسحة رومانسية إلى حد ما ، إذ أن الإنسان يتحتم عليه أن يتفكر . ذلك الطريق الطويل الذى يمر بكثير من الأراضى

القاحلة ، هذا الطريق الذى عبرته آلاف مؤلفة من البشر ولكنهم لم يعودوا أو يرجعوا منه . وأنا أرى أن هذا المدق فى تاريخه الطويل ، جرى حفر قبر فى كل ياردة منه اعتباراً من دمشق إلى المدينة (المنورة) ، وذلك من منطلق أن رحلة العودة تزداد خلالها نسبة الوفيات بين الحجاج جراء الإرهاق وعدم كفاية الطعام .

كان منظر قافلتنا وهى تنتظر عند البوابة منظراً مشهوداً . كان كل ذلول(*) يحمل خُرْجين مصنوعين من صوف السجاد ، ولكل خرج منهما شراريب على الجانبين تتدلى إلى منتصف الطريق إلى الأرض ؛ وكان لكل جمل من هذه الإبل رشمة أو مقود . أما إبل الحمل ، فكان شكلها مبهجًا على الرغم من أنها كانت أقل زينة من الذلول ؛ وهذا هو ولفريد راكبًا على فرسه الكستنائية اللون ، لا يحتاج سوى حربة وبعدها يصبح بدويًا بمعنى الكلمة . بقية جماعتنا مكونة من محمد وحنا يمتطى كل منهما ذلولاً ، وإد عم محمد ، المدعو عبد الله ، الذى نسميه شيخ الإبل ، ومعه اثنان من العقيل هما : عواد ، الزنجي ، وصبى طيب الملامح يدعى عبد الرحمن ؛ بقية جماعتنا ؛ هذا بالإضافة إلى محمد الدوخى نفسه هو وحنا ، كل هؤلاء مع محمد الدوخى يشغلون خيمة واحدة من خيام الخدم ، فى حين كان حنا " وشقيقه " إبراهيم يشغلان خيمة أخرى ، وسبب ذلك أن فارق الأديان ينبغى مراعاته فى مثل هذه الأمور . ومن المزايا الكبيرة أن يكون الخدم ، أثناء السفر ، غرباء عن بعضهم ، وأن يكونوا من أعراق مختلفة أو ملل مختلفة أو مذاهب مختلفة ، وهذا يمنع الترابط فيما بينهم فى حال التمرد أو العصيان . سيكون العقيل عصبة ، والتدمريون عصبة أخرى ، والمسيحيون عصبة ثالثة ، وعليه إذا ما تشاجروا مع بعضهم البعض ، يصبح أمر اتحادهم ضدنا بعيد المنال . واحتمال ظهور بعض المتاعب نتيجة هذا التنوع أمر مستبعداً ؛ ولكن طول مدة الرحلة التى تصل إلى قرابة ثلاثة أشهر هو المهم ، وكل شىء لابد من دراسته قبل الإقدام عليه .

(*) الذلول ' ويصح فيه أيضاً ' الدلول ' هو الجمل . (المترجم)

لم يغب محمد الدوخي طويلاً في ضاحية الميدان ، وعاد إلينا بنبأ مفاده أن الجردة لم تصل بعد إلى ضاحية الميدان ، وربما تكون عند خان دنون الذى يقع على بعد بضعة أميال على الطريق . هذا يعنى أنه لا طائل من وراء انتظار الجردة فى هذا المكان الذى نحن فيه . وبعد أن ودعنا صديقنا السيوفى (الذى صحبنا إلى هذا المكان) استأنفنا مسيرنا . لم يحدث شيء مهم خلال اليوم الأول من رحلتنا ؛ وكل ما شاهدناه هو عبارة عن غزال مر علينا على الطريق ، ومشاجرة دارت بين حدأة ، وصقر ، وغراب ، وحظى الغراب فيها بالغنيمة كلها ؛ كانت هذه هى الأحداث التى مرت بنا فى هذا اليوم الأول . ومن فوق قمة سلسلة جبلية منخفضة ألقينا نظرة على ما وراءنا ، لنرى دمشق لآخر مرة ، بمآذنها ومنازلها التى تطوقها الخضرة . لن نرى المنازل بعد الآن ، على امتداد أيام كثيرة . هذا هو جبل حرمون يظهر فى الناحية الشمالية ، على شكل كتلة ضخمة ، رؤيته غير واضحة بسبب حرارة الجو ، وعلى الرغم من أننا أصبحنا فى شهر ديسمبر فإن الصيف لم ينته بعد . واقع الأمر ، أننا عانينا اليوم من حرارة الجو ، أكثر مما عانيناه على امتداد رحلتنا الأخيرة كلها .

فى دنون لم نر علامة ولم تصلنا أية معلومات عن الجردة ، ومن هنا قررنا ألا نعتمد على هذه الجردة . ونحن لا نحتاج إلى قوة مرافقة على طريق من هذا القبيل ؛ لأن الطريق عامر طول اليوم بالغادين والرائحين ، والسواد الأعظم من هؤلاء البشر ، هم مثلنا ، ذاهبون إلى مزارب لحضور السوق السنوية التى تقام فى مزارب كل عام بمناسبة وصول الجردة إليها . من بين هؤلاء البشر ، نجد أيضًا ضبطيات الشرطة وبعض الجنود ؛ وهذا يعنى أننا سوف نمر على قرى عدة على الطريق . ملأنا قراب الماء من دنون وخيَّمنا فى الليلة الأولى على أرض مرتفعة تطل على جبل حرمون . هذه أمسية جميلة بالفعل ، لكنها ليست مقمرة ؛ لأن الشمس تغرب عند الساعة الخامسة .

اليوم الرابع عشر من شهر ديسمبر . ما زلنا سائرين فى طريق الحج خلال الأرض المنزرعة ، شديدة الخصوبة فى إنتاج القمح والشعير ، على حد قول محمد الدوخى ، على الرغم من غطائها المكون من الحجر الناعم . هذه الأحجار الناعمة عبارة عن أحجار سوداء وأحجار بركانية ، شديدة اللمعان وشديدة النعومة ، كما لو كانت مقذوفة من حوران يوم أن كان بركانًا . تربة هذه الأرض تبدو كما لو كانت مخصصة لزراعة الكروم العظيمة الرائعة ، بعض الناس يقولون إن عناقيد العنب التى أحضرها الجواسيس إلى يشوع جاءت بالقرب من هذا المكان . القرى التى مررنا على الكثير منها ، سوداء ولامعة أيضًا ، وتبدو فى ضوء الشمس كما لو كانت أماكن موحشة ، وخالية من الأشجار أو أى شىء يسر الناظرين . الحقول فى هذا الوقت من العام تكون جرداء بطبيعة الحال ، وخالية من المحاصيل ؛ هذه الحقول على هذا الحال منذ زمن طويل ، ما دامت ليست هناك أمطار تساعد حتى على نمو الأعشاب . هذا الجزء من المنطقة التى يطلق الناس عليها هنا اسم لجة ، عبارة عن منطقة من الحفر السوداء تمامًا ، والمهمة عند علماء الآثار باعتبارها أرض أوج Og، ملك باسان Basan، الذى يزعم البعض أن بقايا وحطام مدنه لا يزالان موجودين إلى يومنا هذا .

عند الظهر ، مررنا بحطام صغير حكى لنا محمد عنه قصه غريبة ، نظرًا لأنه سافر من خلال هذا الطريق ذات مرة يوم أن كان والده مقاولاً لإبل الحج : حدث ذات يوم أن كان هناك طفلان تَيَتَّما فى تاريخ مبكر تمامًا . كان أكبرهما صبيًا ، ساح فى الدنيا بحثًا عن حظه ، أما الطفل الآخر فكان صبية ، ربتها أسرة خيّرة فى دمشق . وبمرور الزمن التقى الأخ والأخت بطريق المصادفة ، دون أن يعرفا القرابة التى بينهما ، وتزوجا نظرًا لأن الزواج حسب العرف الشرقى يتم عن طريق أطراف أخرى . وبعد مقارنة الملاحظات ، اكتشفا الخطأ الواقع بينهما ؛ ولما كان الشاب تواقًا وقلقًا بشأن التكفير عن الخطأ الذى وقعا فيه عن غير قصد منهما ، راح يستشير أحد الحكماء فيما يجب أن يفعله طلبًا للتوبة . وقيل لذلك الشاب أن عليه الحج سبع مرات ،

وأن يعيش سبع سنوات أخرى فى مكان صحراوى على طريق الحج يقدم خلالها الماء للحجاج . وفعل الشاب ذلك الذى طُلب منه ، واختار المكان الذى مررنا به ليكون الجزء الثانى من توبته وندمه . وعندما انتهت السنوات السبع ، عاد إلى دمشق ، ولا يزال المنزل الصغير الذى بناه ، وأشجار التين التى زرعها شهوداً على قصة هذا الرجل . ولم يخبرنى محمد عن مصير الفتاة ، ويبدو أن الأمر لم يكن يعنيه فى شىء .

أطال محمد فى الحديث إلينا عن واجبات الأخوّة ، كما لو كان يقترح علينا أمراً من الأمور . من رأيه أن الأخ الثَّرِى يتعين عليه تقديم الهدايا لأخيه الفقير ، وألا تكون تلك الهدايا مجرد ملابس ، بل فرس جميلة ، أو ذلول جميل ، أو حوالى عشرين رأساً من الغنم ، - فى حين ينبغى على الأخ الفقير المحافظة على حياة حليفه المخلص ، أو يثأر له إذا ما مات مقتولاً غيلة . سأله ولفريد ، كيف يمكن أن يثأر لحليفه إذا ما تطلب الأمر ذلك ؟ قال محمد : " فى البداية يتعين علىَّ البحث عن سافك الدم والتحقق منه . يجب أن أسمع ، على سبيل المثال ، أنك كنت جائلاً فى حوران وأنك قُتِلت ، لكن يتحتم أن أعرف القاتل . وهنا يتعين على مغادرة تدمر ، وآخذ معى جملين كيما أبدو مهتماً بالمال والأعمال ، ويتحتم على الذهاب إلى المكان الذى قُتلت فيه ، تحت اسم مستعار ، ويجب على التظاهر بأنى أود شراء القمح من قرية قريبة من المكان . وهنا يتعين علىَّ التعرف إلى النساء كبيرات السن ، اللاتى يكن مغرمات بكثرة الحديث ، وهنا سوف أتمكن من معرفة الأمر برمته إن آجلاً أو عاجلاً . وبعد أن أكتشف الفاعل الحقيقى ، يتعين على مراقبه مجيئه وخروجه مراقبة لصيقة ، وأتحين الفرصة التى تجعلنى آخذه على غرة ، وأمرر سيفى خلاله . وأعود بعدها إلى تدمر بأقصى ما وسعتنى سرعة الذلول الذى أركبه . " وهنا اعترض ولفريد قائلاً : إننا فى بريطانيا نرى أن الشرف يقضى بأن نعطى الخصم فرصة الدفاع عن نفسه ؛ لكن محمد لم يلق بالاً لما قاله ولفريد . رد محمد قائلاً : " هذا ليس بصحيح . مهمتى تتمثل فى الثأر لك وليس فى القتال مع الرجل ؛ وإذا ما تهيأت لى الفرصة يمكننى أن أجهز عليه وهو نائم أو عندما يكون أعزل . وإذا ما كان فقيراً بائساً ، لا حول له أو طول ،

تعين على قتل واحد من أقاربه بدلاً عنه ، ويفضل أن يكون ذلك هو رب العائلة . أنا لا أوافقك على أسلوب تنفيذك لهذه الأعمال التى تتحدث عنها . وطريقتنا هى الأفضل . "
ربما يكون محمد قد استعمل العقل والمنطق (والعرب وحدهم هم الذين لا يعرفون المنطق) ، وتوصل إلى أن هناك آخرين غيره داخلين فى ذلك العمل الذى يجرى تنفيذه بطريقة سرية ومؤكدة . الثائر للقتيل لا يحمل فقط حياته وحده بين يديه وإنما حيوات أسرته كلها ؛ وإذا ما فشل هو فى الثأر وجرى اغتياله يصبح الطرف القاتل مديناً بالمزيد من الدم . كان محمد يرى ، أن المنطق والعقل لا وجود لهما فى الأمور التى تكون من هذا القبيل . وأن ما قاله هو العرف السائد ، وليس هناك غير ذلك .

نحن الآن على بعد مسافة صغيرة جنوبى قرية جُنيَّة ، التى أوَفَدْنَا إليها عبد الله ومعه ذلوله لشراء شىء من العلف للماشية . المنطقة هنا ليس فيها مرعى للإبل أو أى شىء تأكله الخيول . فى الناحية الشرقية نرى خط سلسلة جبال حوران الأزرق ، وفى ناحية الغرب نرى التلال السورية الممتدة من حرمون إلى عجلون حكيت لمحمد قصة الشمس الواقفة بلا حراك فوق جبيون Gibeon والقمر الذى فوق عجلون ؛ وتلقى الرجل منى هذه القصة كما لو كانت أمراً طبيعيًا تمامًا . ولم يقل لى شيئًا عن هذه القصة سوى أنه لم يسمع عنها من قبل .

نسيت أن أقول : إننا عبرنا الطريق الرومانى القديم مرات عدة هذا اليوم . الطريق بحالة معقولة لكن مدق القوافل الحديث يتحاشى هذا الطريق . ربما كانت العربات ذات العجلات أكثر شيوعًا فى الماضى وتحتاج إلى طريق حجرى . الأمر فى أيامنا هذه لا يتطلب ذلك . فى غبغات ، تلك القرية التى مررنا عليها عند الساعة الحادية عشرة ، اكتشفنا خزانًا من خزانات الماء ، يجرى ملؤه من أحد العيون ، وبينما كنا واقفين عند ذلك الخزان كى نسقى منه إبلنا مر علينا ثعلب يجرى وفى إثره كلبان رماديان كانا يطاردانه ، ولحقا به وقتلاه . أحد هذين الكلبين ، كان أزرق اللون ، أو بالأحرى رمادى فضى ، وجميل للغاية ، وحاولنا شراء هذا الكلب من صاحبه

الجندى ، الذى رفض أن يأخذ الثمن . بعد ذلك ، رحنا نعدو بأفراسنا التى كنا سعداء بها . لكننا نحن الاثنين تعبنا من ذلك الركض الذى لم يستمر سوى مسافة قصيرة ، من منطلق أننا لم نكن نتدرب من ناحية ، وإحساساً منا بحرارة الشمس من الناحية الأخرى .

الأحد الموافق لليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر . غادرنا منطقة لجة ونحن الآن فى حقول واسعة جرداء ، منطقة لطيفة خاصة بالفلاحين لكنها ليست مهمة شأنها فى ذلك شأن سهول ألمانيا أو شمالى فرنسا . هذه الحقول أفضل رياً من أراضى لجة ؛ عبرنا اليوم مجارى مائية عدة مستخدمين فى ذلك جسوراً حجرية قديمة ترجع إلى الطريق الرومانى . هذه المجارى المائية ، فى رأيى ، تمتد إلى أن تصل إلى الأردن ، مكونة بذلك مستنقعاً على جانب الطريق من الجهة اليمنى ، الذى قال محمد الدوخى عنه إنه موبوء باللصوص ، هؤلاء البشر الذين يجوثون بين نباتات الغاب والبوص الطويلة ، إلى أن يحصلوا على أسير وعندها يهربون بالغنيمة ويصعب اقتفاء أثرهم أو تتبعهم . ومع ذلك ، لم نر شيئاً يثير شكوكنا ، أو شيئاً يهمنا اللهم باستثناء قطيع ضخم من طيور طيهوج الرمل ، التى استطعنا الحصول على أربعة منها وهى تمر من فوق رؤوسنا . كانت هناك أيضاً جحافل كبيرة من طيور الزرزور ، كما اصطدنا أيضاً أرنباً برياً . تجاوزنا قرى كثيرة ، كانت أهمها قرية شمسكين ، التى توجد فيها أنقاض بلدة قديمة . وهنا اتجه طريقنا صوب اليمين ، تاركاً الطريق الرومانى . هذا الطريق يتجه مباشرة إلى بزرة التى كانت بمثابة المدينة الرئيسية فى حوران ، فى الأزمان القديمة .

توقفنا فى تفاز لزيارة بعض التدمريين الذين يستوطنون تفاز ، وهم من أقارب محمد لكنهم ليسوا فى جانب ابن عروق، هؤلاء الناس لهم قيمتهم لكنهم يندر احترامهم كأقارب . تبدو تفاز كأنها كومة من الحطام شبه غارقة فى روث ومخلفات البهائم . فقد انتشر الطاعون البقرى بين البقر هذا العام ، وها هى جثث الأبقار ملقاة فى كل مكان تعانى من التحلل بكل أشكاله . وقد لاقينا بعض المصاعب ونحن نشق

طريقنا خــلال هذه الجـثث وصــولاً إلى ذلك العش المبنى من اللبن ويعـيش فـيـه ذلك التدمرى . كانت أسرة ذلك التدمرى مكونة من رجلين في منتصف العمر ، شقيقين ، ومعهما أمـهما ، وزوجتاهمـا ، وابنة لطيفة تدعى شمسـة (بمعنى سطوع الشمس) ، وبعض الأبناء ، فضلاً عن رجل كبير السن ، ربما كان عمًا أو جدًا للآخرين . كل هؤلاء تجمعوا حولنا وراحوا يحتضنون محمد ويقبلونه ، وهنا يتعين علىَّ القول إن محمد لم يكشف عن أى نوع من التباهى أو الكبر بسبب ثيابه الجديدة . لقد استقبلنا هؤلاء الناس الفقراء استقبالاً حاراً ؛ وإن هى إلا دقائق معدودات حتى بدأوا يطحنون البن ؛ وسرعـان ما أعدوا لنا إفطاراً مكونًا من خبز غير مخمـور ، رقيق وجمـيل ، وبيض مـخفوق ، ولبن رائب ، ونوع من الدبس حلو المذاق يصنعونه من الزبيب . وبينمـا كنا نتناول الإفطار طلَّ علينا مـهر صـغـير وهو يقف عند باب الحظيـرة ؛ كمـا طلَّت علينا أيضًا بعض الدواجن وكلب جميل رمادى اللون ، خطر ببالى أن هذه الحيوانات كلها جائعة ، وأنها كانت تنظر إلينا بشغف شديد . كان الناس مهمومين لعدم سقوط المطر من ناحية وفقدانهم لثورهم من ناحية ثانية ، الأمر الذى يثير الشكوك من حول آمالهم المرتقبة فى العـام المقبل . ومع ذلك أبلغـونا أن لديهم مـخـزونًا طيـبًـا من القـمح فى صوامعهم الموجودة تحت الأرض ، وأن ذلك المخزون يكفيهم مدة عام أو أكثر ، وهذا يعكس تفكيرًا أو تخطيطًا مسبقًا لم أكن أتوقعه من مثل هؤلاء الناس . هذه البلاد تحتم التحوط والاحتراس من المجاعات التى قد تحدث كل بضع سنوات ، ومبلغ علمى أن الناس فى الأزمان القديمة كانوا يحتفظون دومًا بحصاد عام كامل .

بعد كثير من الرجاء والتوسل إلينا بأن نقضى الليل معهم وفى ضيافتهم ، وافق هؤلاء الناس البسطاء على رحيلنا ، مع وعدهم لنا بأن أفراد الجماعة سوف ينضمون إلينا فى اليوم التالى فى مزارب ، نظراً لأن مزارب كانت قريبة منا . وصلنا إلى مزارب عند الساعة الثالثة تقريباً ، وخيَّمنا فى قطعة الأرض التى يقام عليها السوق . كان المنظر من خيامنا جميلاً جداً ، فكان عبارة عن سلسلة جميلة من التلال البعيدة ، تلك تلال عجلون التى تقع فى الجنوب الغربى ، وتبعد قرابة ميل عن تلك البحيرة

الصغيرة التى تبدو شديدة الزرقة وبراقة ، وفيها خان جميل مهدم ، أو إن شئت فقل : قلعة مهدمة فى الجزء الأمامى من تلك القرية . على الجانب الأيسر توجد خيام السوق ، والسواد الأعظم منها أبيض اللون ، وهى من الطراز التركى . يوجد حوالى مائة وخمسين خيمة ، على شكل أربعة صفوف ، مكونة بذلك شارعًا من نوع ما . قرية مزارب تقع على جزيرة فى البحيرة ، ويربطها بالشاطئ ممر حجرى ، لكن السوق موجودة على الأرض الرئيسية . هناك خليط كبير من الناس ، ومن الخيول ، ومن الحمير ، ومن الإبل ، كل هؤلاء يأتون إلى السوق من سائر الأنحاء . كل هؤلاء لم يركزوا علينا بعد ، الأمر الذى تمكنا معه من نيل قسط من الراحة . هذه ريح منعشة تهب علينا من الجنوب ؛ وهذا هو السحاب يبدو كما لو كان محملاً بالمطر . لم يسبق لى مطلقًا أن تمنيت سقوط المطر فى رحلة من الرحلات ، ولكنى أتمنى من كل قلبى سقوط المطر علينا هنا فى هذا المكان ؛ هؤلاء المساكين بحاجة ماسة إلى سقوط المطر .

اليوم السادس عشر من شهر ديسمبر . لم نفعل شيئًا طوال هذا اليوم سوى استقبال الزائرين ، أول من زارنا كان حورانيًا قال عن نفسه إنه واحد من الشيوخ ، وأبلغنا خبرًا مفاده أن صدام بن شعلان هو والروالة فى مكان ما من الأزراق وإذا ما صح ذلك ، فإنه سيكون من حسن حظنا ، لكن الروايات الأخرى جعلت ذلك الأمر صعبًا ، وأثارت من حوله الشكوك . جاءنا زائر شاب مهم ، أحد مواطنى بريدة فى نجد ، الذى أتى إلينا عندما علم بنبأ سفرنا إلى الجوف ليتصادق معنا . وعلى الرغم من طيب خلقه فهو ليس مهمًا ، بل إنه يعترف بأنه كان يعمل خادمًا مع شخص ما فى بغداد ، لكنه فى ضوء زعمه أنه من سلالة بنى لام فى نجد ، ادعى أنه تربطه قرابة بمحمد ، بل إنهما جلسا مع بعضهما جلسة ودية طوال فترة الصباح ، بحيث كان كل واحد منهما ممسكًا بطرف من طرفى مسبحة محمد . سألنا الرجل عن نجد ؛ لكنه على الرغم من معرفته كلاً من حائل ، والقصيم ، وأماكن أخرى ، فهو لم يعطنا سوى معلومات قليلة جدًا . يبدو أنه غادر نجد عندما كان صبيًا صغيرًا . ومع ذلك

سعدنا بذلك القليل الذى أخبرنا إياه ، وهو مطمئن إلى أن كل الناس سيسعدون بلقائنا فى نجد ، وأعطانا الرجل أسماء وعناوين أقاربه فى نجد .

ذهب محمد الليلة الماضية بحثًا عما إذا كان هناك أحد من بنى صخر فى السوق ، لأننا نحمل لهم رسائل من محمد الدوخى ؛ وعند الظهر قدم لنا محمد شخصاً يدعى سخن؛ وسخن هذا هو ولد فندى الفايز ، الشيخ الأسمى للقبيلة . لم يكن سخن هذا قبيح الملامح ، وعندما أطلعناه على الرسالة التى عرضها على والده ، أبلغنا سخن أن الشيخ قد وصل منذ وقت قصير ، ولذلك أرسلناه مرة ثانية لإحضار الشيخ . بينما كان حنا يقوم بإعداد القهوة ، وصل الرجل المسن إلى خيمتنا . هذا الرجل يختلف من حيث الشخصية عن شيوخ العنزة الذين سبق أن التقيناهم ، إذ ذكرّنا ذلك الرجل بالجبورى أو بالأحرى عرب الفرات . بنو صخر هم شماليون فى واقع الأمر ، أو إن شئت فقل : هم من أهل الشمال ، الذين يتميزون تمامًا عن أهل نجد ، الذين ينتمى إليهم كل من العنزة والشمر . هذا الرجل المسن ، صاحب الملامح الصارمة واللحية الرمادية ، والأنف الكبيرة ، التى ذكرتنا بالنمط العربى التقليدى الوارد فى صور الكتاب المقدس ، وتتفق مع فكرة سمعتها مفادها أن بنى صخر(*) هم فى حقيقة الأمر بنى الصقّار ، تلك القبيلة الضائعة أو المفقودة .

كان الشيخ صاحب سلوك صارم ، على نحو صعَّب مسألة مواصلة حوارنا معه . وهذا راجع إلى أنه قد لا يكون لديه ما يقوله لنا ، أو أنه لم يكن يود إبلاغه لنا ؛ ودار الكلام بصفة أساسية بين ولده الثانى المدعو طلال ، وهو تاجر مسيحى (موجود هنا فى مهمة تجارية) ، ومحمد المرافق لنا فى رحلتنا . ونحن ، من جانبنا ، لم نتطرق إلى موضوع رحلتنا ؛ لكن بعد تقديم القهوة ، جرى حوار خاص بين محمد والشيخ ، وأسفر ذلك الحوار عن دعوة وجهها لنا الشيخ ؛ ووصف الشيخ لنا خيامه وقال : إنها

(*) صخر : بمعنى حجر – هو الأصل الحقيقى لاسم هؤلاء القوم .

فى مكان ما قريب من الزرقة على طريق الحج ، ومن ذلك المكان سوف يرسلنا الشيخ إلى بلدة معان ، ثم فى النهاية إلى الجوف . هذه الخطة لم ترق كلها لولفريد Wilfrid، الذى كان مصراً على استكشاف وادى السرحان ، الذى لم يحدث أن وصفه أحد من الأوربيين من قبل ، كما يصر ولفريد أيضًا على أننا ينبغى أن نذهب أولاً إلى الزرق . يبدو أن فندى لا يستطيع السير بنا فى هذا الطريق ، نظراً لأنه ليس على وئام مع كريشة ، ذلك الفرع من قبيلته ، الموجود على الطريق . ربما كان الفندى خائفًا أيضًا من الروالة . الأمر هنا محير ، بشأن هذا التقديم الذى واجهناه فى البداية ، ومع ذلك نحن لسنا على استعداد للتخلى عن مسارنا أو حتى الانتظار هنا إلى أن يستعد الفندى للقيام بما هو مطلوب . يضاف إلى ذلك أن أفراد الجردة لا يتوقع وصولهم قبل يومين آخرين ، وقد يستغرق الأمر أسبوعًا قبل أن يستأنفوا مسيرهم من جديد .

فى ساعة متأخرة من النهار ، جاء إلينا ، أصغر أولاد فندى وعرض علينا أن يرافقنا هو بنفسه إلى الجوف ، لكن نظير أجر كان خارج تصورنا تمامًا . وقد سبق لسلطان السفر مع بعض الإنجليز على الحدود السورية ، وبالتالى ترسخت فى ذهنه بعض الأفكار الغبية عن النقود . كنا قد عزمنا على إعطائه مبلغ خمسة جنيهات ؛ لكنه كان يتحدث عن مائة جنيه. وعليه تركناه يذهب لحال سبيله . جاءنا بعد ذلك شمَّرى من الجبل ، وقال لنا إنه مستعد لمرافقتنا نظير خمسة عشر مجيديا ، وجاءنا ، وقدم لنا عرضًا مماثلاً لعرض الشمرى . استأجرنا الاثنين ولم يستطع أى منهما أن يرينا أى شيء سوى الطريق . هذا يعنى أنهما لن يكونا بمثابة رُسل معنا على الطريق . والمشكلة المتمثلة فى الذهاب إلى وادى السرحان ، تكمن فى عرب الشرارات الذين يتوزعون فى وادى السرحان ، والذين يصعب التعامل معهم نظراً لأنهم ليس لهم شيخ . يضاف إلى ذلك أنهما خائفان من شيوخ بنى صخر ، وبالتالى يخافان أيضًا من محمد الدوخى ومن ابن شعلان ؛ ونحن إذا ما استطعنا الحصول على ممثل مناسب من واحد من هؤلاء ، على أن يرافقنا ويكون معنا ، فسوف يسير كل شيء على ما يرام . لكن مسألة تحقيق هذه الأمنية هى مربط الفرس .

كان الجو هنا خانقًا وشديد الحرارة ، وانقشع مظهر المطر عن المكان . ووصلت درجة الحرارة على الترمومتر عند الظهيرة إلى حوالى ٨٦ْ .

اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر . قررنا عدم الانتظار هنا ، وعزمنا على مغادرة المكان صباح الغد فى اتجاه الزرق ، أملاً فى العثور على أحد فى الطريق . سوف يتعين علينا المرور خلال بزرة، وقد يكون حظنا حسنًا هناك . كان الشمرى يرى أن الأمور ستكون على ما يرام ؛ ولكن الكريشى جاءنا اليوم وهو يطلب ثلاثين جنيهًا بدلاً من جنيهين وعشر شلنات ، وأبلغ محمد أن فندى هو الذى أبلغه بطلب هذا المبلغ . يبدو أن الكريشى متحالف مع فندى ، على الرغم من أن فرع قبيلته ليس على وئام مع الشيخ الكبير . ومع ذلك ، ما يزال الكريشى يتحدث عن تَوَصُّله إلى الشروط الأساسية ، ولكن ذلك سيتم دون إذن من فندى . يبدو أن الحرص والشدة أمران واجبان مع البشر الذين يكونون من هذ القبيل ، نظرًا لأنهم يرون أن تبذير المال إنما يكون بفعل السُّذج والمغفلين .

كنا قد أوفدنا محمد إلى السوق لشراء بعض المستلزمات الأخيرة ، والسؤال عن جملين إضافيين . الآن وبعد أن تقرر سفرنا عن طريق وادى السرحان ، سوف يتحتم علينا شراء جملين إضافيين نستعملهما فى حمل الأعلاف . فى المواسم العادية قد لا يكون ذلك أمرًا مهمًا ، لكن الناس هنا يقولون إننا لن نجد مرعى هذا العام . العليق ، أو بالأحرى علف الإبل فى دمشق ، يتكون من نوع من الحبوب ، التى من قبيل الفاصوليا أو العدس المجروش ، وقشر أخضر ، وبذور حمراء . يجرى خلط كل ذلك على شكل عجينه مع دقيق القمح ، وإضافة شىء من الماء ، ثم يجرى تشكيله بعد ذلك على شكل كرات بيضوية الشكل طول الواحدة منها خمس بوصات . يحصل الجمل على ست من تلك الكرات كل يوم ؛ هذه الكرات الست كفيلة بالمحافظة على سمنة الجمل إذا ما جَرَّد بعض المخلفات فى الطريق . ونحن نحمل معنا شعيرًا للأفراس .

هذا هو عمَّار وسليم ، قريبا طفاز، جاءا إلينا وفاءً بالزيارة التى وعدونا بها ، وربما يكونان بصحبتنا غداً . أحضرا معهما مكيالاً من الفريكة ، والفريكة نوع من القمح المجروش جرشًا ناعمًا ، أى أنه نوع من البرغل ، كما كان معهما أيضًا شىء من الخبز ، ودجاجتان ؛ وكان معهما أيضًا معطف مصنوع من جلد الغنم ، أعدته واحدة من النساء لمحمد ؛ كما كان معهما أيضًا ذلك الكلب الرمادى الصغير ، الذى شاهدناه أمام بيتهما ، كل ما جاءوا به كان على سبيل الهدية ، أو ما يشبه ذلك تمامًا ، وذلك طبقًا للعرف السائد فى هذا المكان .

عاد محمد إلينا ومعه جملان طلبًا لموافقتنا ، أحدهما كان حيوانًا أليفًا لكنه طويل الأرجل ، أما الجمل الثانى فكان قصير الأقدام وعريض الصدر مثل الإبل التى تدخل المسابقات طلبًا للجوائز . دفعنا ثمنًا لهذين الجملين بواقع عشرة جنيهات لواحد منهما وأحد عشر جنيهًا للثانى . لم نبت بعد فى مسألة من سيرافقنا ، ومن سيفارقنا . لم يكن أمامنا من شىء غير ذلك وبعدها سنرحل عن مزارب فى الغد .

بينما كنت أكتب ، سمعت جلبة كبيرة وصياح استغاثة من اللصوص صادر من السوق . ها هم يُغَطِّسون رجلاً فى ماء البحيرة .

الفصل الثالث

" إن من ليس له رغبة فى القتال
عليه أن يرحل . وسيكون جواز سفره جاهزاً . "

شكسبير

التجوال – البصرة – مغادرة الممتلكات التركية – محمد يقسم بأنه سيذبح شاة – قلعة سلخاد والدروز المستقلين – استقبال الرئيس الدرزى لنا – ملاحظة تاريخية عن حوران .

اليوم الثامن عشر من شهر ديسمبر – فقدت قافلتنا بعض أعضائها . وإذاما بدأنا بالمرشدين نجد أن الكريشى والشمرى لم يحضرا ، ثم جاء بعد ذلك عبد الرحمن ذلك العقيلى الصغير ، يطلب منا السماح له بالعودة إلى موطنه . قال لنا : إنه صغير جداً على نحو يصعب معه القيام بهذه الرحلة ، ويخشى أن يوافيه أجله على الطريق . كان عبد الرحمن قد أحضر معه ولد عمه ليكون له بديلاً ، يقوم بما سنعهد به إليه ، على نحو أفضل مما يفعله عبد الرحمن نفسه ، نظراً لأن ولد العم هذا لم يكن خائفاً ولا يخشى أى شىء . ومع ذلك ، وافقنا على اصطحاب ولد العم وتركنا عبد الرحمن يذهب لحال سبيله . والمعروف أن المتكاسلين فى الرحلات يكونون أسوأ من التافهين . يضاف إلى ذلك ، أن العبد عوَّاد ذهب إلى حال سبيله هو الآخر . هذا العواد ، شأنه شأن السواد الأعظم من الزنوج ، كان له رأى خاص فى نفسه ، وأصر على أن نعامله باعتباره أكثر من مجرد خادم ، كما أصر أيضاً على أن يكون له حمار يركبه . وبذلك أرسلناه هو الآخر لحال سبيله . وقد غضب عواد غضباً شديداً عندما طلبنا منه

الذهاب لحال سبيله ، وكسَّر الرباب الذى أعطيناه إياه كى يعزف عليه ، إذ كان بوسع هذا العبد أن يعزف ويغنى بطريقة جيدة . أصبحنا الآن ، وعلى سبيل الحصر ، نحن الاثنين ، ومعنا محمد ، عبد الله ، وحنا ، وإبراهيم ، ثم البديل - أى أننا أصبحنا سبعة أشخاص ، لكن أهل طفاز سوف يصحبوننا طوال مسير اليومين الأولين ، ويساعدوننا فى سياقة الإبل .

سعدنا لأننا استطعنا التخلص من قذارة السوق وضوضائها ، وتركنا طريق الحج إلى مدق مختصر فى الجنوب الشرقى ، موصل إلى بزرة . وعلى امتداد النهار بكامله كنا نمر خلال منطقة مأهولة بالسكان ، فيها قرى متعددة وتربة خصبة حمراء ، جرى حرثها بالفعل ، فى كل أجزائها ، وكانت تنتظر سقوط المطر . كان الطريق عامراً بالمسافرين على ظهور الحمير والمسافرين سيراً على الأقدام إلى مزارب ، وكانوا يغنون أثناء مرورهم علينا . شاهدنا فى القرى المتعددة التى مررنا عليها آثار الطاعون البقرى الذى انتشر مؤخراً بين الماشية ، وتمثل ذلك فى الأعداد الكبيرة النافقة من الماشية ، التى كانت جثثها تتناثر هنا وهناك . أحصيت سبعين جثة من جثث الحيوانات النافقة فى مكان واحد صغير ، وتلك خسارة كبيرة ومخيفة تكبدها هؤلاء القرويون المساكين ، نظراً لأن كل بقرة وكل ثور يصل ثمنه إلى حوالى عشرة جنيهات إنجليزية . سألت عن سبب نفوق هذه الحيوانات ، وقيل لى إن ذلك من الله ، ومع ذلك يقول محمد عن هذا المرض إنه أبو هزلان (بمعنى أبو الهزال) .

هذه المنطقة ، هى أفضل مناطق زراعة القمح ، دونًا عن سائر المناطق الأخرى ، لكن إذا لم يسقط المطر تحولت هذه المنطقة إلى أرض جرداء . القرى هنا تعتمد فى الحصول على الماء ، على سقوط الأمطار . وفى كل قرية يوجد خزان محفور فى الصخر . ومن الصعب معرفة كيف تمتلئ تلك الخزانات بالماء ، نظراً لأن هذه الخزانات ليس لها مصارف تفضى إليها ، كما أنها على العكس من ذلك يجرى حفرها على أرض مرتفعة . هذه الخزانات كلها الآن خالية من الماء ، ويعنى هذا أن تلك الخزانات جافة فى الوقت الحالى ، مما يحتم على أهل القرى جلب مياه الشرب من أماكن تبعد

أميالاً عدة . هذه المنطقة التى نحن فيها حالياً هى جزء من حوران ، ونحن الآن فى واحدة من قرى حوران ؛ والناس هنا يسمون هذه القرية غيزة . الناس هنا ليسوا عرباً خُلَّصاً ، نظراً لأن البعض منهم لهم عيون غير سوداء .

هذا هو شيخ القرية ، الذى هو من أصدقاء والد محمد ، يستقبلنا استقبالاً طيباً ، ويصر على وضع كل ما لديه تحت أمرنا وتصرفنا : اللبن ، وطبق من الأرز ، وشعير للخيل ، والأهم من ذلك كله هو الماء اللازم لنا ولهم فى آن واحد . هذا الشيخ اسمه حسَّان ، وله زوجة جميلة جداً ، كانت من بين الجمع الذى تجمع حولنا فور وصولنا إلى القرية . هذه المرأة ، شأنها شأن نساء هذه القرى كلها لم تتظاهر بالخجل أو الكسوف ، وراحت تجرى بلا حجاب ، شأنها شأن أية فلاحة من الفلاحات الإيطاليات . الواضح أن هذه الزوجة كانت ابنه مدللة ، الأمر الذى جعل حسَّان يأمرها أكثر من مرة بالذهاب أو العودة إلى منزلها . كان شيخ القرية يمضى معنا فترة المساء . والرجل مهموم بقريته ، التى تحتاج إلى الماء احتياجاً شديداً . لقد نفقت الماشية كلها ، كما سبق أن قلت ، يضاف إلى ذلك أن دواب الحمل التى تستخدم فى جلب الماء آخذة فى النفوق أيضاً . أقرب عين من عيون الماء إلى هنا ، توجد فى منطقة بزرة ، التى تبعد عن هنا اثنى عشر ميلاً ؛ وإذا ما نفقت الحمير أيضاً فلابد أن تموت القرية عطشاً . أبلغنا حسَّان أن فرنجياً مر بهذه المنطقة قبل عامين ، وأن ذلك الرحال أبلغ حسان عن حتمية وجود بئر قديمة فى مكان ما بين الأنقاض التى بنيت منها هذه القرية ، وأن ذلك الرحال كان يبحث عن تلك البئر . وقد دلَّنا ذلك الرحال على المكان المحتمل لوجود تلك البئر أو لحفر بئر جديدة . ونحن بدورنا نستشعر كثيراً من الحزن ، لأننا ليست لدينا المعلومات الهندسية الكافية لتحقيق ما يريده هذا الرجل ؛ وأنا لا أعرف كيف يتصرف المصلح الحقيقى التركى (ليس مدحت باشا بطبيعة الحال) مع مثل هذه المطالب الملحة والمهمة . غيزة تبعد عن دمشق حوالى خمسين ميلاً فى اتجاه طيران الغراب ، وهناك عشرات القرى من هذا القبيل فى سائر أنحاء حوران ، وبوسع الحاكم السورى إنقاذ وغوث هذه القرى عن طريق إيفاد مهندس للمرور على هذه القرى . لكن

فى غياب الترام ، والسكك الحديدية ، تتضاءل فرص حفر الأبيار وحدها فى ظل نظام الحكم القائم .

أسدى لنا حسان نصحًا طيبًا ، مع اللحم والشراب الذى قدمهما لنا . فقد ذكَّر حسان محمداً بواحد من أصدقاء والده القدامى ، الذى يرى أنه قد يفيدنا أكثر من أى إنسان آخر ، وينصح لنا أن نقصد ذلك الصديق قبل أى إنسان آخر . هذا الصديق من أصدقاء والد محمد القدامى اسمه حسين بن نجم الأطرش ، وهو شيخ قوى من شيوخ الدروز ، يعيش فى مكان ما خلف جبال حوران . هذا الشيخ لابد أن يكون له أقارب فى بعض القبائل البدوية ، الموجودة خلف جبال حوران ، نظراً لأن ذلك الشيخ يعيش فى بلدة صغيرة تقع على حافة المنطقة المأهولة بالسكان فى اتجاه وادى السرحان . ونحن بدورنا سمعنا الكثير عن هذا الجزء من بلاد الدروز ، وأنه غير آمن ، لكن ما هى البلدان المأمونة خارج نطاق السلطة التركية ؟ يبدو أن اقتراح شيخ قرية الغيزة أمر لابد من اتباعه ، ومن ثم سوف نيمم المسير نحو هذا البلد الدرزى .

الكلبة شيخة رمادية اللون (التى سميت بهذا الاسم تيمنًا باسم نبات قديم) يثبت أنها وديعة وأليفة . هذه الكلبة من الكلاب المعتادة على حياة الصحراء ، وهى تفضل التمر على أى شىء آخر . وأنا صنعت لها معطفًا تلبسه أثناء الليل إذ إنها تستشعر البرد .

اليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر . لم يغادر حسان منزله صباح هذا اليوم ، بل تركنا نرحل فى هدوء . مجيئه لتوديعنا ربما يعتبر إشارة إلى طلب هدية ، والواضح أن الرجل لم يكن يتطلع إلى شىء من هذا القبيل . وتلك أول مرة نحظى فيها بالكرم دون مقابل فى بلدة من البلدان ، وهنا يجب أن أقول إننا عندما كنا مع والد محمد فى تدمر كانت نساء العائلة يطلبن منا نقوداً . وفى الصحراء لم يكن سلوك أو تصرفات حسان بحاجة إلى دليل .

قبل مغادرة غيزة ذهبنا لزيارة منزل له أرضية مصنوعة من المنمنمات الرومانية ، عبارة عن حلايا مكونة من أشجار البرتقال ، والرمان ، والكروم العامرة بقطوف

الأعناب ، ومزهريات ، وسلال ، كل ذلك مرسوم على لوحة أرضيتها بيضاء . هذه الحلايا تنطق بجودة صناعتها ، وأنها استطاعت مقاومة الطقس والماء ، نظراً لوجودها خارج المنزل ، وهى بمثابة الرصيف من فناء المنزل .

وصلنا إلى حيث نحن الآن فى بزرة ، بعد مسير منتظم استمر ثلاث ساعات ونصف الساعة . مدخل المنزل لافت إلى حد ما ، هذا المدخل شبيه بالطرق الرومانية القديمة ، التى تمتد أميالاً عدة على شكل خط مستقيم ، لتنتهى إلى بوابة كلاسيكية الطراز ، توجد بعدها كتلة من الأنقاض والأعمدة ، وعلى اليمين توجد قلعة قديمة جميلة . كان هناك غراب أسود واقفًا فوق البوابة ، وعندما مررنا عليه راكبين نعق قائلاً : " كاو " .

مما لا شك فيه أن موراى **Murray** وصف بزرة ، وعليه لن أبدد وقتى فى الكتابة عن الأنقاض التى لم نتفحصها أو ندرسها بعد . يبدو أن هذه الأنقاض رومانية ، ومحافظ عليها جيداً . القلعة هنا أكثر حداثة ، وربما كانت من آثار غير المسيحيين ، وهناك كومة كبيرة مكونة من نتف من أشياء قديمة . هذه القلعة فيها حامية صغيرة من الجنود الأتراك ، وآمل أن تكون هذه هى آخر القلاع التى لن نرى غيرها على امتداد مسيرة أيام عدة ، وسبب ذلك أن بزرة هى أحدى بلدات حدود حوران ، إضافة إلى أن البلاد الواقعة بعد بزرة لا تعترف بسلطة السلطان عليها . وأنا أرى أن شغل الناس لبلدة بزرة يرجع إلى فترة لا تزيد عن خمسة عشر إلى عشرين عامًا مضت ، أى فى المدة التى توقف عندها وميض تركيا باعتبارها دولة من الدول الماضية فى التقدم والاحتلال ، وأن أهل بزرة ، قبل هذه الفترة ، كانوا يدفعون إتاوة لابن شعلان ، مثلما كانوا يفعلون قبل ذلك مع وهابى نجد . ما يزال الرواة إلى يومنا هذا على اتصال ببزرة وأهلها بشكل أو بآخر ، وسبب ذلك هو أن الراعى الذى التقيناه عند الأبيار الموجودة خارج بزرة ، أكد لنا أن ابن شعلان كان يسقى إبله من هذه الأبيار ، وأن آخر مرة سقى فيها هذه الإبل كانت قبل شهرين من الزمن . فى مكان ما ، لا يبعد

كثيراً عن بزرة دارت المعركة التى دامت أربعين يومًا بين المسَنَّة مصونة والروالة ، فتح الله(*) هو الذى وصف هذه المعركة . وعلى الرغم من المبالغة ، وبلا أدنى شك ، فى تفاصيل هذه المعركة ، فإن معرفة محمد بهذه المعركة هى معرفة تراثية . وقد سأل ولفريد اليوم محمد بصفة خاصة عن هذه المعركة ، ووجد أن محمد يؤكد تمامًا ما قاله فتح الله عن سقوط مصونة . وأضاف محمد أيضًا بعض التفاصيل المهمة عن تاريخ مصونة الحديث . خيمنا خارج بزرة عند حافة خزان كبير مربع الشكل قديم البناء ، لا تطاله اليوم يد الترميم وجاف أيضًا . وهنا يمكن أن يكون لمدحت باشا والشراكسة موطئ جديد من مواطئ الاحتلال .

اليوم العشرين من شهر ديسمبر . أزعجنا نباح الكلاب طوال الليل ، كما أزعجنا أيضًا الأصداء الصوتية الغريبة الصادرة عن الأماكن الخربة المحيطة بنا . لم يسبق لى سماع شىء من هذه الأشياء غير الطبيعية - فى ليلة باردة - وحزن غير طبيعى أيضًا ، وهذا هو حال الليالى عندما يتأخر طلوع القمر ، ثم يختلط بعد ذلك مع ضوء الفجر .

ولَّى أقارب طفاز لحال سبيلهم ، ولَّوا وهم آسفون لوداعنا . سليم ، أكبر الاثنين ، حكى لى أنه مضى عليه إلى الآن حوالى ثلاثين عامًا فى حوران ، ولا يفكر حاليًا فى العودة إلى تدمر . تربه طفاز خصبة جداً وينمو فيها كل شىء ، أما فى تدمر فالأمر يقتصر على الحدائق التى تروى من المجارى المائية . سليم فلاح ، ويحب الحرث والبذر أكثر من حدو الإبل ورعيها . ذهبنا إلى طفاز ، وكان سليم يركب فرسه الكستنائية ، كبيرة السن ، والمرهقة ، والعوراء أيضًا ولكنها أصيلة ، أما عمَّار فكان يركب مهره المدعو كشيلة الذى حصل عليه من الروالة ، وهذا المهر هو الآخر عجوز وشديد العرج . ذهبنا وعيونهم مغرورقة بالدموع ، ويتمنون لنا كل البركات الممكنة على الطريق .

(*) هذا خطأ ، نظراً لأن المعركة خاضها أطرافها على ضفتى نهر العاص.

ترتب على رحيل هذين الرجلين ، قيام كل منا بحصة زائدة من العمل ، وأمضينا يومًا عصيبًا فى تحميل الإبل وإعادة تحميلها ، نظرًا لأننا كنا نسير بين التلال ، وكانت الطرق سيئة للغاية . هذه هى الماشية لم تتعود بعد بعضها على البعض ، يزاد على ذلك أن الجمل العجوز ، الذى اشتريناه من مزارب كان يود العودة إليها . هذا الجمل بائس عجوز وماكر ، وكان يتحين فرصة التجوال على هواه كلما كان يرانا نوجه ناظرينا إلى الطريق الآخر ، وكان يطمح إلى الهروب عندما كان يصل إلى قطعة من الأرض غير مستوية . حاول الجمل مرة أو مرتين استغفالنا . هذا الجمل العجوز يود العودة إلى أسرته ، على حد قول عبد الله ، لأننا اشتريناه من قطيع كان هو فيه السيد والآمر ، كان سلطانًا بين الإبل . كان طريقنا وعرًا هذا اليوم . أمرونا بالسير فى الطريق المؤدى إلى سلخد ، التى هى نقطة عند الأفق البعيد ، أى عند حافة حوران مباشرة ، والطريق الوحيد المؤدى إليها هو الطريق الرومانى . هذا الطريق الرومانى كان عبارة عن خط مستقيم يمر عبر التلال والوديان ، ونظرًا لأنه كان هناك حجران مفقودان من بين كل ثلاثة من الأحجار المستخدمة فى تمهيد الطريق ، ونظرًا أيضًا لأن بقية الأحجار كانت مقلوبة رأسًا على عقب ، فقد تحول الطريق إلى نقاط تعثر من بدايته إلى منتهاه . حذرنا الناس وطلبوا منا الاحتراس من اللصوص ، الأمر الذى جعلنا ، ولفريد وأنا ، نتقدم القافلة ، كيما نقوم باستطلاع كل صخرة وكومة . تجاوزنا قرية أو قريتين من القرى المدمرة ، لكننا لم نلتق أحدًا طوال اليوم ، وواصلنا سيرنا فى اتجاه تل سلخد المدبب ، وعندما اقتربنا من ذلك التل اكتشفنا وجود قلعة ضخمة على قمته . هذا هو الريف قد تحول إلى كتلة من المنخفضات ، التى تحولت إلى أكوام فى بعض المواقع ، مكونة بذلك ركامًا ضخمًا ، ليس حديثًا ، وإنما منذ القدم ، عندما كانت العمالقة أو المردة يعيشون فى تلك الأرض . من هنا كانت تربة الأرض المكشوفة تربة حمراء وخصبة ، وبالتالى جرت زراعتها هنا وهناك . كان هناك مرعى صغير ، نظرًا لسقوط المطر على التلال ، كما شاهدنا بعضًا من الماعز عن بعد .

مع اقترابنا من سلخد ازداد الطريق سوءًا إلى حد جعل محمد يقسم أنه سينحر خروفًا إذا ما قدر لنا الوصول سالمين إلى حسين الأطرش . سعدنا لذلك القسم وطلبنا

منه المعنى من وراء ذبح الشاة ؛ وحكى لنا محمد قصة نبى الله إبراهيم ، الذى وعد بأن يذبح ولده ، والذى منع من فعل ذلك بواسطة نبى الله موسى (*) ، الذى ظهر له وأوقفه عن فعل ذلك ، وعرض عليه جملين قال إنهما بديلان عن ذبح ولده . هذه الوعود أو النذور التى ينذرها العرب عجيبة تمامًا ، وهى بالتأكيد من موروثات الأضحيات القديمة ، أوضح محمد لنا مسألة هذه الأضحيات قائلاً : "البدو " على حد قوله " يفعلون ذلك دومًا عندما تلم بهم المصاعب والمشاق" ، ولم يستطع محمد توضيح سبب ذلك ، وإنما قال إن ذلك تقليد قديم ؛ وإنهم عندما يعودون سيذبحون شاة ، ويتناولون لحمها مع أصدقائهم . هو لا ينظر إلى هذا العمل باعتباره طقسًا دينيًا ، وإنما هو مجرد عادة ، لكنها عادة فريدة .

بعد أن مشينا مدة تسع ساعات ونصف الساعة ، بدءًا من الساعة السابعة ، وصلنا إلى سفح تل مخروطى الشكل ، تقع عليه قلعة سلخد . هذه القلعة عبارة عن مبنى قديم ، لا يشبه قلعة حلب بشكل قليل ، فهو عبارة عن مخروط فى بعض أجزائه ، ويحيط به خندق ، مبطن بالحجر الناعم المصقول ، وعليه جدران لم تكتمل بعد . لاحظنا على بعض هذه الجدران ، الابتكار نفسه الذى على جدران قلعة حلب ، وهو عبارة عن أسد رابض ، يمثل شعار الملكية الفارسية . ومع ذلك ، فنحن نرجح أن القلعة نفسها تعود إلى تاريخ قديم ، وربما كانت موجودة من الزمن الذى قام فيه أبناء إسرائيل بغزو هذه البلاد . هنا وافقت أنا ولفريد بعد أن كنا فى المقدمة ، على الافتراق عند هذه النقطة ؛ اتفقنا على الدوران حول القلعة ، على أن يذهب هو من الجهة اليمنى ، أما أنا فأذهب إلى الجهة اليسرى ، ثم أنتظره عند قمة السلسلة الجبلية ، إلى أن يصدر لى ولفريد إشارة . فعلت المطلوب وانتظرت فترة طويلة عند قمة السلسلة الجبلية ، إلى أن

(*) هذا خطأ وقعت فيه المؤلفة لأن سيدنا موسى لا علاقة له بما حدث بين سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل ، ومع ذلك فهى تنسب هذا الكلام إلى محمد عبد الله ، وهو من آل عروق وهو نجدى الأصل ولا يمكن أن يقع فى مثل هذا الخطأ . (المترجم)

وصلت الإبل . كان ولفريد قد اكتشف بلدة صغيرة أسفل القلعة على الجانب الآخر ، بل إنه (ولفريد) نزل إلى تلك البلدة ودخلها . ولكن ولفريد لم ير أحداً فى نهاية المطاف ، وظن أن المكان مهجور ، لكن سرعان ما بدأ يظهر أمامنا بعض الناس الذين كانوا يرتدون عمائم بيضاء ويقفون على أسطح المنازل ، وقد علت الدهشة وجوههم لرؤية ذلك الخيال الذى يركب نازلاً إليهم ، نظراً لأن الطريق كان شبيهاً بالسُلَّم . حيا ولفريد هؤلاء الناس أصحاب العمائم وردوا على تحيته بمثلها ، وردوا أيضاً على سؤاله عن حسين الأطرش ، بأن أشاروا له إلى طريق يمر عبر التلال ليصل إلى بلدة ميلاخ ملَخ ، التى يعيش فيها حسين الأطرش . سألوه عن مقصده ، وقال لهم إنه يقصد بصّورة ، ويصح فيه أيضاً بصُّورة Boussora (البصرة) بغداد ؛ وهنا راحوا يضحكون مما قال ، ودلوه على الطريق ، الذى يمتد على شكل خط مستقيم من سلخد فى اتجاه الجنوب الشرقى ، وأبلغوه أن ذلك الطريق سيوصله إلى مبتغاه . هذا طريق عجيب ، لكن يستحيل أن يخطر بالبال أن هناك طريقاً فى واقع الأمر . الأرجح أن الطريق متجه إلى إزرق لكننا نأمل فى الوقوف على هذا الأمر خلال يوم أو يومين . عندما وصلنا إلى سفح التل أشار لى ولفريد ، ووجدته واقفاً عند بركة اصطناعية كبيرة ، أو إن شئت فقل خزان اصطناعى كبير ، وما يزال يحتوى على كمية معقولة من الماء ، وبعد أن وصل إلينا باقى أفراد القافلة سقينا الإبل والخيول من تلك البركة الاصطناعية . كان محمد هو الآخر قد قام برحلة استكشافية ، وعاد إلينا بخبر مفاده أن حسين الأطرش كان فعلاً فى ملَخ ، التى تبعد عن المكان الذى نحن فيه مسير ساعتين ونصف الساعة فقط .

سلخد بلد مشهور . هذا البلد معلق كما لو كان قرصاً من أقراص العسل ، أسفل القلعة القديمة على منزل شديد الانحدار ، ومنازل سلخد تبدو سوداء اللون جراء لون الحجر البركانى الذى بنيت منه منازل هذا البلد . قسم كبير من منازل هذا البلد عتيق جداً ، لكن باقى المنازل مبنية من مواد قديمة ، كما أن هناك برجاً مربع الشكل شبيه

ببرج الجرس فى كنيسة من الكنائس(*) . الخزانات الموجودة أسفل سلخد قديمة أيضًا قدم البلدة نفسها ، ولها غطاء من الحجر المجوّف المتهدم إلى حد بعيد ، وفيها أيضًا غدران حجرية لسقيا الماشية . سكان سلخد ، أصحاب العمائم البيضاء ، هم من الدروز ، ويشكلون طائفة جاءت من لبنان بعد اضطرابات العام ١٨٦٠ .

اعتبارًا من سلخد أصبح طريقنا يمتد عبر التلال بصفة أساسية ، وسبب ذلك أننا تجاوزنا حاليًا مستجمع مياه أمطار جبل حوران ، وأصبح الأمر معقدًا إلى حد ما ، إذ نتجول حاليًا بين منحنيات ومنعطفات وانثناءات الحقول الصغيرة . الأرض فى هذا الجانب من التلال مقسمة على محوطات مسوَّرة ، تكونت بفعل الكتل الصخرية التى تدحرجت نازلة من أعلى إلى أسفل ، مما يضفى على تلك المسورات طابعًا أوروبيًا أكثر من أى شىء من الأشياء التى شاهدناها مؤخرًا . هذه المحوطات المسورة يرجع تاريخها إلى زمن باكر تمامًا ، وسبب ذلك أن هذه الصخور عفى عليها الزمن إلى أن غطاها الفطر الرمادى اللون ، إلى أن أصبحت شبيهة بالأكوام الطبيعية أكثر منها بالأكوام الاصطناعية ، والمعروف أن الفطر يتكون بطريقة بطيئة فى هذه المناخات الجافة . عثرنا فى بعض هذه المحوطات المسورة على بعض الزراعات ، بل وجدنا فيها أيضًا كرومًا وبعضًا من أشجار التين . الملاحظ أن الأرض يزداد ازدهارها كلما ابتعدنا عن الإدارة التركية . كانت الشمس قد أوشكت على الغروب عندما وصلنا إلى بلد عجيب آخر من بلدان العصور الوسيطة ومبنية أيضًا من الحجر الأسود ، ولها أسوار وفيها أبراج لكنها ليست عمودية ؛ وعليه وبعد أن تركنا الإبل كى تأتى بعدنا بصحبة عبد الله وتحت إشرافه هو ورجل آخر تطوع مشكورًا لإرشادنا إلى

(*) كانت حوران من بين المناطق الأولى التى غزاها الخليفة عمر ﷺ . وقد شهدت حوران على امتداد بضعة قرون ازدهار الإمبراطورية العربية ، لكنها عانت معاناة شديدة خلال الحروب الصليبية . وليس هناك مدعاة للشك فى أن حوران ظلت مأهولة بالسكان إلى أن استولى عليها تيمور لنك فى العام ١٤٠٠ ، يوم أن أخليت الحدود الصحراوية من سكانها .

وجهتنا ، مشينا الهوينا بخيولنا مع محمد إلى أن وصلنا إلى منزل حسين الأطرش عند الغروب .

حسين الأطرش نوعية طيبة من شيوخ الدروز ، وهو يبلغ من العمر أربعين عامًا ، وهو شديد السمرة وشديد الأناقة أيضًا ، وعيناه أكثر اسودادًا ، وتبدوان أكثر جمالاً بفعل الكحل . ويبدو أن تكحيل الأعين هنا أمر عام . كان حسين الأطرش يرتدى ملابس طيبة وشديد النظافة ، كما كان يرتدى جبة وعباءة ؛ وعلى العكس من الدروز كان حسين الأطرش ، يضع على رأسه كوفية من اللون الأرجوانى المخلوط باللون الذهبى ، على الرغم من أنه كان يلبس عمامة من فوق الكوفية ، بدلاً من العقال . كان حسين الأطرش جالسًا مع أصدقائه وجيرانه فى شرفة صغيرة أمام منزله ، يتمتعون ببراد المساء ، فى حين تبينا نحن أنه كانت هناك نار مشبوبة داخل المنزل . نهض حسين الأطرش من جلسته وهمَّ للقائنا عندما كنا ننزل من فوق خيولنا ، ورجانا أن نتفضل بالدخول ، وهنا بدأت عدة القهوة وهاون البن يعملان عملهما ، كما طلب الرجل أيضًا تجهيز العشاء . كانت سلوكيات حسين الأطرش وتصرفاته ممتازة ، كانت عامرة بالحفاوة وخالية من البرود ، وعلى الرغم من أننا أمضينا ساعة فى الحديث عن " الطقس والمحاصيل " ، فإن الرجل تحاشى أن يسألنا عن ماهيتنا وذلك الذى نريده . ونحن بدورنا لم نقل أى شىء نظرًا لأننا نعلم أن اللحظة المناسبة لم تحن بعد . وبعد أن وصلت إبلنا ، وبعد تناول العشاء الممتاز المكون من دجاج ، وبرغل ، والجرجار ، أو إن شئت فقل الفجل الحار المضاف إليه شىء من الخل والماء ، وأطباق متعددة من الحلى ، التى كان منها طبق من الأرز الخالص ، والشاى المضاف إليه شىء من التوابل ، والجبن كامل الدسم ، وأحلى بطيخ تذوقناه فى حياتنا . هذا الطبخ وهؤلاء الناس يذكروننا ببلدات حافة الصحراء وأطرافها ، التى فيها كل شىء طيب ، طعام طيب ، وسلوكيات طيبة ، واستقبال طيب . وبعد أن أكلنا كلنا بما فى ذلك الخدم حتى الشبع ، سألنا حسين الأطرش عن هويتنا . ورد عليه محمد أننا شخصيات إنجليزية محترمة ، فى طريقنا إلى الجوف ، وقال أيضًا إنه هو نفسه محمد ولد عبد الله التدمرى ، الأمر الذى أحدث تطورًا مفاجئًا ، وأصبح من السهل علينا تبين وصولنا إلى

المكان المناسب . ومع ذلك ، كنا سعداء لأننا غادرنا المكان فى ساعة مبكرة ، نظراً لأننا كنا قد أمضينا نهاراً شاقًا ، سرنا خلاله طوال اثنتى عشرة ساعة ، فى أرض سيئة للغاية .

اليوم الحادى والعشرين من شهر ديسمبر . أقصر أيام العام ، لكنه كان ما يزال حاراً ، على الرغم من برودة الليل .

أمضينا فترة الصباح مع حسين الأطرش . منزل حسين الأطرش مبنى منذ فترة قصيرة ، لكنه يبدو عليه القدم لأنه مبنى من الأحجار القديمة . تصميم هذا المنزل بسيط لكنه طيب ، والغرفة الرئيسية فى المنزل مقسمة إلى أقسام باستعمال العقود كيما تناسب العوارض الحجرية المستخدمة فى سقف المنزل . توجد شرفة جميلة أمام المنزل ، وهذه الشرفة تطل على مساحة من الأرض غير المستوية ، ومن خلفها بعض اللمسات والومضات الصحراوية . وعندما كان ولفريد يتحدث مع حسين دخلت أنا بدورى لمقابلة سيدات هذا المنزل . حسين الأطرش ليس له سوى زوجة واحدة ؛ اسمها وردة وهى أم لطفل صغير ، يدعى محمد ، ويبلغ من العمر ست سنوات وطيب السلوك تماماً ، وكنا قد رأيناه بصحبة والده الشيخ حسين ؛ وهى أم أيضاً لطفلة جميلة تدعى أمينة وتبلغ من العمر عامين . ولها أيضاً بعض الأبناء الكبار من زوج سابق . وردة ممتلئة الجسم إلى حد ما ، ولها محيا طيب وعينان وحاجبان كحيلان ؛ وهى طيبة الشيم ، واستقبلتنى استقبالاً حاراً جداً فى غرفة تفتح على شرفة ، أمامها منظر جميل من ناحية الشرق فى اتجاه حافة حوران . جلست وردة يحيط بها أبناؤها وأقاربها ، الذين كانت والدة حسين الأطرش ووالدة وردة أيضاً من بينهم . كانت والدة حسين الأطرش تعانى من السعال وضياع الصوت ؛ كما كان هناك عضو آخر من أعضاء الأسرة يشكو من ذراع مصابة بالروماتيزم ؛ كلاهما كان يود منى أن أقدم لهما نصحاً بشأن العلاج . لم تكشف السيدات عن وجوههن إلا بعد أن ترك سعد ، سكرتير الشيخ ، المكان ، كان أسعد قد صحبنى إلى داخل المنزل . أما وردة ، فلم تخف من وجهها سوى جزء يسير مستخدمة فى ذلك طرف غطاء رأسها ، وذلك من

باب المحاكاة والتقليد ليس إلا . تحدثت وردة وأفاضت عن أبنائها من زوجها السابق : هذا مصطفى يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا ، وهو شيخ لقرية من القرى المجاورة ، وهذه ابنة تبلغ من العمر اثنى عشر عامًا كانت حاضرة معنا . هذه الابنة الصغيرة كان يبدو عليها الذكاء بحق وحصلت على شيء من التعليم ؛ مكنها من قراءة عبارة من العبارات التى فى كتاب التدريبات العربية الذى أستعمله أنا ، وهى تحفظ أيضًا سورة الفاتحة من القرآن . تعكر صفو متعة زيارتى إلى حد ما بفعل المسكَّرات والشاى والقهوة الكثيرة التى قدموها لى ؛ وقد تعاملت مع الشاى والقهوة تعاملاً مريحًا إذ إن الأكواب كانت من الحجم الصغير المعتاد ، أما قطع السكر فكانت من نوعية يصعب بلعها . وهنا جاء الطفلان الصغيران لمعاونتى وإنقاذى ؛ وبحكم حماسهما لابتلاع كل شىء ، كنت أعطيه لهما ، استطاعا أن يبعدا عنى اهتمام أمهما بعيوبى ونقائصى . عندما هممت بترك المكان أعطتنى وردة مجموعة من الريش نزعتها من جلد نعامة كان معلقًا على الجدار ؛ قالت : إن هذا الجلد جرى إحضاره إليها قبل بضعة أشهر من مكان ما فى الجنوب .

دروز حوران يقولون إنهم عرب جاءوا مع خلفاء النبى ﷺ إلى هنا قادمين من الجنوب ؛ وأن الجبل فى ذلك الوقت كان يسكنه الروم (الإغريق) ، الذين ما يزال خلفهم يعيشون فى حوران ويعتنقون المسيحية . شاهدنا اليوم واحدًا منهم فى منزل حسين الأطرش ، ويبدو أنه على وئام مع بقيه الزائرين الآخرين . كان ذلك الشخص يرتدى الزى العربى ، ولا يمكن تمييزه بأى حال عن العرب الفلاحين العاديين الذين نلقاهم فى المدن الصحراوية . النساء فيما عدا نساء حسين الأطرش ، يمشين بلا حجاب ، أى كاشفات . وهن متحضرات وصاحبات سلوك طيب ، ووجوههن ناضرة ، وخدودهن متوردة ، ويقلن دومًا " سلام عليكم " للمسافرين والمتنقلين والمارين . وهن يكحلن عيونهن بعناية ووضوح .

دار نقاش طويل حول رحلتنا . وإنه لأمر مزعج أن نرى بعد أن مضى علينا أسبوع كامل ، بعد مغادرتنا دمشق ، ولم نقطع بعد ثمانين ميلاً من الطريق المؤدى

إلى هدفنا ومبتغانا . يبدو أن الفرصة مهيأة الآن للمضى قدماً فى رحلتنا ، فقد وعدنا حسين الأطرش بأن يرسل معنا بعض رجاله إلى واحة كاف ، إحدى واحات وادى السرحان التى يجرى الاتصال بها من حين لآخر ، على هذا الجانب من جبال حوران ، نظراً لوجود أحواض الملح التى يوفد القرويون إليها إبلهم لجلب الملح . الناس هنا يقولون إن كاف تبعد عن هنا مسير خمسة أيام . المشكل الرئيسى يتمثل فى أن هناك قبائل بدوية متعددة على الطريق ، ولا أحد يعرف هذه القبيلة من تلك . السرادين السردية أصدقاء للشيخ حسين الأطرش ، وكذلك كريشة ، لكن هناك قبائل أخرى لا يعرفها حسين الأطرش ، أما بقية القبائل فهم مجرد لصوص ، وهم أسوأ من السلب قد نلتقى أية قبيلة من هذه القبائل ، أو قد نلقاها جميعها ، ومن الممكن أيضاً ألا نلتقى أحداً منهم . كان حسين الأطرش قد أوفد واحداً من رجاله إلى أزرق ، راكباً واحداً من الخيول ؛ والأزرق هذه هى أول مرحلة على طريق سفرنا من هنا ؛ والأزرق هذه فيها أبيار وقلعة قديمة ؛ وطلب حسين إلى مراسله أن يعرف من الذى يقيم فى تلك القلعة . أما كريشة فكنا نحمل لهم رسائل من محمد الدوخى ، وإذا ما وجدناهم هناك فلن نصادف أية مشكلة من المشكلات ، نظراً لأن القريشة يبلغون من القوة مبلغاً يجعلهم قادرين على حمايتنا من الآخرين . سوف نواصل رحلتنا غداً تحت أى ظرف من الظروف . نحن شغوفون بالذهاب إلى الصحراء ، لأن الحياة مرهقة هنا فى هذه البلدات ؛ هذه البلدان فيها أعداد كبيرة من البشر ، كما أن الأطفال يحدثون الكثير من الجلبة والضوضاء . الأطفال كانوا يلعبون الهوكى طول اليوم خارج خيمتنا ، إنهم أشقياء صغار متعبون . خرج ولفريد مدة ساعة عصر هذا اليوم وعثر على مجموعة من طيور الطيهوج ، التى توجد قطعان كبيرة منها فى سائر أنحاء الحقول ، فى حين رحت أنا أرسم صورة للبلدة من خلف الجدار .

تمكنا مؤخراً من الحصول على رجل يرافقنا خادماً ، ويبدو أنه فاتحة خير . هذا الرجل شمرى ، من جبل شمر ، ترك قبيلته لسبب أو آخر ، (الأرجح بسبب اعتدائه على عرف من أعراف قبيلته) ، واستوطن بلده سلخد منذ سنوات ، وفيها تزوج من

امرأة درزية . مهنة هذا الرجل الشمرى وحياته يحيط بها شيء من الغموض ، لكن وجه الرجل صبوح ، وبرغم تواضع لباسه فإن له مسحة من التميز . أحببنا (ولفريد وأنا) هذا الرجل ويبدو أن حسين الأطرش يعرف عنه بعض الأشياء . يزاد على ذلك أن هذا الشمرى قطع الرحلة من نجد إلى هنا بطبيعة الحال ، إضافة إلى أنه ذهب إلى الجوف وعاد منها إلى سلخد أكثر من مرة . وعلى حد قوله الآن : فهو يود العودة إلى بلاده . كان محمد قد اكتشف أيضًا رجلاً أحمر الشعر ، من سكان السخنة ، ومن ثم فهو من أهل الريف ؛ وقد قبل صاحب الشعر الأحمر هذا أن يأتى معنا جمَّالاً تحت أمرة عبد الله ؛ وبذلك يكتمل عدد جماعتنا من جديد ويصبح ثمانية أفراد .

نحن نتطلع إلى المبيت غدًا فى الصحراء .

ملاحظة :

المؤسف أنى بعد أن أنهيت كتابة هذا الفصل ، منى أصحابنا فى ملخ ببعض الانتكاسات فى شهر سبتمبر من العام ١٨٧٩ الميلادى ، كان مدحت باشا ، وفى إشارة منه لتوليه السلطة فى دمشق ، ومن باب تأكيد السمعة الطيبة والطاقة التى استمدها من أوروبا ، كان قد أرسل قوة مسلحة لكسر شوكة الدروز المستقلين . فى بداية الأمر قاتل الدروز دفاعًا عن حريتهم ونجحوا فى ذلك . فقد خرج الدروز وقابلوا القوات التركية وهزموها وهى تتقدم عبر لجة ، وعادت الحملة بعد أن خسرت أربعمائة رجل . بعد ذلك بشهر استعاد مدحت باشا قوته من جديد . ورشى مدحت باشا محمد الدوخى أو أقنعه باستعمال بدوه فى اجتياح القسم الشرقى من حوران . وسير طابوراً آخر من القوات النظامية عبر الجبال ، مما مكنه من الاستيلاء على سلخد وملخ، وبقية البلدان مما أدى إلى إخضاع الجميع . وهناك حاكم عثمانى حاليًا بدلاً من الشيوخ المحليين ، وامتدت نعم حكم السلطان إلى كل قرى حوران .

الفصل الرابع

" الكل صخور مبعثرة عشوائيًا

جدران سوداء من الصخر لفائف من الحجر الأسود . "

سكوت

بداية نشطة – الحرَّة – نظرية السراب – مخيم بنى صخر – وادى الرَّاجل – عشاء عيد الميلاد فى الصحراء – عاصفة رملية – وصولنا إلى كاف Kaf.

اليوم الثانى والعشرون من شهر ديسمبر . صقيع أبيض ، غادرنا المكان عند الساعة السابعة والنصف . أوفد حسين الأطرش معنا اثنين من رجاله ، أسعد رئيس عماله ومعه رجل آخر . كان معنا أيضًا رسائل من حسين الأطرش إلى على كريشة ، ورسالة أخرى إلى شيخ كاف .

كان محمد فى روح معنوية عالية ، بعد أن غادرنا المكان ، بسبب النجاح الذى أصابه فى هذه الزيارة ، وحكى محمد على الأشياء الطيبة التى قالها عنا حسين الأطرش لمحمد . حكى حسين الأطرش لمحمد أنه سبق أن التقى فرنجة آخرين ، لكنهم لم يفهموا شغل العرب ، أو بالأحرى ، ألاعيب العرب وأساليبهم ، مثلما فهمناها نحن . لقد جاء هؤلاء الفرنجة وبصحبتهم حرس مرافق لهم لزيارة الأنقاض ، لكننا جئنا لزيارته . قال محمد : "آه ، إنهم جالسون الآن يشربون القهوة ويحكون عنا . إنهم يقولون لبعضهم البعض إن البك وأنا إخوة ، وأننا نسافر معًا ، وهذا صحيح ، بحثًا عن العلاقات ، وإقامة الصداقات فى سائر أنحاء العالم . حدث ذات مرة ، أن كان هناك رجل عجوز وله ولد ، ولم يكن له من الممتلكات سوى الشيء القليل جدًا ، وعندما

رقد الرجل على فراش الموت استدعى ولده وقال له : " يا ولدى ، أنا على وشك أن ألقى ربى ، وليس لدى ما أخلِّفه ورائى لتنتفع به سوى النصح ، وأنا أنصحك : أن تبنى لنفسك منازل فى سائر أنحاء الدنيا ". ولما كان الابن قليل الفهم بحكم طفولته ، فقد راح يتعجب من الطريقة التى يمكن أن تحقق له ذلك ، نظراً لأنه لم تكن معه النقود اللازمة لتحقيق ذلك ، وعليه قام ذلك الصبى برحلة بحثًا عن واحد من العقلاء يستطيع أن يفسر له آخر كلمات والده . استمر سفر ذلك الصبى سنوات عدة ، وزار كل مكان فى الدنيا ، واتخذ لنفسه صديقًا من كل مدينة من المدن ، وأخيراً عثر الصبى على الحكيم الذى أبلغه أنه وفَّى بالفعل بذلك الذى نصحه به والده . قال الحكيم : " إن لك أصدقاء فى كل مكان ، أليس بيت صديقك هو أيضًا بيتك ؟ . "

كان ولفريد وأنا فى روح معنوية عالية أيضًا ، نظراً لأن كل شىء كان يسير على ما يرام . كان مسارنا يتجه جنوبياً على الطريق المؤدية إلى الأزرق ، وتجاوزنا قرى مدمرة متعددة وأرضًا منزرعة . كنا بين الحين والآخر نلقى قطعانًا ضخمة من طيور الطهيوج الرملى ، التى كانت مشغولة بالتغذى على الزويتى ؛ والزويتى هذا نوع من بذور النباتات الشوكية التى تنمو بوفرة فى الأراضى المُراحة . اصطاد ولفريد ثمانية من هذه الطيور بطلقة واحدة ؛ وفى إحدى القرى اشترينا عشرة حبارى من رجل ، كان يصطاد ببندقية فتيلية ، الأمر الذى وفَّر لنا كمية من اللحوم تكفى استهلاك يومين . تمكن أسعد من الحصول على كلب أنيق رمادى اللون ، منحدر عن سلالة من سلالات الكلاب طويلة الشعر ، القادرة على تشمم الصيد بطريقة عجيبة . يقول صاحب هذا الكلب إنه قادر على رؤية الطيور ، نظراً لأن العرب لا يقرون نظرية الرائحة أو يعترفون بها .

توقفنا بعد مسير ساعتين عند قرية تسمى ميتم ، التى لأسعد أصدقاء فيها ، واضطررنا فيها إلى قبول احتفال شرب القهوة ، الأمر الذى أضاع علينا وقتًا طويلاً . ثم دار نقاش جديد حول الطريق ، إذ حضر شخص من أزرق ، ليقول لنا إن السرحان مخيمون فى إزرق ، ونحن كنا نعرف أن السرحان على ود مع حسين الأطرش . وهنا

رفض أسعد هو ورفيقه سلمان السفر من هذا الطريق ، وراحا يتفكران هذا الأمر إذا ما أمضينا الليل فى هذا المكان ؛ لكننا لن نلقى بالاً لما توصلا إليه . قررنا الذهاب إلى أى مكان ، وإذا لم يكن ذلك المكان هو إزرق ، فلنسلك طريقًا آخر إلى كاف . اقترح علينا واحد من المجموعة الذهاب إلى كريشة ، التى قيل إنها تقع فى وادى الراجل ، واقترح البعض الآخر الذهاب إلى السردية ، الذين كانوا مخيمين على بعد مسير يوم واحد فى اتجاه الشرق . صعب علينا البت فى الأمر ؛ لكننا عندما كنا عند بئر القرية كى نسقى ماشيتنا ، التقينا رجلاً ومعه زوجته ، قالا لنا وصفًا يهدينا إلى السردية ، وإنهما كانا فى طريقهما للذهاب إلى هناك . وهنا حسمنا أمرنا وقررنا التوجه إلى سردية . السرادين أصدقاء لحسين الأطرش ، ولم يعترض مرشدونا الدروز على المضى قدمًا فى ذلك الطريق ؛ وأعلن عواد الشمرى أيضًا أنه موافق على ذلك . وبناء عليه غادرنا طريق الأزرق متوجهين إلى ناحية الشرق ، وسرعان ما وجدنا أنفسنا خارج المنطقة الزراعية . ستكون ميتم هى آخر القرى التى سنراها ، وها هى الصحراء أمامنا على امتداد الطريق المؤدى إلى نجد .

ها نحن نخيم هنا عند حافة هضبة من الهضاب ، ونرى أمامنا من فوق هذه الهضبة تلاً وسهلاً ، وها هو ولفريد مشغول فى مسودة خارطة تضم مختلف العلامات الأرضية ، نظراً لأننا قد نفيد من هذه المعالم إذا ما ضللنا طريقنا . المرأة والرجل اللذان التقيناهما عند البئر هاهما معنا ، وهما يعرفان مختلف النقاط بالاسم . وهذا هو عواد أيضًا يقول : إنه يعرف كل جزء من الصحراء الواقعة فيما بين المكان الذى نحن فيه وبلدة كاف ، وقد أوضح لنا أثرًا ظاهراً ، فى الاتجاه جنوب – شرق جنوب ؛ وقال : إن بلده كاف تقع خلف ذلك الأثر . الدروز شأنهم شأن الحضر يتضايقون عندما يشاهدون الصحراء ، ويغضبون منا أيضًا لأننا نخيم بعيداً عن القرى والخيام . هذه هى صخرة بركانية تخفى مخيمنا إخفاءً تامًا ، ونحن نأوى إلى هذه الفتحة البركانية أيضًا طلبًا للحماية من الريح شديدة البرودة . هناك عين فى الأسفل يسمونها عين الغيور (بمعنى عين الكافر) ؛ واستناداً إلى ما يقوله الدروز ، فإن هذا المكان هو

مسرح المعركة الكبيرة التى خاضها العرب أيام الغزو الأول ، الذى اقتلعوا فيه المسيحيين من هذا المكان . فى ذلك الزمان كانت الأرض التى تجاوزناها كلها وربما أيضاً الأرض المكسرة غير المستوية التى أمامنا ، مأهولة بالسكان ؛ كما أن هناك أثر دير محطم لا يبعد كثيراً عن الاتجاه الشمال الغربى ، ولا يزال الناس يطلقون على هذا الحطام اسم الدير ، هنا أيضاً مرعى كبير ورئيسى يسميه الناس الروثة . كانت إبلنا فيه تأخذ بغيتها منه . ونحن بدورنا تناولنا غذاءنا ، وكل شىء على ما يرام الآن ، وهذه هى السماء عامرة بالنجوم . نحن الآن جالسون على حافة فوهة البركان القديم نناقش استعدادات الغد . وقد بدأ يظهر لنا أن السردية تقع بالقرب من الخبرة ، أو إن شئت فقل : البركة التى يطلقون عليها اسم الشبواتية ، والتى بدأت تتبدى لنا قبل غروب الشمس ، مثل خط أصفر بعيد عنا فى اتجاه الشمال الشرقى ، وبعيد عنا على نحو يصعب معه الوصول إليه . هذا هو عواد يساند فكرة الاتجاه مباشرة إلى كاف ، وانتهاز فرصة العرب الذين سنلقاهم على الطريق . وعرب كريشة أمامنا فى مكان ما من هذا الطريق ، وأمامنا أيضاً عرب ابن معجل ، عاقد الرواية الذى التقيناه فى العام الماضى . وأيا كان الأمر يتعين علينا حمل كمية كبيرة من الماء ، وأن نبدأ تحركنا مع انبلاج أول خيوط الفجر .

اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر . فور طلوع النهار صعدنا إلى أعلى فتحة فوهة البركان القديم وألقينا نظرة على السهل . كان المنظر رائعًا بأثرياته المحطمة والمكسرة ، ووديانه الغريبة غير المنتظمة ، كل هذه الوديان عامرة بالصخور البركانية ، التى ازدادت سواداً على سوادها ومن خلفها سماء الصبح صفراء اللون . كل وادٍ من الوديان الكبيرة لابد أن يكون فيه شىء عجيب ، وبخاصة هذا الوادى ، الذى يمكن للأوروبيين أن يقولوا : إنهم لم يجيئوا إليه مطلقًا من قبل ، بل إن أهل حوران أنفسهم لا يعرفون شيئًا عنه . يزاد على ذلك ، أن هذا الوادى يبدو أن له تاريخًا ، وأن هذا التاريخ قد يعود فقط إلى زمن الملك أوج Og، ملك باسان ونحن لم نجئ إلى هنا لإلقاء نظرة على المنظر أو بحثًا عن سبب رومانسى ؛ لقد جئنا هنا لدراسة الأرض والبلاد التى أمامنا ونتبين إن كان بوسعنا اكتشاف آثار

لخيمات عربيــة . وبعد أن فتشـنا المنطقـة المحيطة بنا تفتيشًا جيداً تبينا عموداً نحيفًا من الدخان فى اتجاه الشمال الشرقى ، أى على بعد مسافة تقدر بحوالى اثنى عشر ميلاً عنا ، كما تبينا أيضًا عموداً آخر فى اتجاه الشرق . عمود الدخان الأول لابد أن يكون هو سردية ، أما العمود الثانى فقد يكون كريشة . وبعد أن اقتنعنا بذلك عدنا إلى جماعتنا ، الذين كانوا قد بدءوا تحريك الإبل ، ومع طلوع الشمس بدأنا مسيرنا .

واصلنا تعثرنا هنا وهناك طوال اليوم بين جلاميد صخور الحرة ، وكنا نسير خلال مدقات صغيرة ، تكفى لحركة الإبل أثناء تقدمها ، ورحنا نشكل دائرة كبيرة لنجد أنفسنا فى نهاية المطاف قد قطعنا مسافة اثنى عشر ميلاً فقط اعتباراً من المكان الذى بدأنا منه . فى بداية الأمر حافظنا على صحبة معارفنا الجدد ، أو بالأحرى الرجل والمرأة المتجهين إلى سردية ، لكننا عندما وصلنا إلى سفوح التلال وجدنا هؤلاء الناس المتجهين إلى سردية قد اتجهوا صوب الشمال ، وتمنينا لهم رحلة سعيدة ، مما أغضب الدروز ، الذين لم يستسيغوا مسألة بحثنا عن كريشة ، ولم يستسيغوا أيضًا فكرة الذهاب مباشرة إلى كاف . وهنا اضطر الدروز إلى مرافقتنا ، عندما اكتشفوا أننا لن نستمع إلى أية حجة أو سبب من الأسباب ، وقد فعلوا ذلك عن طيب خاطر . الشخصية العربية تتمتع بجاذبية وسحر خاص يتمثل فى أن هذه الشخصية لا تضمر حقداً لأحد ، حتى فى توافه الأمور . العبوس أمر جد نادر فى الشخصية العربية . ويبدو أن العرب لا يعرفون الكثير عن بلادهم ، ولذلك طلبنا من عواد أن يتولى دور القيادة . مسألة سيرنا فى خط مستقيم أصبحت أمراً لا يقبل الجدل ، نظراً لأن الحرة تشكل منطقة وعرة من البلاد لكل من الإبل والخيول ، بسبب الجلاميد المنتشرة على الطريق ، اللهم باستثناء المجازات والممرات التى نمشى خلالها . قطعنا مسافة كالحة على ظهور دوابنا ، نظراً لأن ريحاً باردة كانت تهب على وجوهنا وهى تحمل معها لمسة من لمسات الشتاء البارد . هذا البلد لابد أن يكون فرنًا فى فصل الصيف بصفة خاصة من ناحية ، وفى ظل وجود الأحجار البركانية السوداء المصقولة من ناحية ثانية .

لاحظت أن هذه الأحجار السوداء المصقولة متآكلة تآكلاً شديد الانتظام ؛ جانب من هذه الصخور ، وبخاصة ذلك الجانب الذى يتجه صوب الشمال لونه رمادى غامق وعليه نوع من الفطر ، الأمر الذى جعل تلك الأحجار تبدو ونحن نمر عليها كأنها تغير لونها بصورة مستمرة . هذا المكان يكاد يكون خلواً من الآثار الدالة على وجود الحياة ، اللهم باستثناء قلة قليلة من الطيور الصغيرة ، وليس فى هذا المكان أى أثر من الآثار الدالة على وجود السكان أو عبور بعض الناس لهذه المنطقة فى الآونة الأخيرة . مدقات السير فى هذه المنطقة تلتزم أحواض الوديان ، وتتجول هنا وهناك دونما التزام بهدف أو اتجاه محدد . مدقات (طرق) السير هذه تشبه تلك المسارات التى تنتج عن حركة الأغنام أو الإبل ، ولولا كبر حجم الأحجار لاستحال على مجرد مرور الحيوانات أحداث مثل هذه المدقات . على العموم ، أنا أرى أن هذه المدقات اصطناعية ، وهى من عمل الرعاة فى أزمان قديمة كى تفيد منها قطعانهم . قيل لنا ، إن حوران كلها تتحول إلى مرعى ممتاز فى فصل الربيع . الشىء العجيب أن كل مكان هنا وهناك فى المنخفضات فيه متسع خال من الصخور يتجمع الماء فيه على شكل بركة بعد سقوط المطر . ترى ، لماذا لا توجد أحجار فى هذه المناطق ؟ التربة فى هذه المناطق صلصالية جافة وسطحها مصقول إلى حد بعيد ، ومشرخة على شكل مربعات منتظمة ، إلى حد أن من يقترب من هذه المناطق يرى فيها شكل الماء الذى يعكس الضوء الصادر من السماء . هذا بلا أدنى شك هو أحد الآثار الناجمة عن السراب فى الصحراء ، وهنا يجب ألا يغيب عنا أن أكثر الأوهام إنما تقع فى الأماكن التى يتوهم الإنسان وجود الماء فيها - أقصد حيث يوجد الماء .

عند الساعة الثانية عشرة والنصف ، وصلنا إلى قطعة من الأرض مستوية ومفتوحة ، حسبناها فى بداية الأمر خَبْرة (بركة) من تلك الخبرات ، لكنها فى واقع الأمر كانت جزءاً من وادى طويل يمتد شمالاً وجنوباً ، وفى منتصفه مجرى مائى متميز ، وعامر بأدغال أشجار الأثل ، وبقع من الحشائش الخضراء المتألقة ، التى تثبت أن الماء انساب فى هذا المجرى منذ زمن قريب . وقد تعرف عواد هو والدروز ذلك

الوادى على أنه وادى الراجل ، الذى قيل إن كريشة يخيمون فيه ، لكن المشكلة هنا تتمثل فى أن المطلوب منا الاتجاه صوب أعالى ذلك الوادى أم نحو الجزء الأسفل منه . بينما كنا نتجاوز ، شاهدنا قطيعًا من الأغنام ، ومعه صبى ، قال لنا : إنه من السرديه ، وأن كريشة تبعد مسير ساعتين فى اتجاه أسفل الوادى . كان ذلك هو مبتغانا ، لأنه كان فى الاتجاه الصحيح ، وسرعان ما وصلنا إلى مخيم على كريشة ، وقام باستقبالنا استقبالاً كريمًا شاب صغير من أقارب الشيخ نظرًا لغيابه عن المكان . كان على كريشة متغيبًا فى مزارب ومعه خمسون جمالاً ، يعملون فى مرافقه الجردة وهى فى طريقها إلى معان .

اليوم الرابع والعشرون من شهر ديسمبر . ينتمى كريشة الذين نحن فى مخيمهم حاليًا إلى بنى صخر ، تلك القبيلة الكبيرة غير المتيمة بالحرب ، التى تحتل المنطقة كلها الممتدة من طريق الحج فى اتجاه الشرق إلى حافة الحرّة ، وكلها أرض جرداء مكونة من الأحجار . ويقال إن هذه القبيلة اشتقت اسمها من طبيعة هذه المنطقة الصخرية ، وأن هذا الاسم يعنى : أبناء الصخور ؛ وهم يؤكدون لنا أنهم يعيشون فى الحرة منذ " آماد زمنية بعيدة " . بنو صخر يقولون إنهم لا ينحدرون من نجد ، مثلما هو الحال عند عنزة ، لكنهم شماليون أو بالأحرى من عرب الشمال . قالوا لنا أسماء الأقسام العشرة التى ينقسم إليها بنو صخر ، وإن كل قسم من هذه الأقسام له شيخه المستقل ، على الرغم من كونه واحدًا من رعايا فندى الفايز ، أو بالأحرى ولده سلطان، نظرًا لأن الفندى رجل كبير السن ، وتنازل عن السلطة الفعلية . هذه الأقسام ليست سوى مجموعات من القبائل ، كما أن أسماء هذه القبائل هى أسماء شيوخها ، وأن كبير هؤلاء الشيوخ هو الشيخ سلطان ، وشيخ كريشة يجىء فى المرتبة الثانية بعد سلطان ، ومن بعد شيخ كريشة ، يجىء الشيخ الدريبى بن زبَّد كريشة لديهم إبل وغنم ، ويبدو أنهم يعيشون فى بحبوحة ؛ لكنهم ليست لديهم أعداد كبيرة من الأفراس ، وهذه الأفراس ليست من النوع الجيد . والكريشة يربون أيضًا الصقور وكلاب الصيد .

أعطانا كريشة أخباراً عن الروالة . قالوا لنا : إن ابن معجل الذى التقيناه فى العام الماضى فى مخيم صدام بن شعلان ، والذى وقف إلى جانبنا فى مفاوضات السلام مع السباع ، منفصل حاليًا عن صدام ، ويقيم فى مكان ما عند أواخر الجوف ، والأرجح أننا سوف نلتقى ابن معجل فى هذا المكان ؛ كما قالوا لنا : إن صدام قد تحرك شمالاً بالفعل للهجوم على ولد على الكريشة وهو على ود ووئام مع ابن معجل ، لكنهم فى حرب مع صدام ، وهذا مثال آخر على تذبذب السياسة البدوية وتناقضها - سياسة البدو ، دائمة التغير ، مثل سحاب السماء ، والبدو سريعو التغير والتحول ، إلى حد أنه ، لو دونا تاريخ الصحراء لمدة عشر سنوات ، لوجدنا فيه من التغيرات ما يغطى قرنًا كاملاً من تاريخ أوروبا .

وبينما كانت المفاوضات دائرة بشأن الترتيبات الخاصة بمضينا قدمًا ، قمت بزيارة لزوجات على الكريشى . وجدت أن الرجل له زوجتان . حسنة وفصًّال؛ لكنى لم أر سوى فصًّال ، التى كانت تستأثر لنفسها بخيمة الحريم ومعها خدمها وثلاثة أطفال ، طفلان صغيران وطفلة واحدة ، متسخون كلهم ؛ ويعانون (وهذا أمر نادر بين العرب) من عيونهم المتورمة . كانت فصال شخصية سطحية وغير جذابة ، لكنها تتميز بالعقل ، وأستطيع القول إن فصّال تتميز عن حسنة ، المسكينة المحرومة من الخلف . قالت : إنها من قسم من القبيلة يعيش فى أقصى الشمال ، وأبدت لى اهتمامها بدمشق ، وسألتنى عن الوالى الجديد ، كما سألتنى أيضًا عن محمد بن سمير ، الذى هو بمثابة أكبر الأسماء فى ذلك المكان . ويبدو أنها كانت سعيدة بصندوق مكعبات السكر الذى أهديتها إياه . وعندما هممت بالانصراف رافقتنى إلى نهاية حبال الخيمة وهى تدعو لى بالبركات وأطيب التمنيات .

وجدت أن خيامنا جرى تقويضها وأصبح كل شىء جاهزًا للتحرك ؛ فقد أمكن التوصل إلى اتفاق مع الشاب الذى كان يمثل مضيفنا ، وتقرر أن يكون بصحبتنا زلم (بمعنى رجل) يرافقنا إلى أن نصل إلى بلدة كاف نظير عشرة مجيدى (أى ما يعادل أربعين شلنًا إنجليزيًا) . أما أسعد هو وسلمان فكانا يودعانا ، إذ كان يتعين عليهما

العودة إلى ملخ وأعطينا كلا منهما جنيهًا تركيًا ، وترك لنا أسعد كلب الصيد ؛ ذلك الكلب المرقط باللونين الأسود ، والأسود الضارب إلى الصفرة ، والذى بدأ يعوى تأوهًا لفراق صاحبه . وأنا أحب هذا الكلب لهذا الذى فعله مع صاحبه .

بينما كنا نغادر مخيم كريشة هبت علينا ريح باردة من الاتجاه جنوب – غرب – غرب ، واستمرت تلك العاصفة طوال اليوم ، تنشر فينا البرد ، على الرغم من الفراء والعباءات التى كنا نحملها فوق أجسامنا لحماية عظامنا . كان طريقنا عبر مخيم الكريشة يتجه ناحية أقصى الجنوب الشرقى . وها نحن الآن نخرج من منطقة التلال إلى سهل شبه مستوٍ ما تزال تغطيه الأحجار السوداء . التغير الوحيد الذى حدث أثناء النهار ، حدث عندما وصلنا خَبْرة كبيرة (خَبْرة الجرثى)، التى هى عبارة عن رقعة موحشة من الصلصال الجاف والرمل ، استغرق عبورها قرابة الساعتين ، على الرغم من مسيرنا بسرعة خطو الإبل . أدى هبوب الريح إلى إثارة سحب كثيفة من الرمال ، وبذلك تحولت الخَبْرَة إلى واحد من أقفر الأماكن التى شاهدتها فى حياتى . كنا جميعًا نشعر بالبرودة إلى حد أننا أعلنا عزوفنا عن الكلام والحديث مع بعضنا البعض ، وجلسنا منكفئين فوق إبلنا معرضين ظهورنا لهبوب الريح ، ولففنا رؤسنا فى عباءاتنا . لم نلتق أحدًا طوال اليوم ، باستثناء مجموعة واحدة من الإبل يرعاها اثنان من العرب متوحشى الملامح ، قالا لنا إنهما من الشرارات ، ولم نلتق شيئًا حيًا سوى أرنب برى واحد كان يقفز بين الصخور ، وكانت الكلاب تطارده لمسافة مئات الياردات ، فوق أرض كفيلة بتكسير عظام أى كلب من كلاب الصيد الإنجليزية ، دون أن تؤذى نفسها . فى حوالى الساعة الثانية ، ومع انشراح صدرنا دخلنا وادى الرِّجَّال مرة ثانية ، وكنا نقطع زاوية من زوايا ذلك الوادى . فى هذا الجزء من وادى الرجال عثرنا على أرض طرية جميلة وعشب ، وبرك ماء ، نظرًا لأن هذا الوادى كان الماء ينساب فيه خلال الشهر الأخير ، ولم تتشرب الأرض بعد كل ذلك الماء . كان المرعى جيدًا تمامًا على نحو يصعب معه تركه أو تجاوزه ، ولذلك قررنا قضاء الليل فى هذا المكان . وبينما كنا ننزل الأحمال عن دوابنا طلت علينا من فوق حافة الوادى مجموعة

من الغزلان ، ربما جاءت طلبًا للماء ، وانطلق محمد يطارد هذه المجموعة ومعه بندقيته الونشستر Winchester. سمعنا محمد وهو يطلق الطلقات الاثنتى عشرة الواحدة بعد الأخرى ، لكنه عاد إلينا خاوى الوفاض . هذه هى خيمتنا نصبناها بجوار جانب من جدار قديم سائب الأحجار ، وهذا الجدار من قبيل تلك الجدران التى يقيمها الرعاة لتكون ملاذًا لقطعانهم . ما تزال الريح على عنفوانها السابق ، والليل بارد برودة أمسية عيد الميلاد . لكن حنا أعد لنا وجبة كبيرة من الكارى ، الذى أضاف له شيئًا من الحساء والبرغل ، وقدم معه نوعًا من البودنج ، مكونًا بذلك غداء معقولاً ، فى حين تميز عبد الله بصنع الخبز ، أما عواد فقد تولى مسألة تحميص البن .

اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر المصادف ليوم الأربعاء ، يوم عيد الميلاد . بعدنا عن الحرة أخيراً ، ونحن نسير حاليًا فى أرض مفتوحة . هذا الجدب الأسود اللون كان مثل الكابوس الذى كتم علينا أنفاسنا ، تخلصنا من ذلك الجدب الأسود بكل جلاميده المريعة وممراته الوعرة ، التى تسببت فى عدم قطع الإبل لمسافة تزيد على ميلين فقط فى الساعة الواحدة . نحن الآن بوسعنا قطع ثلاثة أميال فى الساعة الواحدة ، وقد يصل الأمر إلى حد ثلاثة أميال وربع الميل .

بعد أن سرنا مدة نصف ساعة فى اتجاه أسفل الوادى ، وصلنا إلى بعض البرك العظيمة الموجودة فى شق من شقوق الصخور ، وتوقفنا عند هذه البرك لنأخذ شيئًا من الماء . كنا سعداء الحظ فى هذا الفصل من العام لأننا وجدنا وادى الرجال مليئًا بالماء . والمطر الذى ملأ هذا الوادى ربما كان زخة من زخات المطر الغزير الذى سقط على المنحدر الشرقى لجبل حوران ، والعجيب أن أجزاء الجبل الأخرى لم تشهد حتى ولو قطرة واحدة من ذلك المطر ؛ وليس لعشب الخريف وجود فى أى مكان سوى على طول هذه الحافة من حوران . المطر هنا يجف بسرعة ، أو بالأحرى تتشربه الأرض ؛ يزاد على ذلك أن الحشائش الصغيرة تجور عليها الماشية تمامًا . فى البرك الأصغر من هذه البرك ، نجد فى مائها نكهة الأغنام والإبل ؛ أما البرك التى وصلنا إليها اليوم فماؤها ما يزال نقيًا . لقد وصل الكريشة إلى هذا الوادى ، يأكلون ويشربون بطريقتهم

الخاصة ، ولم يخلفوا وراءهم عوداً واحداً من العشب ، يزاد على ذلك أننا فى مجيئنا إلى هذا المكان اهتدينا إليه بواسطة الآثار الناجمة عن تحرك الأعداد الغفيرة من ماشيتهم . كنا نمر على أثار مخيمات الكريشة هنا وهناك ؛ شاهدنا أحجاراً على شكل خطوط مستقيمة تحدد ثلاثة أضلاع من المربع ؛ شاهدنا واحداً من تلك المربعات ، وكأن من فيه هجروه منذ لحظات ، وشاهدنا أيضًا عدداً من النسور والغربان وهى تطير هاربة من فوق جثة أحد الإبل النافقة . وتجاوزنا بالقرب من هذه الجيفة آثار أقدام أحد الخيول ، الأمر الذى جرنا إلى الحديث عن الغزو والإغارات ، التى يفرح لها هؤلاء الذين يرافقوننا . ومع ذلك ، نجد أن هؤلاء الناس مستقرون فيما بينهم وبرضائهم التام ، على أن الأحداث التى من قبيل التقاء اللصوص أو أفراد العدو من قبيلة أخرى لا هى " من الله " ، ومن هنا يجب تصنيفها أو إدراجها ضمن المصادفية مثل المطر ، والطقس الصحو ، والمرض والصحة .

بعد أن ملأنا قرابنا ، غادرنا وادى الرَّجَّال ، ولن نمر على أى مصدر من مصادر الماء قبل أن نصل إلى بلدة كاف ، الوادى هنا ينحرف إلى ناحية الغرب قبل أن يصل إلى وادى السرحان ، وبذلك سيبتعد الوادى عن طريقنا . كنا نجتاز بعض المنخفضات التى تغطيها طبقة خفيفة من الزلط ، وهذا يشكل لنا تغييراً بهيجًا عن الحرة ، إذ إن هذا المكان يسمح لنا بالعدو بالخيول وراء الغزال ، الذى يصادفنا بين الحين والآخر . شغلنا أنفسنا أيضاً بعشاء عيد الميلاد ، وسعدنا أيضاً أن تكون هناك بعض الإضافات إلى الأرز ، الذى كان هو كل ما لدينا ؛ لكن لا كلاب الصيد ولا الخيل كانت على حال تسمح لها بتتبع الطرائد . ذات مرة أصبنا طريدة من بين قطيع صغير ، ولكن كلاب الصيد لم تفلح فى الإمساك بها ، وعلى الرغم من إطلاق طلقات متعددة ، فإنها لم تسفر عن شيء . بعد ذلك تعقبنا الكلب صيَّاد وهو يتعقب الغزال ، مسافة ميلين ، إلى حد أننا خشينا ضياع الكلب منا ؛ وهنا بدأنا نعدو من جديد عائدين إلى إبلنا . كنا فى هذه المرة قد ابتعدنا عن إبلنا مدة تصل إلى ثلاثة أرباع الساعة ، ووجدنا رجالنا كلهم منزعجين ، بل إن عبد الله كان غاضبًا ومستاءً من قطعنا هذه المسافة الطويلة ، نظراً لأن محمد كان برفقتنا . كان عبد الله على صواب فيما ذهب إليه ، ونحن أيضاً

نستحق اللوم لأننا قائمون برحلة خطيرة وليست رحلة صيد أو رحلة رياضية ؛ هذا ، وناهيك عن خطر الأعداء ، إذ إن مسألة افتقاد بعضنا للبعض الآخر أمر وارد تماماً فى بلد من هذا القبيل ، إذ لا تخلف الإبل وراءها أى أثر من آثار أقدامها . ومجرد الانحراف إلى اليمين أو اليسار بعيداً عن الخط المستقيم وعن انثناء فى الأرض ، كفيل بأن يجعل الإنسان يضل طريقه ويتيه فى هذه الأرض الصحراوية . اعتذرنا عما فعلناه ، ووعدنا بألا نعود إلى ما فعلناه مرة ثانية . ومع ذلك ، جرى تقديم الطعام لنا ، على نحو لم نكن ننتظره أو نتوقعه ؛ وبينما كنا نتحدث مع بعضنا البعض شاهدنا جملاً وحيداً يرعى فى السهل ، لم يكن ذلك الجمل يبعد عنا أكثر من ميل واحد ؛ سمعنا صيحة تعد " بجائزة " ، وهنا اندفعت الجماعة راكبة خيولها ، وسائرة على الأقدام ، وراح الجميع يطاردون الجمل الهارب . كنت أنا وولفريد بطبيعة الحال أول من وصل إلى ذلك الجمل ورحنا نطارده من مكان إلى آخر . كان الجمل بعيراً صغيراً من مواليد العام الماضى ، فى فصل الربيع ، وكان بحالة طيبة ، واغرورقت عينا حنا بالدموع أمام هذا المنظر - دموع الجوع ، وليست دموع الشفقة . وأنا أخشى أن يكون من بين أفراد الجماعة أحد غيرى قد أحس بذلك المشهد الذى ولّد فى داخلى أحاسيس مختلفة من الإشفاق على هذه الضحية المسكينة ، واستيائى منا نحن الذين نتنمر لافتراس هذه الضحية . لم يسأل أحد من أفراد الجماعة عن ملكية ذلك البعير الصغير ؛ إذ من المعروف أن الإبل الشاردة فى الصحراء تكون من نصيب أول فرد يمسك بها . وواقع الأمر أننا كنا نشكل غزواً ، وأن ذلك البعير كان هو جائزتنا . وأسقطوا ذلك البعير المسكين أمامنا على الأرض .

وهكذا نكون قد ضمنا الغداء ، وهنا يتعين علىّ تدبر كل ما يمكن عمله للاحتفال بهذه المناسبة .

اليوم السادس والعشرون من شهر ديسمبر . أتى كل من محمد ، وعبد الله ، وعواد ، والإبراهيمان ، ومعهم حنا ، أتوا كلهم ، طوال احتفالهم المسائى على لحم البعير ، باستثناء الضلوع القصيرة التى وضعوها أمامى أنا وولفريد ، وباستثناء لحم الكتف

الذى احتفظنا به لطعام اليوم . اقتسموا فيما بينهم عملية ذبح البعير ، وسلخه ، وتقطيعه ، وطبخه ، وسبب ذلك أنهم جميعًا كانوا مستعدين للتعاون فى هذه الأعمال كلها . الناس يتكلمون فى بعض الأحيان عن لحوم الإبل ، على أنها لا مذاق أو طعم لها ، فضلاً عن رائحتها النفاذة . لكن واقع الحال أن لحم الإبل طيب جدًا ؛ ولحم الأباعر ، أو إن شئت فقل : الإبل صغيرة السن ، شبيه بلحم الضأن ؛ وحتى عندما يكبر سن الجمل يصبح لحمه بحاجة إلى زمن أطول فى التسوية أو الشواء ، لكن طعم لحم الإبل ليس كريهًا وذلك من منظور تجربتى وخبرتى الشخصية ؛ واقع الأمر أن لحم الإبل إذا ما قدم خاليًا من العظم فلن يفرقه الآكل عن لحم الضأن .

بعد هذا الاحتفال راح الخدم كلهم فى سبات عميق ، وحتى فيما بين الساعة الثانية والثالثة صباحًا ، وعندما ثارت الريح على نحو يصم الآذان ، لم يصحُ هؤلاء الخدم ، إلا بعد أن انهدمت خيمتهم على رؤسهم مثلما حدث لخيمتنا نحن . كنت أنا وولفريد مستيقظين ، وكان بوسعنا المحافظة على خيمتنا منصوبة لولا أننا بلغنا من الكسل حداً عجزنا معه عن الوقوف ، وتثبيت الأوتاد . وعندما انهدمت الخيمة كان الأوان قد فات ؛ ولم نستطع فعل أى شىء سوى البقاء حيثما كنا تحت أنقاض الخيمة ، والانتظار إلى أن يطلع النهار . ومن يمن الطالع أن الأوتاد الرئيسية لم تنقلع ، أما الرمل – بحكم أن هذا الإعصار كان عبارة عن عاصفة رملية – فقد غطى أطراف الخيمة المنهارة ، ولم تحدث أية أضرار أخرى . فى الصباح ، اقترح الخدم علينا البقاء حيث كنا ؛ ولكننا لم نوافق على ذلك ، نظرًا لأن الماء الذى كان معنا لم يكن يكفينا أكثر من يومين ؛ وإنها لحماقة كبيرة أن نضيع الوقت سدى ، بأن نروح نبعد الرمال عن أعيننا ، ومن هنا بدأنا فى حزم أشيائنا استعداداً للرحيل . استمرت الريح على عنفها وبرودتها القارسة ، وكانت محملة بكمية كبيرة من الرمال . كانت تلك الريح قادمة من أقصى الجنوب الغربى . خيمنا فى ستر أثر صغير بالقرب من تل القطيفى ، الذى ثبت أنه مماثل لذلك الأثر الذى أشار إليه عوَّاد عندما كنا فى عين الغيور؛ وعندما وصلت إلى المنطقة التى خلف هذا الأثر وجدنا أنفسنا فى أرض مفتوحة تمامًا ، عبارة عن

سهل كبير ، معرض ومكشوف لهبوب عواصف أدهى وأمر ، وأشد من ذى قبل . العواصف الرملية أمر شائع هنا ، فى تل القطيفى ، المكون من صخور بركانية سوداء مثل صخور الحرة ، لكن صخور القطيفى شبه مغطاة بالرمال . لاح لنا سهل القطيفى ، من خلال الهواء الكثيف ، وكأنه قريب منا ، وسرعان ما بدأت صخور ذلك السهل تختفى عن بعضها البعض مخلفة وراءها ظلاماً دامساً . كانت الشمس تسطع ضعيفة بين الحين والآخر من خلال الرمال المتطايرة ، لكنها (الشمس) كانت الشيء الوحيد الذى تمكنا بفضله من المحافظة على أفراد القافلة فى وضع يكونون فيه إلى جانب بعضهم البعض . وفى لحظة من اللحظات اضطررنا إلى التوقف وإعطاء ظهورنا للريح ، ووضعنا أيدينا على أعيننا ، وغطينا رؤسنا بعباءاتنا ، ورحنا ننتظر مرور العاصفة . لا شيء يستطيع اعتراض مثل هذه العواصف . كنا ما نزال بعيدين عن التحسب للخطر والتحوط له ، وسبب ذلك أن هذه العواصف الرملية لا تنطوى على أخطار شديدة ، وكان أمامنا متسع من الوقت نتأمل فيه ذلك الموقف ، ونتأمل الإبل وهى تمضى قدماً على وجه السرعة ، وقد اقتربت من بعضها البعض طلباً لحماية أنفسها ، وقد فردت أعناقها ، وأحنت رؤسها ، وراحت الحبال تتطاير هنا وهناك ، وها هى عباءات الرجال تصرخ بفعل الريح ، كل ذلك كان يحدث فى غيمة رملية صفراء اللون جعلت الرجال يبدون كما لو كانوا يمشون فى الهواء . بدت الماشية لنا عملاقة لكن بلا حول أو طول ، بدت الماشية لنا كما لو كانت مخلوقات من عهد ما قبل الطوفان ، وقد غلبها الطوفان على أمرها . لم يكن هناك خطر ، كما سبق أن قلت ، نظراً لانتظام الريح فى اتجاهها ، إضافة إلى أن خط سيرنا كان عبرها مباشرة – كنا نعرف ذلك – وعن طريق الكفاح والمقاومة ، استطعنا قطع مسافة طويلة من الطريق . وفجأة بدأ السهل الرملى الذى كنا نسير فيه ينخفض من أمامنا ، وبدأنا نشاهد فى حفرة منحدرة إحراج أشجار الطرفاء ، راحت تتبدى لأعيننا من خلال العاصفة . وهنا أدركنا أننا أصبحنا على مقربة من ملجأ من الملاجئ ، يمكن أن نأوى إليه .

ها نحن قد وصلنا إلى أشجار الطرفاء وأوينا إلى دغل من هذه الأدغال لنجعل منه بيتاً لنا ، نلنا فيه شيئاً من الراحة البهيجة . التربة هنا من النوع الرملى العميق ،

الرمل الأبيض بياض الثلج ، أما الخيمة التى نصبناها سرعان ما غطاها الرمل إلى منتصفها ، الأمر الذى جعلنا نتخيل أنفسنا فى بلادنا وسط أكوام من الثلج ، فى يوم الإهداء(*) . أوقدنا ناراً فى بعض أغصان الطرفاء داخل الخيمة ، ورحنا نتمتع بقهوة حنا اللذيذة . أين نحن من إحساس الإنسان بمنزله وهو داخل خيمته ؟ فاجأنا عواد اليوم معترضاً عندما اقترحنا نصب الخيمة ، قائلاً إن نصب الخيمة فى الرمل سيكون أمراً مستحيلاً . ولو أن محمد أو أى واحد آخر من أهل الحضر فعل ذلك لكان ذلك أمراً مقبولاً ، لكن عواد بدوى بحكم مولده ، ولابد أنه نصب الخيام مئات المرات فى صحراء النفود . ومع ذلك ربما لم يسمع عن دفن وتد الخيمة .

وقع حادث واحد أثناء العاصفة ؛ هذا الوغد العجوز من الإبل التى اشتريناها من مزارب ، وهو الذى كان يحاول العودة إلى أسرته ، انسل هارباً منا . مستغلاً فى ذلك حلول الظلام ، وعارفاً أن الريح ستمحو آثار أقدامه على الفور ، غادر هذا الوغد المخيم فور إنزال الحمل من فوقه . وهذا هو محمد ومعه عواد يركب كل واحد منهم ذلولاً ، ويفتشان المنطقة بحثاً عن ذلك الوغد ، ولكنهما فشلا فيما قاما به ؛ وسبب ذلك أن مجال الرؤية أمامهما لم يكن يتعدى مائة ياردة ، يضاف إلى ذلك أنه لم يمض على فقده سوى نصف ساعة . كان محمد قد نذر أن يذبح شاة ، لكنى أرى أن ذلك لن يفيد .

اليوم السابع والعشرون من شهر ديسمبر . وصلنا بلدة كاف بعد مسير طويل ، يقدر بما يتراوح ما بين سبعة وعشرين وثمانية وعشرين ميلاً . فى اتجاه شبه جنوبى شرقى .

سقط قليل من المطر أثناء الليل ، وهدأت الريح واعتدلت . وعند الساعة الثامنة بدأنا عبور سهل واسع من الرمل الخشن تتخلله رجم منخفضة من الحجر الرملى .

(*) يوم الإهداء : هو يوم ٢٦ ديسمبر التالى لعيد الميلاد وفيه تقدم الهدايا إلى سعاة البريد وغيرهم من المستخدمين . (المترجم)

وعند الظهر وصلنا إلى مدق (طريق) واضح ، هذا المدق تسلكه قوافل الملح فيما بين البزرة وكاف ؛ هذا الطريق أوصلنا بعد أن عبرنا سلسلة مرتفعة من الصخور ، إلى وادٍ عجيب جداً ؛ قيل لنا ، إن هذا الوادى يعد فرعًا من أفرع وادى السرحان . التكوين الجيولوجى لهذا الفرع هو من النوع الفريد ؛ أعراف الصخور على جانبى الوادى ، هى من الحجر الأسود ، وفيها أحجار منفصلة من هذا الصخر الأسود نفسه ، يلى ذلك حِجر رملى أصفر اللون ، ثم بعد ذلك طبقة أخرى سوداء ، ثم طبقة من الرمل الخالص ، من بعدها طبقة من الرمل الذى يشتمل على أحجار سوداء سائبة . ثم بعد ذلك طبقة من الرسوبيات الجيرية ، ثم طبقة طباشيرية فى القاع . حوض الوادى مكون من الرمل الأبيض الناعم الذى تنمو فيه أشجار الطرفاء (الأثل) فضلاً عن أدغال نباتات أخرى . وبينما كنا نعبر هذه الأدغال راحت كلابنا تطارد فأراً من فئران الغيط ، أو إن شئت فقل جربوعًا ، وعلى الرغم من أن هذا الجربوع يعد مخلوقًا صغيراً فقد أذاق الكلاب الويل قبل أن تمسك به ؟ هذا الجربوع يقفز قفزات كبيرة ؛ وهذه القفزات تكون من اليمين إلى اليسار والعكس ومن الأمام إلى الخلف والعكس أيضًا ، لكن الكلاب كانت تلاحقه بصورة مستمرة ، وتقفز من فوقه ، ولكنها كانت تخطئه دائمًا ؛ إلى أن قفز بمحض الصدفة فى فم الكلبة الشيخة . كان عبد الله ، وبقية زملائه متشوقين إلى أكل ذلك الجربوع ، لكن الجربوع كان قد انهرس على نحو يصعب معه طهوه . عند الساعة الثالثة صعدنا إلى عرف سلسلة أخرى من الصخور ، ومن فوق تلك القمة وقع بصرنا على وادى السرحان الكبير ، الذى يعد محطًا لكثير من التحذيرات والتكهنات . هذا المكان لا يبدو أنه وادٍ ، وإنما هو مجرى لبحر قديم . نقطة سوداء صغيرة على حافة سبخة ، أو إن شئت فقل : بحيرة مالحة ، جفت فى الوقت الراهن ، وتنضوى تحت لواء أثر أسود طويل ، يسمونه واحة كاف ، وكاف قرية مكونة من ستة عشر منزلاً ، وبستان نخيل لا تزيد مساحته على ربع الفدان .

من سـوء حظـى أن ركبتـــى لويت ، وتلك إصــابة مـحـرجـة ، وتسـبب لى ضـيـقًا كبيـرًا فى منتصـف الرحلة . الجمـل الذى أركـبه حيـوان مشـاكس راح يتمـرغ بينما كنت أصلـح شـيئًا ما فى الطرف البعيد من الشداد ، أو إن شئت فقل : سرج الجمل ، مما تسـبب فى طرحى بعـيـدًا عن الجـمل . الألـم الذى أحـسـه فـى ركـبـتـى لا يطاق ، وأخشى أن أصاب بالعرج على امتداد الأيام القادمة . ومع ذلك فقد وصلنا إلى هنا ، إلى بلدة كاف .

الفصل الخامس

جرى رافى خلفها شاهراً سيفه ، وكان على وشك
الإطاحة برأسها ، عندما صاحت قائلة " ربع " .

أبو الفدا

كاف وإذرى – مزيد من الأقارب – وادى السرحان – صيد الجراد – حنا يرقد رقدة الموت – حكايات السرقة والعنف – مفاجأة الغزو لنا واتخاذنا أسرى – ثوابت الشرارات – الجوف .

اليوم الثامن والعشرون من شهر ديسمبر . كاف قرية جميلة صغيرة ، لها طابع مستقل خاص بها ، ومتميز تماماً عن أى شىء آخر يراه الإنسان فى الشام . كل منازلها نسخة مصغرة من بعضها البعض ؛ عدد المنازل يقدر بستة عشر منزلاً مربع الشكل ، أسوار الأبراج والمتاريس الجدارية يصل ارتفاعها إلى حوالى سبعة أقدام ، فيها أيضاً حوالى سبعين أو ثمانين نخلة على شكل حديقة تسقى من الأبيار ، وفيها أيضاً بعض الأشجار التى حسبتها من أشجار السرو ، لكن اتضح أنها نوع من أنواع شجر الأثل (الطرفاء)(*) . وعلى الرغم من أن كاف تعد مكاناً صغيراً ، فإن لها

(*) الأثل : شجرة تنمو فى سائر أنحاء وسط الجزيرة العربية ، لكنها لا تنمو برياً فى تلك المناطق .

ملمحًا فريدًا ، وكل شىء فيها أنيق ومرتب ، وليس فيها برج محطم أو باب مكسور أو مفصول عن مفصلاته ، كما هو الحال فى الشام . هناك أيضًا عدد كبير من النخيل الصغير المزروع فيما بين النخيل الكبير ، وهناك أيضًا أشجار التين الصغيرة والكروم ، وتلك أشياء يندر وجودها فى الشمال . الناس فى كاف لهم ملامح طيبة ، ويتصرفون بطريقة حسنة ، على الرغم من أنهم أدهشونا بعض الشىء فى البداية ، عندما خرجوا كلهم من منازلهم وكل واحد منهم يحمل سيفه فى يده . الناس هنا فى كاف يحملون سيوفهم على أكتافهم ، أو يمسكونها فى الأيدى بواسطة قراب ، وذلك على النحو الذى نشاهده فى الأشكال الحجرية القديمة لشهداء العصور الوسيطة ، أو فى تماثيل أفراد الحملات الصليبية .

استقبلنا عبد الله الخميس ، شيخ قرية كاف ، الذى كنا نحمل إليه رسائل من حسين الأطرش استقبالاً طيبًا ؛ وجرى كنس غرفة من منزله ، وخصصت لاستعمالنا . هذه الغرفة شأنها شأن الغرف الأخرى ، كانت تطل على فناء المنزل ، الذى كان يقف فيه مهر صغير عمره عامان . كانت الغرفة التى خصصوها لنا ، مخزنًا لحطب الوقود ، وكانت خالية من الأثاث من أى نوع ، لكننا كنا سعداء عندما وجدناها خالية من السكان أيضًا . العمارة هنا فى كاف بسيطة للغاية ، الجدران مبنية من اللبن ، وليس فيها فتحات أو نوافذ من أى نوع ، اللهم باستثناء بعض الثقوب مربعة الشكل بالقرب من سقف الغرفة . كان سقف الغرفة من أفرع وعيدان شجر الأثل ، مع بعض العوارض المصنوعة من خشب النخل ، المجدول مع جريد النخل . الغرفة الرئيسية فى المنزل يسمونها قهوة ؛ وفى تلك القهوة يوجد وجار مربع الشكل يكون فى وسط الغرفة أو فى جانبها ، ويستخدم فى إعداد القهوة . القهوة ليس لها مدخنة ، والدخان ينصرف ويهرب إذا ما استطاع ذلك ؛ لكن هذا لا يضايق كثيرًا ، نظرًا لأن الخشب الذى يجرى حرقه هنا يحترق محدثًا شعلة جميلة لامعة ، تعطى قدرًا كبيرًا من الحرارة مع أقل قدر ممكن من الدخان . هذا الحطب يجلبه الناس من شجرة الراذا أو إن شئت فقل :

الغاضة(*) . الناس يجلسون حول الوجار ، أثناء تصليح القهوة ، الذى يستغرق قرابة نصف الساعة .

أحضروا لنا عقب وصولنا تمرًا على صينية من الخشب ، هذا التمر من محصول العام الماضى ، هذا التمر كله لزج ، ومهروس لكنه طيب ؛ وفى ساعة متأخرة من المساء ، قدموا لنا عشاءً معتادًا من البرغل ومعه بعض الدواجن المسلوقة . لقد اندهشنا للأدب الجم الذى يتمتع به الجميع . هذا عبد الله ، مُضَيِّفنا سألنا عشرين مرة عن صحتنا ، قبل أن يدخل فى الحديث عن أمور أخرى ؛ ولم يكن سهلاً علينا العثور على الردود المناسبة على تلك الأسئلة . كل شىء هنا متواضع جدًا وغاية فى البساطة ، ونحن لا يسعنا إلا أن نقول : إننا كنا بين أناس متحضرين . كانوا يتهاوشون مع محمد الذى كان يعدونه شيخًا . تدمر معروفة هنا بالاسم ، والناس هنا ، فى هذه المنطقة النائية ينظرون إلى تدمر باعتبارها بلدًا مهمًا . وقد اندهش محمد اندهاشًا كبيرًا ، عندما وجد رجلاً من منزلته ، الأمر الذى جعل محمد فى المساء محطًا لكثير من الأسئلة والاستفسارات عن طبيعة رحلته . لم يحدث أن رأى أهل كاف أحدًا من الفرنجة من قبل ، هذا على حد قول الناس هنا ؛ وأهل كاف لا يعرفون القدر الذى للأوربيين فى الأماكن الأخرى . ومع ذلك ، شرح محمد " أخوَّته مع البك ، " واحتج قائلاً : إن رحلته رحلة شرف ، وليست رحلة ربح ؛ الأمر الذى جعل الناس يعاملوننا كما لو كنا عربًا بحكم مولدنا . كان عواد الشمرى مفيدًا لنا جدًا ، نظرًا لأنه معروف هنا جيدًا ، وبالتالى وجدنا أنه هنا يقوم بدور المقدمة .

كاف مستقلة استقلالاً تامًا عن السلطان ، على الرغم من غزو الجنود الأتراك لها وسلبها ونهبها مرتين ، مرة بقيادة إبراهيم باشا فى العام ١٨٣٤ . والمرة الثانية منذ سنوات قلائل ، عندما أرسلت حكومة دمشق حملة عسكرية إلى وادى السرحان . أرونا

(*) الراذا أو الغاصة : شجر من أشجار الأثل . (المترجم)

أنقاض قلعة قصر السعيد فوق تل من التلال ، وقالوا : إن الذى دمر هذه القاعدة هى الحملة التى أرسلتها حكومة دمشق ، وسمعنا أيضًا كثيراً من الحزن والأسى على تلك القلعة . سكان قرية كاف يقرون بأنهم من رعايا ابن الرشيد ، شيخ جبل شمر ، الذى كان بعض رجاله هنا فى كاف ، قبل أيام قلائل لتحصيل الإتاوة السنوية ، التى تقدر بمبلغ صغير جدًا ، يقدر بحوالى عشرين مجيديًا (أى حوالى أربعة جنيهات إنجليزية) ، يدفعها أهل كاف لقاء حمايتهم . وهم متحمسون جداً " لأمير " حائل ، على حد مناداتهم له بهذا الاسم ، أو اللقب ، والمؤكد أنهم ليس لديهم من الأسباب ما يدفعهم إلى الانضمام إلى الشام . قرية كاف الصغيرة ، هى وقرية عثرى التى نحن فيها حاليًا ، تربطهما بالشمال علاقات تجارية أكبر من العلاقات التى تربطهما بالجنوب ، والسبب فى ذلك أن ثروة كاف وعثرى بالشكل التى هى عليه حاليًا ، تتمثل فى الاتجار فى الملح مع بزرة . يبدو أن عبد الله الخميس ميسور الحال ، لأن لديه الكثير من العبيد ، وله أكثر من زوجة . لكن المهر الذى سبق الإشارة إليه هو الحيوان الوحيد من ذوات الأربع الذى يمتلكه عبد الله الخميس ؛ قال لنا إبراهيم الخميس ، إنه كان بوسعه أن يأتى معنا ، لو أنه كان لديه ذلول . وقد لاحظت إبلاً ، وحمراً ، وماعزاً قليلة فى سائر أنحاء القرية .

مقبول الكريشه ، عاد ، ونحن الآن بحاجة إلى شرارى لكى يصحبنا إلى الجوف . لقد جئنا إلى عثرى ، توأم كاف ، التى تقع على بعد مسير ساعتين ونصف الساعة شرقى كاف ، وتقع هى الأخرى فى وادى السرحان . هذه المعلومات ليست موقعة على كثير من الخرائط الحديثة ، على الرغم من تدوين هذه المعلومات تدوينًا خاطئًا على خارطة كسنى **Chesney** . اكتشفنا بواسطة البارومتر أن قرية كاف وقرية عثرى على مستوى واحد ، الأمر الذى أكد تحذيراتنا السابقة ، عن أن وادى السرحان ليس فيه منحدرات . وادى السرحان عبارة عن منخفض فوضوى غريب ، والأرجح أنه كان مجرى لبحر قديم مثل البحر الميت ، وأن اتساع ذلك البحر فى هذه المنطقة ، إذا ما حكمنا عليه من واقع التلال الموجودة ، يصل إلى حوالى اثنى عشر ميلاً ، كما أن هذه التلال تشكل – وبلا أدنى شك – الصخور المتقابلة لذلك الحوض . هنا فى عثرى وفى كاف

أبيـار عدة ، تتـراوح بين الواسـع والضـحل ، نظراً لأن الماء هنا فى هـذا الوادى يوجـد على عمق ثمانية أقدام تحت سطح الأرض . ويجرى رى بساتين النخيل من هذه الأبيار . هناك أيضًا أبيار خارج الوادى ، وكلها تقع فى أرض منخفضة وعلى مستوى واحد . مياه هذه الأبيار صالحة للشرب وهى من النوع الممتـاز . عبرنا بحيرة مالحة كبيرة ، جافة فى الوقت الراهن ، ويجرى جمع ملحها لاستخدام القبائل .

حكى محمد لنا ونحن فى الطريق حكايات عن مولده وسلالته النسبية . معروف أن أهل كاف سمـعوا عن ابن عروق ، وأخبروا محـمد أنه سوف يعثر على أقارب له فى أجزاء كثيرة من الجزيرة العربية غير الجوف . يقولون : إن هناك شخصًا فى بريدة ، وشخصًا آخر يدعى ابن حميدى ، سمع محمد من الناس أنه من أولاد عمومته . يزاد على ذلك أن زوجة شيخ عثرى هى من أسرة من أسر الجوف . يبدو أن الأمور تسير حسبما تمنينا .

عثرى ما تزال تعد مكانًا أصغر من قرية كاف ، لكنها تتفاخر وتتباهى بمبنى قديم هو صـورة طبق الأصل من إحدى القـلاع داخل أسـوار القـرية ، هذه القلعـة شبـيـهـة بمنازل حوران . هذه القلعة ، على العكس من الطين المستخدم عند العرب فى البناء ، مبنية من الأحجار السوداء ، مربعة الشكل ومبنية بطريقة منتظمة . يوجد عند أُسْكُفَةُ الباب ، نقش بحروف قديمة ، ربما كانت حميرية ، ولو كان مسموحًا لنا بذلك ، لكنا قد نسـخناهـا ، كـمـا أن ظروف الطقس طمـست مـعـالمهـا كلهـا(*) . هنا فى هـذا المكان استقبلنا جروان ؛ وجروان هذا رجل غيـر مـهندم مـحدود الذكاء ، طويل الشـعر الذى صففه على شكل جدائل ، ووجـهه يشبـه وجه الكلب الإسكتلندى ، جروان هذا هو ابن مرزوقة ، ابنة عم محمد ، ومن ثم فهى من أبناء عمومة محمد . وعلى الرغم من أن هذا الرجل ليس مدعاة للتباهى أو التفاخر به كقريب من الأقارب ، فقد وجدنا فيه مضيِّفًا صـاغيًا ومنتبهًا . أم هـذا الجـروان امـرأة ذكية من نسـل طـيب ، وإنه لـغريب حـقًا

(*) قيل لنا إن هذا النقش له علاقة بالكنز المخبأ ، وهذا خيال شائع بين العرب الذين لا يقرءون أو يكتبون .

أن يكون لها ولد من هذا القبيل . أبناؤها الثلاثة الآخرون ، لأن جروان هو أكبر أبنائها ، أذكياء مثل سائر البشر الآخرين ، لكنها تضعهم دائمًا فى المؤخرة أو بالأحرى فى خلفية الصورة . جاءت مرزوقة توا لزيارتى ومعها طبق كبير من التمر ، ووقفت تتحدث معى . وجه مرزوقة ما يزال جذابًا ، ولابد أنها كانت من أصحاب الجمال الأخاذ . لاحظت أنها تلبس عددًا من الخواتم الفضية فى أصابعها كما لو كانت خواتم الزواج أو العرس .

تقول مرزوقة إننا سوف نعثر على كثير من أقارب ابن عروق فى الجوف . وقد تركت مرزوقة الجوف وهى صغيرة ، وتتحدث عن الجوف كما لو كانت جنة على الأرض جرى انتزاعها منها لتعيش فى هذه الواحة البائسة الصغيرة . واقع الأمر أن عثرى مكان مهجور ، فيما عدا حديقة نخيل جروان . وبعد نزهة قصيرة فى بستان النخيل ، لم أتمكن من المشاركة فيها بسبب العرج الذى أصابنى ، جلسنا كلنا أرضًا لتناول غداء جميل عبارة عن طلى (حمل صغير) وخبز مخمور – كان مذاقه مذاق الفطير الممتاز – قدمه لنا جروان بنفسه ، وظل واقفًا حسب التقاليد العربية فى حين كان بقية الزوار يأكلون . أم جروان ترعاه رعاية طيبة ، وهى التى تخبره بما يفعل ، ومع ذلك لديه إحساس بألاّ يكثر فى الكلام ، الأمر الذى يجعل أفراد الأسرة " لا يعولون " كثيرًا على مسئوليته . وهذا ولفريد يصف النزهة التى قمنا بها فى حديقة النخيل بأنها نزهة مسلية . وهذا هو محمد وعبد الله يطيلان فى الثناء على كل ما شاهداه ، ويحكيان لشيخ جروان قصصًا غريبة عن عظمة تدمر وثرائها . حديقة جروان ، وهى الحديقة الوحيدة فى عثرى ، فيها أربعمائة نخلة ، جرى زراعة القسم الأكبر منها مؤخرًا ، وليس من بين نخيل هذه الحديقة نخل تزيد أعماره على خمسة وعشرين عامًا . كان من بين هذا النخيل نخلة من نوع الحلوة عثرى ، التى تعد أحلى تمور الجوف ، والتى جرى استيرادها من هناك ، وأصبح الناس ينظرون إليها باعتبارها نوعًا جديدًا ونادرًا تمامًا . كان الجميع معجبين بنخلة الحلوة هذه . وكان الجميع أيضًا يطرون شجر الأثل . شجر الأثل تجرى زراعته طلبًا لأخشابه ، وهذه الشجرة تنمو من الجذر

مرة أخرى بعد قطعها ، وهذه الشجرة عندما تبلغ من العمر ستة أعوام يصل ارتفاعها إلى عشرين قدمًا .

وصل رجلان قادمان من الجوف ، ويحملان نبأ مفاده أن كل شيء على ما يرام بين هذا الوادى والجوف ؛ هذا يعنى عدم وجود عرب فى وادى السرحان ؛ والترحيب كان بسبب عدم وجود مقدمات (رُسُل) ، وأن اللقاء قد لا يكون مناسبًا . هذا هو الموسم قد أوشك على الانتهاء ، ولم تعد المراعى على ما يرام ، الأمر الذى أدى إلى هجران الوادى والتخلى عنه تمامًا اعتبارًا من الربيع الماضى . هذا يعنى عدم وجود طريق أو مدق من أى نوع كان ، ونظرًا لأن المسافة إلى الجوف تقدر بما لا يقل عن مائتى ميل ، فإن ذلك يحتم أن يكون معنا مرشد يعرف أماكن الأبيار . هذا المرشد استطعنا العثور عليه ، فى بدوى شرارى صغير الجسم طريف الملامح ، تصادف وجوده هنا فى عثرى ، ووافق على مرافقتنا نظير عشرة مجيدى .

اليوم التاسع والعشرون من شهر ديسمبر . هبت علينا ريح شرقية عاتية عندما بدأنا تحركنا هذا الصباح ، ورحت أراقب بويتا(*) ، شبيهًا بالطيور البرية فى البحر ، وهو يطير محلقًا هنا وهناك ، تحت مروج النخيل الخضراء ، ويبدو عليه اليأس وقلة الحيلة ، ومرهق ومتعب جراء الرحلة الطويلة . ياله من مسكين ، سينفق هنا ، نظرًا لأن هذا المكان ليس فيه ، على امتداد مئات الأميال ، شىء يأكله مثل هذا الطائر . لابد أن هذا الطائر مطرود من محل إقامته ، ربما يكون قادمًا من منطقة الفرات .

طريقنا اليوم يسير موازيًا لحافة الوادى ، ويمر فى بعض الأحيان ببعض الأنوف الجبلية فى السهل العلوى ، ويمر فى أحيان أخرى فى بعض مداخل الوادى الرملية . كانت ارتفاعات هذه الأنوف وتلك المداخل واحدة دومًا ، حوالى ٢٢٥٠ قدمًا فوق مستوى سطح البحر ، و ١٨٥٠ قدمًا تحت مستوى سطح البحر - من هنا يمكن اعتبار

(*) بويت Peewit (Pewit) طائر بحرى صغير شبيه بالطيور البرية ، اسمه الشائع أبو طبط. (المترجم)

هذه الارتفاعات والانخفاضات بمثابة ارتفاعات وانخفاضات كل من الصحراء ووادى السرحان . تتناثر هنا وهناك أيضًا بعض الرُّجُمْ العالية المنعزلة التى يتراوح ارتفاعها بين ثلاثمائة وأربعمائة قدم ، وبذلك تكون أعلى من كل من الصحراء (الحمد) ووادى السرحان . سرنا فى أرض مكسرة طوال اليوم ، أرض رملية مشوبة باللون الأردوازى ، والحياة النباتية جد نادرة فى الأراضى المرتفعة ، لكنها أكثر ثراء ووفرة فى المنخفضات . عثرنا على بعض أشجار الغاضة فى تفريعة ملتوية متصلة بوادى السرحان ، ولم نعثر على نباتات غير الشجيرات الصغيرة . حكى لنا عواد أنه قبل عامين قام غزو حورانى بسلبه ونهبه وتجريده من ملابسه . وقال : إنه خسر ستة من الإبل وكل ما يملكه . كان عدد الحورانيين يقدر بثمانية رجال ، أما جماعته فكان عددها ستة رجال . سألته عن سبب ذلك الغزو . قال : " من الله " . يبدو أن وادى السرحان مكان مفضل عند اللصوص ، وعواد ينظر إلى الأمر كأنه شىء طبيعى تمامًا . سألت عواد عن سبب تركه لقبيلته ، قبيلة شمر ، ومجيئه للعيش هنا فى أقصى الشمال فى سلخد . وأجابنى قائلاً : " إنه النصيب " ؛ وقال إنه تزوج امرأة من سلخد رفضت الابتعاد عن أهلها . سألته عن مصدر عيشه ، وابتسم الرجل . قال : " عندى نصف فرس ، ودلول ، كما أشارك أيضًا فى الغزو . " هناك ثمانية من شمر فى حوران ، ونحن نخرج معًا فى اتجاه زرقة ، أو قد نذهب إلى غرب لجة ونسرق المواشى أثناء الليل . " ثم أرانا الرجل بعد ذلك بعض الشامات المخيفة الناتجة عن الجراح ، التى أصابته فى تلك المناسبات ، كما جعل ولفريد يتحسس طلقة ما زالت مستقرة فى جانبه . عواد هذا ، شخص عجيب ولكننا نحبه ، وسواء أكان لصًا أم لم يكن ، فإن ملامح الرجل المحترم تبدو عليه . عواد هذا رفيق معقول ، يجيد الغناء ، يتغنى بالسير الشعبية ، وهو شخصية محببة إلى النفس فى كل مكان . فى كل من كاف وعثرى ، كان الناس كبارًا وصغارًا يقبلون عواد ويحتضنونه ويقبلونه ، كما كانت النساء يرحبن به فى كل منزل من المنازل .

كنا شبه مجمدين فى فترة الصباح ، كانت الريح شديدة البرودة ، وتنفذ إلينا من خلال عباءاتنا . وعند الساعة الثانية عشرة والنصف ، وبعد مسير دام أربع ساعات ، وصلنا إلى أبيار كوراغير ، التى توجد ست منها فى منخفض واحد ، وعثرنا على مدقات توحى بأن هذه الأبيار يقصدها الناس من مختلف الجهات . من الواضح أن وادى السرحان يسكنه الناس فى فترة معينة من العام ؛ يقول عواد : إن الذين يسكنون الوادى فى فصل الشتاء هم الروالن ، لكن الوادى ليس فيه أحد هذا العام ، الماء هنا شأنه شأن الماء فى كل من كاف وعثرى ، مالح إلى حد ما . شاهدنا بالقرب من كوراغير بعضًا من الغزلان وحاولنا صيد البعض منها ولم نفلح فى ذلك . هذا شىء مغيظ لأنى نسيت إحضار شىء من اللحم ، وإذا لم نصطد طريدة ، أو نفتح عليها نيران بنادقنا ، فلن نستطيع الحصول على لحم قبل وصولنا إلى الجوف . كان ينبغى علىَّ تدبر هذا الأمر ، وعلى الرغم من توفر المؤن والتموينات فى عثرى فى كل الأحوال ، فقد كان بوسعنا إحضار خروف واصطحابه معنا . معروف أن الألم الناتج عن العرج الذى أصابنى جراء ركبتى ، هو الذى يشتت انتباهى – هذا عذر أقبح من ذنب ، لكن ليس لدى عذر سواه . وأنا تقل آلامى عند الركوب عنها فى أى وقت آخر .

نحن حاليًا ، واعتبارًا من الساعة الرابعة ، مخيمون على الرمل تحت بعض أدغال أشجار الغاضة ، كما هدأت الريح إلى حد ما . هذه الريح تهب هنا بصفة دائمة باستثناء ساعة واحدة قبيل غروب الشمس وساعة أخرى عند طلوع الفجر . سوف نتغدى اليوم بشىء من حساء البقر ، وشىء من البرغل مع صلصة الكارى ، مع شىء من الشمام ، وتلك هى آخر مخزوناتنا التى جئنا بها من حوران .

اليوم الثلاثون من شهر ديسمبر . أمضينا فترة الصباح كلها على مستوى عال فوق أرض مثل أرض الحرة عامرة بالأحجار البركانية ، وهبت على وجوهنا ريح جنوبية شرقية ، الأمر الذى عجزنا معه عن الكلام أو حتى التفكير . كان مسارنا يتجه صوب سلسلة التلال الطاردة التى يسمونها المزمة ، وعندما وصلنا إلى تلك

التلال ، أو بالأحرى إلى يمين هذه التلال ، نظراً لأننا نتحرك دوماً فى خط مستقيم ، شاهدنا أعداداً كبيرة من الجراد الأحمر ، التى بدأت تتطاير هنا وهناك مع طلوع الشمس ، والناس يطاردونها ويسقطونها باستخدام العصى . وجرى اصطياد ما يكفى من الجراد ، لإعداد طبق للغداء . هذا الجراد يبدو أثناء الطيران كبيراً مثل ذباب شهر مايو ، عندما تطير بلا حول أو طول ، منجرفة بفعل الريح وعاجزة عن تجنب الصعاب والعقبات . فى بعض الأحيان يطير الجراد فى اتجاه معاكس لوجوه الإبل ، وفى أحيان أخرى يسقط الجراد بين الأدغال مما يسهل الإمساك به واصطياده . والجراد عندما يحط على الأرض ، تصعب رؤيته ، ويكون على حذر بحيث يقفز هارباً إذا ما اقترب أحد منه . يبدو أن حس الجراد أقوى من قدرته على الحركة .

عند الساعة الثانية وصلنا إلى مزيد من الأبيار ، أبيار ماحية التى يَخْنِقُ الرمل السواد الأعظم منها ، لكن من بينها بئر تعطى قدراً كافياً من الماء المالح . هذه الأبيار تقع بين مجموعات من شجر الأثل ، الذى أزعجنا فيها كثيراً من الأرانب البرية التى لم تفلح كلاب الصيد فى الإمساك بها . كنت أنا وولفريد ننتظر نتائج تلك المطاردة عديمة الجدوى ، التى يعتمد عليها غداؤنا ، الأمر الذى جعلنا نتخلف عن بقية الجماعة مسافة نصف ميل . قبل أن نصل إلى الجماعة ، صادفنا حنا مستلقياً على الأرض فوق هدومه (أى لحافه وعباءته) ، ووجدنا إبراهيم واقفاً بجواره وكلاهما يصيح قائلاً : " واه ! واه ! واه! لم نستطع تخيل ما حدث لهما ، كما لم نستطع الحصول على أية معلومات من أى منهما ، باستثناء أنهما سيبقيان فى المكان الذى هما فيه . هذان الحضريان الجالسان فى فراشهما وحدهما فى وادى السرحان كانا يشكلان منظراً يدعو إلى السخرية والاستهزاء ، على نحو عجزنا معه ، فى تلك اللحظة عن الإمساك عن الضحك لكن الأمر لم يكن يتطلب الضحك ، وكان مستحيلاً علينا أن نتركهما وحدهما فى ذلك المكان . وهنا أصررنا على الحصول منهما على تفسير لما هما فيه . حدث شجار بين حنا وعبد الله ، لأن عبد الله ظل يسرِّع خطى ذلول حنا ليواكب الإبل الأخرى ، ورفض عبد الله تبريك الجمل وتوقيفه من جديد . كان عبد الله هو وعواد فى عجلة من

أمرهما ، ويودان الابتعاد عن ماحية قدر المستطاع ، نظراً لأن حمدان الشرارى يقول : إن هذا المكان جد خطير . لكن ذلك أغضب حنا ، وأسقط عباءته أثناء هذا الغضب ، ثم قفز على العباءة ومعه لحافه ، وجلس على الأرض . وتركه الآخرون يولول فى هذا المكان ويندب حظه ، بالشكل الذى وجدناه عليه . واقترح حنا علينا أن نتركه هو وإبراهيم لتأكلهما الضباع التى شاهدنا آثار أقدامها . ومع ذلك ، كان إبراهيم الذى بقى مع حنا من باب الرفقة والصحبة ، على استعداد لمواصلة السير معنا ، وعندما وافق حنا على ذلك ، آثر النهوض وطلب من أخيه أن يحمل عنه فراشه ، وراح الاثنان يسيران خلفنا . لم يكن من الصواب السؤال عن المخطئ والمصيب ؛ أوقفنا الإبل ، وأرجعنا الدلول وأصررنا على أن يركب حنا الجمل ؛ وقد فعل الرجل ذلك بعد شىء من التمنع ، وبذلك نكون قد أنهينا الحادث . كلفنا محمد بمسألة القيام بعمل مصالحة بين العرب ، أما نحن فقد أفلحنا فى نزع الحقد من قلب حنا . من الصعوبة بمكان على أى واحد منا العودة ، فى هذا الوقت ، دون أن يفقد حياته ، وأنا على ثقة أن أفراد الجماعة كلهم قادرون على إعمال عقولهم ؛ من غير المناسب أن نظن أن هناك خلافاً بين أفراد جماعتنا الصغيرة ، المنعزلة تماماً عن العالم بالشكل التى هى عليه فى الوضع الراهن . أو المنطقة التى يرى الإنسان فيها أرضاً صخرية على شكل خطوط ، تنبئ عن وجود المرعى . لم نر أية علامة من العلامات الدالة على وجود السكان فى هذه المنطقة ، بعد أن غادرنا عثرى لم نر أى أثر لأقدام الإبل أو البشر .

ها هو الجراد قد جرى شيه وهو شىء مستساغ فى الطعام .

اليوم الحادى والثلاثون من شهر ديسمبر . مسيرة أخرى طويلة ، ونحن الآن فى نهاية العام ، فى مكان قصى من أرض الله الواسعة . كان الجو بالأمس شديد البرودة أثناء الليل ، الأمر الذى أجهز على الجراد كله . الجراد هنا نافق على الأرض فى كل الأنحاء ، وتأكله طيور الصحراء الصغيرة ، والقبرات ، وآكلات الحبوب . نزلنا من جديد إلى الحوض ، أو المجرى الرئيسى لوادى السرحان ، الذى ما يزال على مستواه السابق ؛ مجرى الوادى هنا يكاد يكون مستوياً ، وتكسوه أدغال الأشجار القصيرة ،

والنباتات القصيرة ، وكلها مالحة الطعم ؛ والتربة هنا مفتتة وغير متماسكة وفيها بعض البقع الملحية . وهذا هو عواد هو والشراري يقولان إن الوعث(*) موجود هنا فى بعض الأماكن ، وفيه يغوص كل من يمر عليه ولا يظهر منه بعد اختفائه البشر ، والإبل ، والغزال ؛ لكننا لم نر شيئًا من ذلك الوعث الذى حكيا لنا عنه . سرنا بمحاذاة حافة الوادى إلى أن وصلنا فجأة إلى مكان فاجأنا فيه بعضًا من الغزلان ، ومن هذا المكان صعدنا إلى أرض عالية ، وجدناها عبارة عن أرض حجرية جرداء من نوعية أرض الحرَّة ؛ وشاهدنا بين الصخور ضبعًا يعدو فى خيلاء . لم نحصل على شىء : لا الضبع ولا الغزال ، ومازلنا حتى الآن بلا لحم للطعام . لم يحدث جديد إلى أن وصلنا إلى نخلة وحيدة فى مكان واسع ؛ كانت هناك عين مائية جميلة بالقرب من تلك النخلة ، فيما بين جذور دغل من النخيل الصغير . الحفرة عرضها حوالى ثلاث أقدام ، وعمقها حوالى قدمين ، وارتفاع الماء فيها حوالى قدم واحدة ؛ والماء يرتفع من جديد بعد رفعه من تلك الحفرة ، لكنه لا يمكن أن يفيض على أجناب الحفرة . كانت هناك آثار أقدام الغزال والضباع حول هذه الحفرة ، ومبلغ علمى أن هذا هو المكان الذى تأوى إليه حيوانات الصحراء طلبًا للماء . وهذا هو النبع المائى الوحيد الذى فوق سطح الأرض . الناس هنا يسمون هذه العين المعصرة وهو مكان لطيف آثرنا التخييم فيه ؛ لكن من الخطورة بمكان أن يقيم الإنسان بالقرب من الماء ، مخافة مجىء الناس . يقول عواد إن هناك بعض الموروثات التى تدل على وجود بلد هنا فى الزمن القديم ؛ لكننا لم نشاهد أنقاضًا فى هذا المكان . الماء عذب وسلسبيل ، وهذا ما يستدل عليه من الحشرات التى تحوم حول الماء وتسبح فيه . هذه هى طريقة العرب فى الحكم على صلاحية الماء وعذوبته . الشكوك فى الصحراء لا تدور إلا من حول الماء الرائق الصافى ، الخالى من آثار الحياة الحيوانية .

(*) الوعث : بفتح الواو وتسكين االعين هو : الرمل اللين تغيب فيه الأقدام . (المترجم)

نحن الآن مخيمون تحت صخرة منخفضة ، مجوفة على شكل كهوف كما لو كان ذلك بفعل الماء ، هذه الكهوف هى مخابئ للضباع . المنظر من هنا جميل لمن ينظر إلى قرية السمح فى الخلف . المساء هادئ وبارد ، لكننا لا نود إشعال نيران كثيرة تخوفًا من الأعداء . هذا هو حمدان ، مرشدنا الشرارى ، صاحب الملامح الوحشية ، كان يتغنى أمامنا بواحدة من الأغانى الشعبية الجميلة ، التى يقول إنها من تأليفه . هذه الأغنية مكونة من مقطوعات كل واحدة منها مكونة من أربعة أبيات مع قافية تبادلية ، وهذه القصيدة تروى حكاية لها علاقة بأسرة ذلك الشرارى . وبينما كان الشرارى يتغنى بهذه القصيدة ، كان بقية العرب يقفون ، ويكررون دومًا آخر كلمة من كلمات البيت ومعها مقطع القافية ؛ هذه القصيدة كان لها تأثير جميل . قصة هذه القصيدة كانت بسيطة جدًا ، إذ كانت تحكى عن مشاجرة جرت بين والده حمدان وأخته ، وكيف أنهما حملا مشكلتهما ووضعاها أمام عبيد بن الرشيد ليحكم بينهما فى حائل ، وكيف سوّى ذلك الشيخ الكبير تلك المشاجرة ، بأن وضع حبلاً حول عنق الابنة ، وطلب إلى الأم الإمساك بأحد طرفى الحبل ، وأن تفعل ذلك الشىء طيلة حياتها . وعليه قامت الابنة بتقبيل الأم ، وصرفهما عبيد بن الرشيد لحال سبيلهما بعد أعطاهما بعض الهدايا ، كما أعطاهما دلولاً ، وعباءة لكل منهما ، ومئة مكيال من القمح ، واستمر فى إعطاء هذا القمح لهما كل عام ، إلى أن وافته المنية ، وما يزال ابن أخيه محمد يقدم هذه العطية إلى يومنا هذا . ومحمد هو الحاكم الحالى لجبل شمر . روى لنا حمدان الشرارى أيضًا قصة مسلية عن سياسة حائل – وهذه الرواية تتفق مع ما نتذكره عن بالجريف فى هذه الواقعة – التى يردها إلى تاريخ بعيد . مفاد هذه الرواية أن ابن الرشيد الحالى ليس شخصية محبوبة مثل ولده طلال ؛ ورواية حمدان لمستقبل ابن الرشيد العملى ، الذى يتولى سدة الحكم حاليًا ، تعد شيئًا مدهشًا . ويبدو أن محمد بن الرشيد أعدم حوالى اثنى عشر فردًا من أفراد عائلته ، ولذلك يخشاه شمر أكثر مما يحبونه . وهذا أمر متعب تمامًا ، وقد يكون سببًا من أسباب عدم ذهابنا إلى نجد بأى حال من الأحوال . لكننا سوف نسمع الكثير عن هذا الموضوع عندما نصل إلى الجوف .

إنشاد حمدان الموسيقى على نحو جعلنى أدونه موسيقياً على النحو التالى :



اليوم الأول من شهر يناير من العام ١٨٧٩ . صقيع أسود اللون ، لكنه متجمد . غيرنا مسارنا ، وكان طريقنا طوال اليوم صوب الجنوب - مسافة خمسة وعشرين ميلاً ، على حد تقديرنا - ثم بعد ذلك فى اتجاه منتصف وادى السرحان ، الذى هو عبارة عن أرض سهلية مستوية مكونة من الرمل وحبيبات رملية خشنة ، مع تلال هنا وهناك من الرمل الأبيض تكسوها نباتات الغاضة . انتوينا الاستيقاظ مع خيوط الفجر الأولى ، ثم نطوى خيامنا بعد ذلك ، ثم نتناول كوباً من القهوة ، مع شىء من البسكويت أو البقسماط ، ثم نستأنف مسيرنا بعد ذلك إلى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر دون التوقف ، ولو للحظة واحدة ، مع الاكتفاء بست تمرات لكل واحد منا وشىء من البقسماط ، على أن يتم تناول كل ذلك أثناء السير . وعندما نتوقف ، وقبل أن نقوم بنصب الخيام ، نوقد النار لإعداد شىء من القهوة ، نعتمد عليه إلى أن يحين موعد العشاء عند غروب الشمس . المدهش حقاً هو مسألة اعتماد الإنسان على القليل من الطعام أثناء الترحال . لم نحصل على شىء من اللحم طوال الأيام الأربعة الأخيرة وإلى يومنا هذا ، كل ما لدينا هو مرق البقر ، والبرغل ، أو الدقيق المخلوط بمسحوق الكارى والزبد ، والمخبوز على شكل كعكة . هذا النوع من الكعك جيد جداً ويسهل عمله . نحن اليوم فى ترف ، فقد استطاعت الكلاب اصطياد أرنب برى ، ومطاردته إلى جحره ، الأمر الذى سهل علينا تفتيش ذلك الجحر . الأرنب الجبلى أكبر بقليل جداً عن الأرنب الكبير ، وهو يزيد عن احتياج الشخص الواحد ويقل عن احتياج فردين ؛ لكن محمد يتنازل عن نصيبه ، قائلاً : إن بوسعه الانتظار .

كان محمد يحاول تحسين النقاش الذى دار هذا المساء حول مسألة اختيار مكان المخيم ، إذ راح محمد يحكى لنا بعض القصص عن مغامراته فى الصحراء ؛ ورحنا نحكى له نحن أيضًا عن مغامراتنا فى الصحراء . حكى محمد ، أنه كان له أخ اصغر منه ، وكانت أمه تحب ذلك الأخ الصغير حبًا جمًا ، كان ذلك الأخ صبيًا من صبية الحضر ، " وكانت بشرته بيضاء مثل بشرة البنات " ؛ وكان ذلك الصبى يعرف القراءة والكتابة ، ولم يكن يعرف أى شىء عن الصحراء (أما محمد نفسه ، مثل سميه العظيم ، فكان جمّالاً طوال حياته(*) . حاليًا فى تدمر ، تدور مشاجرات ومشاحنات حول مسألة الشياخة ، وفى واحدة من تلك المشاجرات ، جرى إرسال شقيقه إلى بلدة السخنة بواسطة والديه ؛ السخنة قرية مجاورة تبعد عن تدمر حوالى ثلاثين ميلاً ؛ وفى السخنة بقى ذلك الشقيق فترة من الزمن مع بعض الأقارب . ومع ذلك ، سئم ذلك الشقيق حياته بعيداً عن موطنه ، وراودته الرغبة فى زيارة أمه . وشرع ذلك الصبى فى رحلة العودة إلى تدمر بصحبة صبى آخر من سنه (خمسة عشر عامًا) . كان الوقت منتصف الصيف ، وضل الصبيان طريقهما ، وراحا يتجولان مسافة بعيدة داخل الحمد (السهل) حيث ماتا عطشا . وكان محمد قد ذهب للبحث عن شقيقه وعثر عليهما ميتين إلى جوار بعضهما .

فى إحدى المناسبات الأخرى كاد محمد نفسه أن يلقى حتفه . كان محمد قد سافر وحده مع إبله على الطريق إلى قريتين ، وسقط فى أيدى غزو من اللصوص جاء من التلال . قام أفراد هذا الغزو بتجريد محمد من كل ما معه باستثناء قميصه وطربوشه . كان محمد قد أفلح فى إخفاء بندقيته فى دغل من الأدغال ، لكن أفراد الغزو لم يتركوا له شيئًا غير ذلك ، لم يتركوا له ماء أو طعامًا ، وكان الوقت منتصف فصل الصيف . كان قريتين ، أقرب الأماكن إليه تبعد مسافة تقدر بأربعين ميلاً ، وكان الرجل يعرج جراء ضربة أصابته . وبعد انصراف اللصوص ، سار محمد فى ذلك

(*) لعله يقصد بالسمى الرسول الكريم (ص) ولكن الرسول لم يكن جمالاً قبل البعثة النبوية بل كان غنّاما وتاجرا . (المراجع)

الاتجاه ، ونجح فى السير إلى أن دخل عليه الليل ، وواصل مسيره فى اليوم التالى إلى أن وصل إلى خرابه يطلقون عليها اسم قصر الحير ، التى سقط فيها مغشيًا عليه فى منطقة ظليلة ، وبقى فى مكانه طيلة أربع وعشرين ساعة لم يستطع التحرك خلالها ، ويعانى من الظمأ . أخيرًا وبعد أن ناجى نفسه قائلاً : " يتعين علىّ أن أموت الآن " ، مرت عليه مجموعة من الجمّالة قادمين من قرية السخنة ووجدوه راقدًا هناك . حسبوه عبدًا فى بداية الأمر ، نظرًا لأن الشمس كانت قد تسببت فى اسوداد بشرته ، وكان لسانه جافًا على نحو منعه من الكلام . ومن يمن الطالع أن تعرفه أحد الجمالة ، وأعطوه شيئًا من الماء . وبقى محمد عاجزًا عن رواية ما حدث له ، لكنهم وضعوه على حمار وأحضروه معهم إلى تدمر .

أما قصتنا التى رويناها له فكانت تتعلق بالمشاجرة التى جرت بيننا وبين أبو نجاد، واندفاعنا السريع من العقبة إلى غزة ، فى الوقت الذى كدنا أن نموت فيه عطشًا .

كان عامنا سيبدأ بداية طيبة لولا نوبة البرد التى أصابت ولفريد . لقد انحبس صوت ولفريد نتيجة إصابته بالبرد .

اليوم الثانى من شهر يناير من العام ١٨٧٩ . صقيع قاسٍ ، ماء متجمد فى الإناء . وصلنا أبيار شيبة عند الساعة الثامنة والنصف ، وسقينا إبلنا – الماء شديد الملوغة – الارتفاع هنا على الجهاز ١٩٥٠ قدمًا ، العمق إلى سطح الماء يقدر بحوالى اثنى عشر قدمًا . سرنا فى مدق من المدقات جزءًا من الفترة الصباحية ، لكن يبدو أن هذا المدق مهجور وغير مطروق . عند الساعة الواحدة وصلنا إلى بئر أخرى ، بالقرب من صخرة غريبة حسبناها قلعة فى بداية الأمر . نحن الآن عبرنا الوادى ، إلى ضفته الغربية . وتجاوزنا منزلاً مدمرًا ليس قديمًا تمامًا يسمونه أبو قصر ، وهناك بئر أخرى قريبة من ذلك المنزل ، وعند الساعة الرابعة والنصف خيمنا عند سفح بعض التلال الرملية ، التى تنمو على قممها أشجار الأثل ، وهذا مكان بهيج لا يبعد كثيرًا عن بئر

رابعة يسمونها بير الجراوى يصل ارتفاعه على البارومتر إلى حوالى ١٨٤٠ قدمًا . وهذا هو ولفريد عاد إليه صوته الذى فقده بسبب نوبة البرد . أما أنا فمازلت أعرج مثلما كنت من قبل ، لكن آلامى خفت بعض الشىء . يخطر ببالى فى بعض الأحيان أنى لن أستطيع المشى بعد ذلك .

اليوم الثالث من شهر يناير ، والمصادف ليوم الجمعة . قمنا بمغامرة فى نهاية المطاف ولم تكن على ما يرام ؛ درس قاس تعلمناه فيما يتصل بخطر التخييم بالقرب من الأبيار . بدأنا فى ساعة مبكرة ، لكننا تأخرنا مدة ساعة كاملة فى جراوى لجلب شىء من الماء ، ولم نغادر منطقة الأبيار إلا عند الساعة الثامنة تقريبًا . ثم يممنا مسيرنا شطر الشرق عبر الوادى . التربة هنا من النوع الأبيض النقى الثقيل ، وتواصل سيرنا بطيئًا ، ورحنا نعبر كثبانًا رملية منخفضة خالية من العلامات الأرضية فيما عدا الرُّجم التى خلفناها وراءنا . شاهدنا حولنا هنا وهناك تلالاً صغيرة تنمو عليها أدغال من أشجار الأثل . آويت مع ولفريد إلى تل من هذه التلال ، وخلَّفنا الإبل وراءنا ، ونزلنا من فوق فرسينا ، وربطناهما إلى الأشجار ، كيما نحصل على شىء من الراحة ، ونتناول تصبيرة منتصف النهار - كانت كلاب الصيد تلعب من حولنا وتطارد بعضها البعض فى الرمال . انتهينا من تناول تصبيرة منتصف النهار ، ونلنا شيئًا من الراحة وكنا نتحدث عن أمر لا أذكر ما هو ، وعندها شاهدنا إبلنا وهى تمر علينا . سبقتنا الإبل بحوالى مائتى ياردة وفجأة تناهى إلى مسامعنا صوت مكتوم صادر عن حيوانات وماشية تركض ؛ وهنا هم ولفريد واقفًا ، ونظر حوله ثم قال : " اركبى فرسك . هذا غزو . " وعندما هممت مسرعة إلى الدغل متجهة نحو فرسى ، شاهدت جماعة من الخيالة يعدون مسرعين ومعهم حرابهم ، ولا يبعدون عنا سوى مائتى ياردة . كان ولفريد قد ركب فرسه مثلما قال ، وكان ينبغى على أن أفعل أنا الشىء نفسه ، ولكن الذى منعنى من تنفيذ ذلك على وجه السرعة ، كان يتمثل فى الألم الناتج عن ركبتى المصابة من ناحية ، والرمال العميقة من الناحية الأخرى . هذان الأمران حدثا عندما نهضت واقفة ، وبعدها سقطت على ظهرى . أزف الوقت ، وما أن وقفت على قدمى ،

وجدنا العدو وقد أطبق علينا ، ولكنى سقطت أرضًا بفعل رمح من الرماح . ثم تحول الغزاة صوب ولفريد ، الذى كان ينتظرنى ، وقفز البعض منهم ليمسكوا بلجام فرسه . كانت بندقيتى معه ، التى كنت قد أعطيته إياها ، لكن البندقية لم تكن معمَّرة (محشوة بالطلقات) ؛ كانت بندقية ولفريد وسيفه على دلوله . من حسن حظ ولفريد أنه كان يرتدى ملابس سميكة جدًا ، كان يرتدى عباءتين إحداهما فوق الأخرى ، كما كان يرتدى ملابس إنجليزية تحت هاتين العباءتين ، ولذلك لم تصبه الحراب بأى أذى . أخيرًا نجح مهاجموه فى أخذ بندقيته منه وكسرها على رأسه ، إذ ضربوه بها ثلاث مرات وحطموا مقبضها . وجدت أن المقاومة عديمة الجدوى ، وهنا صحت مستجيرة بأقرب الخيالين إلىَّ وقلت له : " أنا دخيلك " . (بمعنى أنا أطلب حمايتك) ، لأن هذه هى الطريقة المعتادة للاستسلام فى هذه البلاد . سمع ولفريد كل ما دار بينى وبين أفراد الغزو ، وظنًا من ولفريد أنه نال الكثير من ذلك الشجار غير المتكافئ - واحد فى مواجهه اثنى عشر - فقد ألقى بنفسه من فوق فرسه . كان الخيالة قد أمسكوا بالفرسين ، وانتظروا قليلاً ، وبعد أن استردوا أنفاسهم ، بدءوا يسألوننا عن هويتنا ومن أين جئنا . أجبناهم : " نحن إنجليز ، جئنا من دمشق . وأن إبلنا على مقربة منا . تعالوا معنا وسوف تسمعون ذلك بأنفسكم . " كانت قافلتنا ، فى تلك الأثناء ، التى لم تدم سوى خمس دقائق فقط ، قد شكلت نفسها على شكل مربع ، وكانت الإبل قد جرى تبريكها وسط المربع ، حسبما نراه من المكان الذى كنا فيه . لم أكن أتوقع موافقة الخيالة على ما طلبناه ، لكن الرجل الذى يبدو أنه كان شيخًا لذلك الغزو ، سمح لنا بالمضى قدمًا (وقد آلمنى ذلك المشى كثيرًا) ، وانضممنا إلى الآخرين من أفراد قافلتنا . وجدنا محمد هو وبقية أفراد الجماعة متمترسين خلف الإبل ، مشهرين بنادقهم ، وعندما اقتربنا منهم تقدم محمد ونادى قائلاً : " من أنتم ؟ " نحن روالة من ابن ضبعة. " هل تقسمون بالله على ذلك ؟ " " نقسم بالله على صدق ما نقول ؟ . " ومن أنت ؟ " أنا محمد بن عروق التدمرى . " " هل تقسم بالله على صدق ما تقول ؟ " " أقسم بالله على صدق ما أقول ! " " وهل هؤلاء فرنجة يسافرون معك ؟ " " أقسم بالله ! أن هؤلاء فرنجة ، وهم أصدقاء لابن شعلان . "

جاء كل شيء على ما يرام ، فقد وقعنا فى أيدى أصدقاء . كان ابن شعلان ، مُضيِّفنا فى العام الماضى ، مجبرًا على حمايتنا ، حتى وإن كنا على مبعدة منه فى الصحراء ، ولم يجرؤ أحد من رجاله على مضايقتنا ، بعد أن علموا بصداقته لنا . يضاف إلى ذلك أن محمد كان هو الآخر من تدمر ، الأمر الذى يمنع الروالة من مضايقته مرارًا لأن تدمر تدفع إتاوة لابن شعلان ، وبالتالى يحظى التدمريون بحماية ابن شعلان لهم . وعليه بعد أن اتضح الأمر للجميع ، أصدر شيخ الغزو أوامره بإعادة الفرسين ، والبندقية ، وكل ما أخذوه منا فى الشجار . بل إنهم أعادوا إلينا أيضًا كيس تبغ ولفريد . وهؤلاء هم الشبان الذين أخذوا الفرسين غاضبون ويشعرون ببالغ الغضب لأننا كنا أصدقاء لابن شعلان . " قالوا : " آه ! هاتان فرسان جميلتان ؛ وهذه بندقية جميلة . " ولكن العرب ، بغض النظر عن أخطائهم خفيفوا الظل ، وسرعان ما عاد إلينا الوئام ، وجلسنا جميعًا على الأرض على شكل دائرة ، نأكل معًا التمر ونتبادل فيما بيننا غليون (شيشة) السلام . لقد أصبح أفراد الغزو ضيوفًا علينا .

والغريب فى هذا الأمر كله ، هو تلك النية الطيبة التى جعلت أفراد الغزو يصدقون الكلام الذى قلناه كله . كنا قد قلنا لهم الحقيقة ، لكن ما الذى جعلهم يصدقوننا ؟ لم يكونوا يعرفوننا أو يعرفون محمد ؛ ومع ذلك صدقوا كلامنا عندما قلنا لهم إننا أصدقاء ابن شعلان ، وكان بوسعهم الانصراف ومعهم ممتلكاتنا . وبالتالى لم يكن أحد سيعرف ذلك الذى حدث ، أو هوية أولئك الذين قاموا به .

يبدو أن الشيخ ابن الضبعة ، هو وأصدقاؤه كانوا جماعة صغيرة يعملون مقدمة لقوة الروالة الرئيسية . لقد جاءت هذه الجماعة لاستكشاف حال المرعى فى الوادى ، وأنهم كانوا يخيمون على بعد أميال قليلة من أبيار الجيراوى التى نمنا بالقرب منها فى الليلة الماضية . لقد جاءت هذه الجماعة فى الصباح طلبًا للماء ، وشاهدوا آثار أقدامنا على الرمل ، ولذلك تتبعونا ، وراحوا يسرعون الخطا على أمل اللحاق بنا . وكانت المصادفة البحتة هى التى جعلتهم يرونا منفصلين عن بقية قافلتنا ، الأمر الذى جعلهم

يهاجموننا فور رؤيتهم لنا . كل شىء هنا يعتمد على السرعة فى الهجوم الذى يكون من هذا القبيل ، وقد نجحوا فى ذلك تماماً . لو حدث تردد من جانبهم ، لكنا قد مضينا سالمين ومعنا إبلنا . وعندها لن يستطيعوا مضايقتنا أو التغلب علينا ، وعلى الرغم من أنهم كانوا اثنى عشر رجلاً ونحن ثمانية أفراد فقط ، فقد كانوا مسلحين بحراب أما نحن فكنا مسلحين بأسلحة نارية . أعجبتنا ملامح هؤلاء الروالة الشبان . وعلى الرغم من سلوكهم الفظ ، فقد كانوا أصحاب تصرفات حسنة . كانوا يشعرون بالخجل والكسوف لأنهم استعملوا رماحهم ضدى ، واعتذروا اعتذاراً شديداً عما بدر منهم ؛ لقد شاهدوا رجلاً يرتدى عباءة ، ولم يخطر ببالهم أن يلبس هذه العباءة سوى رجل . واقع الأمر أن الخطأ الذى وقعوا فيه لم يكن مفاجأة ، نظراً لأنهم انقطعت أنفاسهم ، وهم يجرون بخيولهم ، إذ لم يكن يشغل بالهم سوى الفرسين . ضياع الفرسين سبب لهم الكثير من الأسف والندم ، ولم يأسفوا هذا الأسف ويندموا ذلك الندم على المعاملة الخشنة التى لقيناها منهم . وبعد توضيح الأمر وتبادل الاعتذارات انصرفوا إلى حال سبيلهم . كان محمد حريصاً على عدم تأخيرهم ، من باب أن تعارفنا على بعضنا البعض وصل إلى شأو بعيد ، وكان واضحاً أيضاً أن عواد كان يشعر بالقلق والتعصب . خطر ببالى أن عواد ربما كان عليه ثأر ، الأمر الذى يجعله يخجل من لقاء الأجانب . كان باقى أفراد الجماعة مغلوبين على أمرهم وصامتين ؛ وعليه ودعنا ابن الضبعة وتركناه يذهب لحال سبيله .

كانت أفراس ذلك الغزو من النوع صغير الحجم ، المكتنز والنشيط ؛ وكانت لتلك الخيول أكتاف طيبة ، ورؤس جميلة ، لكنها كانت قريبة الشبه بالأمهار الصغيرة وذلك على العكس من أفراس عنزة التى كانت فى حوزتنا . كان السواد الأعظم من هذه الخيول كستنائى اللون . ورأيت واحداً منها وصاحبه يركبه مستخدماً لجاماً .

بعد انصراف الروالة رحنا نتبادل الملاحظات . جرى فحص الإصابات التى حدثت لولفريد واتضح أنها سطحية . هذا يعنى أن الحبل الغليظ الذى كان يلفه حول رأسه هو الذى تلقى القدر الأكبر من الضربات ، وعلى الرغم من تكسير مقبض البندقية

والصلب وكل شيء فيها ، فإن رأس ولفريد ما يزال سليمًا . هذا يعنى أيضًا أن الحراب لم تستطع اختراق ثيابه . وفيما يتصل بى أنا شخصيًا ، فإن الإصابة الوحيدة التى لحقت بى كانت تتمثل فى تجديد آلام ركبتى . لكنى تناسيت ذلك الألم أثناء موجة الغضب ، نظرًا لأن ذلك الألم كان هو سبب إلقاء القبض علينا . ولولا هذا الألم لكنا قد هربنا ولحقنا بإبلنا وتعاملنا مع العدو بطريقة مختلفة . سألونى ما إذا كنت خائفة أم لا ، لكن واقع الأمر أنه لم يكن هناك مجال للخوف فى البداية ، وبعدها استحوذ الغضب على كل المشاعر الأخرى . يقول ولفريد ، لكنى لا أصدق ما يقول ، إنه أحس بالخوف ، وأنه كاد أن يهرب ويتركنى وحدى ، لكنه آثر البقاء بعد أن تدبر الأمر . هذا الأمر الذى يسبب لنا إزعاجًا كبيرًا ، ولى وانتهى ، وهذا أمر طبيعى .

فيما يتصل بالآخرين ، نجد أن محمد كان خجلاً لأن الدور الذى أداه لم يكن بطوليًا تمامًا . كان واضحًا أن القافلة اتخذت موقفًا دفاعيًا إلى حد بعيد ؛ لكنه كان بعيدًا تمامًا عن الفروسية المثالية التى كان محمد يوصى بها بصورة دائمة . وأخذ الرجل يلوم نفسه ، لكننا كنا نقول له : إنه تصرف تصرفًا سليمًا . خطؤنا هو الذى جعل العدو يفاجئنا على هذا النحو ، ولو حدث وكان العدو من اللصوص والمجرمين ، لاعتمد سلامنا وأمننا على المحافظة على القافلة بلا مساس لتكون لنا بمثابة القلعة التى يمكن أن نلجأ إليها إذا ما جرى سلب ونهب كل ما معنا . ولو كان محمد اندفع إلى الأمام بطريقة غير منتظمة لمساعدتنا ، لأدى ذلك إلى كشف القافلة كلها وتعريضها للهزيمة ، التى تعنى فى مثل هذه الظروف الموت بسبب البرد والجوع .

ونحن نحمد الله لأن الأمور لم تتفاقم . وقد قررت عدم النزول من فوق الفرس إذ إننى كنت عاجزة عن الحركة أو مصابة بالعرج ، ولن أربط حصانى مطلقًا بعد اليوم فى دغل من الأدغال .

يبدو أن كل أفراد الجماعة نذروا ذبح كثير من الخراف ، الأمر الذى يجعلنا نتوقع وليمة كبيرة فى الجوف - إن قدر لنا الوصول إليها .

كل شيء هادئ الآن ، هذا حمدان الشرارى يغنى قصة حب بين شاب وفتاة فرق بينهما الوشاة والمفسدون ، لكنهما استطاعا مواصلة تبادل الرسائل عن طريق الماعز عندما كان يخرجان بها إلى المرعى .

اليوم الرابع من شهر يناير . لم يحدث تراخٍ هذا الصباح ، نظراً لأن الجميع كانوا يأخذون الأمور مأخذ الجد ، وواصلنا مسيرنا عند الساعة السابعة وقطعنا مسافة ثلاثين ميلاً دون توقف ، بمعدل ثلاثة أميال ونصف الميل فى الساعة الواحدة . غادرنا وادى السرحان ونحن على ما يرام ، ونمشى حالياً فى خط مستقيم عبر الحمد (السهل) متجهين إلى الجوف، الطريق الذى نسير فيه خالٍ من الماء ، ويكاد يكون خلواً من الغزو . التربة زلطية من النوع الخفيف وليس فيها ما يعطل أقدام الإبل أو يمنعها من السير المريح . عند الساعة الواحدة وصلنا إلى بعض تلال الحجر الرملى التى يكسوها الحديد ، وهذه المنطقة على حد قول أفراد القافلة ، هى بداية مدرجات الجوف . أمضينا اليوم كله فى الصعود ، وبعد أن وصلنا إلى أعلى نقطة هنا فى طريقنا ، أوضح لنا جهاز البارومتر أننا كنا على ارتفاع ٢٦٦٠ قدماً . وعثرنا فى هذا المكان على بعض الحفر الصغيرة ، التى تستخدم ، على حد تعبير حمدان ، فى تجميع وغربلة السمح ، تلك الحبوب الصغيرة حمراء اللون التى تنمو برياً فى هذا الجزء من الصحراء ، ويستخدمها أهل الجوف غذاء لهم .

بعد ذلك بوقت قصير ، شاهدنا رجلين يركبان دلولاً ، أول البشر الذين رأيناهم ، بعد الغزو ، منذ أن غادرنا قرية كاف . وهنا جرى ولفريد هو ومحمد لاستطلاع أمر هذين الرجلين ، وقام محمد من باب التكفير عن خموله وتراخيه فى الحادث الذى وقع مؤخراً ، بإطلاق طلقات عدة ، ونجح محمد فى إخافة هذين الرجلين . كان الرجلان من المعدمين ويلبس كل واحد منهما قميصاً قديماً ، وكانا يحملان جوالاً من التمر على أحد جانبى الجمل وقربة ماء على الجانب الآخر . قالا إنهما كانا يبحثان عن رجل سبق أن ضاع فى وادى السرحان ، وأن ذلك الرجل كان موفداً من قبل ابن الرشيد لتحصيل الإتاوة من قرية كاف . هذا الرجل أصابه المرض ، وتأخر عن رفاقه ، ولم يره أحد بعد

ذلك . وأنه هو وزميله موفدان من قبل حاكم الجوف للبحث عن هذا الرجل . وقالا لنا إننا على بعد ساعات قليلة من بلدة الجوف .

طوال هذا الوقت ، كنت أنا واقفة بجوار الإبل أستمع إلى الحديث الدائر ، وأصغى إلى الملاحظات التى كان يبديها كل من عواد وحمدان ، اللذين كانا يزداد فضولهما بشأن الزملين القادمين من الجوف . أخيراً لم يطق عواد الاصطبار أكثر من ذلك وطلب من حمدان أن يرافقه . وقفزا من فوق الدلولين اللذين كانا يركبانهما ، وجريا بأقصى ما وسعتهم السرعة للقاء ذلك الرجل الجوفى (من أهل الجوف) ، الذى كان قد سار فى طريقهما هو أيضًا ، فى حين عاد إلينا كل من ولفريد ومحمد . عندما وصل ولفريد قدم لى حفنة من التمر الممتاز الذى لم يسبق أن طعمته مطلقًا ؛ وكان الرجلان قد أعطيا ولفريد تلك الحفنة من التمر . وسرعان ما عاد عواد هو والشرارى دون أن يكون معهما شىء من التمر ، وإنما الكثير الكثير من ثرثرة الجوف .

نحن نخيم هذا المساء بالقرب من بعض الرجم الحمراء ، والصفراء ، والوردية اللون المصنوعة من الحجر الرملى ؛ تكوين التلال هنا شبيه تمامًا بتلال شبه جزيرة سيناء . المنظر هنا رائع من الناحية الجنوبية ، ونستطيع أن نرى عن بعد خطًا من التلال الزرقاء(*) ، التى يقولون : إنها تقع خلف الجوف على حافة النفود .

سألنا حمدان عن قبيلته ، قبيلة الشرارات ، وأعطانا ما يلى على أنه الأقسام المختلفة لهذه القبيلة : –

الهويمرة .... الشيخ الحاوى

الحليسة .... ابن هديجة

الخيالى .... زيد الوردى

(*) هذه التلال الزرقاء هى ما يسمونه الجبل الطويل .

الشـرارات ليس لديهم خـيـول ، لكنهم يربون أفـضـل أنواع الإبل فى الجـزيرة العربيـة . وأفضل سـلالات الإبل عند الشـرارات يسـمونهـا بنات عديهـان، وأنت إذا مـا ركبت ناقة من بنات عديهان ، على حد قول حمدان ، وبدأت من المكان الذى نحن فيه حالياً عند غروب الشمس ، فإنك تصل عند شروق الشمس فى قرية كاف ، وهى مسافة تقدر بحوالى مائة وثمانين ميلاً . حدث منذ زمن قريب أن سرق لص دلولاً شرارياً من مزارب ، وركبه طوال الطريق ليصل إلى حائل خلال سبعة أيام بلياليها !

اليوم الخامس من شهر يناير . مسيرة طويلة ومتعبة لمسافة اثنين وعشرين ميلاً ، تطلعنا خلالها إلى رؤية الجوف ، ولكن خاب أملنا . كانت الأرض مقسمة إلى مجموعة خيالية رائعة من التلال والسلاسل الجبلية ، لكن مستوى هذه التلال منخفض عن تلال الأمس ، وكنا ننزل من هذه التلال طوال اليوم كله . كنا بين الحين والآخر نلقى نظرة على وادى السرحان الذى أصبح بعيداً عنا فى اتجاه الناحية اليمنى ، وكنا نرى من خلفه تلالاً زرقاء ، لكننا كنا نرى أمامنا سلسلة لا نهاية لها من الصخور . وأخيراً ومن فوق قمة واحدة من تلك الصخور تراءى لنا من بعد خط أسود يبرز من بين مجموعة غير منتظمة من تلال الحجر الرملى صفراء اللون ، كما تراءى لنا أيضًا مجموعة من الوديان الجرداء ، التى تعرفناها على أنها لابد أن تكون قلعة المارد . بدت لنا تلك القلعة بشكلها المهيب ، على الرغم من الوحشة المحيطة بها وسط هذا المكان القفر . واصلنا مسيرنا صوب تلك القلعة ، طمعًا فى النظر إليها من مكان قريب . ثم وصلنا بعد ذلك إلى طريق من الصخر الأبيض ، الذى أكد كل من حمدان وعواد أنه امتداد للطريق الرومانى القادم من سلخد . كنا نتمنى تصديق ذلك ، لكن كان من الواضح الجلى أن الطريق كان واحداً من الطرق التى صنعتها الطبيعة . سرنا فى ذلك الطريق بضعة أميال إلى أن اختفى الطريق تماماً من أمامنا . وفجأة وصلنا إلى ما يشبه حافة حوض من الأحواض ، وهنا وجدنا تحتنا فى الأسفل واحة كبيرة من أشجار النخيل ، يحيط بها سور فيه أبراج على بعد مسافات متساوية ، وبلدة صغيرة على شكل منازل

الفصل السادس

قال له ليان : " أكيد إنك عظمي ولحمي " . وهو يسكن معه مدة شهر .

سفر التكوين

واحة الجوف – استقبال عقيد بن الرشيد لنا – مجموعة من البقر البرى – الرقص فى القلعة – الصلاة – مواصلة السير إلى مسكاكة .

لم تكن الجوف مطلقًا على النحو الذى تمنيناه . كنا نظن أن الجوف منطقة زراعية كبيرة ، لكنها كانت مجرد بلدة صغيرة ليس إلا . كل ما هو خارج أسوار البلدة لا يعدو أن يكون مجرد مساحات صغيرة لا تزيد مساحة الواحدة منها على ثمن فدان ، يكسوها اللون الأخضر الصادر عن نباتات القمح المزروعة فيها . هذه المساحات الصغيرة تروى من الأبيار، عن طريق قنوات صغيرة أشكالها شبيهة بكعكة المربى . حوض الجوف كله لا يزيد عرضه فى أوسع أجزائه عن ثلاثة أميال بأى حال من الأحوال ، ويشبه بلا أدنى شك الصورة التى هو عليها حاليًا ، بحرًا داخليًا صغيرًا . أما مسألة متى ولماذا جف ذلك الحوض ، فشىء مستغلق على فهمى (وكل ما يمكن قوله هو الاتفاق مع محمد عندما يقول : هذا من الله ، لكن دلائل وبراهين الأصل الأوقيانوسى لهذا الحوض ، واضحة فى كل مكان . هذا الحوض يبدو أكثر انخفاضًا عن وادى السرحان ، الذى يرجح اتصاله به ؛ وقد خطر ببالنا فى أول الأمر ، أن هذا الحوض ربما كان آخر حفر الماء البحرى بعد جفاف البحر . لكن هذا الكلام ليس صحيحًا ، نظرًا لأن أكثر أجزاء هذا الحوض انخفاضًا تقع على مستوى واحد مع تجاويف وحفر الوادى كله . يضاف إلى ذلك أن أبيار هذا الحوض تقع على ارتفاع

يتراوح من ١٨٠٠ إلى ١٩٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر . هذه الأبيار ضحلة ، بمعنى أنها على عمق أقدام قليلة من سطح الأرض ، ويجرى جلب الماء عن طريق إبل تجر حبلاً طويلاً مثبت فيه دلو ، ويقوم ذلك الدلو بتفريغ نفسه عندما يصل إلى السطح ، فى شيء يشبه الغدير . والبلدة هى وحدائقها محاطة بسور من اللّبن يصل ارتفاعه إلى عشرة أقدام ، ويصل طوله إلى ميلين من الشمال إلى الجنوب ، وعرضه حوالى نصف ميل . أما بقية السهل فهى عبارة عن أرض مبنية منبسطة من الرمال ؛ يتخللها فى بعض أجزائها بقع من الأرض الصلبة ، والصلصال الرملى ، يتجمع فيها الماء عند سقوط المطر ، ويتخلف الملح عن الماء بعد أن يجف .

حيثما يحفر الناس بئرًا ، ينشئون بجوارها حديقة صغيرة ، يحيطونها بسور صغير ، ويزرعونها بالنخيل . هناك ربما عشرات من تلك الحدائق الصغيرة الموجودة على أطراف البلد ، وتبلغ مساحة الواحدة منها ما يتردد بين نصف فدان وثلاثة أرباع الفدان . شاهدنا فى مكان واحد أربعة أو خمسة منازل حدائقها مجمعة إلى بعضها البعض ، مما يجعلها تشبه قرية من القرى . الحوض كله ، باستثناء هذه الواحات ، يكسوه اللون الأبيض البراق ، الذى يجعل بيارات النخيل تبدو كما لو كانت بقعًا سوداء على سطحه . الجوف بحد ذاتها لا تحتوى على أكثر من ستمائة منزل ، التى هى عبارة عن صناديق مربعة الشكل مبنية من اللّبن ، ويتجمع القسم الأكبر من هذه المنازل ، حول أنقاض قلعة المارد لكن ليست المنازل كلها محيطة بالقلعة ، لأن هناك حوالى ست مجموعات منها فى أجزاء مختلفة من البيارة . عدد كبير من هذه المنازل فيه أبراج من نوع معين ، أو إن شئت فقل : طابق علوى ، كما أن هناك أيضًا أبراج صغيرة على بُعد مسافات متساوية من حول السور الخارجى . الملمح الرئيسى للبلد ، علاوة على قلعة المارد ، عبارة عن قلعة جديدة تقع خارج السور مباشرة ، ويسكنها ممثل ابن الرشيد . هذه القلعة الجديدة مبنية على أرض مرتفعة ، وهى عبارة عن مبنى فخم ، مربع الشكل ، له أسوار حصينة يصل ارتفاعها إلى أربعين قدمًا ، وتقع على جانبى السور أبراج (حصون) مستديرة الشكل وحصون مربعة الشكل يزيد ارتفاعها على

ارتفاع الأشياء المحيطة بها بحوالى عشرين قدمًا . هذه القلعة ليست لها نوافذ ، وإنما فيها مزاغل تستخدم فى فتح النيران ؛ كل حصن من هذه الحصون فيه نواصٍ عدة مثل مزاغل (كوَّات) لإطلاق النار .

الجوف لا تعرف شيئًا اسمه سوق bazaar، وليس فيها شوارع بالمعنى الحقيقى لكلمة شارع ، لكن فيها بعض الحوارى الملتوية الضيقة التى لها جدران من اللّبن على الجانبين . بينما كنا نسير فى البلد شاهدنا الناس وهم مسلحون ويتزاحمون فى الحارات ، كلهم يحملون سيوفًا على النحو الذى سبق أن رأيناه فى قرية كاف ، كان الناس متجهمي الوجوه ، وكأنهم ليسوا مسرورين برؤيتنا . ردوا علينا السلام دون أن يتحركوا ، وتركونا نمر دون إبداء أى إشارة من إشارات الكرم . لو اعتبرناهم غير مبالين لكان ذلك من الخطأ ؛ كان برود هؤلاء الناس الظاهرى مجرد شكلية من الشكليات العربية ، وعندما راح محمد يسأل عن منزل أقاربه ، حدد الناس له الطريق بطريقة مؤدبة ومتحضرة جدًا ، بل إن واحدًا أو اثنين منهم صحبونا إلى المنزل . سرنا خلال بعض الحارات والطرق الجانبية الضيقة ، ومن خلال حدائق النخيل إلى أن وصلنا إلى الجانب الآخر من البلد ، ثم خرجنا من بوابة أخرى إلى واحدة من المزارع المنعزلة التى شاهدناها من فوق قمة صخرة من الصخور. كانت المزرعة قريبة ، ولا تبعد عنا أكثر من ربع ميل ، وفى غضون دقائق قليلة كنا قد نزلنا من فوق دوابنا ، وكان الناس يكرمون وفادتنا فى القهوة الجميلة داخل منزل حسين .

ما هى أوجه القرابة التى تربط حسين بمحمد ؟ هذا ما لم أستطع اكتشافه بعد – إن محمد نفسه لا يعرف هذه القرابة – لكن الواضح هنا أن القرابة ، حتى وإن بعدت تمامًا ، أمر له أهميته الكبيرة . وما إن جلسنا حول وجار قهوة حسين ورحنا نشاهد تحميص البن ، حتى هلَّ علينا قريب جديد ، شده وصولنا إلى الجوف ، ثم جاء بعد ذلك قريب ثان ، وراح القريبان يعربان بصوت عالٍ عن اعتراضهما علينا لقبول ضيافة حسين دونًا عن ضيافتهما . قَبَّلا محمد واحتضناه ، وحلا لهذا الأشكال وعد محمد بالبقاء أسبوعًا مع كل منهما ، فور انتهائنا من زيارة حسين . الدم هنا أكثر

كثافة من الماء . الظهور المفاجئ لابن العم رقم عشرين كفيل ببذر الشقاق بين الحاضرين جميعهم .

ذبحوا لنا طليًا (خروف صغير) ، وتجمعنا فى خيامنا ، وبدَّلنا ملابسنا . هذه هى الخيمة وقد نصبناها فى حديقة صغيرة خلف المنزل ، ونحن نشعر بالارتياح ، وقادرون على استرجاع ذلك الذى حدث لنا ، والتخطيط للمستقبل .

اليوم السادس من شهر يناير . ليلة أمس ، وبينما كنا جالسين نشرب القهوة للمرة التاسعة أو العاشرة منذ وصولنا ، دخل علينا فى القهوة شابان صغيران وجلسا معنا . كانا يلبسان ملابس بهيجة الألوان ، عبارة عن جُبَّة من الحرير ، وقمصان مطرزة تحت عباءتيهما الصوفيتين . كانا يرتديان كوفيتين حمراوين على رأسيهما ، ومن فوق الكوفية حبل أبيض ، وكان لسيفيهما مقبضان من الفضة . وقف كل الجالسين فى القهوة عندما دخل هذان الشابان ، وحسبتهما أنا و ولفريد من أبناء شيخ الجوف ، أو أبناء واحد من أعيان أو كبار البلد . وهنا همس ولفريد إلى حسين بسؤال حول هذين الشابين ، الذى ضحك وقال : إنهما ليسا ولدى شيوخ ، وإنما هما " زلمات ابن الرشيد " ، أى إنهما من رجال ابن الرشيد ، أو بالأحرى من جنود ابن الرشيد . هذا يعنى أن الكوفية الحمراء والسيف ذا المقبض الفضى إنما هما نوع من الزى الموحد . وسرعان ما ظهر لنا أنهما جاءا من عند الدواس ، حاكم الجوف المناب ، ليدعونا إلى الذهاب إلى القلعة ، وعلى الرغم من أننا كنا جد آسفين لترك حديقة حسين الهادئة ، وضيافته الحانية ، فقد وجدنا أن من الحكمة قبول تلك الدعوة ، نظرًا لإن سلطة ابن الرشيد فى الجوف تعد سلطة مطلقة ، يضاف إلى ذلك أن رغبات نائب ابن الرشيد هى هنا فى الجوف بمثابة أوامر ؛ هذا يعنى أن المشاعر السيئة لا وجود لها بين الحامية وأهل البلد ؛ الجنديان اللذان شاهدناهما يبدو أنهما على وفاق مع الناس كلهم ، وهما أصحاب طباع طيبة ، يصعب الشجار معهما . لكن الجوف ، بلد مهزوم ، موضوع فى حالة حصار ، والنظام فيه أمر شديد الصرامة . وبناءً على ماتقدم انتقلنا ومعنا مخيمنا كله إلى منطقة المنزل الرسمى ، ونحن نخيم الآن خلف

أسوار هذا المنزل الرسمى . القصر الذى سبق أن قلت إنه موجود خارج البلد ، بناه متعب بن الرشيد قبل اثنى عشر عاماً ، ومتعب هو شقيق الأمير طلال (صديق السيد بالجريف) ، وعلى الرغم من أن هذا القصر حديث الإنشاء ، فإن ملمحه يعود إلى العصور الوسيطة ، وسبب ذلك أن العمارة لا تتغير مطلقًا فى الجزيرة العربية . القصر مشهود بحق هو وأبراجه الأربعة العالية ، الموزعة على أركان القصر الأربعة أيضًا ، هذه الأبراج تحتوى على مزاغل (كوات) لإطلاق النار ، ولكنها خلو من النوافذ . هذا البرج ليس له سوى باب واحد ، وهذا الباب صغير وموجود فى زاوية من زوايا الجدار ، وهو مغلق بصورة دائمة . ومن داخل هذا الباب نجد المدخل يلف ويتلوى هنا وهناك ، ليفضى بعد ذلك إلى فناء صغير تحيط به أسوار عالية ، وهناك أيضًا قهوة ، إضافة أيضًا إلى بعض الغرف الصغيرة ، كلها مظلمة وكئيبة مثل الزنازين . هذا هو المكان الذى يعيش فيه الحاكم المناب ومعه ستة جنود ، هم من شباب حائل صغير السن ، يتقاسمون فيما بينهم شئون الحكم ، والدفاع والشرطة فى الجوف . الحاكم ليس موجوداً فى الجوف فى الوقت الراهن لأنه فى مهمة فى مسكاكة ؛ مسكاكة هذه هى البلد الثانى فى منطقة الجوف ، وتبعد مسكاكة عن الجوف مسافة تقدر بحوالى عشرين ميلاً . الحاكم عبد زنجى أسود ، على حد قول الناس هنا ، لكنه صاحب منزلة اجتماعية رفيعة ، وصديق شخصى للأمير .

الجوف ، فى ضوء ما عرفناه أو تعلمناه عنها من محمد ، نظراً لأننا لا نحبذ الإفراط فى طرح الأسئلة ، كانت إقطاعة من إقطاعات بن شعلان ، شيخ الروالة وما تزال تدفع إتاوة لصدام ؛ لكن قبل عشرين عاماً ، قام متعب ابن الرشيد بغزو الجوف ، واعتباراً من ذلك التاريخ أصبحت الجوف جزءاً من نجد . حدث فى الجوف تمردان ولكن جرى إخمادهما تماماً ، وأصبح أهل الجوف الآن يخشون مجرد تحريك أصابعهم فى وجه الأمير . فى تمرد من هذين التمردين قام متعب بن الرشيد بتقطيع عدد كبير من النخيل ، ودمر الجوف كلها تقريبًا ، الأمر الذى اضطر أهل الجوف إلى التمهل والانتظار . واقع الأمر أن الحكومة لا يمكن أن تقسو أكثر من ذلك . يزاد على ذلك أن

هؤلاء الجنود الستة حتى وإن توفرت لهم الإمكانات لا يمكن أن يخيفوا بلداً يتراوح عدد سكانه بين أربعة وخمسة آلاف نسمة . هؤلاء الجنود جميعهم ، أقوياء ، ونشطاء وأولو معشر طيب ، ويخدمون هنا فى الجوف مدة عام يجرى بعده استبدالهم بغيرهم . هؤلاء الجنود متطوعون ولا يحصلون على أجر ، ولكنهم يحصلون على بعض المزايا بعد أداء الخدمة . ويبدو أنهم من المخلصين تماماً للأمير .

يقولون : إن حاكم دمشق التركى ، جرّدَ قبل أربع سنوات ، حملة عسكرية على بلدة الجوف (وقد استمعنا إلى هذا الكلام أيضًا فى قرية كاف) ، واحتلها شهوراً قلائل ؛ لكن ابن الرشيد اشتكى للسلطان مما حدث ، وهدد بطرد الحملة ووقف الإتاوة التى كان يدفعها لشريف المدينة (المنورة) إذا لم تنسحب القوات ، الأمر الذى أجبر القوات التركية على التراجع . الإتاوة يدفعها الأمير بسبب ممتلكاته الحدودية مثل كاف ، وتيماء ، والجوف التى حاول الأتراك التدخل فى شئونها فى مناسبات مختلفة . وابن الرشيد مستقل تمامًا عن السلطان ، ولا يعترف بسلطته فى أى مكان من ممتلكاته . يضاف إلى ذلك أن عظمة ابن سعود هو والوهابيين أصبحت شيئًا من الماضى فى الوقت الحاضر ؛ كما أن محمد بن الرشيد يعد أقوى حاكم فى الجزيرة العربية فى الوقت الراهن . وهنا نجدنا نستمع إلى تاريخ جذاب لنجد فى الجزء الشمالى منها . الناس هنا يقولون : إن بوسع المرء السفر من الجوف إلى القصيم بلا حرس مرافق . هذا يعنى أن الطرق آمنة فى كل مكان . وهم يقولون : إنهم لم يسمعوا مطلقًا عن وقوع حادث سرقة أو سلب أو نهب على طرق الأمير منذ سنوات عدة ، والناس موقنون أن اللصوص والمجرمين على الطرق القريبة يجرى قطع رءوسهم . وابن الرشيد لا يسمح بممارسة الغزو ضد الرحالة أو المسافرين ، وإنه عندما يشن الحرب فإنه يشنها على أعدائه ويزاد على ذلك أن ابن هدال هو وابن معجل صديقان لابن الرشيد ، لكنه ليس على وفاق مع صدام وشيوخ السباع .

القلعة فيها مدفعان إنجليزيان عيار اثنى عشر رطلاً . هذان المدفعان من الطرز القديمة عديمة الجدوى ، لكن يبدو أن متعب بن الرشيد استعملهما فى حصار الجوف .

أهل الجوف من عرق مختلف عن عرق الشمَّر فى نجد ، هذا يعنى أن أهل الجوف من أصل مختلط شأنهم فى ذلك شأن أهل تدمر، هم والقرويون فى منطقة الفرات . يحكي لنا حسين الكلب ، أول مضيِّف لنا هنا فى الجوف ، أنه ينحدر من طيء ، وأن بعضًا آخر من جيرانه ينحدرون من السراحين أو من بنى لام ،حسين الكلب هذا ليس ابن عم العم ؛ وإن أبناء العم الحقيقيين يعيشون فى مسكاكة . وعلى الرغم من ارتياحنا مع حسين الكلب فإن الأحوال ليست على ما ينبغي أن يكون ؛ أهم من ذلك ، أن نكون هنا فى القصر .

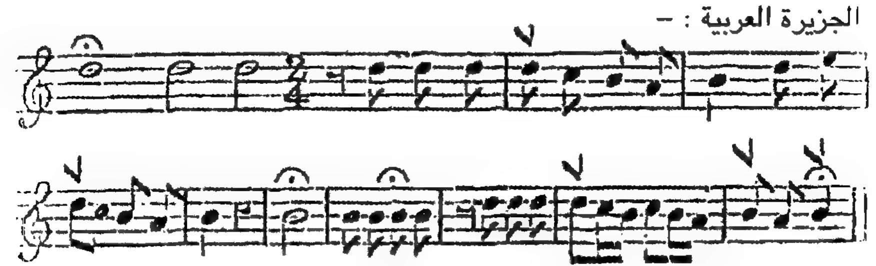
دواس ، الحاكم المناب ، رجل محبوب جدًا ، وجنوده كلهم مؤدبون .

هؤلاء الجنود يشكلون جماعة بشوشة من الناس ، يتكلمون معنا بصراحة عن كل شيء ، فى السياسة وفى كل شيء . وهم يؤكدون لنا أن ابن الرشيد سوف ينشرح صدره لرؤيتنا ، لكننا يتعين علينا أولاً لقاء جوهر ، ذلك الحاكم الأسود . واقع الأمر أن هناك عددًا من العبيد فى القلعة ، لكنها خالية من النساء . وسبب ذلك أن الجنود يتركون نساءهم فى حائل عندما يسافرون للعمل أو الخدمة العسكرية . الجوف ليس فيها خيول ، باستثناء مُهر عمره عامان ، وهو لشخص يدعى دبجة ، الذى هو واحد من الجنود ، الذين يبدون إعجابهم بفرسنا شقراء (الفرس الكميت) إعجابًا شديدًا ، ويقولون ليس فى نجد فرس أجمل من الشقراء . والجوف ليس فيها أيضًا دواب حمل ، بما فى ذلك الحمير . أما الإبل القليلة الموجودة هناك فهى تستعمل فى جلب الماء من الأبيار ؛ أما ذوات الأربع الأخرى التى شاهدتها فى الجوف فهى تتمثل فى الماعز وثلاثة أبقار تكاد تموت جوعًا فى القصر . ولا توجد ذرة واحدة من الحياة النباتية على بُعد أميال من الجوف ، والإبل هى وهذه الأبقار يتعين إطعامها القش المقطَّع ولكنها ترفض أكل التمر .

كان عشاؤنا هذا اليوم مكونًا من طلى (خروف صغير) وثلاثة أنواع أخرى : النوع الأول عبارة عن عجينة شبيهة بالنشا الذى يطبخ للصق الورق ، والطبق الثانى عبارة عن زبد مخفوق مع شرائح البصل ، أما الطبق الثالث فهو عبارة عن

فتة (ثريد) - وكلها سيئة الطعم فيما عدا الطلى . قدموا لنا بعد ذلك طبقًا آخر ، قدموه لنا على سبيل المفاجأة ، فخذ " بقرة برية " (احتمال أن يكون وعلاً) جاءوا بها من النفود ، ومشوى فى جمر النار ، وهو من أشهى اللحوم التى تذوقتها .

فى المساء ، سمرنا معهم على الرقص والغناء ، الذى شارك فيه كل من دواس والجنود . رقصوا رقصة من رقصات السيف ؛ كان واحد منهم يضرب على طبلة مصنوعة من خشب النخيل وجلد الحصان ، فى حين وضع بقية الناس سيوفهم على أكتافهم وراحوا يغنون لحنًا مهيبًا ويرقصون رقصًا مهيبًا أيضًا . وكانوا يلوحون بالسيوف بين الحين والآخر ، ثم تلت ذلك صرخة مثل الصرخة التى يمكن سماعها فى ميدان الصعيد . ثم يحدث هتاف ابتهاج مرة أو مرتين ، بنغمة واحدة وبتركيز واحد . كانت الألحان فى معظمها ، من النغمات الواضحة فى موسيقى الجزيرة العربية : -



بعد انتهاء الرقص ، قدموا لنا سلطانية ضخمة من المولاس (الدبس) وعصير الترنج (الترنج هو نوع من الليمون كبير الحجم) وجرى خلط هذا بذاك ؛ وجرى تقديم كميات كبيرة من ذلك المشروب ، الذى تناول الحاضرون منه كميات كبيرة . نحن الآن نرفل فى الهدوء خارج القلعة ، التى جرى قفلها أثناء الليل ، ونحن الآن بوسعنا كتابة المذكرات ، أو عمل اسكتشات فى ضوء القمر ، وتلك أشياء لا نقوى نحن على فعلها بالنهار .

اليوم السابع من شهر يناير . عاد إلينا اليوم حمدان مرشدنا الشرارى ، عاد إلينا صباح اليوم ، بعد أن اختفى عنا ، ليحصل على بقية أجره ، ويقول الرجل : إنه يخشى الناس الذين فى القلعة ، وإنه لا يمكنه البقاء معنا .

جاءنا مراسل من مسكاكة يحمل إلينا دعوة من جوهر ، وعليه سوف نتجه إلى مسكاكة غداً . وعلى كل حال ، لن يجبرنا على البقاء عند جوهر ، نظراً لأن الرجل ليس له منزل خاص به فى مسكاكة ، لكننا سنبقى مع أقاربنا ، مثل ابن عروق ، الذى أمكن العثور عليه مؤخراً . كان ناصر بن عروق ، عميد العائلة ، قد سمع عن وصولنا ، فأوفد ولده إلينا برسالة جمة الأدب ، ولذلك سوف يتعين علينا الذهاب إلى منزله . هذا الشاب الصغير متواضع ، دمث الخلق ، وليس متكبراً ، وأمين ، وصريح ، إذا ما كنت من بين أولئك الذين أوتوا القدرة على قراءة الوجوه ؛ ويبدو أنه سعيد جداً بالشرف الذى سيناله جراء زيارتنا له .

أمضينا فترة الصباح كلها فى الزيارات : زرنا فى البداية مضيفنا السابق المدعو حسين الكلب ، ثم زرنا الأقارب الآخرين ، كما زرنا أيضًا واحداً أو اثنين من أعيان البلد . يقول حسين إن بيت حبوب الذى ورد ذكره عند بالجريف ، موجود بحق ، لكنه يقول إن أنبل العائلات كلها هى عائلة محسن بن درّة ، الذى كان من قبل شيخًا للجوف ، لكنه أصبح الآن مجرد واحد من رعايا الأمير . (يقول لنا محمد) : ابن درة ليس سعيداً بأى حال من الأحوال للتغيرات السياسية التى حدثت فى الجوف ؛ لكنه يخشى الإفصاح عما بداخله أو التعبير عن استيائه ، وسبب ذلك أن محمد بن الرشيد يحتجز ابنه الأكبر رهينة لديه مقابل سلوكه سلوكًا قويمًا . هذا الشاب يقيم فى حائل لكنه ليس أسيراً ، ولا يستطيع العودة إلى أصدقائه . جرى تقديم الطعام لنا فى كل المنازل التى زرناها ، ورحب بنا أهلها ترحيبًا حاراً ، وشربنا فى هذه المنازل فناجين من القهوة ، لا تحصى ولا تُعَدّ ، القهوة المضاف إليها نكهة الحبهان (الهيل) ، وأكلنا تمراً كثيراً ، أكلنا ذلك التمر الذى يسمونه حلوة الجوف ، والذى لا يعد من التمور الشائعة ؛ هذا النوع من التمر له نكهة ممتازة ، لكنه يبلغ من الحلاوة واللزوجة مبلغًا يتعذر معه استخدامه فى الاستهلاك العام . هنا فى الجوف توجد أنواع مختلفة من التمور ، مثلما هو الحال بالنسبة للتفاح فى بلادنا ، والأنواع هنا تتباين بعضها عن بعض . أما النوع الذى أفضله أنا فهو التمر فاتح اللون ، والأكثر استدارة من تمر

حلوة الجوف ؛ هذا النوع من التمر لا شكل له ، ولونه يميل إلى لون الحصان الكميت . من الخطأ الاعتقاد أن التمر يكون أفضل عندما يجرى جنيه طازجًا ؛ الأمر على العكس من ذلك ، إذ إن التمر يزداد حسنًا كلما طالت فترة حفظه . الأنواع شديدة الحلاوة من التمر تحتوى على كمية كبيرة من السكر ، إلى حد أنها إذا ما وضعت فى طبق وتركت فى الهواء فإنها تتحول إلى عصير ، يتكون السكر فيه على شكل قطع كبيرة . وليس هناك شك فى أن السكر يمكن أن يصنع من التمر .

إعداد القهوة فى الجوف باستثناء أنها تعد عملية مملة فى الجوف . أولاً ، يجرى أولاً فرز وتصنيف حبوب البن ، وحبوب البن هذا أصغر وأفتح لونًا من البن الذى نحصل عليه فى أوروبا ؛ بعد تحميص البن ، يجرى طحنه فى الهون لمدة طويلة ، على الرغم من أن البن لا يمكن طحنه طحنًا ناعمًا ؛ ثم يجرى بعد ذلك غسل وشطف دلال القهوة ، حوالى خمسة أو ستة دلال ؛ يلى ذلك غلى البن ثلاث مرات متتالية . هاونات الجوف من النوع الأنيق جداً ، وهى تصنع من الحجر الرملى أحمر اللون ، وهو الحجر الشائع فى الجوف ، ومبلغ علمى أن هذه الهاونات من سلع التصدير . وأنا يتعين علىَّ أن آخذ واحداً من هذه الهاونات لكنها ثقيلة الوزن ، وزن الهاون الواحد منها يساوى ربع حمولة جمل من الجمال . الرسم الموجود على هذه الهاونات بسيط لكنه أنيق ، وأنا يجب ألا أندهش إذا ما كان هذا الهاون من طراز قديم جداً . المصنوعات الجوفية الأخرى التى سمعت عنها ، هى أحزمة الخرطوش والعباءات الصوفية . أحزمة الخرطوش لافتة للنظر ، وأطرافها من الفضة ، والخدم كلهم يقبلون على شراء هذه الأحزمة ؛ أما العباءات الصوفية فهى تصنع من الصوف الذى يجرى استيراده من بغداد . وقد اشترى عواد عباءة بستة مجيديات ونصف المجيدى .

ألقينا بعد ذلك نظرة على قلعة المارد ، المبنى الوحيد المبنى من الحجر فى الجوف كلها . إنشاء قلعة المارد يرجع ، من وجهة نظرى ، إلى العصور الوسيطة ، هذا يعنى أن هذه القلعة ليست قديمة ، وليس فيها ملمح معين يزيد من أهميتها . وقلعة المارد

هذه تبدو من بعيد شديدة الجمال . وقد وجدت أن الخرائط تحدد موقع قلعة المارد على بُعد مسافة كبيرة من الجوف ، لكن واقع الأمر أن هذه القلعة موجودة داخل بلدة الجوف نفسها ، وبالتحديد على الحافة الغربية . هذه القلعة تقع فى نقطة على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر .

بينما كنا جالسين فى منزل ابن درّة ، شاهدنا مثالاً على حكم ابن الرشيد الأبوى ، وشاهدنا أيضًا أول علامات ودلائل الحركة الوهابية . فقد أُذِّن لصلاة الظهر من فوق سطح أحد المنازل نظرًا لعدم وجود مآذن فى الجوف .

ومرت فترة من الوقت ولم يتحرك أحد ، واتخذنا من زيارتنا عذرًا لعدم تحركنا . وهنا ظهر رجل ممتعض الوجه وراح يلقى محاضرة على الشبان ، ويطلب إليهم النهوض والذهاب إلى الصلاة فى المسجد ، وعندما لم يُجْدِ حديثه إليهم ، ضرب لهم مثلاً على ما ينبغى فعله . واستمر القسم الأكبر من الضيوف جالسين ، إلى أن قفز الجنديان واقفين فجأة وراحا يقولان " قم ، قم " بمعنى " انهض ، انهض " . شهرا سيفيهما فى وجه بقية الجماعة ودفعوهم إلى المسجد لأداء الصلاة ، ودفعوهم جميعًا ما عدا المضيف الذى حماه موقف الضيافة من الهجوم . من الواضح هنا أن الدين لا يحظى بالتقدير الكامل ، ولم يأخذ أحد من الحاضرين موضوع الصلاة مأخذ الجد سوى ذلك الرجل مقطب الجبين ، وسبب ذلك أن الجنديين اللذين قاما بواجبهما فى دفع الناس إلى الصلاة ، عادا إلينا دون أن يسلكا سلوك المسجد الذى يتسم بالوقار . هذا الاستعراض المظهرى للدين لا يبدو أمرًا طبيعيًا بين العرب .

جرت رقصة أخرى من رقصات السيف أثناء الليل وشربنا المزيد من خليط عصير الليمون .

اليوم الثامن من شهر يناير . يوم ملبد بالغيوم ، وصباح يكاد يكون ضبابيًا تمامًا ، وزخة من زخات المطر . ودعنا كلاً من دوّاس وجنوده ، وكانوا جد آسفين لفراقنا . هؤلاء أناس طيبون ، وأمناء ، وعاملونا بحنان كبير . كان آخر اهتمام بى من جانب دواس يتمثل فى هدية كبيرة عبارة عن ليمونة ترنج فى حجم ثمرة جوز الهند . طعم

الترنج حامض وليس حلواً . وهذا النوع من الليمون له قشرة يصل سمكها إلى حوالى بوصة ، وهى حلوة المذاق على نحو يسمح بأكلها لكنها صوفية التكوين .

مسكاكة التى وصلنا إليها اليوم ، تبعد حوالى ٢٠ ميلاً عن بلدة الجوف ، وهناك طريق مطروق يربط مسكاكة بالجوف . كان عدد جماعتنا كبيراً ، نظراً لأن أفراداً أكثر من أهل الجوف كانوا يرافقوننا إلى مسكاكة ، وكان معنا أيضاً عريبى بن عروق ، ولد ناصر ، كما كان معنا عروقى آخر ، من أبناء عمومة عريبى ، كما كان معنا رجل آخر يحمل بندقية تصادف أن كان ذاهباً إلى حائل . كانت الجماعة كلها فيما عدا ولفريد وأنا ، يمشون سيراً على الأقدام ، وسبب ذلك أن أهل الجوف لا يركبون مطلقاً ، نظراً لأنهم ليست لديهم خيول أو إبل أو حتى حمير . كان أحد الرجال يصحب معه بيضة نعامة فارغة كان يحملها فيما يشبه الشبكة ، وكان يستعملها إناء لجلب الماء . قال لى الرجل : إن النعام يكثر فى صحراء النفود ، التى كنا نقترب منها فى ذلك الحين . فى البداية عبرنا منخفض الجوف إلى الجانب الآخر ، وتجاوزنا كثيراً من المزارع المهدمة ، الأرض هنا قاحلة وجرداء تماماً ، وأكثر أجزائها انخفاضاً يغطيه الملح . هذا المنخفض كله لا يزيد عرضه على ميل واحد . ويرتفع طريقنا فجأة بعد ذلك حوالى مائة قدم فوق ضفة رملية منحدرة ، ثم يرتفع مائة وستين قدماً أخرى فوق بعض القمم الصخرية ، ويبدأ الطريق فى النزول من جديد ليعبر سبخة لها حافة من أشجار الأثل التى بدأت زهورها تتفتح ، ثم نمشى بعد ذلك فى مدقات من زلط الحجر الحديدى الناعم ، الذى لا يمكن تمييزه عن مخلفات الأغنام . على بُعد مسير حوالى ساعتين من بلدة الجوف ، توجد حفرة مياه كبيرة ، يطلق أهل الجوف عليها اسم " العين " ، والماء فيها على عمق ثمانية أقدام من سطح الأرض . فى الوديان المحيطة التى فاضت عليها مياه تلك العين (إذ إن المطر قد سقط هنا منذ حوالى شهر) ، نمت بعض النباتات الخضراء المزهرة مضفية بذلك مظهر الخصوبة الكاذبة على هذه التربة . فى بعض الأماكن الأخرى كانت هناك صخور غريبة من الحجر الرملى وردى اللون ، وينمو عليها عيش الغراب ؛ كانت قمم تلك الصخور مغطاة بالحديد ، وعن بُعد فى اتجاه الشمال كانت هناك كُتل متعددة

من التلال الناعمة ، يطلقون عليها اسم جبل الحمَّامية ، أو إن شئت فقل : جبال الحمام باعتبارها أشهر الجبال التى فى هذه المنطقة .

هذه الجبال أعلى من مستوى الجوف بحوالى ألف قدم . وخلف جبال الحمامية هذه ، وفى الاتجاه شمال شرق - شمال ، يوجد خط أفقى مستقيم ارتفاعه مساوٍ للارتفاع سالف الذكر ، ويمثل حافة الحمد (السهل) ، نظراً لأن المنطقة التى كنا نتجاوزها تقع داخل منطقة البحر القديم ، الذى نسلم بأنه لابد من أنه يشمل كلاً من وادى السرحان ، والجوف ، ومسكاكة .

لاحظت فوق صخرة من الصخور نقشًا ، أو بالأحرى صور إبل وخيول محفورة على سطح مستوى عرضه حوالى خمسة أقدام . ومع ذلك ، لم نتمكن من نسخه لأن الظروف لم تسمح لنا بذلك .

على الرغم من أن مسكاكة ليست مقراً لحكم جوهر ، فهى أكبر من الجوف - ، يقولون : إن عدد منازلها يصل إلى حوالى سبعمائة منزل ، وإن مساحة مزرعة النخيل فيها لا تقل عن ضعفى مساحة المزارع الأخرى . وضعية البلدين تكاد تكون واحدة ، أى عبارة عن تجويف تحيط به صخور الحجر الرملى ، لكن حوض مسكاكة أقل انتظامًا ، وتتخلله التلال الرملية ورجم صخرية على الأطراف . مسكاكة مثل الجوف فيها قلعة قديمة مقامة على صخرة يصل ارتفاعها إلى حوالى مائة قدم ، وتشرف على البلدة كلها . مسكاكة مبنية بطريقة غير منظمة ، وليس لها سور مستمر حول حدائقها . هناك كثير من الحدائق المنعزلة ، ومجموعات من المنازل ، لكن هذه الحدائق والمنازل لم يجر هدمها مثلما حدث فى الجوف بفعل الحروب الأخيرة . مسكاكة بشكل عام لها شكل خلاَّب ، هذا يعنى أن كل شىء فى هذه الأرض يستعمل فى الزراعة مادامت الأرض صالحة لذلك . كل شىء مرتب وأنيق ونظيف فى مسكاكة ، الأسوار والجدران مرممة ترميمًا حديثًا ، وأشكال البيوت من الخارج توحى كأنها جرى بناؤها مؤخرًا . وكل حوض من أحواض زراعة الشعير يحيط به سياج من جريد النخيل ، يزاد على ذلك أن شوارع مسكاكة وحاراتها منظمة . مررنا خلال هذه الشوارع

والحارات بلا توقف ، وتجاوزنا مسكاكة بحوالى ميلين ، لنصل بعد ذلك إلى مزرعة ناصر . نحن الآن فى أحضان أسرة ابن عروق ، هذه الأسرة حقيقية وليست أكذوبة ، ضيافة بمعنى الكلمة ، استقبلونا بأذرع مفتوحة ، كما لو كانوا ينتظرون وصولنا طوال المائة عام الماضية . إنهم يعرفون السيرة الشعبية لسلالة محمد النسبية ، يعرفون هذه السيرة أفضل من محمد نفسه ، وعليه يتعين علينا الانتظار بعض الشىء ، وإذا لم نتحرك إلى أبعد ما وصلنا إليه ، فذلك يعنى أن سفرنا لم يكن هباءً .

الفصل السابع

" كان ليه Leah متورم العينين في حين كانت راشيل جميلة "
سفر الخروج .

آل ابن عروق في الجوف – محمد يعقد عقد زواج – ليه Leah وراشيل – تخفيض مهر العروس – حاكم زنجي وحاشيته – عاصفة رعدية .

بقينا ثلاثة أيام في منزل ناصر هو وأبنائه ، وزوجات أبنائه وأطفالهن ، وكان ذلك المنزل عبارة عن بيت ريفي هادئ . كانت تلك فترة من الراحة كنا في مسيس الحاجة إليها ، وجاء ذلك المقام بمثابة خبرة مهمة لنا ، وهيأ لنا فرصة ممتازة تعلمنا من خلالها المزيد عن حياة العرب المنزلية أكثر مما تعلمناه في رحلتنا السابقة . هذا لا يعني أن أبناء عروق في مسكاكة هم بجد أنفسهم يشكلون أهمية خاصة أو وضعًا خاصًا . أبناء عروق ، هنا في مسكاكة شأنهم شأن أقاربهم في تدمر ، استوطنوا مسكاكة منذ زمن طويل ، وأصبحوا مثل الحضر ، يتزوجون من بنات المنطقة ، ويعتنقون الكثير من الأفكار السائدة فيها ، لكنهم كانوا أمناء وأصحاب قلوب طيبة ، وما يزالون يحافظون على عاداتهم الأصولية ، التي ترجع إلى أهلهم الأولين ، وما يزالون محتفظين أيضًا من الناحية الريفية ، ويضفون على حيواتهم اليومية الواقعية شيئًا من الخيال . ناصر ، أفضل رجال الجيل القديم ، يشبه رجلاً إسكتلنديًا صغير الحجم ، وفقيرًا وبخيلاً ، لكنه يعي تمامًا أن أصله أفضل من أصل جيرانه . فكر هذا الرجل يتركز ، طوال العام وكل عام على الطريقة التي يمكن أن تجعله يوفر ست بنسات ، لكنه في هذا اليوم بالذات ، يوم حلولنا عليه ، راح يستعرض أمامنا لطفه وكرمه ، كما راح يكشف أمامنا عن أنه

رب لبيته . أبناء ناصر من البشر الهادئين ، المتواضعين ، غير المدّعين أو المنافقين ، هؤلاء الابناء ، شأنهم شأن السواد الأعظم من الشباب العربى ، ميّالون إلى الجانب الرومانسى أكثر من والدهم . هؤلاء الأبناء يقدّرون أفكار الفروسية والشهامة تقديراً خاصًا ؛ وبخاصةً تركى ، أكبر أبناء ناصر الذى يتغلغل فيه العرق والتقاليد البدوية ، على نحو تستبعد معه من هذا الرجل ، الغرائز والطبائع التجارية ، فى حين نجد أن شقيقه عريبى تتأصل فيه الغرائز و الطبائع التجارية أكثر من الصفات ، والدم البدوى . أحببنا الشقيقين ، وكنا نفضل تركى بطبيعة الحال ، وقد اتخذ ولفريد من تركى صديقًا له .

قرابة محمد بهؤلاء الناس ليست بعيدة مثلما ظننت . كان جده ، على عروق واحداً من تلكم الإخوان الثلاثة ، الذين تركوا العارض ، قبل مائة عام ، هربًا من الصراع الدموى ، أو من الاستبداد الوهابى ، على حد قول ولفريد ، تركوا العارض وجاءوا إلى الشمال إلى أن وصلوا إلى تدمر ، حيث تزوج على واستقر فيها . الأخ الآخر ، هو عبد القادر بن عروق ، استقر فى الجوف ، وبقى هناك ، وأصبح جداً لناصر . أما الأخ الثالث ، ويدعى مطلق ، فإن خلف الأخين السابقين لا يعرفون شيئًا عن مصيره ، فيما عدا أنه عاد إلى نجد لأنه لم يستلطف تدمر أو الجوف . وقد وصلتهم أنباء غامضة ومشوشة عن وفاة مطلق ، لكن أحداً لا يستطيع تحديد متى وكيف توفى ذلك المطلق . وقد جاء ناصر من الجوف إلى مسكاكة منذ زمن ليس ببعيد .

ناصر هو عميد العائلة فى الوقت الراهن ، أو بالأحرى ذلك الفرع من هذه العائلة الذى يسكن واحة مسكاكة . لكن يعيش فى المنزل المجاور لمنزل ناصر غازى ابن عروق . وجازى هذا هو ولد عم ناصر ، وشقيق لصديقتنا مرزوقة ، وأب لابنتين جميلتين . هؤلاء ومعهم أيضًا مجموعة صغيرة أخرى يشكلون عائلة صغيرة ، وكلهم يعيشون مع بعضهم البعض فى مزرعة نائية .

كان أول ما خطر ببالنا عندما أصبحنا بين أهل ناصر وعائلته ، هو البحث عن زوجة لمحمد ، الذى بادرت بموافقة منه إلى التعرف على نساء العائلة . وجدتهن جميعًا

ودودات ومحبوبات ، بل إن البعض منهن كن ذكيات . كان السواد الأعظم من نساء الأسرة صغيرات السن ، طيبات الملامح . كانت زوجة ناصر هى أهم امرأة من بين حريم العائلة ، هذه السيدة متقدمة قليلاً فى العمر واسمها شمعة ، وهى نحيفة ، وذاوية ، وقد علت التجاعيد وجهها ، وخصل شعرها طويلة ورمادية اللون ، ونظرها ضعيف بحكم تقدم السن ؛ وعلى الرغم من أن سنها ربما تجاوز الستين عامًا ، فقد كانت تبدو مستهلكة . هذه هى أم كل من تركى وعريبى ، ولقد بلغنى من محمد أن ناصر لم يتخذ له زوجًا غير هذه المرأة . ربما كان محمد مخطئًا فى زعمه هذا ، ذلك أنى فى زيارتى الأولى لها ، وجدتها تستدعى من الغرفة المجاورة زوجة أصغر منها سنًا ، ثم قدمتها لى مباشرة للتعرف إليها . دخلت علينا الزوجة الثانية ومعها طفلان صغيران عمر أحدهما عامان وعمر الثانى ثلاثة أعوام ، كان أكبرهما (لأنهم لهم أسماء عجيبة) مترك ، وكان يبدو طفلاً هادئًا على الرغم من اسمه . مترك فى هدوئه هذا وحسن طبعه شبيه بأمه ، التى أعجبنى منها احترامها لشمعة التى تكبرها سنًا ؛ يزاد على ذلك أن أم مترك كانت صاحبة محيا جميل . تعرفت مترك ، الصبى الصغير ، الذى كنت قد رأيته فى الصباح بصحبة ناصر العجوز فى حديقة منزلنا ، وظننته حفيداً له . كان ناصر يبذل قصارى جهده لتدليل ذلك الطفل ، على طريقة كبار السن بين العرب . سبق أن أعطيت مترك معطفًا صغيراً أحمر اللون ، كنت قد اشتريت ذلك المعطف لمنصور ولد صدام ، وعندها خطر ببالى أننا ذاهبون إلى الروالة ، ولكن الطفل كان يجرى هنا وهناك مستعرضًا معطفه الجديد أمام بنتين جميلتين جداً ، هما شقيقتا مترك . هاتان البنتان كانتا تجريان هنا وهناك أثناء زيارتى للعائلة ، وتساعدان فى إحضار أطباق التمر، وتأكلان من التمر عندما يجرى إحضاره . بعد ذلك ظهرت علينا زوجتا تركى ، منهما واحدة شديدة الجمال ، أما الثانية فمتوسطة الجمال ، ثم جاءت بعد ذلك زوجة عريبى ، الجميلة التى تزوجها منذ فترة قصيرة . كل هؤلاء كن على ود مع بعضهن البعض ، وذلك على العكس مما يجرى ، فى واقع الأمر ، بين الزوجات وزوجات الأبناء . كنَّ جميعًا مهتمات بإسعادى ، وأنا بذلت أقصى ما فى وسعى ، بطبيعة الحال ، لتلبية رغباتهن المضيافة والكريمة فيما يتصل بالأكل

وتناول الطعام معهن . قدمن لى تموراً من أنواع لا حصر لها ، منها اللزج ، ومنها الحلو ، ومنها قليل الحلاوة ، ومنها الطويل المجفف ، ومنها الطازج ، وكان من الصعب إرضاؤهن جميعًا .

كانت شمعة تعامل كل صغار البيت من منطلق سلطة واحدة ، على الرغم من اختلاف نبرة التعامل من شخص إلى آخر ، لكن هذه النبرة كان يغلب عليها العطف والحنان . كانت شمعة من النوع الذى لا يقول سوى ما قلّ ودل ، فى حين كانت الأخريات يتكلمن طويلاً ويسألن مختلف الأسئلة ، الأمر الذى كان يتطلب منى المزيد من معرفة اللغة العربية حتى يمكننى الرد على أسئلتهن . فى منتصف الزيارة ، جاءت نزّة ، ابنة ناصر المتزوجة ، وشقيقة كل من تركى وعريبى ، جاءت ومعها ابنتها ومعها طبق كبير من التمر ، لقد قطعت نزّة ، الطريق كله ، حوالى ثلاثة أميال ، من مسكاكة ، وهى تحمل ذلك الطفل المتين الذى يبلغ من العمر أربع سنوات ، هو والتمر ، جاءت وهى تلهث وتضحك فى آن واحد لرؤيتى والسلام على . كانت نزّة تفيض حيوية وبشراً ، وشبيهة جداً بأخيها تركى ، من حيث المحيا ، هذا يعنى أن محياها كان ينبئ بالطيبة أكثر من الجمال . كل واحدة من هؤلاء اللاتى التقيتهن فى زيارتى الأولى كانت تصلح زوجة لمحمد ، لكن من سوء الطالع أنهن كن إما متزوجات أو صغيرات جداً فى السن . سألتهن ، إذا ما كانت هناك بنات صغيرات ولكنهن " خارج " المنزل وقلن لى إن منزل ناصر ليس فيه آنسات غير اللاتى رأيتهن ، لكنهن قلن لى : إن غازى ولد عم ناصر ، عنده ابنتان كبيرتان ، لم تتزوجا بعد ؛ وعليه اصطبرت بعض الشىء إلى أن تتاح لى فرصة رؤيتهما .

كان محمد قد بدأ يتحرى الأمر بطريقته الخاصة ولم ينته اليوم الأول من زيارتنا إلا وقد جاءنى محمد برواية مدهشة عن هاتين الابنتين من أبناء غازى . قال محمد ، إن غازى له ثلاث بنات ، وإن كل واحدة منهن أجمل من الأخرى ، وأن أسماء البنات الثلاثة هى : عصر، وحمو ، ومطرة ، وأن الاثنتين الأوليين مخطوبتان ، لكن مطرة كانت غير مخطوبة . تبين لى أن محمد أصبح طريح الحب والهيام ، وسبب ذلك أن

الشيء القليل جداً عند العرب يصل إلى مسافات بعيدة ، ونظراً لعدم السماح للشبان برؤية البنات مطلقًا ، فهم يقعون فى الحب من خلال الكلام عن البنات . كان محمد ملحاحًا ومصراً على انتهازى فرصة زيارة أُم هؤلاء البنات ، ويبدو عليه أنه كان يظن أنى كنت أضيع وقتى فى الحزن على ابنة العم المتزوجة . كان محمد قد أعلن للجميع أنه سوف يسترشد برأيى ويستأنس به . يقول محمد ، إنه سيعرف حالاً كل شيء لا عن جمال مُطْرة وحده ، وإنما طيبة قلبها ، واحتمالية أن تكون زوجة صالحة . قال محمد ، إنه كان يحب ، وقد توصل إلى إنهم سيطلبون مهراً مقداره سبعون جنيهًا إسترلينيًا . هذا مبلغ كبير بطبيعة الحال ، لكنها " أصيلة " بحق ، وأن هذه الفرصة تعد فريدة ولن تتكرر - يضاف إلى ذلك أن مُطْرة هى ابنة غازى - ابنة عم مرزوقة! - فتاة من أسرة طيبة ! - واحدة من بنى عروق وبنو عروق لا يتوفرون كل يوم ! - أربعون جنيهًا إنجليزيًا لن تكون مهراً كبيراً . عَهَدَ محمد إلى بكل شيء - كنت معنية تمامًا بالأمر ، وكنت قد شاهدت و رأيت زوجات وبنات شيوخ عنزة كلهم ؛ هذا يعنى أنه يتعين على تمييز هذا من ذاك ، وما هو الأصلح ، كما يحتم علىَّ تحاشى الخطأ قدر المستطاع . ومع ذلك ، كان محمد يود لعبد الله الذهاب معى لاستطلاع الأمور. عبد الله ، بحكم أنه من الأقارب ، يمكن السماح له بالاقتراب من الباب فى مثل هذه الظروف، لكن محمد ، غير مسموح له بذلك ؛ و ربما يسمح له ، برؤية الفتاة كما لو كان ذلك من باب المصادفة . فيما يتصل بنا ، نحن بنو عروق ، فإن الزوجات ، والبنات يكن دائمًا محجبات ، وهذا عرف جاء معنا من نجد ، لأننا لسنا مثل البدو ؛ ومع ذلك ، فى المناسبات المهمة التى من هذا القبيل ، والخاصة بالزواج ، يجوز لرجل من سن محددة ، ولم يبلغ الحلم ، أو قريب مسكين ، أن يسمح له بالرؤية والإبلاغ عن ما رآه. ووعدت محمداً بأنى سوف أعجل بما هو مطلوب منى .

وبناءً على ما تقدم جرى فى اليوم التالى الإرسال فى طلب حضور الطفل تركى ، وأبلغ بما نحن بصدده ، وأوفد ليعلن عن الزيارة المزمع القيام بها إلى أُم بنات غازى - وأوضح لمحمد أن العرف واللياقة يقضيان أن تكون الأم على علم بموضوع الزيارة ،

وليس من الضرورى أن تعرف البنات الهدف من مثل هذه الزيارة . وهنا قمنا بالذهاب إلى منزل غازى : تركى ، وعبد الله ، وأنا معهما .

منزل غازى قريب من منزل ناصر ، ولا يفصل بين المنزلين سوى الحديقة ، وما يزال منزل غازى أصغر من منزل ناصر ، هذا المكان المتواضع الذى جئنا إليه طلبًا ليد أميرة من الأميرات ، لكن فى الجزيرة العربية يتحتم علينا ألا نحكم بالمظاهر . عند الباب ، ووسط العديد من النساء ، كان يقف سعد ، الابن الأكبر من بين أبناء غازى وقد أَدْخَلَنَا سعد من خلال الحوش (الفناء) إلى غرفة داخلية ، مظلمة تمامًا ، اللهم باستثناء الضوء القادم من المدخل . وربما كانت التعبير " إظلام الباب " ، قد اختِرعَ فى هذه البلاد ، نظرًا لأن النوافذ لا وجود لها فى المنازل الصغيرة . كانت رائحة الماعز تفوح من المكان ، وكان المكان يبدو كأنه حظيرة وليس بهوًا من أبهاء الاستقبال . فى البداية لم أستطع رؤية أى شىء ، لكنى سمعت سعد ، الذى انغمس فى الظلام ، يهز شيئًا ما فى ركن الغرفة ، وعندما بدأت عيناى تعتادان على ظلمة المكان ، رأيت فتاة صغيرة من الثلاث اللاتى جئت لزيارتهن . كانت عصر، هى تلك الفتاة ، والمعروف أن ترتيبها الثانية بين البنات الثلاث ; فتاة رائعة ، طيبة الملامح ، شبيهة إلى حد بعيد بابن عمها عريبى ، بأنفه الشبيه بأنف النسر وعينيه السوداوين . تقدمت عصر ناحية الضوء وهى فى منتهى الخجل والارتباك ، وهى تخفى عنّى وجهها بين يديها ، وتحاول الابتعاد عنى ؛ ولم ترد على بأى شىء عندما حاولت التحدث معها . بعد ذلك ، انسلت فجأة مبتعدة عنا ، واندفعت متجهة إلى وكر صغير ، حيث وجدناها مع أمها وأختها مطرة . لم أكن أعرف ذلك الذى يمكن أن أفعله أو أقوله فى مثل هذه المناسبة ، فقد دار بخلدى أن عصر ، قصدت بالإضافة إلى خجلها ، أن تكون وقحة ، وقد ترسخت هذه الفكرة فى ذهنى جراء السلوك الحميد من جانب أمها حَلِيَّة وأختها الصغيرة مطرة . أعجبنى وجه مطرة على الفور ؛ نظرات هذة الفتاة واضحة وصريحة ، وأمينة ، ولها عينان كبيرتان سوداوان مثل عيون الغزال ، وهى مشرقة البشرة ، ولها صوت عذب يسر الخاطر . لم أهتم بما بدر من عصر ، وطلبت من الفتاة الصغيرة التمشى معى فى

أنحاء الحديقه ، وراحت تفرجنى على الأشياء الصغيرة التى فى الحديقة ، وراحت تحدثنى عن البئر وكيف يجلبون الماء منها ، كانت الحديقة تحتوى على أشجار التين ، والمشمش ، كما كان فيها كروم وأعناب أيضًا ، فضلاً عن أشجار النخيل ، علاوة أيضاً على رقعة صغيره كانت مزروعه بالشعير الأخضر ، الذى كانت ترعاه بعض الماعز . قالت لى مطرة : إنهم يعيشون فى فصل الصيف على الفاكهة ، لكنهم لا يحفظون المشمش أو التين ، ولكنهم يحفظون التمر فقط . لاحظت عدداً كبيراً من النخيل الصغير الذى يعد إشارة على البحبوحة وسعة العيش . كانت فتحة البئر من أعلى تصل إلى حوالى عشرة أقدام مربعة ، وكانت فتحة البئر مبطنة بالحجر تبطيناً جيداً، لم يكن الماء يبعد عن سطح الأرض سوى أقدام قليلة . قالت لى مطرة إن الماء يمكن العثور عليه فى أى مكان من مسكاكة ، عن طريق الحفر وعلى عمق واحد . سرنى ذلك الذكاء الذى كشفت لى عنه مطرة من خلال هذا الحوار ، وسرتنى أيضًا أساليبها الجميلة ، ووجهها البرىء ، وقلت فيما بينى وبين نفسى إن محمد سيكون أسعد إنسان إذا ما تزوج مطرة . كان مبهجًا أيضًا ، وهذا لسعادتهما المستقبلية ، أن ألاحظ أن حَلِيَّة ، الأم ، كانت تبدو امرأة عاقلة ؛ الشىء الوحيد الذى لم أفهمه هو ذلك التصرف الغريب الذى أتته عصر الابنة الكبيرة . عبد الله ، هو الآخر ، أبدى ملاحظاته هو أيضًا ، وهو واقف عند الباب ، ووصل إلى النتيجة التى وصلت إليها أنا شخصيًا ؛ وعليه عُدنا ومعنا تقرير ممتاز نقدمه للخطيب الولهان الذى ينتظرنا خارج البيت .

كان محمد ولهانًا على نحو كاد أن يتلف المفاوضات التى أجريناها ، وسرعان ما راح الرجل يتكلم عن الزواج المرتقب ؛ وهذا الذى حدث لمحمد ، كان سبق حدوثه مع سيدنا يعقوب بن إسحق . هذا هو غازى ، ومن باب تقليده للبان ، واعتماداً عَلى وله ابن عمه للزواج من مطرة ، زاد المهر أولاً وقبل كل شىء من أربعين جنيهاً إنجليزياً إلى ستين جنيهًا ، وحاول استبدال ليه **Leah** براشيل **Rachel**، او بالأحرى ، حاول استبدال مطرة الجميلة بعصر **Asr** حادة الطبع .

جاءت هذه ضربة شديدة وقاسية لآمال محمد ، وهنا انعقد مجلس عام الأسرة لمناقشة هذا الأمر ، والبت فيه . اجتمع ذلك المجلس فى خيمتنا ، وترأسه زوجى ولفريد

سكاون بلنت ؛ جلس محمد على جانب ومعه ناصر رب البيت ؛ وجلس غازى على الجانب الآخر هو وسعد ، بصفتهما ممثلين للعروسة ، في حين كان فيما بينهما رجل فقير الحال ، جاثيًا على ركبتيه ؛ هذا الرجل لم يكن من أفراد العائلة ، لكننا عرفنا فيما بعد ، أنه من المراسلين المحترفين . كان الأصدقاء والأقارب غير المباشرين يجلسون خارج الخيمة : عبد الله ، وإبراهيم قصير ، ومعهما ستة أفراد من أبناء عروق . بدأ هؤلاء بالجلوس على بُعد مسافة معقولة ؛ لكن مع سخونة الحوار ، راحوا يقتربون من الخيمة أكثر وأكثر ، إلى أن تمكن كل واحد منهم من الإدلاء برأيه .

أما محمد فقد كانت تتقاذفه الأمواج ، وكان شاحب اللون ، وكان ولفريد يتولى عنه قضيته . مسألة التعرض للحوار الذى دار يمكن أن تدخلنا فى قصة طويلة ، وبخاصة أن ذلك الحوار وصل إلى حد الجدل الساخن ، مما كان سيفضى إلى إفشال الموضوع وإنهائه . جادل فى مسألة تزويجه لابنته الصغيرة قبل أختيها الكبيرتين . " صحيح أن حمو كانت مخطوبة " ، وبالتالى فهى بعيدة عن الموضوع ، لكن عصر ، على الرغم من خطبتها أيضًا ، فقد كانت غير مخطوبة فى واقع الأمر ؛ هذا يعنى أن جروان ، ولد مرزوقة ناشف الرأس ، لم يكن بالمستوى المطلوب أو بالأحرى لم يكن الخطيب المناسب لعصر . كان جروان معتوهًا وبالتالى لا يمكن لعصر أن تتزوجه . هذا يعنى أن البنت عندما تعلن أنها لن تتزوج خطيبها ، فذلك يعنى أنها ليست مخطوبة وأنها يتعين عليها البحث عن زوج تحبه . لكن ذلك ليس كافيًا . وهنا روينا لهم حالة زواج جدعان من فتاة مخطوبة . والنتائج السيئة المترتبة على ذلك ، التى تتمثل فى موافقة جروان لعصر على القيام بذلك . وهنا صاح محمد قائلاً : " يا ابن عمى ، يا غازى ، أرجوك يا غازى ! يا ولد عمى كيف لى القيام بمثل هذا العمل ؛ وكيف لى بارتكاب خطأ من هذا القبيل مع ولد عمى ؟ كيف يمكن أن آخذ عروسه ؟ سيكون ذلك عارًا علينا جميعًا . " فى النهاية ، أصررنا جميعًا على مطرة وإلا فلا ، وهنا جرى سحب قضية عصر . كان هناك جدل آخر مفاده أن مطرة ما تزال بعد طفلة ، ولم تبلغ الخامسة عشرة ، ولا تقوى على القيام برحلة طويلة مثل رحلة تدمر . أين

توجد تدمر بحق ؟ من أهل الجوف الذى وصل إلى هذه المسافة ؟ ومع ذلك ، رد محمد قائلاً : إذا كان الشباب يشكل العقبة ، فإن عامًا أو عامين يصلحان الأمر تمامًا . رضى محمد بالانتظار مدة عام ، أو عامين ، أو حتى ثلاثة ، إذا ما تطلب الأمر ذلك . كان محمد من أولاد عروق ، ومن ثم فهو معتاد على الصبر . أما فيما يتعلق بتدمر فهى بعيدة بحق ، لكن ألم نجئ نحن منها ، ألا نستطيع العودة إليها ؟ سوف يرسل واحدًا من إخوته فى الوقت المناسب ، ومعه عشرون رجلاً، أو ثلاثون أو خمسون لحراسة العروس . هذا الجدل ، أسفر فى نهاية المطاف عن إنهاء مشروع زواج مطرة على النحو الذى يرضاه محمد . لكن مسألة " التسويات " لم يمكن التغلب عليها بسهولة . وكاد الأمر أن ينتهى إلى لا شىء . كان ولفريد زوجى ، قد قرر دفع المهر كله نيابة عن محمد ، لكنه لن يفعل ذلك إلا بعد إنهاء الأشياء كلها ؛ ولذلك ترك ولفريد محمد يتفاوض فى مسألة المهر العقارى . استطاع محمد التفاوض حول هذا الموضوع ، على الرغم من ضعف قلبه ورقته ، وإعانة عبد الله فى هذا التفاوض أيضًا ، وكان عبد الله يلتزم فى ذلك بوجهة نظر تجارية فى سائر المعاملات ، وجرى فى نهاية المطاف الاتفاق على مبلغ وسط ، وبذلك ينتهى المجلس .

مع ذلك ، لم تسر الأمور هينة لينة . فى اليوم التالى ، وعندما أخذت معى بعض الهدايا البسيطة وذهبت إلى العروس ابنة غازى ، قابلنى غازى ، بنفسه على الباب ، لاحظت أنا حلية على الفور ؛ وبشىء من الحرج ، وجود شخص غريب فى القهوة . وحظيت بإجابات قصيرة على الأسئلة التى طرحتها عن مطرة ؛ وهنا تحول الحوار إلى الحديث عن " الطقس وعن المحاصيل " ، أو عن البديل العربى لهذين الأمرين ، أى الحديث عن الجراد . كنا قد أصابتنا عاصفة رعدية فى الصباح ، شكرنا الله عليها جميعًا . هذا يعنى أن العشب سينمو فى أثر هذه العاصفه الرعدية ، فى صحراء النفود ، لكن الجراد فى النفود فى ذلك العام كانت جحافله كبيرة العدد . ورحت أسأل عن البنات مرة ثانية ، لكنى لم أحصل على رد ؛ وأخيرًا وبعد أن سئمت كلامهم الممل ،

وبعد نفاد صبرى تعجبت قائلة : " يا غازى ، ما هذا الذى تقول ؟ أنا على ثقة أنك أنت - وأنت أيضًا يا حلية - سعيدان بهذا الارتباط وهذه العلاقة مع محمد " . ورد على غازى ، بصوت غنائى قائلاً : " إن شاء الله ، إن شاء الله " ، وكررت حلية الكلمة نفسها قائلة : " إن شاء الله " كما كررتها أيضًا الضيفة الغريبة . وهنا ظننت أن هناك خطأ ما ، لأن ذلك لم يكن ردًا على سؤالى وهنا هممت واقفة فى مكانى استعداداً للانصراف . وهنا خرجت حلية معى إلى حوش المنزل ، وشرحت لى ما حدث . يبدو أن عصر ، بكل مزاجها الحاد كانت تخيفهم جميعًا ، وهذا يعنى أنها لم تكن على استعداد للسماح بزواج أختها الصغيرة قبلها ، أو الاستفادة من مثل هذا الزواج المريح . كانت عصر تحتقر جردان على الرغم من أنه شيخ لقرية كاف . فى حين كانت هى تود الزواج من شيخ تدمر . لقد تصرّف العجوز على نحو جعله يتراجع عن موافقته ؛ وكانت مطرة خائفة من عصر أيضًا. ما الذى يمكن عمله ؟ قلت لا طائل من مناقشة هذا الموضوع مرة أخرى ؛ وإنها إذا لم تكن قادرة هى وزوجها على تسيير أمور بناتهما ، وذلك يعنى أننا يتعين علينا البحث عن عروس لمحمد فى مكان آخر ؛ وكنت أتمنى ألا تبلغ ذلك القدر من الحماقة التى جعلتها تقف فى طريق سعادة أختها ، لأن ذلك لن يكون فى صالحها . هذا المزاج الحاد ، أكد لعصر أنها لا يمكن أن تتزوج من محمد ، وتأكد أيضًا فى نهاية المطاف أن العائلة لابد أن تحسم أمرها وتقول نعم أم لا ، فيما يتعلق بموضوع مطرة ، كل ذلك لابد أن يتم على وجه السرعة ، لأننا كنا على وشك مغادرة مسكاكة ، الأمر الذى يحتم تسوية الموضوع برمته . التقيت بعد ذلك البنتين ، وتكلمت معهما باللهجة نفسها ، الأمر الذى أسفر بعد ذلك ببضع ساعات عن مجيء محمد ، الذى كان كسير الخاطر من قبل ، جاء وهو متهلل الأسارير ومنشرح الصدر ليقول لى إن عقد الزواج سيوقع فى ذلك المساء .

جرى بالفعل توقيع عقد الزواج ، على الرغم من بروز بعض المشكلات فى نهاية الأمر وتفاقمها الواحدة بعد الأخرى ، وتجلّى روح المساومة بين الجميع بشكل مؤسف ،

فيما عدا تركى ، بخصوص موضوع الصداق . ومع ذلك ، وافق الجميع على خمسين جنيهًا تركيًا ؛ ورفض زوجي ولفريد تقديم ولو بشلك واحد زيادة على هذا المهر ، حتى ولو كان ذلك لترضية وصرف ابن عم من أعمام مطرة ظهر فى اللحظة الأخيرة مطالبًا بحقه فى مطرة ، أو مبلغ مساو لذلك بالعملة المعدنية لمطرة نفسها . مسألة الجدل والمساومة التى دارت حول الصداق تعد أمرًا مؤسفًا وغير محترم ؛ والناس فى بريطانيا يتصرفون فى هذا الأمر على نحو أفضل ، إذ يتركون مسألة تسوية الأمور المتعلقة بالصداق للمحامين .

جرى ، على الرغم من كل ذلك ، ترتيب الأمور كلها فى نهاية المطاف ، وجرى تحرير عقد الزواج وتوقيعه ، وسعد الجميع بذلك . وأمضى الناس بقية الأمسية فى فرح وحبور وذبح الناس تيسًا وأكلوه ، وترددت الأغانى ، ورُوِيت القصص ، ولم ينس المغنون التغنى بسيرة آل – عروق الشعبية . ناصر ، شاعر، وقد ارتجل قصيدة بهذه المناسبة – كان من بين الضيوف حاجان من مكة – على حد قولهما عن نفسيهما – كما كان هناك أيضًا بعض الرجال الهاربين من التجنيد التركى فى الشام . هؤلاء الهاربون حضروا وليمة الطعام مع بقية الحاضرين ، كما لو كانوا من أقارب العروس . وبذلك تكون مفاوضات زواج محمد قد انتهت. ويتعين على محمد الحضور فى العام القادم لأخذ مطرة ، أو قد يرسل من يحضرها إليه ؛ لكنه فى الوقت الراهن يتعين عليه الاقتناع والانتظار .

بينما كانت هذه الأمور العائلية يجرى تنظيمها على قدم وساق ، كنا نجرى مفاوضات مهمة خاصة بنا ، للحصول على موافقة الحاكم على مواصلة رحلتنا إلى حائل . أولى خطوات هذه المفاوضات كانت تتمثل فى مصادقة جوهر ، نظرًا لأن كل شىء فى هذا البلد المستبد يعتمد على نية هذا الرجل ورضاه ؛ ولو آثر جوهر إعادتنا إلى كاف عن طريق وادى السرحان ، لما استطعنا الوقوف فى وجهه أو مقاومته . الجوف ليس مكانًا يسهل الهرب منه . المسافه بين الجوف وبين أقرب النقاط إليه فى منطقه الفرات تقدر بما يزيد على ثلاثمائة ميل ، وبدون موافقه الحاكم يستحيل على أى مواطن السير معنا أو مرافقتنا حتى ولو ميل واحد . وتأسيسًا على ذلك ، قمنا فى

اليوم التالى لوصولنا ، بزيارة إلى الحاكم جوهر ، الذى جرى تحذيره من زيارتنا ، الأمر الذى جعله يستقبلنا استقبالاً رسمياً .

جوهر زنجى أسود بمعنى الكلمة ، فيه كثير من الملامح الأفريقيه المنفرة ؛ وهو فارع الطول ، ومتين جداً ، ومغرور جداً ، ارتدى الرجل أبهى ملابسه استعداداً للقائنا ، كان الرجل يرتدى عدداً من الجباب الحريرية الواحدة فوق الأخرى ، كما كان يرتدى سروالاً أزرق اللون – هذه أشياء جديده علينا فى الجزيرة العربية – كان الرجل يرتدى عباءة خليطاً من اللونين الأسود والذهبى ، كما كان يضع على رأسه كوفية أرجوانية اللون . كان قميصه منشًى تنشية جيدة ، وكان ذلك القميص خفيفًا كلما تحرك الرجل كان يحمل سيفًا له مقبض من الذهب ، وكان يشبه تمامًا الرجل المستبد غير المتحضر الذى يمكن أن يخطر على بال أى أحد من البشر. تركنا جوهر ننتظر فى القهوه مدة عشر دقائق ، وأعتقد أنه فعل ذلك من باب زيادة أهميته ، كما دخل علينا ومن خلفه جماعة من الرجال المسلحين ؛ كانوا جميعًا يحملون سيوفًا لها مقابض ذهبية ، وكان كل واحد منهم يلف حول وسطه حزاما مزينًا بالفضة ، وعلى رأس كل واحد منهم كوفية من اللونين الأحمر والأزرق ، ومن فوقها عقال أبيض غليظ . كان جوهر يمثل شخصية ملكية مصطنعة وليست طبيعية ، إذ كان ينتقل من موضوع إلى آخر دون توقف ، كما كان يطلب ، بين الحين والآخر ، إلى بعض الحاضرين تفسير وشرح بعض ملاحظاتنا وتساؤلاتنا . أدهشنى تمامًا واستثار سخريتى أن أرى هذا الزنجى ، الذى ما يزال عبداً ، يمثل مركز السلطة بين هذه الحاشية من البشر البيض ، وأنه على الرغم من نقاء عرق وأصول الكثيرين من هؤلاء العرب ، فقد كانوا ينحنون أمام جوهر ، استعداداً لإطاعة أقل إشاراته ويضحكون لأبهت نكاته . بعد لحظات صمت الاحترام الأولى ، تحول جوهر إلى شخص حلو المعشر ، كما سبق أن قلت ، وراح يسألنا عن الأخبار والعلوم . كنا قد أتينا من الشمال وكان بوسعنا أن نحكى له عن الحرب . كان بوسعنا أن نحكى له عما يفعله صدام وابن سمير ، وابن سمير بطل عند أهل الجوف ، أو عند أهل حائل ، إن صح التعبير ، وسبب ذلك أن أهل حائل

ليسوا على ود أو وفاق مع صدام . يضاف إلى ذلك أن محمد الدوخى العجوز هو أكبر سنًا من صدام . سعدنا لأننا استطعنا أن نقول لجوهر إننا التقينا ابن سمير نفسه فى دمشق قبل أقل من شهر . وحكى لنا جوهر أيضًا عن تقرير وصل مؤخرًا إلى مسكاكة عن طريق بعض السلب ، وأن هذا التقرير يفيد أن الروالة جرت هزيمتهم فى معركة جرت بينهم وبين محمد الدوخى ، وجرى قتل صدام فى ذلك القتال ، وقد أسفنا لسماع هذا التقرير .

بعد ذلك سألنا جوهر بنغمة سقيمة الاهتمام ، عن مسألة السلطان . كان جوهر سعيدًا بالصلح الذى أبرمه السلطان مع المسكوف (الروس) . الصلح خير، والآن " إن شاء الله السلطان مبسوطين " ، بمعنى " لعل السلطان يكون مسرورًا لما حدث " ؛ قال جوهر هذه العبارة بإحساس ساخر ، ونبرة مظاهرة ومساندة ، وغنَّة أنفية انعكست على صوته ، مما أضفى على الموقف طابعًا فكاهيًا إلى أبعد الحدود . وهنا جرى شىء من التهامس بين محمد وأحد أفراد الحاشية ، الأمر الذى أسفر عن مغادرة أفراد الحاشية كلهم للغرفة ، لكى نقوم نحن بتسليم الهدايا التى أحضرناها معنا إلى جوهر . مبلغ علمى ، أن محمد جرى استجوابه حول وضعنا وأهدافنا من وراء رحلتنا ، ورد محمد على هذه الأسئلة على النحو الذى سبق الاتفاق عليه ، وأننا كنا متوجهين إلى (البصرة) للقاء بعض أصدقائنا ، وأننا جئنا من طريق الجوف كيما نتحاشى الرحلة البحرية . هذا الذى قلناه ، على الرغم من عدم صحته تمامًا ، فقد كان أقرب ما يمكن إلى الحقيقة ، بل إنه جاء على شكل رواية يسهل فهمها وتصديقها من قبل أولئك الذين قيلت لهم . وزاد محمد على ذلك، أن مصادفة مرورنا عبر ممتلكات الأمير أثارت لدى البك الإنجليزى شوق القيام بزيارة يعبر فيها عن شكره واحترامه لابن الرشيد قبل المضى قدما فى رحلته ، والتمس محمد إلى جوهر إعطاءنا المرشدين اللازمين لمثل هذه الزيارة . ووافق الحاكم ، فى نهاية المطاف على تحقيق ذلك ، بعد شىء من النقاش والتردد من جانبه . لقد رق قلب جوهر بفعل الملابس الأنيقة التى أعطيناه إياها ، وأعتقد أن حديثًا دار بين جوهر ومحمد عن مبلغ صغير من النقود على

سبيل الهدية . بعد استدعائنا إلى مجلس جوهر مرة ثانية ، وكان ذلك فوق سطح المنزل ، وجدنا وجه ذلك الزنجى يتهلل بشراً وتعلوه الابتسامات ، وجرت مناقشة رحلتنا كما لو كانت أمراً مقضياً. وجرى بعد ذلك فرش السجاجيد ، وجلسنا كلنا على سطح المنزل ، وتناولنا الإفطار معًا ، وكان عبارة عن لحم مسلوق مع الأرز ، مع صلصة ، يجرى سكبها على الأرز ، وبعد أن غسَّلنا أيدينا ، وبعد أن حمدنا الله ، عدنا ونحن فى منتهى السعادة لهروبنا من الذباب والشمس الحارة فوق سطح منزل جوهر ؛ وكنا مبسوطين لما آلت إليه الأمور بالنسبة لنا . وعلى حد قول وملاحظة ولفريد ، عندما ركبنا فرسينا ، وكنا فى طريقنا إلى منزلنا ، فإن جوهر يعد صورة طبق الأصل من المستبد الجشع ، جوهر هذا نوعية من البشر ، لو قدر لها أن تكون فى حالة نفسية سيئة ، فإنها يمكن أن تأمر بقص رقابنا ، بلا أية مراسم ، مثلما أصدر أوامره بتجهيز طعام الإفطار . وبذلك ينتهى آخر أيامنا فى مسكاكة .

اليوم الحادى عشر من شهر يناير . كان الضباب يخيم علينا منذ أن جئنا إلى هذا المكان، أما اليوم (المصادف ليوم السبت) ، فقد انهمر مطر غزير علينا كما سبق أن قلت . جاء المطر مصحوباً برعد وبرق ، وهذا هو حال الطقس دائمًا فى هذا المكان من العالم . وقد اندهشت أثناء كلامى عن البرق ، إن أحداً فى مسكاكة تكلم من قبل عن أناس قتلهم ذلك البرق، وقد أكد محمد هذه المقولة ، بأن الناس فى تدمر يذهبون هذا المذهب نفسه ، أى أنهم لايسمعون عن أحد قتله البرق . وقد اندهش محمد عندما سألته عن خطر البرق ، وقال لى إن الأحداث التى تنجم عن البرق لا وجود لها فى الصحراء . هذا أمر عجيب . سطح التربة فى مسكاكة ، يكاد يكون من الرمل الخالص ، والمطر ينساب خلال هذا الرمل فور سقوطه على الأرض ، ولا يتجمع إلا فى تجاويف قليلة ، توجد فيها بعض الرسوبيات الصلبة التى تساعد على الاحتفاظ بالماء .

صفا الجو فى فترة العصر ، وقمنا بجولة صغيرة إلى تلة منخفضة تقع خارج حدود مزرعة ناصر . هذه التلة المنخفضة مكونة من صخر الحجر الرملى ، برتقالى

اللون عند الأسفل ، ولكنه أسود اللون عند السطح الأعلى . هذه التلة لا يزيد ارتفاعها على مائة قدم ، لكنها وحيدة ومنعزلة عما حولها ، هذه التلة تتحكم فى منظر وسيع ، من مناظر الجوف ، فضلاً عن جمال هذا المنظر أيضًا . فى الأرض الأمامية الواقعة تحت مستوى المزرعة ، يوجد مسوَّر مربع الشكل تتردد مساحته بين ثلاثة أو أربعة أفدنة ، وعامر بأشجار الأثل والنخيل ، وفيه منزلان من اللبن ، وفيه أبيار ، وتبدو عليه الأناقة والجمال . خلف هذا المسوَّر ، فى الناحية الغربية ، شاهدنا ثلاث أو أربع مزارع ، كلها عبارة عن بقع داكنة الخضرة فى أرض رملية مكسرة ومقفرة هى فى أساسها من صخور الحجر الرملى ، ومن خلف هذه البقع توجد واحة مسكاكة ، التى لا نرى منها سوى أعالى النخيل ، والكتلة الداكنة المتمثلة فى قلعة مسكاكة التى تبرز من بين أعالى النخيل مشكلة بذلك منظرًا رائعًا . كان خط بيارة النخيل الطويل يمتد فى اتجاه الجنوب ، ليختفى فى النهاية وسط كتلة غير منظمة من التلال الرملية . هذه التلال الرملية جذبت انتباهنا بشكل خاص ، نظرًا لأنها تشكل بداية صحراء النفود ، وليست النفود الكبرى ؛ أعنى بذلك أنها تشكل مجموعة من الكثبان الرملية الواقعة على أطراف الصحراء ، والعامرة بأشجار الغاضة ، وهى شبيهة تمامًا بتلك الكثبان الرملية التى يمر عليها خط كاليه **Calais** وبولونيا **Boulogne** الحديدى . نحن نعلم أن مسارنا سيكون بين هذه الكثبان الرملية ، وأنه يتعين علينا استئناف رحلتنا فى الغد .

بينما كنت أرسم ذلك المنظر العجيب ، عاد إلى ولفريد بعد أن تسلق قمة حاجز طويل ، بنبأ أكتشافه نقشًا من النقوش . كنا منذ وصولنا إلى منطقة الحجر الرملى هذه نبحث عن آثار لكتابة قديمة ، لكننا لم نعثر على شىء غير بعض الخدوش التى تدور من حولها الشكوك ، كما عثرنا أيضًا على مجموعة قليلة من تلك التصميمات البسيطة التى يجدها الإنسان على الحجر الرملى فى مختلف الأماكن ، والتى تمثل الإبل والغزال . هنا اكتشفنا ثلاثة أحرف شديدة الوضوح هى **Q, H, II**؛ اثنان من هذه الحروف الثلاثة ينتميان إلى الأبجدية اليونانية .

كـان واضـحًـا من عـمليـة القطع نفسـهـا ومن لون القطع أيضًـا أن هذه الأحـرف مـوجـودة منذ سنوات عدة . وهـنا رحنا نبنى على هذه الأحـرف بعض التـحـويرات عن الاختناقات التـاريخية المتعلقة بواحة مسكاكة ، والحال التى كانت عليها منطقة مسكاكة فى الأزمان القديمة.

عندما عدنا إلى منزلنا كان محمد قد ذهب إلى جوهر لإنـهاء الترتيبات الخاصة برحلتنا . فقد أثار جوهر شيئًا من الجدل والنقاش حول بند من بنود التفاوض ، الأمر الذى أسفر عن معارضة جوهر لبعض النقاط ، ولكن هذا الاعتراض جرى التـغلب عليه بفـضل الذهب ، أو بالأحرى عن طريق قطعـة من الذهب ، وبذلك وافق جوهـر على أن يوفد معنا رجلاً ، أو إن شئت فقل مرشدًا محترفًا ، أثناء عبورنا النفود . يبدو أن هناك خطين يمكن عن طريقـهما الوصـول إلى حـائل ، أحدهما يسـتغرق ثلاثة عشـر يومًا أمـا الثـانى فيـسـتـغرق عـشـرة أيام . يقـولون : إن الخط الأول هـو الأنسب للإبل المحـملة ، نظرًا لقلة عمق الرمـال ، لكننا سوف نخـتـار الطريق الأقـصـر ، إذا كـان ذلك من أجل مشاهدة النفود فى أردأ أشكالها أو أحوالها . ذلك أن النفود كانت محط أحلامنا طوال الرحلة ، باعتبار أن النفود هى أردأ أنواع الصحارى فى الدنيا كلها . نحن نستمع هنا إلى روايـات عـجـيـبـة عن النفـود ، وعن هؤلاء النـاس الذين تاهـوا وضلوا طريقـهـم فى النفود . هذه الرحلة التى تسـتغرق عشـرة أيام ، يصل طولها إلى مـا يقرب من مـائتى ميل ؛ وعلى امتداد هذه المسافة الطويلة لا يوجد سوى بئرين إحداهما يصله المسافرون فى اليوم الثانى ، أما البئر الثانية ، فيصلها المسافر فى اليوم الثامن .

سـوف يحضـر المرشد جمله وعليه قربتان من قراب الماء ، ونحن بدورنا اشترينا أربع قـراب إضـافـيـة ، ليـصـل إجـمـالى قـراب الماء مـعنا إلى ثمـانى قـراب . وهذه الكميـة من المياه كافية لنا ولخيولنا ، وهذا يحتم علينا الحرص فى استـعمـال الماء . أحضرنا أيضًا كمية كافية من التمر والخبز ، وما يزال لدينا تيس ، سيوفر لنا شيئًا من اللحـم ، أمـا التـيس الثـانى فقـد ذبحناه وأكلناه عن آخـره ، ولا يمكن اسـتـعواضـه بحـال من الأحـوال . يزاد على ذلك أن المؤن والتمـوينات يصـعب الحصـول عليـهـا فى

مسكاكة ؛ وعن طريق شىء من البلطجة التركية استطاع جوهر الحصول لنا على حمل جمل من القمح .

هذا هو المطر قد توقف ، وطلع علينا القمر . جرى عمل كل الترتيبات اللازمة لنا ، كى نتمكن من عبور صحراء النفود ، وسوف نستأنف هذه الرحلة فى غضون بضع ساعات . هذا يعنى أننا سنكون بحاجة إلى تجميع قوانا كلها استعداداً لتلك الرحلة التى سوف تستغرق منا عشرة أيام .

الفصل الثامن

" بدأنا عبور ذلك المحيط الهائل من الرمال السائبة التى يميل لونها إلى الاحمرار ، ولا تدرك العين مداها ، والمكونة على شكل سلاسل هائلة متوازية مع بعضها وتتجه من الشمال للجنوب . موجة إثر أخرى ، ويصل متوسط ارتفاع كل منها إلى مائتى أو ثلاثمائة قدم ، وجوانبها منحدرة، وقمتها مستديرة ومثلمة من جميع الاتجاهات بسبب العواصف الصحراوية المتقلبة ، والرحالة يجد نفسه فى الأعماق ، التى بين هذه التموجات الرملية ، كما لو كان مسجونًا فى حفرة رملية ، تحيط بها جدران مشتعلة من كل جانب ، فى حين أنه يشاهده عندما يحاول صعود المنحدر ، بحراً هائلاً من النيران ، التى تتوهج بفعل الرياح الموسمية الثقيلة ، وتزعجه لفحة حرارية عمودية ، على شكل موجات صغيرة شديدة الاحمرار ، ولا تجد العين أو الأطراف راحة ولا مأوى وسط هذه السيول الضوئية والحرارية ، التى تنهال من الأعلى على الوهج الذى يجيئها من الأسفل . "

بالجريف

محمد يقع فى الحب – دخولنا إلى صحراء الرمال الحمراء – جيولوجيا النفود – راضى – بئر الشقيق الكبيرة – معرفة قديمة – حكايات النفود – الجنود الذين ماتوا عطشًا – المحبون – فى وسط الرمال – الوصول إلى الأرض .

اليوم الثانى عشر من شهر يناير . غادرنا فى فترة الصباح كثيف الضباب متمتعين ببركات وإحسان ابن عروق . عاملونا معاملة طيبة ، وأسَفنَا على فراقنا لهم ، وبخاصة تركى وعريبى ، وعلى الرغم من خيبة آمالنا بعض الشىء فى تلك العائلة إلى

حد ما . وعلى الرغم من أصالة هذه الأسرة ، وعلى الرغم أيضًا من تقاليدها النجدية فإن فيها نقائص عرب الحضر فيما يتصل بالمال والنقود ، وقد صدمنا واهتزت مشاعرنا ، لأن ناصر ، مُضَيِّفُنا ، كان ينتظر منا هدية مالية صغيرة ، عند مغادرتنا ، وأن هذه الهدية ستكون بصفة خاصة للحريم ، لكنها ستكون له هو بالتحديد . شيوخ الصحراء ، أيًا كان فقرهم ، لا يكنزون المجيديات.(*) الأبناء أيضًا طلبوا هدايا ، طلب الابن الأكبر عباءة ، لأن أخاه حصل على عباءة ، والابن الأصغر طلب جبة ، لأنه بالفعل حصل على عباءة ، وجاء بعض أفراد الأسرة الآخرين ومعهم جوالات مليئة بالتمر والسمنة ، تحت ستار هدايا الوداع ، وراحوا ينتظرون شيئًا فى المقابل - كان ذلك كله من قبل الأمور الطيبة ، وسعدنا نحن بدورنا لأننا أسعدناهم بإعطائهم النقود ؛ لكن ذلك لا يتفق مع المشاعر والأحاسيس التى جرت العادة أن يعربوا عنها ، بمناسبة وغير مناسبة عن أصول الكرم والضيافة . الإحباطات الصغيرة التى من هذا القبيل يتعين على المرء تحملها عن طيب خاطر ، لأن الناس ليسوا كمَّلاً فى سائر أنحاء الدنيا ، والرَّجل يجب ألا يتوقع أو ينتظر وهو خارج بلاده ، شيئًا أقل مما يلقاه فى وطنه . فى إنجلترا ، ربما لا يستقبلنا أحد على الإطلاق ، فى حين هنا فى الجزيرة العربية، كان استقبالنا صادقًا وطيبًا منذ البداية ، وذلك بغض النظر عما خطر ببالنا فيما بعد . وعليه قام زوجى ولفريد بتقبيل أفراد الأسرة كلهم ، وراح يعبر لهم عن وعود وآمال اللقاء الموعود ، أما أنا فقد دخلت إلى الحريم لتوديع ما تبقى منهن ، ومن حسن الحظ لم يكن منتظراً منى أن أقبلهن جميعهن ؛ ومشينا فى طريقنا بعد ذلك .

كان طريقنا يتجه جنوبيًا عبر التلال الرملية التى شاهدناها بالأمس ، وسرعان ما حجبت هذه التلال كلاً من مسكاكة هى وبيارات نخيلها عن الأنظار ، وسرعان ما عدنا مرة أخرى إلى عددنا السابق المكون من ثمانية أفراد ، ومعنا راضى ، مرشدنا الجديد ،

(*) المجيدى : عملة ذهبية تركية . (المترجم)

والتزمنا الطريق المؤدية إلى حائل . هذه الكثبان الرملية ليست هى النفود بطبيعة الحال ، وهى تشبه إلى حد كبير تلك التلال التى يمكن مشاهدتها فى أماكن أخرى من الصحراء ، أو بالأحرى فى أجزاء محددة من شبه جزيرة سيناء . هذه التلال الرملية رائعة المنظر ، لأنها كلها من الرمل الأبيض النقى ، ويتراوح ارتفاعها بين خمسين ومائة قدم ، وفيما بينها توجد بعض الفراغات التى لها أرض صلبة ، وتكسوها النباتات . أشجار الغاضة هنا تنمو إلى أن تصبح أشجاراً كبيرة ، لها سيقان بيضاء ، ومجموعها الخضرى رمادى بلون الريش ويكاد يقترب من اللون الأبيض . التقينا رعاة كثر ومعهم قطعانهم ، جاءوا إلى هنا من البلدان طلبًا للرعى ، كما شاهدنا أيضًا جماعات من النساء اللاتى جئن لجمع الحطب . وقد أمتعنا محمد تمامًا فى فترة الصباح بحديثه إلى جامعات الحطب هؤلاء . وقد أفلح محمد فى الحصول على نظرة خاطفة من عروسه المنتظرة هى وأختها ، قبل أن نَهُم بالرحيل ، وهو الآن سابح فى بحار خيال الحب ، على الرغم من أنه عاجز عن تفضيل إحداهن على الأخرى . تراه يفضل مطرة فى بعض الأحيان ، لأن هذا هو ما ينبغى أن يكون ، وفى أحيان أخرى يفضل عصر ، دون أن يبدى لذلك سببًا وجيهًا ، من وجهة نظرى ، غير أنها أطول وأكبر سنًا من مطرة ، لأنه لم ير وجهيهما . حديثه اليوم مع جامعات الحطب ، كشف لنا اليوم ، نحن الاثنين ، عن سذاجة ذهنية لا يرقى إليها الشك . كان محمد يسبقنا بدابته ، كلما رأى جماعة من جماعات جامعات الحطب هؤلاء ، وعندما كنا ندركه ، نجده يتحاور حواراً جاداً مع أقبحهن وأكبرهن سنًا حول موضوع قلبه وعواطفه . كان محمد يبدأ حديثه بسؤال جامعات الحطب ما إذا كن من مسكاكة ، ثم يتطرق الحوار بعد ذلك إلى ابن عروق وأسرته ، وإذا ما وجد الرجل أن تلك الجامعات للحطب يعرفن عائلة ابن عروق ، يروح يسألهن عن عدد بنات هذه الأسرة ، أسرة غازى ، وهل هن متزوجات أم لا . ثم يلمح محمد بعد ذلك إلى أنه قد بلغه أن الكبيرة منهما شديدة الجمال ، ثم يروح يسأل بحرص بالغ عن الصغيرة ، وينتهى الحوار بإعلان محمد عن نفسه بأنه من بنى عروق التدمريين ، وأنه سيخطب واحدة من البنتين اللتين أثنت عليهما النساء المسنات فى وصفهن لهاتين البنتين . هذه الطريقة هى التى أفقدت محمد

صوابه عن هاتين البنتين ؛ إذ كان يتخيل فى بعض الأحيان أنه أسعد الرجال ، وفى أحيان أخرى يتوهم أن غازى أعطاه ابنته الأقل قيمة . عندما كانت تنتابه الأفكار ، كان يقصدنى ويطلب منى أن أعيد عليه للمرة المئة وصفى لمزايا مطرة ، الأمر الذى كان يريحه ، إلى أن يلتقى أحداً آخر وتثور الشكوك فى ذهنه من جديد .

بعد مسير قطعنا خلاله حوالى ثمانية أميال عبر الكثبان الرملية ، وصلنا فجأة إلى قرية قرة ، آخر القرى التى سنراها بعد أيام كثيرة . قرية قرة هذه يتحكم فيه جبل صخرى ، فيه بعض الأنقاض ، كما تضم هذه القرية قرابة سبعين أو ثمانين منزلاً ؛ بيارة النخيل التى تحيط بقرية قرة شهيرة بالنخيل وأشجار الأثل. هذا هو الضباب قد انقشع ، وهذه هى الشمس بحرارتها قد أسعدتنا وجعلتنا نجلس أرضًا مدة دقائق قليلة فى ظلال سور القرية المبنى من اللَّبن . جاء إلينا بعض القرويين ودار بيننا حديث قصير ، عن قرية قارة وشيخها ، فى حين كانت خيولنا تُسْقَى من بئر قريبة منا . وقال لنا القرويون إننا يجب أن نقصد مخيمًا من مخيمات الروالة ، وإن ذلك المخيم لا يبعد عنا كثيراً ، نظراً لأن إبل ذلك المخيم تُسْقَى من هذه البئر . فى الماضى كانت قرة مثل الجوف واحدة من ممتلكات ابن شعلان ، وأن هاتين القريتين كانتا لا تزالان تدفعان إتاوة لصدام ، ولكنهما تجبران البدو على دفع ثمن للماء الذى يستعملونه . ليس هناك أية مخاطر من احتمال الهجوم علينا من قبل الروالة أو أى أحد آخر ، لأننا الآن فى ممتلكات ابن الرشيد ، الذى لا يسمح مطلقًا بأى نشاط لقطاع الطرق ولصوصها. كان القرويون مضيافين فى عروضهم إذا ما بقينا فى قرة بعض الوقت ، لكن المكان كان خلواً من أى شىء يمكن أن يجعلنا نرجئ مسيرنا بعض الشىء ، وعليه آثرنا مواصلة المسير . قرة مثل الجوف ومسكاكة ، فيها قلعة محطمة على تل منخفض ، لكن الأنقاض حاليًا لا تتعدى أن تكون مجرد أساسات قديمة لجدران مبنية من الحجر بلا أسمنت .

بعد مغادرتنا قرية ، أو إن شئت فقل : واحة قرة ، وصلنا فجأة إلى جماعة من الروالة ، معهم إبلٌ كثيرة ، قاصدين قرية قرة طلبًا للسقيا . لم تكن هذه الجماعة

مسلحة ، وكانوا ينتقلون مثلما ينتقل الفلاحون البسطاء فى إيطاليا . قالوا لنا إن مخيمهم ليس فى طريقنا، ويقع على بُعد مسافة يصعب علينا معها الوصول إلى ذلك المخيم فى تلك الليلة ، وقالوا إن بوسعنا الوصول إلى بنية ابن شعلان ، وهو ولد عم صدام ، ومخيمه بالقرب من بئر الشقيق ، أو إن شئت فقل مسقى الغد . من صالح أمن البلاد ، أن تكون هناك جماعات للقرويين ، مثلما نرى حاليًا ، منتشرة بين الكثبان الرملية على بُعد أميال كثيرة فيما وراء قرية قرة ، وأن يكون البدو محيطين بتلك الجماعات القروية . لكن الواقع أن القانون والنظام يعملان عملهما فى حكم ابن الرشيد . وبعد أن واصلنا مسيرنا مدة ساعتين ونصف الساعة خلال أرض مكسرة وغير مستوية ، وصلنا فى نهاية المطاف إلى مطلع صاعد شديد التحدر ، ثبت لنا بعد أن تسلقناه ، أنه الحد البعيد لمنخفض مسكاكة ، وفوق هذا المطلع المنحدر وجدنا أنفسنا فى سهل زلطى . المنظر الذى رأيناه ، ونحن نلقى نظرة على ما وراءنا ، من ذلك المكان ، كان مهمًا جداً ، وسرعان ما أعطانا فكرة عن جغرافية المنطقة كلها ، وعن حوض مسكاكة العظيم ، بتلاله ، وكثبانه الرملية ، وكذلك سلسلة الصخور الطويلة التى تقع الواحة عند سفحها ، كما أعطانا ذلك المنظر فكرة أيضًا عن سلسلة جبال الحمَّامية ، وكلها لا تعدو أن تكون مجرد جزر فى حوض مسكاكة ، الذى يضم أيضًا كلاً من الجوف هى والقرى الشرقية الداخلة فى محيطها. وهنا بدأ الشك يتطرق إلى نفسى حول ما إذا كانت مسكاكة هى والجوف ، هما فى واقع الأمر ، مجرد ذيل لوادى السرحان ، أو بالأحرى رأسًا لذلك الوادى ، وسبب ذلك أن المنطقة كلها لابد أن تكون شبيهة بالشرغوف(*) ، وأن هذه المنطقة تمثل أنف ذلك الشرغوف .

الحمد Hamad، أو بالأحرى السهل الذى كنا فيه فى ذلك الوقت ، يزيد ارتفاعه على كل من واحتى قرة ومسكاكة بحوالى مائة وخمسين قدمًا ، هذا يعنى أن هذا

(*) الشرغوف : هو فرخ الضفدع . (المترجم)

السهل يرتفع إلى حوالى ٢٢٢٠ قدمًا فوق مستوى سطح البحر .هذا السهل مستو تمامًا وعار تمامًا من الحياة النباتية . هذا السهل عبارة عن مساحة شاسعة من التربة الزلطية ، وتختلف عن أى شىء فى الحوض الموجود فى الأسفل . اندهشنا عندما وجدنا سهلاً واسعًا مثل هذا السهل الذى أمامنا ، إذ لم نكن نتوقع أى شىء آخر غير الرمال ؛ لكن على الرغم من أننا لم نشاهد الرمل فإنه لم يكن بعيداً عنا ، وبدا ذلك لنا كما لو كان شاطئ النفود العظيم . عند الساعة الثالثة والنصف أبصرنا شريطًا أحمر أمامنا ، أخذ يرتفع ويتجمع كلما زاد اقترابنا منه . كان ذلك الشريط يمتد شرقًا وغربًا على شكل خط مستقيم . ربما حسبنا ذلك أثرًا من آثار السراب فى بداية الأمر ، لكننا عندما اقتربنا من السهل وجدناه عبارة عن مخاد مكسَّرة ؛ ووجدنا أيضًا أن ذلك السهل باستثناء لونه الأحمر ، لا يختلف عن بحر متلاطم الأمواج ، عندما ينظر المرء إليه من الشاطئ ، وسبب ذلك أن هذا السهل يرتفع إلى الأعلى مثل البحر ، عندما ترتفع الأمواج فوق مستوى سطح الأرض . صاح واحد منا قائلاً : " النفود " ، وعلى الرغم من تشككنا ، سرعان ما اقتنعنا بصحة ما قاله ذلك الرجل . والذى أدهشنا بحق هو لون صحراء النفود ، الذى هو خليط من لون الراوند والمغنسيوم ، ولا مثيل لهذا اللون بين الرمال التى سبق أن رأيناها ، وليس له شبيه أيضًا بين ذلك الذى كنا نتوقع رؤيته . ومع ذلك ، تظل صحراء النفود ، تلك الصحراء العظيمة التى تقع فى وسط الجزيرة العربية. وفى خلال ساعات قلائل كنا قد وصلنا إلى النفود ، وكانت أقدام خيولنا تطأ أولى موجات تلك الصحراء .

اليوم الثالث عشر من شهر يناير . أمضينا اليوم كله فى النفود ، الأمر الذى أسعدنا على نحو فاق توقعاتنا ، كما أدخل السرور إلى نفوسنا . هذا المنظر يختلف تمامًا عن الوصف الذى قرأته عن النفود فى الكتاب الذى ألفه بالجريف ؛ وبخاصة أن الوصف الذى أتى به ذلك الرجل يبدو كما لو كان كابوسًا مؤرقًا . صحيح أن بالجريف عبر النفود فى فصل الصيف ، ونحن الآن فى منتصف الشتاء ، لكن الخصائص الطبيعية لا يمكن أن تتغير تغيراً كبيراً بتغير الفصول ، وانا لا أفهم الأسباب التى

منعت بالجريف من الإتيان على الخصائص والسمات الطبيعية للنفود . وأول ما يستدعى الانتباه فى النفود هو لونها . النفود ليست بيضاء اللون مثل الكثبان الرملية التى مررنا بها بالأمس ، وليست صفراء اللون ، كما هو الحال فى الصحراء الرملية فى مصر ، لكن لون النفود أحمر فاقع ، وتزداد حمرة ذلك اللون فى فترة الصباح عندما تكون مبتلة بفعل الندى . رمل النفود خشن إلى حد ما ، لكنه شديد النقاء ، وليست فيه أية عناصر غريبة ، مثل الحصى ، أو الحبيبات الرملية الخشنة ، أو الطين ، وقوام هذا الرمل ولونه واحد فى الأماكن كلها . ومع ذلك ، من الخطأ ، النظر إلى النفود باعتبارها أرضًا جرداء . النفود ، على العكس من ذلك ، هى أرض عامرة بالعشب ، ومراعيها أغنى بكثير من المراعى التى فى الأماكن الأخرى من الجزيرة العربية ، وبخاصة تلك الأجزاء التى مررنا عليها بعد أن تركنا دمشق ، النفود تنتشر فيها أشجار الغاضة ، كما تنتشر فيها أيضًا أدغال من نوعية أخرى من الأشجار التى يسمونها أشجار اليرتو **Yerto**، التى تبدو فى هذا الفصل من العام وكأنها كَرْم كثيف الأغصان والفروع . سيقان هذه الأشجار الطويلة المعقدة ، كذلك جذوعها الليفية تضفى عليها شكلاً ، يوحى بأنها كانت كرمة فى يوم من الأيام . يقول راضى : " إن رسول الله ﷺ وصل ذات يوم إلى مكان كانت فيه كرمة أعناب، ووجد فيها بعض الفلاحين يقلمون الأشجار ويشذبونها . سألهم رسول الله ﷺ عما كانوا يفعلون ، وعن نوعية تلك الأشجار ، وعندما خاف أولئك الفلاحون من أن يُغضبوا رسول الله ﷺ ، أو يسخروا منه ، قالوا له هذه أشجار " يرتا " **yerta**، نظرًا لأن ذلك هو الاسم الذى طرأ على ألسنتهم فى ذلك الوقت . ورد عليهم النبى قائلاً : " يرتا إن شاء الله ، ستكون يرتا بإذن الله " ، اعتبارًا من ذلك الحين لم تعد تلك الأشجار كرومًا ، وانقطعت ثمارها . فى النفود أيضًا مراعى كثيرة للإبل ، وبخاصة ذلك المرعى الجديد علينا الذى يسمونه " عدر " ، ذلك العشب الذى يقولون : إن الأغنام تتغذى عليه مدة شهر ، دونما حاجة للماء ، كما أن فيها أيضًا أكثر من نوع من الأعشاب والحشائش الأخرى . كما أن الإبل والخيول تلوذ بذلك المكان ، ونحن بدورنا منشرحو الصدور لوفرة الحطب الذى نحتاجه فى مخيمنا . يقول ولفريد إن النفود حلت له أخيرًا مشكلة تربية الخيول فى

وسط الجزيرة العربية . الصحراء الصلبة تخلو مما تأكله الخيول ، لكن ذلك الذى تأكله الخيول وفير هنا فى النفود . هذا يعنى أن النفود تفسر كل شىء . وبدلاً من أن تكون النفود مكاناً مريعًا ومخيفًا ، وصفها قليل من الرحالة ، بأنها هى بحق موطن البدو ، الذى يقضون فيه قسماً كبيراً من العام . الشىء الوحيد الذى تفتقر إليه النفود هو الماء ، إذ لا يوجد فيها سوى قلة قليلة من الأبيار، يزاد على ذلك أن النفود كثيفة السكان عند حوافها وأطرافها ، ويردف راضى قائلاً : إن البدو لا يعبأون بالماء فى فصل الربيع ، بعد أن ينبت العشب بعد سقوط المطر ؛ وهنا تدر عليهم إبلهم الحليب ، وبالتالى يستغنون عن الماء أسابيع قليلة ، ويروحون يتجولون هنا وهناك فى الجزء الداخلى من هذه الصحراء الرملية .

مضينا فى مسيرنا البطىء عبر النفود طوال اليوم ، وشغلنا أنفسنا بدراسة معالمها الطبيعية . فى بداية الأمر ، ظهرت النفود لنا وكأنها فى حالة من الفوضى، فتلك أكوام وتلال فى ناحية ، وهذه تجاويف فى الناحية الأخرى ، وهذه سلسلة من التلال الجبلية ، وتلك سلسلة أخرى تتقاطع معها ، وهذه مجموعات من التلال الصغيرة ، كل ذلك ينتشر هنا وهناك على نحو فوضوى ؛ لكننا بعد مسير دام ساعات عدة بدأنا نكتشف نوعًا من الانتظام فى هذه الفوضى كلها ، التى سبق أن حاولنا البحث عن أسبابها . أبرز ملامح النفود تتمثل فى تلك التجاويف التى تشبه حدوة الفرس وتنتشر فى سائر الأنحاء ، ومحمد يطلق على هذه التجاويف اسم " فُلْج(*) هذه الفُلج (ويصح فيه أيضًا الأفلاج) ، أو إن شئت فقل التجاويف يتراوح حجمها بين فدان واحد ومائة فدان ، هى كلها تتشابه تمامًا من حيث الشكل والاتجاه . هذه التجاويف أو الأفلاج تتشابه إلى بعيد مع الأثر الناتج عن أقدام الحصان التى لا يُركّب فيها حدوة من حديد ، هذا يعنى أن الأصبع الكبيرة مقطوعة قطعًا حاداً ، وعمودياً ، فى حين تنتهى

(*) فُلْج : بضم الفاء وتسكين اللام : هى جمع فَلْج : بفتح الفاء وتسكين اللام ، والفلج : هو الشق فى الأرض أو الصخر . (المترجم)

حافة الحافرة إلى لا شىء عند الكعب ، وهنا يمكن النظر إلى الأرض المكسرة التى فى الوسط وكانها ضفدع ؛ هذه الأرض التى فى الوسط مكونه من مجارٍ مائية متداخلة . لابد أن قطر الفلج الواحد من هذه الأفلاج يقدر بحوالى نصف ميل ، كما أن عمق أعمق هذه الأفلاج الذى قسناه اليوم ، يصل إلى حوالى ٢٣٠ قدمًا ، ليصل بذلك إلى مستوى السهل الزلطى الذى عبرناه بالأمس ، والذى يمتد بلا أدنى شك أسفل الرمل . كل الذى نقوله هنا هو من باب الاحتمالات ، والسبب فى ذلك أننا نجد فى أعمق فلج من هذه الأفلاج ، وليس فى أى مكان آخر - جزءًا من الأرض الصلبة . ثانى هذه الأفلاج من حيث العمق ، وهو ما قسنا عمقه هو الآخر ؛ يصل عمقه إلى حوالى مائة وأربعين قدمًا ، وكان عمقه ما يزال رمليًا عند هذا العمق ، بمعنى أنه لم يتجاوز نقطة الضفدع إلا بمسافة قصيرة جدًا . وعلى الرغم من أن التربة التى تتكون منها الأجناب ، وكل جزء من أجزاء هذه الأفلاج ، مكونة من الرمل الخالص ، وعلى الرغم أيضًا من أن السطح العلوى قد يكون فى حركة وتنقل دائم ، فمن الواضح تمامًا أن المخطط العام لكل فلج من هذه الأفلاج باق على ما هو عليه بلا تغيير منذ سنوات بعيدة ، وربما قرون من الزمان . الحياة النباتية خير دليل على ذلك ؛ لأن الحياة النباتية أو الغطاء النباتى ليس وليد الأمس ، لأنه يكسو الأفلاج وبقية المناطق الأخرى . يزاد على ذلك أن مرشدنا الذى يعبر النفود جيئةً وذهابًا على امتداد أربعين عامًا ، يؤكد أن النفود لم تتغير مطلقًا . العواصف الرملية لا يمكن أن تملأ هذه الأفلاج بالرمال ، أو تنقل الصخور بعيدًا عن هذه الأفلاج . إنه يعرف هذه الأفلاج جميعها ، وهذه المعرفة ليست وليدة اليوم ، وإنما منذ صباه . " الله هو الذى خلق هذه الأفلاج على هذا النحو " . كان ولفريد مشغولاً بالبحث عن نظرية طبيعية يعلل بها هذه الأشياء وطريقة تكوينها ، لكنه لم يستطع بعد القطع ما إذا كانت تلك الأفلاج قد نتجت بفعل الريح أم الماء أو عن الاختلافات فى مستويات الأرض الصلبة الموجودة فى الأسفل . لكنه حتى الآن ميال إلى نظرية الماء . وسوف نقول المزيد عن هذه المنخفضات فيما بعد ، بعد أن نرى السواد الأعظم منها ، وبالتالى فأنا أحتفظ بملاحظاتى إلى أن يحين الموعد المناسب . قطعنا رحلة طويلة ، محاولين بذلك السير فى الأثر الناتج عن أقدام الإبل فى

الرَمل ، وأظن أن الوقت قد حان الآن للبحث عن حنا ، الطباخ ، الذى هو جد مشغول الآن فى عملية الطبخ . مخيمنا الآن على ارتفاع حوالى ٢٤٤٠ قدمًا ، لكن أعلى ارتفاع وصلنا إليه خلال النهار كان حوالى ٢٥٦٠ قدمًا . لم نر أحدًا طوال النهار سوى رجل من الروالة كان يركب دلولاً ، قال لنا إن هناك مخيمًا عن يسارنا ، بحثنا عن هذا المخيم ، ولكننا لم نتبين سوى بعض الإبل على بُعد مسافة كبيرة .

اليوم الرابع عشر من شهر يناير. يوم صحو السماء أيضًا ، لكن تهب خلاله ريح باردة علينا من الجنوب الشرقى . لا شىء أسطع أو أكثر تلألؤًا من شمس الشتاء التى تعكسها علينا هذه الرمال الحمراء . هذه الأفلاج أصبحت محط اهتمامنا من جديد . نحن نجد أن هذه الأفلاج تتجه كلها صوب اتجاه واحد ، أو إن أردنا الدقة شبه واحد ، هذا يعنى أن الأصبع الأكبر من حافر الحصان يشير إلى الغرب ، على الرغم من تباين أكثر أجزاء المنحدر تباينًا قليلاً ، إذ يتجه فى بعض الأحيان ناحية الجنوب ، وفى أحيان أخرى ناحية الشمال ، أى أن الانحدار هنا يكون مفاجئًا عن الناحية الشرقية . هذا بحد ذاته يشير إلى أن الريح وليس الماء هى السبب فى تكوين هذه الأفلاج . يزاد على ذلك ، أننا نجد عند حافة الأفلاج الكبيرة تل رملى طويل إلى حد ما ، فوقه صخرة ، مثل الصخور التى يجدها الإنسان عند القمم الثلجية ، وهذه الصخرة تكون ناتجة عن فعل الرياح ، حيث يكون الجانب غير المعرض للريح منحدرًا ، أما الجانب المعرض لعوامل الطقس فيكون مستديرًا . هذه الأشياء تتغير بتغير الريح ، وجرت العادة أن تكون خلوا من الحياة النباتية ، وتنفرد بأن يكون لون رملها أفتح من لون الرمال الأخرى . بوسع الإنسان أن يخمن وجود فلج عميق من مسافة بعيدة من وجود واحد من تلك الجبال التى تبدو عند الأفق وكأنها جبال من الثلج . يندر أن تمتد رؤية الإنسان إلى مسافة بعيدة فى النفود ، وسبب ذلك أن الإنسان يكون دائم التجوال بين المنحدرات والمرتفعات الرملية ، أو قد يكون يحوم مثل الذبابة حول حواف هذه الأحواض الكبيرة . الأرض تكون أكثر استواء عند الحواف ، وهنا ينتقل الإنسان من فلج إلى آخر كيما يستفيد من ميزة الاستواء هذه . ركبنا دوابنا ووصلنا

إلى واحدة أو اثنتين من هذه القمم العالية ، ومن واحدة من هاتين القمتين تبينًا خطًا من التلال يبعد منا حوالى خمسة عشر ميلاً فى الاتجاه غرب - جنوب - غرب ، ورأس منعزلة فى الخلف ، وقد تعرفنا تلك الرأس وعرفنا أن اسمها رأس الطويل التى تبدت لنا فى اليوم الأول لوصولنا إلى واحة الجوف . من هاتين القمتين استطعنا أيضًا ملاحظة بقية الأفلاج ، وتبينا أن تلك الأفلاج تتلو بعضها البعض على شكل خيوط ، لكن هذه الخيوط ليست مستقيمة بصورة مستمرة ، ولكنها تشبه الوادى ، الذى يتلوى التواء خفيفًا . وقد أدى ذلك بنا إلى تأمل نظرية المياه وتدبرها مرة أخرى . يرى ولفريد أنه ربما كان هناك منحدر شديد التدرج فى السهل الموجود أسفل الرمل ، وأن المطر عندما يسقط ، مثلما يحدث هنا بطبيعة الحال ، فإنه يغوص نازلاً إلى الأرض الصلبة وينساب تحت الرمل على امتداد وديان ملتوية ، وأن الرمل يتسرب بصورة مستمرة نازلاً إلى أسفل هذا المنخفض ، وبالتالى يحدث الفلج حيثما وجد سهل فى الأسفل(*).

هذه الفكرة يزكيها ذلك الذى شاهدناه و لاحظناه فى هذه الأماكن ، التى تحدث فيها مثل هذه الأشياء ، وسبب ذلك أن الأماكن التى تكون من هذا القبيل تنحدر دومًا ناحية الغرب . ويؤكد لنا راضى أن ماء المطر لا يتجمع مطلقًا فى قيعان تلك الأفلاج . هذا يعنى أن ماء المطر ينساب خلال هذه الأفلاج ثم يختفى بعد ذلك. بينما كنا نناقش هذه النقاط من نقاط التاريخ الطبيعى لاحظنا الإبل وهى ترعى عند حافة فلج من تلك الأفلاج ، ولا يبعد عنا ناحية الأسفل سوى نصف ميل ، وهنا قفزنا نركب خيولنا ونحن سعداء تمامًا وفى عجلة من أمرنا . كنت قد لففت على قدمى ضمادة تمكننى من ركوب الفرس على وجه السرعة . واعتبارًا من الغزو الذى وقع لنا فى وادى السرحان ، فنحن نحذر الأعداء بصفة مستمرة . ركبنا فرسينا ونزلنا لنرى ذلك الذى يتحتم علينا رؤيته ،

(*) هناك رسم كروكى فى الملاحظات الجغرافية التى أوردناها على صفحة٢٤٨ من الجزء الثانى ، والرسم يوضح الشكل الذى يمكن أن يكون عليه أى جزء من النفود فى مثل هذا الحال .

وسرعان ما اكتشفنا حوالى ستة من الرجال والنساء ، فى فلج من تلك الأفلاج ، كما اكتشفنا أيضاً المزيد من الإبل التى ترعى بالقرب من خيمة من الخيام . كانت الخيمة عبارة عن مجرد ظُلّة وظهر ولا أكثر من ذلك أو أقل ، وما أن رأونا حتى سارعت النساء إلى الخيمة وسحبن الظلة نحو الأسفل ، فى حين سارع الرجال بالجرى إلى أقرب الإبل وقاموا بتبريك الإبل . الواضح أن الرجال أصابهم الرعب والخوف ، وعلى الفور جرى تقويض الخيمة ، وعندما ركبنا صاعدين إلى أعلى الفلج، كانت الخيمة هى وأثاثها ، قد جرى تحميلها استعداداً للابتعاد عن المكان ومغادرته . العرب يتباهون بأنهم على استعداد لتقويض المخيم والسير خلال لحظات ، وفى المشهد الذى أمامنا أعتقد أن تقويض الخيمة وتجهيزها للرحيل لم يتعد الدقائق الثلاثة . يبدو أن هؤلاء العرب فوجئوا واحتاروا عندما شاهدونا نتجه بخيولنا نحو الأعلى ، أقصد أعلى الفلج ؛ قالوا لنا ، فى بداية الأمر ، إنهم من الروالة ، لكن عندما لحق بنا رجالنا ، قالوا : إنهم من الحويسن ، تلك القبيلة الفقيرة التى يحتقرها البدو ، وتحتل مكانة مشابهة لمكانة السلب . ومع ذلك ، كنا نرى هؤلاء البدو لا يختلفون فى شىء عن بقية البدو الآخرين .

سألت محمد عن هذا الأمر ، وكيف يتعرف أفراد قبيلة من القبائل بقية أعضائها ، وأجابنى محمد أن كل قبيلة من القبائل لها ملابسها الخاصة بها ، كما أن لها بعض الصفات المميزة الأخرى ، وأن هذه الصفات والسمات معروفة لأفراد القبيلة كلهم . من هنا نجد أن الشَّمَّر طوال القامة بشكل عام ، أما السباع فهم قصار القامة ، ورماحهم من النوع الطويل والروالة أقصر قامة من السباع ، وخيولهم أصغر من خيول الشمر والسباع . وشَمَّر نجد يلبسون عباءات (بشوت) بنية اللون ، والحرب سمر الوجوه ، وهم يشبهون العبيد إلى حد بعيد ، وقد حكى لى محمد المزيد من التفاصيل الخاصة بالقبائل الأخرى ولكنى لا أتذكر تلك التفاصيل . قال لى محمد إن راضى سبق أن تعرف هؤلاء الناس على أنهم من الحويسن ، ومن خلال خيمتهم البائسة . كما ذكرنا محمد أيضاً بالغزو الذى خُدعنا به فى العام الماضى عندما التقيناه فى الحمد فى اليوم الذى عثرنا فيه على جدعان ، قال محمد إننا كنا محظوظين لأننا لم يحدث لنا مكروه ،

فقد اكتشف محمد منذ وقوع ذلك الغزو أن الرجال التسعة الذين قصدهم ولفريد راكبًا حصانه ، للتكلم معهم ، كانوا يشكلون غزواً من العمرات ، بقيادة رجا نفسه ؛ ورجا هذا هو شيخ بطن الرفضى من قبيلة العمرات . كان رجا قد سبق له المجيء قبل أسابيع قلائل إلى تدمر لشراء شيء من القمح ، ومكث يومين فى منزل عبد الله ، وسبق له تعرف عبد الله باعتباره الرجل الذى كان مرافقًا للبك فى ذلك اليوم . هؤلاء العمرات كانوا يناقشون مسألة طريقة الهجوم على قافلتنا عندما ذهب إليهم ولفريد راكبًا فرسه ، ومسألة ذهاب ولفريد وحده إليهم جعلتهم يتخيلون أن قافلتنا قوية ، ولذلك قرروا أن يتركونا وشأننا . كان محمد ورجا صديقين فى ذلك الوقت ، كان رجا قد أهدى محمداً صقراً عند رحيله ، أما محمد فقد أهدى رجا كفنه . البدو يقدرون مسألة الأكفان هذه حق قدرها ، وكانت والدة محمد هى التى أعدت ذلك الكفن .

وصلنا بعد ذلك مباشرة إلى مخيم حقيقى من مخيمات الروالة ، أو بالأحرى مخيم من مخيمات عبيد الروالة . لم يكن أهل هذا المخيم من الزنوج ، على الرغم من بشرتهم شديدة السمرة . شرحوا لنا أنهم ينتمون إلى بنية ابن شعلان ، أحد أبناء عم صدام ، وكان شيخ القبيلة فى النفود فى ذلك الوقت . أعطونا شيئًا من حليب الإبل الطازج ، وكانت تلك المرة الأولى التى تذوقنا فيها حليب الإبل هذا العام . بدأنا النزول إلى وادٍ طويل ؛ هذا الوادى الطويل ينصف صحراء النفود ، كما تقع أبيار الشقيق فى هذا الوادى ؛ هناك أربعة أبيار شهيرة تعرف باسم الشقيق ؛ منها البئر التى نحن موجودون بجوارها حاليًا ، وبئران أخريان ، تبعدان عن هنا مسافة ثلاثة أو أربعة أميال ، وهى تنتشر فى سائر أنحاء الوادى . هذه الأبيار ، على حد علمنا عمقها واحد . أى حوالى مائتين وخمسة وعشرين قدماً ، ويبدو أن هذه الأبيار موجودة منذ زمن بعيد ، لأن البئر التى نحن أمامها مبطنة بأحجار جرى قطعها من الجبال ، كما أن حواف البئر متآكلة بفعل استعمال الحبال فى جلب الماء منذ زمن بعيد . ومع ذلك ، نرى هنا بكرة من الخشب ينزلق عليها الحبل ، وهذه وسيلة دائمة وثابتة لا تشيع فى الصحراء ، التى يجرى فيها نقل وتحريك كل ما هو قابل للنقل أو التحريك . هذا يعنى أن أى حبل

أو أى دلو لا تتهيأ له فرصة البقاء مدة أسبوع عند أية بئر من الأبيار . كان هناك جمل نافق بالقرب من البئر ، وكان هناك نسران وكلب يمارسون التعامل مع هذا الحيوان النافق ، لكننا لم نر شيئًا حيًا .

بينما كنا نتدبر أمر حبالنا ، وإمكانية الاستفادة من ربط الحبال التى لدينا كلها إلى بعضها البعض ، أملاً فى الوصول إلى سطح الماء فى البئر ، هلَّ علينا قطيع من الإبل التى كانت تفرد أعناقها وتسابق الريح ، ومن خلفها بعض الرجال الذين كانوا يركبون الذُّلل (الجمال) . ثبت أن هؤلاء الناس كانوا من أهل شعلان ، وقد فوجئنا وسعدنا أيضًا إلى حد بعيد ، عندما تعرَّفنا رجل كبير السن يدعى رشيد بوصفنا من معارفه القدامى . كنا قد التقينا ذلك الرجل فى مخيم الروالة فى العام السابق ، فى منطقة سيقل فى أقصى الشمال . قال الرجل ، إنه جاء إلى خيمتنا مع أبى جدَّيلى ، ونحن مازلنا نتذكر ذلك تمامًا . جميل أن يعثر الإنسان على أصدقاء فى هذا المكان ، وهذا بحد ذاته يوضح لنا المدى الذى تصل إليه القبائل فى تجوالها أثناء العام . سيقل تقع على بُعد حوالى خمسمائة ميل عن الشقيق ، فى اتجاه طيران الغراب . وعرض رشيد أن يجلب لنا ما نحتاجه من الماء ، لأنه معه حبل طويل ، وشربت الجماعة كلها القهوة وأكلت شيئًا من التمر . كان من بين أفراد الجماعة اثنان من أبناء بنية : هذان الولدان هما محمد وأسعد ؛ أكبر هذين الابنين شاب خجول فلاح الملامح ، أما الابن الأصغر ، الذى يبلغ من العمر تسعة أعوام فكان صبيًا لطيفًا . كلفنا بحمل رسالة تحية منا إلى والده . وبنية بن حنيفى بن شعلان هو شيخ بطن كبيرة من بطون قبيلة الروالة ، التى سمعنا فى العام الماضى أنها كانت تعيش فى نجد . بنيه بن حنيفى ليس على ود أو وفاق مع صدام بسبب فرس كميت أخذها صدام عنوة من بنية بن حنيفى ، قبل سنوات عدة . الأطفال هنا لم يشاهدوا طوال حياتهم أوروبيًا ، ولم يذهبوا إلى مسافة أبعد من وادى السرحان . ونحن يتحتم علينا القيام بزيارة بنية ، لكن خيام هذا الشيخ تبعد عنا أميالاً عدة على طريق غير طريقنا ، ونحن يتعين علينا الحرص ونحن نقطع النفود .

وضعت إحدى النياق بعيراً صغيراً بالقرب من البئر وذهبت لإلقاء نظرة على ذلك المخلوق الصغير الذى تركوه خلف أمه ، فى حين دفعوا باقى الإبل إلى حظيرتها . لاحظت أن ذلك المخلوق الصغير ليس له مكان عارٍ على ركبتيه مثل الإبل الكبيرة ، التى تظهر عليها هذه الأشياء بسبب البروك والنهوض . ساعدنا ذلك المخلوق الصغير على الوقوف ، وفى خلال ثلاث ساعات أصبح ذلك البعير الصغير قادراً على الجرى وراء أمه .

اليوم الخامس عشر من شهر يناير . صباح هذا اليوم ، وبينما كنت أنظر خارج الخيمة ، شاهدت هالة حول القمر ، وظننت أن المطر ربما يسقط ؛ لكن هذا الحظ والفأل الحسن لم يأتِ ، على الرغم من أن السماء كانت ملبدة بالغيوم ، وكان الطقس شديد الحرارة والرطوبة . بذلنا جهداً كبيراً كى نصحو فى وقت مبكر ، وردد محمد كلمة " يلا يلا " مرات كثيرة ، لكن بدون طائل ، نظراً لأن الرجال كانوا يحتفلون بعبورنا ومرورنا عبر النفود ، ذلك المرور الذى بدأ اليوم بداية جادة ، سبقناها بوليمة أخيرة ذبحنا فيها تيساً ، الأمر الذى جعلنا نتباطأ ونستشعر الوخم بعض الشىء . كان ولفريد قد ألقى عليهم خطبة قصيرة ليلة أمس ، وبَيّنَ فى هذه الخطبة الطابع الخطير لهذه الرحلة ، التى يصل طولها إلى حوالى مائة ميل من الأرض الرملية التى تعين علينا عبورها والمشى فيها ، كما بَيّنَ لهم أهمية الاقتصاد فى قوتنا حتى نستطيع الوصول إلى نهاية الرحلة . ونحن إذا ما بدأنا بداية طيبة قد نصل إلى جُبّة فى غضون خمسة أيام ، وأن هذه الأيام الخمسة قد تصبح ستة أو سبعة أيام . وإذا ما أخذنا برأى راضى وصدقناه ، نجد أن أية قافلة من القوافل ثقيلة الأحمال لم تستطع مطلقاً عبور النفود من هذه النقطة وإذا ما أصاب الإبل مكروه ، فلن نجد من يقدم لنا يد العون ، يزاد على ذلك أنه لا توجد أبيار بعد بئر الشقيق . وهنا تقرر أن يكون عبد الله هو شيخ الماء ، وأن يكون له حق إصدار الأوامر الخاصة بتوزيع الماء على شكل حصص كل مساء ، وألا يسمح لأحد بالشرب أثناء النهار . العرب يتصرفون تصرف الأطفال فيما يتعلق باللحم وشرب الماء ، لأنهم يأكلون ويشربون طول اليوم إذا ما

تهيأت لهم الفرصة ، ولا يبقون على شىء للغد . والارتجال فى مثل هذه الأحوال يمكن أن يؤدى إلى كارثة ، ونحن نرى أن عبد الله ومحمد تأثرا تمامًا بذلك الموقف . هذه المدقات الرملية العظيمة يكتنفها شىء من الغموض والمهابة ، وها نحن اليوم نبدأ مسيرتنا بطريقة منظمة .

أثبت راضى (الذى هو اسم على مسمى) أثبت لنا أنه مكسب كبير لنا ، إذ كان الرجل على استعداد لمدنا بكل المعلومات المطلوبة كلما سألناه ، ولم يكن الرجل ثرثارًا فى كلامه . راضى رجل صغير الحجم كبير السن ، وهو جاف وأسود سواد جذوع أشجار اليورتا yerta الميتة ، التى تقع عليها أبصارنا هنا فى هذا المكان ، والتى تشكل مصدرًا للحطب فى النفود . كان راضى يصحب معه دلوله (جمله) ، تلك الحقيبة القديمة من العظام ، الذى يبدو كأنه غير قادر على إكمال الرحلة ، والذى يركب راضى على ظهره منحنيًا وفى صمت ساعة بعد أخرى ويروح يشير، بين الحين والآخر ، بيده إلى الاتجاه الذى ينبغى أن نواصل السير فيه . راضى يحمل معه على جمله هونًا مصنوعًا من الحجر الرملى أحمر اللون ، جاء به من الجوف لواحد من أقارب ابن الرشيد . ويبدو أن هذا الهاون يوازن قربة الماء المعلقة على الجانب الآخر من جانبى الجمل . ومع ذلك ، نجد أن راضى يتكلم بين الحين والآخر ، وقد حكى لنا أكثر من قصة من القصص الشيقة عن أولئك الذين ماتوا هنا فى النفود ، فى أزمان سابقة . السائر فى النفود ، يرى عظامًا فى كل تجويف من التجاويف ؛ هذه العظام عبارة عن بقايا لإبل نافقة . راضى يقول : هذه هى بقايا " إبل الحُسَيِّن . وعندما كان أحد يسأل عن ماهية هؤلاء " الحُسَيِّن " ، كان الجميع يضحكون ، فى قاع فلج من هذه الأفلاج توجد عظام من نوع آخر . فقد مات فى ذلك الفلج غزو بكل رجاله وجماله . كان ذلك الغزو من الرواة الذين عبروا النفود ، استهدافًا للهجوم على الشَّمَّر ، ولم يستطع ذلك الغزو الوصول إلى بئر الشقيق وهو فى طريق العودة . كانت العظام بيضاء اللون ، لكن كانت هناك قطع من الجلد لا تزال متصلة بتلك العظام ، على الرغم من أن راضى قال لنا : إن ذلك حدث منذ عشر سنوات . أرانا راضى فى مكان

آخر ، كومتين من الخشب ، تبعدان عن بعضهما مسافة ثلاثين ياردة ، وتعدان علامة على ذلك الغزو الشَّمَّرى ، الذى كان يحاول رفع الحصار عن بعض الإبل فى وادى السرحان ، استطاع صاحبها ، شيخ السَّراحين ، استردادها ، وأن هذا الشيخ هو الذى رمى حربته فى هذه المسافة لتصيب عاقد الشَّمَّرى ، وتسفر عن الاستيلاء على فرسه ومتعلقاته كلها . كما أشار لنا راضى أيضًا إلى بقايا أربعين جمَّالاً من جمَّالة السويلمات ، ضلوا طريقهم ، وماتوا عطشًا .

كان الرمل ، على امتداد أميال عدة من مغادرتنا للبئر مغطى بآثار أقدام الإبل ؛ هذه إبل الروالة بلا أدنى شك ، وكنا نصادف بين الحين والآخر ، آثارًا لأقدام حصان من الخيل ، لكن كلما توغل الإنسان فى الجزيرة العربية ، يندر وجود الخيول . بعد هذه الأميال الأولى القليلة ، لم نعد نرى آثارًا للمخلوقات الحية اللهم باستثناء السحالى . اقتادنا راضى فى البداية إلى اتجاه الجنوب ، إلى أن وصل الرجل إلى خط من العلامات الأرضية التى لم نكن نراها نحن ، لكنه يعرفها حق المعرفة ، إذ كانت تمتد فى الاتجاه جنوب - جنوب شرق . راضى يطلق على هذه العلامات الأرضية اسم الطريق ، وقد يقول لهذه العلامات الأرضية أيضًا طريق أبو زيد ، وحكى لنا الأسطورة التالية عن هذا الطريق (لم يكن هناك أثر للطريق سوى ذلك الأثر الذى يمكن أن يتبقى على سطح الماء فى البحر) . يقول راضى ، إن مجاعة حدثت فى نجد منذ سنوات عدة ، وأصبح بنو هلال بلا خبز بسبب هذه المجاعة . وهنا ، تحدث أبو زيد ، شيخ القبيلة ، إلى قريبيه مرى ويونس ، وقال لهما : " هيا بنا نتجه صوب الغرب ، ونبحث عن مرعى جديد لأهلنا " ، وسافر ثلاثتهم إلى أن وصلوا إلى تونس الغرب ، التى كان يحكمها فى ذلك الوقت أمير اسمه الزناتى ، ونظروا إلى الأرض وأعجبتهم ، وكانوا على وشك العودة إلى قبيلتهم بذلك الخبر ، فى الوقت الذى قام الزناتى فيه بإيداعهم السجن . كانت للزناتى فى ذلك الوقت بنت جميلة جداً ، تدعى صفيرى وعندما رأت صفيرى ، مرّى فى زنزانته ، وقعت فى حبه ، واقترحت عليه أن يتزوجها ، ووعدت بالمحافظة على حياته وحياة الآخرين . لكن مرّى لم يُعر صفيرى اهتمامًا ولم يوافق فى بداية الأمر .

وبقيت صفيرى مصرة على حبها ، وحاولت مساعدتهم ، وتوسطت عند والدها وطلبت منه راجية أن يبقى على حيواتهم . وهنا بدأ الزناتى يشعر بالقلق والحرج إزاء أسراه ، الذين عرف نبل أهلهم من ابنته ، وأصبح الزناتى حائراً فى كيفية التعامل معهم. وعندما أبلغتهم صفيرى بذلك ، اقترحوا عليها إطلاق سراح واحد منهم ، على أن يعود إلى موطنهم ثم يجىء ثانية ومعه فدية لرفاقه ، لكنهم فى أعماق قلوبهم صمموا على أن يتولى أبو زيد هذه المهمة ، وأنه يتعين عليه العودة ، لا بفدية ، وإنما بأهله كلهم إلى تونس ، وبذلك يتمكن من إطلاق سراحهما . وحملت صفيرى ذلك النبأ إلى والدها وقالت له : " اثنان من هؤلاء الثلاثة من أصل عريق ونبيل ، لكن ثالثهم عبد ، ولكنى لا أعرف من منهم هذا العبد . إذن أطلق سراح العبد واجعله يعود ومعه فدية لسادته ". قال الزناتى : " كيف لنا باكتشاف العبد من بينهم ، وكيف بتمييزه عن الاثنين الآخرين ؟ " وهنا قالت صفيرى يمكنك فعل ذلك بالطريقة التالية : " خذهم إلى مكان موحل ، حيث يوجد الماء ، واطلب منهم المشى فوق هذا الوحل . وسوف تكتشف من هو العبد بينهم ، لأن العبد هو الذى سيحرص على لملمة أطراف ثوبه ، أما النبلاء فسوف يتركون أطراف ثيابهم ليطالها الطين " . وافق والدها على ذلك ، وحدث ما توقعته صفيرى فقد جرى إحضار الرجال الثلاثة فى اليوم التالى من سجنهم ، وطلبوا منهم السير خلال مجرى عامر بالطين ، ولما كان أبو زيد قد حذرته صفيرى من ذلك من قبل ، فقد وضع عباءته على رأسه ، ورفع قميصه إلى وسطه ، فى حين مشى كل من مرّى ويونس فى الطين بلا حذر. وبذلك أطلق سراح أبو زيد وعاد إلى نجد ، وجمع الرجل أهله وناسه كلهم هناك، واقتادهم بعد ذلك عبر النفود من هذا الطريق نفسه ، سالكًا الطريق الذى شاهدناه بالفعل ، حتى يمكنهم من الوصول بسلام . ثم واصل أبو زيد مسيره بعد ذلك إلى تونس ، وقام بمحاصرة البلدة .

حاصر أبو زيد تونس مدة عام كامل ولم يستطع دخولها ، واستحال عليه الاستيلاء عليها وكل ذلك بفضل صفيرى التى كانت تخطط لنجاحه خارج المدينة . كانت صفيرى امرأة عاقلة . وكانت تعرف القراءة والكتابة ، وكانت على دراية بالسحر

وتفسير النبوءات . كانت هناك نبوءة خاصة بالزناتي ، وأنه سَيُقْتَلُ في إحدى المعارك ، وأن الذي سيقتله شخص يدعى ديب بن غانم ، أحد اللصوص في الصحراء المجاورة . هنا أعلمت صفيري أبا زيد بذلك ، وقام أبو زيد بضم ذلك الديب إلى قواته ، ثم أطلقه بعد ذلك لمواجهة الزناتي في مناسبة لاحقة من القتال . وجرى قتل الأمير بأيدي ذلك الديب .

وهنا أصبح أبو زيد أميراً على تونس وتزوج مرى من صفيرى .

هذه هي الرواية التي حكاها لنا راضي ، والتي لا يمكن تصديقها تمامًا في مسألة خيانة صفيرى لوالدها . وفيما يتعلق بعلامات الطريق الأرضية ، يستحيل القطع بوجود الطريق " ليكون شاهداً على كذب هذا الرجل " . سواء أكان أم لم يكن هناك طريق ، فقد رحنا نتجول هنا وهناك في طريق ملتو ، طول النهار ، في بعض الأحيان كنا نصعد منحدرات ، وفي أحيان أُخر كنا نمشي على شكل دائرة طويلة كيما نتحاشى فلجًا من الأفلاج ، وكنا في أحيان ثالثة ودون سبب محدد نجد أنفسنا نسير فوق سطح الرمال الغائرة . كنا نجد الأرض أكثر تكسيراً وتفككًا عن ذي قبل ، وكنا نجد أيضًا أن الفلج يكون أكبر من سابقه ، مما كان يزيد من مشاق سيرنا . لكن الخيل والإبل كانت تبلى بلاءً حسنًا . الأمر الذي جعلنا نقطع اليوم مسافة تزيد على واحدٍ وعشرين ميلاً . على الرغم من أن مخيمنا كان في واحد من الأفلاج ، فقد كنا على ارتفاع حوالي خمسمائة وستين قدمًا عن مستوى أبيار الشقيق .

اليوم السادس عشر من شهر يناير . هبت عاصفة رعدية أثناء الليل حولت لون الرمل إلى اللون الأحمر القرمزي . وهذا هو راضي يهنئنا بهذه العاصفة الرعدية ، إذ يقول : إننا سنصل إلى جُبَّة بمشيئة الله ، يبدو أن الرجل كان يساوره شك في مسألة وصولنا إلى جُبَّة . لكن المطر الغزير أدى إلى تماسك الأرض ، الأمر الذي مكننا من مواصلة سيرنا بمعدل سرعة يصل إلى ذلك المعدل الذي نسير به في الأراضي الزلطية . وقد لاحظت أننا مع زيادة توغلنا في النفود ، كانت الأفلاج تتباعد عن بعضها البعض ، وتنخفض أيضًا سلاسل العبور الصخرية . وتتبدى لنا الأفلاج كأنها تسير على شكل

خيوط شديدة الانتظام . تمتد من الشرق إلى الغرب أو بالأحرى من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى . مسألة ملاحظة آثار أقدام الحيونات البرية أمر مهم ، وسبب ذلك أن آثار هذه الأقدام حديثة ، وواضحة لنا على الثلج المتساقط . أكثر هذه الآثار وضوحًا هى آثار أقدام الأرانب البرية ، التى تشبه أرانبنا الإنجليزية المستأنسة من حيث الحجم، واليوم طاردت كلاب الصيد تلك الأرانب ولم تمسك بأى منها ، وسبب ذلك أن أشجار الغاضة وأدغالها حجبت هذه الأرانب عن الكلاب . جرى بيننا سباق أو سباقان ، ولا نخشى خطر فقدان الطريق ، نظرًا لأننا يتعين علينا العودة سيرًا على الأقدام إلى القافلة . إلى جانب الأرانب البرية هناك أيضًا أنواع متعددة من الطيور الصغيرة ، الزّقيقيّات ، وهى من الطيور المغردة ، والغنيميات(*)، وقبّر الصحراء ، والأبلق الذى يسمونه أيضًا أبو بليق ، وكذلك الغربان فى بعض الأحيان . شاهدت أيضًا زوجًا من العواسق التى هى نوع من الصقور ؛ الزواحف هنا كثيرة العدد ، سطح الصحراء تكاد تغطيه آثار السحالى ، كما كنا نشاهد هنا وهناك بعض آثار الثعابين . قتل رجالنا ثعبانين اليوم ، من النوع الذى يسميه الناس هنا السليمان ، والذى يشيع وجوده فى القسم الأكبر من الصحراء ؛ والسليمان ثعبان رفيع فضى اللون له رأس صغير ، ولا ضرر منه . الشمس الدافئة التى طلعت علينا بعد سقوط المطر هى التى أخرجت ثعابين السليمان من جحورها . كنا نسأل راضى عن الأنواع الخطيرة من الثعابين ، وراح يصف لنا وصفًا دقيقًا كلاً من الثعبان المقرّن وحية الكوبرا . وقد اندهشت عندما سمعت عن حية الكوبرا ، ولكن يستحيل علينا أن نخطىء وصف راضى لذلك الثعبان الذى يقف على ذيله ، وينفخ عنقه كما لو كانت أجنحة . وقال لنا راضى ، إن هذين النوعين من الثعابين لا يظهران إلا فى فصل الصيف . يبدو

(*) واحده غنيمة ، وقد يقال له الصعو ، وهو طائر صغير جداً . (المترجم)

أن الغزال لا وجود له هنا فى النفود ، لكننا عبرنا ، أو مررنا بآثار أقدام " البقر الوحشى (الوعل) . يؤكد لنا راضى أن الوعل (البقر الوحشى) لا يغادر النفود مطلقًا ولا يشرب الماء أبدًا . واقع الأمر أن الماء لا وجود له هنا على سطح الأرض ، هنا بالقرب من جبل أجا ع ، ولا بد أن يكون ذلك الحيوان قادرًا على الاستغناء عن الماء . كان أثر ذلك الحيوان ، بحجم الأثر الناتج عن غزالة حمراء مكتملة النمو . نحن نتطلع إلى رؤية الحيوان نفسه ، الذى يؤكدون لنا أنه بقرة حقيقية ، على الرغم من أن ذلك الكلام قد لا يكون صحيحًا تمامًا . كنا قد بحثنا أيضًا عن النعام لكننا لم نصل إلى نتيجة . وفيما يتعلق بالحشرات ، شاهدنا قلة قليلة من الذباب المنزلى ، كما شاهدنا أيضًا اليعاسيب(*) ، كما شاهدنا أيضًا بعض الفراشات الصغيرة . هناك نوع آخر من العشب من النفود ، وهذا النوع يجود فى داخل الصحراء ولا يجود على حوافها الخارجية ، وأعتقد أن ذلك راجع إلى عدم وجود الإبل داخل الصحراء .

اكتشفت أن راضى يتعرف مساره عن طريق العلامات الأرضية . والرجل ينزل من فوق جمله عند كل تل رملى مرتفع ، ويقوم بنزع بعض أغصان الغاضة، شديدة الهشاشة ، ويضيفها إلى أكوام الخشب التى قام بوضعها من قبل . هذه العلامات يمكن رؤيتها من مسافة بعيدة . نحن بدورنا ، تعلمنا من هذا الرجل كيف نتبين معالم طريق من الطرق ، وبخاصة تلك الطرق المتقطعة ، التى يجرى تعليمها بروث الإبل ، التى تكون فى بعض الأحيان على جانب منحدر شديد ، حيث توجد آثار واضحة لطريق يرتاده البشر . مرشدنا يتحسس طريقه ويستشعره على طول هذا الخط ، بأن يلقى نظرة هنا ونظرة هناك ، مثلما تفعل الكلاب عندما تفقد الرائحة التى تتشممها . لا أحد من كل هؤلاء الذين يرافقوننا ، ولا حتى راضى أو محمد يعرفون كيف يسلكون طريقهم عن طريق الشمس ، وعندما سأل ولفريد محمد عما إذا كان يستطيع شق

(*) واحده يعسوب ، هو نوع من الحشرات . (المترجم)

طريقه عائداً إلى بئر الشقيق رد عليه قائلاً : " كيف لى بفعل ذلك ؟ كل تل من هذه التلال الرملية شبيه بآخر تل وصلنا إليه" .

أتحفنا راضى بالمزيد من قصص الدم وقصص العظام ، وكانت أبشع تلك القصص ، تلك القصة التى رواها راضى عن بعض الجنود الأتراك(*) ، الذين جرى التخلى عنهم ، منذ سنوات مضت ، عن طريق الخيانة فى صحراء النفود . هؤلاء الجنود كانوا قد احتلوا حائل ، فى زمن ابن الرشيد ، وجرى ترك هؤلاء الجنود فى حائل ليكونوا بمثابة حامية فى ذلك البلد . لكن السلطان لم يستطع الاتصال بهؤلاء الجنود ولم يستطع نسيانهم ، لكنهم بعد فترة محددة أعربوا عن رغباتهم فى العودة إلى وطنهم . توفى الكثيرون من هؤلاء الجنود فى حائل ، أما البقية التى تبقت منهم ، وكانت تقدر بحوالى خمسمائة جندى ، فقد قرروا العودة إلى دمشق فى حراسة عبيد ابن الرشيد ، شقيق الأمير ، الذى كان قد قرر إعدامهم والقضاء عليهم . غادروا حائل على ظهور الخيل ، وتبعوا مرشديهم من الشمر إلى هذا المكان ، هؤلاء المرشدون الشمريون ، كانوا كلما سألهم الجنود عن الأبيار أجابوهم بأنها على بُعد مسافة قصيرة . وتخلى البدو عنهم فى نهاية الأمر . يبدو أن هؤلاء الجنود كانوا شجعانًا ، لأن آخر ما سمعه الناس عن هؤلاء الجنود ، عبارة عن أغنية جماعية كانوا يرددونها وهم يواصلون مقاومتهم للعطش . تقول كلمات هذه الأغنية أو الأنشودة : " نحن عسكر ما نحن عطشى ، نحن عسكر ما بنريد ماء . لكن عند ظهر ذلك اليوم ، لابد أن تكون شجاعتهم قد خانتهم ، وألقوا بأنفسهم تحت بعض الأدغال للحصول على شىء من الظل ، وهكذا جرى العثور عليهم فيما بعد مبعثرين فى الأفلاج المختلفة . استطاعت بعض خيول هؤلاء الجنود العودة إلى بلدة جُبَّة ، وأصبحت ملكًا لكل من استطاع الإمساك بها . بيعت تلك الخيول بواسطة من أمسكوا بها ، لقاء بعض الأغنام أو الماعز لكل حصان من الخيول . إنها حكاية مؤسفة .

(*) الواقع أن هؤلاء الجنود الأتراك كانوا هم المصريون ، جنود جيش إبراهيم باشا الذين خلفهم وراءه فى عنيزة .

عند الساعة العاشرة والنصف ، تراءت لنا فجأة قمم العالم ؛ قمم العالم هذه عبارة عن صخرتين مخروطتين تبرزان من وسط الرمل ، وتشكلان علامة أرضية للمسافرين المتجهين إلى جُبَّة . كان غوثًا كبيرًا لنا أن نرى هاتين القمتين ، نظرًا لأننا كنا قد بدأنا نفقد ثقتنا بحكمة مرشدنا ، في ضوء الخط الوعر المتعرج الذى سلكناه ، وهنا أدركنا أن القسم الأسوأ من الرحلة قد انتهى ، وإذا ما دعت الحاجة واضطررنا إلى ذلك ، فإننا سيكون بوسعنا شق طريقنا عبر النصف الآخر من النفود ، مع أمل كبير فى نجاحنا فى القيام بذلك . تركنا إبلنا خلفنا ، كى تتبعنا ، واتجهنا صوب التلال ونحن على ظهور الخيل . واستغرق وصولنا إلى تلك التلال ساعات عدة ، لكننا عند الساعة الثالثة كنا نلامس تلك التلال فعلاً . كنا نبدو مثل الذين ضاعوا فى البحر ، وعثروا على جزيرة صحراوية .

كان لابد من الانتظار بعض الشيء حتى تلحق بنا القافلة التى كانت تسير ببطء . بقيت مع الفرسين ، ورحت أراعى الحذر فى الوقت الذى صعد ولفريد إلى قمة صخرة صغيرة . تعجب ولفريد قائلاً : " ياله من مكان صالح للدفن ، لابد أن جبل نيبو **Nebo** كان من هذا القبيل " . لكن الناس الذين يموتون فى النفود يندر أن يكون هناك من يقوم بدفنهم . وعندما راح ولفريد يدور حول كومة الأحجار السائبة القريبة من قمة التل ، انشرح صدره عندما وجد فراشة ، كانت تقف فى ضوء الشمس فى مكان أمين . إذ لم تكن هناك حياة نباتية قريبة لتلك الفراشة إلا فى (الخليل) ، فذلك يعنى أن هذه الحشرة الصغيرة قطعت مسافة أربعمائة ميل فى أضعف الأحوال . ويبدو أن الفراشة هنا سعيدة بهذه الشمس . كانت الصخرة الصغيرة ، أو بالأحرى التل الصخرى أعلى بحوالى مائة قدم من مستوى السهل ، وكانت تبرز من وسط السهل وعارية تمامًا من أى شيء مثلما هو الحال مع أى صخرة من الصخور التى تبرز من البحر . كشف البارومتر الموجود على قمة الصخرة أننا كنا على ارتفاع ٣٢٢٠ قدمًا. أما صخرة العالم الثانية فربما كان ارتفاعها ثلاثة أضعاف ارتفاع هذه الصخرة الأولى .

يقول راضى ، إن العالم هو شيخ النفود ، وإن التل الصغير هو ولده . وعلى بُعد مسافة أميال فى الشمال الشرقى ، توجد مجموعة من تلال الرمل الأبيض هى " حريم العالم " . صخور العالم ، هى صخور من الحجر الرملى اسودت بفعل الطقس ولم تكن من الجرانيت كما كنا نتوقع ، وهذه المادة هى التى تكونت منها الرمال الحمراء على مر السنين . هذه القمم ليست من الصخور الصلبة وإنما هى تشبه أكواماً من الحجارة . على قمة صخرة من هاتين الصخرتين ، التى تسلقها ولفريد كان هناك لوح صغير يحمل بقايا بعض الأحرف القديمة ، المحفورة على الحجر ، وهذه الأحرف من نفس نوعية الأحرف التى شاهدناها فى سيناء أو بالأحرى فى وادى المقطّب كان المنظر رائعًا من وجهة نظر ولفريد ، لكنه كان يستحيل رسمه أو حتى محاولة رسمه . هنا فى هذا المكان يستطيع المرء أن يرى كل ملامح وسمات النفود العامة كما لو كانت مرسومة على خارطة من الخرائط ، يمكن هنا أيضًا الوقوف على تجانس بحر الرمال الذى تنتشر فيه الأفلاج على شكل خطوط طويلة ، صخرة العالم نفسها تقف فى منتصف كل هذه المعالم كما لو كانت صخرة تبرز من وسط بحر سطحه مغطى بالزَّبد .

نحن الآن نخيم فى مكان يقع خلف العالم بحوالى ميلين . وها أنا قد ملأت زجاجة بالرمل لأصنع به ساعة زجاجية فى بلدى .

اليوم السابع عشر من شهر يناير . صقيع أبيض ، تعلق البعض منه بالخيام ، وحملناه معنا طول النهار .

غريب حقًا ، أننا بعد أن تجاوزنا صخرة العالم تغير الغطاء النباتى . إلى أن وصلنا إلى العالم كانت أشجار الغاضة هى السائدة فى المكان كله ، وهى صاحبة النصيب الأوفر من هذا الغطاء النباتى ، ولم يكن يخطر ببالى أن هذا الغطاء النباتى يمكن أن يتغير بمثل هذه السرعة ، ولكن هذا هو ما حدث بالفعل . نحن لا نرى أى أثر لأشجار الغاضة ولا وجود لها فى المكان الذى نحن فيه حاليًا ، لكن أشجار اليرتا هى التى تحل محل الغاضة هنا ، علمًا بأن أشجار اليرتا كانت نادرة فى الأماكن السابقة لهذا المكان . ويبدو أن مسألة تعليل هذا تعد أمراًمستحيلاً ، وسبب ذلك أنه لا يوجد

تغيير مادى فى المستوى ، كما أنه ليس هناك أى تغيير فى طبيعة التربة . كانت الأدغال التى خيمنا بجوارها الليلة الماضية آخر الأشياء التى رأيناها فى اتجاه الجنوب . ونحن جد آسفين أننا غادرنا تلك الأدغال ، إذ من المعروف أن حطب الغاضة هو أحسن أنواع الحطب فى العالم كله . ومعروف أن الفحم النباتى الذى يصنع من أخشاب شجر الغاضة ، والذى نراه هنا وهناك فى سائر أنحاء المخيمات ، هو الأحسن من بين أنواع الفحم المستخدمة فى الرسم . حطب اليرتا أقل بكثير من حطب الغاضة من حيث الجودة . على الجانب الآخر ، هناك كميات كبيرة من ذلك العشب الذى يسميه الناس هنا " النَّص"، وتأكله الإبل ، كما أن هناك عشبًا آخر يسمونه الحمَر ، وهو عبارة عن نبات يميل لونه إلى الابيضاض وفيه بعض الأشواك ، وتهيم به الخيول حبًا ، فى حين يظل نبات العدر ، الذى هو عبارة عن نبات أوراقه خضراء وخشنة الملمس ، وزهوره تميل إلى الاصفرار ، بمثابة النبات الأكثر شيوعًا فى هذه المنطقة . هذا هو الرمل قد جف مرة ثانية منذ الأمس ، ومع ازدياد حرارة النهار أصبح الرمل أكثر ثقلاً على الإبل . وهذا هو الجهد الناجم عن التعامل مع السطح السائب قد بدأ ينعكس على الإبل ، يزاد على ذلك أن السواد الأعظم من رجالنا تحركوا سيرًا على الأقدام ، وقد ضرب محمد مثلاً على ذلك . الجميع كانوا سعداء ومستبشرين على الرغم من العمل الجاد ، وقد بذل الجميع قصارى جهودهم وبذلوا قواهم كلها فى العدو والجرى والتلاعب بالرمل . وهذا هو ولفريد ، الذى يتدرب على ذلك ، لا يستطيع مجاراة الرجال فيما يفعلون ، أما أنا فكنت أمشى بطريقة سيئة للغاية ، نظرًا لأننى كنت مازلت أعرج بسبب الإصابة التى لحقت بقدمى ؛ ونحن بدورنا ، أنا وزوجى ، كنا نحس بأننا مضطرون إلى المشى فى بعض الأوقات ، وذلك من باب الرحمة على خيولنا . وهذا هو إبراهيم الطويل (بالمقارنة مع إبراهيم القصير) ، الذى أصبح أضحوكة للجماعة ، ويجرى إرساله لجلب الماء من الأفلاج ، كما يجرى إرساله أيضًا إلى قمم التلال الرملية ، كيما يرى الجبال الخيالية ، هذا الإبراهيم أثبت اليوم أنه أشجع الشجعان . وعلى الرغم من أن إبراهيم مسيحى فقد أثبت أنه ندٌّ لأى مسلم من مسلمى الجماعة ، وقادر

على العطاء بقدر ما يأخذ فى اللُّعَب العنيفة التى يمارسها العرب من أجل الحفاظ على روحهم المعنوية . فى لحظة من اللحظات أمسك إبراهيم بعمود خيمة الخدم ، وهو عمود ثقيل جدًا ، وراح يتلاعب به مثلما يفعل أفراد سلاح النَّبُّوت (*)، مما جعلنى أظن أنه قد يحدث شىء من تكسير العظام . وهذا هو عبد الله ، يبادر، إذا ما كان هناك مكان يمكن تسلقه، ولكن بقية الأفراد يخشون ويخافون من تسلق مثل هذا المكان ، ويتسلق ذلك المكان ويقف على قمته إلى أن تلحق به بقية الركب. ونحن بدورنا نشجع هذا النوع من المرح لأنه يخفف من وطأة العمل .

الماء الذى نحمله معنا بدأ يتناقص فقد قمنا اليوم بتقسيم قربة ماء بين الفرسين وذلك على امتداد الأيام الفائتة ، لكن ذلك يخفف من أحمالنا . هذان هما اثنان من الإبل ، بدءا يتململان : أحدهما جمل حنا، الذى أبلى بلاء حسنًا ، نظرًا لأن حنا وإبراهيم كانا يتناوبان الركوب على ظهره ، والمعروف أن تبريك الجمل وجعله ينهض مرات عدة يتعبه أكثر مما لو كان يحمل حملاً ثقيلاً ؛ أما الجمل الثانى فهو ذلك الدلول الجميل الذى اشتريناه فى مزارب. هذا الجمل الأخير ، يبدو أنه من الإبل الضعيفة على الرغم من شكله الجميل. أرجل هذا الجمل أطول قليلاً من المعتاد ، كما أن عنقه أقصر قليلاً أيضًا من المعتاد ، وهذان مؤشران من مؤشرات قلة القدرة على التحمل ، يزاد على ذلك أن هذا الجمل الجميل لم يبلغ من العمر سوى ثلاث سنوات ، ولم يصب بعد بحمى الحيوانات ، على حد قول عبد الله . هذا يعنى أن الجمل لا يمكن الاعتماد عليه تمامًا قبل الإصابة بهذا النوع من الحمى . وهذا هو أيضًا ذلك الجمل كئيب المنظر الذى يسمونه شنوان يبدو مكتئبًا هو الآخر . المؤكد أن هذا الجمل مصاب بالجرب ، وليتنا شدّدنا على هذه النقطة يوم أن اشترينا ذلك الجمل من دمشق ، لكن هذا يوم لا ينفع فيه الندم . بقية الإبل ، ما تزال على ما يرام ، على الرغم من هذه الرحلة

(*) النَّبوت : سلاح إنجليزى قديم هو عبارة عن عمود ضخم (ما بين ٦ أقدام و ٨ أقدام) فى رأسه قطعة من حديد . (المترجم)

الطويلة ، ونقص المراعى الغضة، التى تحتاج الإبل إليها فى هذا الوقت من العام . لم يظهر أى شىء أخضر فى الأرض إلى الآن ، اللهم باستثناء نبات صغير الحجم شبيه بنبات النيموفيلا nemophila؛ الذى ينتج زهوراً أرجوانية اللون ، وهى على وشك الظهور على سطح الرمل . العشب الأخضر الغض لا وجود له ، ومحصول العام الماضى ابيضّ لونه وذوى عوده ، وليس فيه أية علامة من علامات الحياة .

التقينا اليوم رجلاً من الروالة ، كان يسير وحيداً ومعه اثنا عشر جملاً ، تتراوح أعمارها بين عام وعامين ، كان قد اشتراها من الشَّمَّر وكان يقتادها عائداً معها إلى محل إقامته . دفع الرجل ثمنًا يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين مجيديًا للجمل الواحد ، لكنها كانت حيوانات صغيرة مشاغبة . الإبل النجدية تكاد تكون سوداء ، وهى أدنى وأقل من إبل الشمال من حيث الحجم والقوة . عندما لحقنا بذلك الرجل ، حسبناه عدواً فى بداية الأمر ، نظراً لأن الناس هنا يحتمل أن يكونوا كذلك ، وهنا اندفع عواد اندفاعًا شجاعًا فى اتجاه ذلك الرجل وهو يحمل بندقيته ، وراح يخيف الرجل ويرعبه بصوته المخيف ، ويطلب منه تعريف نفسه . كان الرجل أعزل ولا خوف منه إطلاقًا ، وقد أمضى ثلاثة ليالى فى النفود وحيداً . وكان مع الرجل قربة ماء وقربة أخرى مليئة بالتمر ، وكان متجهًا صوب الشقيق ، وحيداً بلا معين .

عند الساعة الثالثة والنصف (ونحن على ارتفاع ٣٠٤٠ قدماً) بدأ يطالعنا منظر تلال جُبَّة ، ومن النقطة نفسها أمكننا مشاهدة صخور العالم . وجاءت هذه الفرصة مواتية لنا كى نصحح بعض معارفنا ، وعليه توخينا الطريق أو الاتجاه المبين على البوصلة ، وجعلنا مسارنا يتخذ اتجاه الجنوب الشرقى .

اليوم بدأ المسلمون يؤدون الصلوات وللمرة الأولى منذ بداية الرحلة : ربما كان الغموض الذى يلف النفود ، أو الشك الذى يدور حول إمكانية الوصول إلى جُبَّة هما اللذان جعلا المسلمين يأخذون الأمر مأخذ الجد ؛ وربما أيضًا كانوا يتمرّنون استعداداً لنجد التى يسودها المذهب الوهابى وأن الصلاة هى الطابع العام. وأيًا كانت الأسباب ، هذا هو محمد فوق قمة تل رملى ، يركع ويسجد فى اتجاه مكة ، بشغف

واهتمام كاملين ، وهذا هو عواد يؤدى الصلاة بطريقة مؤثرة للغاية ، رافعًا صوته إلى حد الغناء .

وهذا هو راضى يقول لنا ونحن جلوس حول نار المخيم أثناء الليل ، إن النفود تمتد مسير رحلة طولها اثنا عشر يومًا فى اتجاه الغرب . وعند حافة النفود الغربية تقع واحة تيماء ؛ وهى واحة مثل واحة الجوف ، يوجد فيها بئر جميلة ، هى أحسن أبيار الجزيرة العربية كلها . سألنا راضى عن العواصف الرملية وهل أدت العواصف إلى دفن بعض القوافل، وأجابنا الرجل بالنفى . ذلك أن الرمل لا يمكن مطلقًا أن يدفن أى جسم على عمق بعيد ، وهذا من واقع عظام وروث الإبل الذى يبقى على عمق مسافة صغيرة جداً بالقرب من سطح الأرض . والخطر الوحيد الذى ينجم عن هذه العواصف الرملية يتمثل فى أن مثل هذه العاصفة قد تدوم وقتًا طويلاً يؤدى إلى نفاد الماء الذى تحمله القافلة ، نظراً لأن القافلة لا تستطيع مواصلة السير إذا ما كانت العاصفة الرملية شديدة . ريح السموم التى يحكى عنها الرحالة ، لم يسمع راضى عنها مطلقًا ، على الرغم من أنه كان يقطع النفود ذهابًا وإيابًا على امتداد أربعين عامًا . ومع ذلك ، نجد عبد الله يقول : إنه سمع عن ريح السموم فى تدمر ، بوصفها شيئًا يحدث بين الحين والآخر . لكن أحداً منهما لم يخبر هذه الريح .

اليوم الثامن عشر من شهر يناير . ليلة هادئة فيها شىء قليل من الضباب الخفيف ، وسقوط بعض البرد والصقيع فى فترة الصباح .

يبدو أن الشمَّر أرسلوا فى الليل كاشفًا ، أو إن شئت فقل : جاسوسًا للتجسس على مخيمنا . لقد شاهدونا فى فترة العصر ، وبالتالى تسلل ذلك الجاسوس إلينا فى الظلام ليكتشف هويتنا أو من نكون . ظن الجاسوس فى بداية الأمر أننا غزو ، لكنه تعرف على صوت راضى فى نهاية المطاف ، وعرف أننا لابد أن نكون رحالة قاصدين ابن الرشيد . وجاء إلينا ذلك الجاسوس فى الصباح ليبلغنا بذلك ، كما قال لنا أيضًا : إنه فى بعثة لاكتشاف العشب فى النفود . وقد بدا الخوف على ذلك الكشاف ، وأكد لنا الرجل أكثر من مرة أن محمد بن الرشيد سيسعد جداً بلقائنا .

هذا يوم عصيب آخر بالنسبة للإبل ؛ هذا هو الجمل شنوان أصيب بكسر وأصبح عاجزاً عن حمل الأحمال ؛ وهذا هو حنا ، شأنه شأن بقية الرجال ، تعين عليه السير على قدميه مثلهم ، نظراً لأن دلوله هو الآخر بدأ يستسلم . هذا هو الرمل يزداد عمقاً على عمقه ، وعلى الرغم من أننا مشغولون بأعمالنا من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، إلا أننا مازلنا نبعد مسافة خمسة عشر ميلاً عن جُبَّة . ولولا التلال التى نراها أمامنا بين الحين والآخر لكنا قد صعدنا إلى عرف الموجة ، ولكن ذلك يمكن أن يكون عملاً ميئوساً منه وبلا طائل . الكل هنا جادون ومتحمسون هذه الليلة .

الأحد ، المصادف لليوم التاسع عشر من شهر يناير . يوم مرعب للإنسان وللإبل . هذا هو دلول (جمل) حنا ، الذى يسمونه شنوان ، هو والجمل الطويل الآخر ، الذى يدعونه : " عمود " ، رفضا تناول العليق فى الليلة الماضية ، نظراً لأنهما كانا يشعران بالعطش على نحو منعهما من الطعام ، واليوم لا يقوى هذان الجملان على حمل حمليهما . وهذا هو شكران الذى يعد واحداً من أفضل المشاة ، بدأ يتخلف عن الركب ، يضاف إلى ذلك أن القافلة كلها أصبحت سرعتها لا تتعدى الميل الواحد فى الساعة . ولولا قوة الجمل هاذران ، - ذلك الجمل العملاق الذى يتقدم الموكب - الذى كومنا فوقه الحمولات الإضافية كلها ، لتعيّن علينا التخلى عن قسم كبير من ممتلكاتنا ؛ وبدا لنا فى لحظة من اللحظات ، كما لو كنا سنبقى إلى جوار بعضنا البعض فى النفود ، وبذلك نضيف إلى حكايات راضى المرعبة فصلاً جديداً . والآن وبعد أن هربنا من ذلك المصير ، تمكنا من الوصول إلى جُبَّة ، الأمر الذى جعلنا نستشعر وقوف الحظ إلى جانبنا . ولولا الطقس الترحالى المناسب طوال رحلة عبورنا للنفود ، ولولا الحظ غير العادى الذى ساق إلينا العاصفة الرعدية ، لولا كل ذلك لما كنا وصلنا إلى جبة . الرمل يشبه السجن عند الإبل المُتْعَبَة ، وفى الرمل تحتم علينا البقاء . واقع الأمر أن محمد ، وعبد الله وباقى أفراد القافلة تصرفوا جميعهم تصرف الأبطال ؛ وهذا هو حنا العجوز ، الذى تتدلى خصلات شعره الأشيب من تحت كوفيته ؛ والذى اشتعل رأسه شيباً بسبب الرحلة ؛ وهذه قدماه العاريتان ، إذ يستحيل على الرجل السير وهو لابس حذاء ، تدوسان بشجاعة مثل سائر الأشداء من أفراد الجماعة . الكل كانوا سعداء

ومبسوطين ولا يشتكون ، على الرغم من توقف أغانيهم وأناشيدهم المعتادة ، وعلى الرغم أيضاً من قلة كلامهم .

كان ولفريد وأنا الشخصين الوحيدين الراكبين من بين أفراد الجماعة كلهم باستثناء حنا ، الذى أجبره ولفريد ، من حين لآخر ، على ركوب فرسه ، وبالتالى كنا نحن الوحيدين المكتئبين من بين أفراد الجماعة . كنا نحس بالضيق لعجزنا عن القيام بعملنا ونحن سائران على أقدامنا مع بقية أفراد الجماعة ، وعلى الرغم من أننا كنا نغوص فى الرمال بين الحين والآخر ، إلى أن نضطر إلى الركوب مرة أخرى بعد أن تكاد أنفاسنا تنقطع ، وتخور قوانا. ولم يكن أحد منا نحن الثلاثة يستطيع مواصلة السير على أقدامه ؛ ولا يستطيع أى أوروبى مسايرة أى أحد من العرب ، أو حتى من عرب الحضر ، فى عملية المشى هذه .

استطعنا اليوم تبين خال أبو زيد (طريق أبو زيد) ، وبدأنا نتتبع هذا الطريق ، وبدأنا نعيد تفكيرنا فى مسألة أبى زيد وأنها لم تكن أسطورة أو حكاية . صحيح أنه كانت هناك تقطُّعات منتظمة فى ذلك الطريق فى بعض أجزائه ، لكننا مع ذلك استطعنا تبين الطريق واقتفاء أثره مسافة نصف ميل. ويؤكد راضى أن هناك طريقاً حجرياً أسفل الرمال ؛ هذه الأحجار جرى إحضارها من جبل الشمر ، وأخشى القول إن ذلك كان على حساب الإبل والرجال الذين قضوا فى ذلك العمل . لاحظت اليوم صقراً من الصقور الحوَّامة ، كما لاحظت أيضاً طائراً من طيور الصِّرد رمادية اللون ، كما لاحظت أيضاً ذئبين وهما يجريان على الطريق ، وقد تحققت من ذلك عن طريق آثار أقدامهما ، والخدوش التى أحدثاها فى الرمل .

كان مستوى النفود آخذاً فى الارتفاع طول اليوم ، وبحلول وقت الظهر كنا عند الساعة الواحدة على ارتفاع حوالى ٣٢٠٠ قدم فوق مستوى البحر . من هذه النقطة استطعنا الحصول على منظر كبير فى اتجاه الجنوب ، ولم نكن نرى قبل الآن سوى الرمل ، والرمل الذى يمتد إلى أميال عدة ؛ لكننا الآن نرى أمامنا مجموعة الجذر ، التى كنا نحاول الوصول إليها ، أقصد صخور جُبَّة . أقرب صخور جبة إلينا كانت تبعد

عنا مسافة ميلين . ولم نر أى شىء من الواحة ، لأنها كانت على الجانب الآخر من التلال ؛ لكننا استطعنا تبين فراغ خال من الرمال ، كان يشبه السَّبْخة ؛ ومن خلف هذه السبخة كانت هناك مجموعة من الصخور خيالية الشكل إذ كانت تبرز من وسط الرمال . كان المنظر شبيهاً بالمناظر التى ترتسم على المجلدات الكبيرة فى جبال الألب . فى الخلف ، كان هناك أيضًا خط من التلال المصطبغة باللون الأزرق الباهت . قال راضى: " هذا هو جبل شمر . هذه هى تلال نجد . " كانت هذه التلال هى التلال التى شاهدناها من بعد ، وجئنا إليها لنراها الآن رأى العين .

سرّعنا خطانا بغية الوصول إلى تلك الصخور ، ووصلناها عند الساعة الثالثة والنصف . كانت طبيعة هذه الصخور هى طبيعة صخور العالم ، أى أنها مكونة من الرمل والحجر الحديدى . فى هذا المكان رسم ولفريد خارطة فى حين رسمت أنا رسماً تخطيطيًا لتلك الصخور ، ورحنا ننتظر وصول الإبل ؛ كان منظر الإبل عبارة عن خيط ، ونحن ننظر إليها من علٍ ، من فوق التلة الصخرية ، وهى تصعد من الأسفل إلى أعلى كان الجمل شنوان والجمل عمود لا يحملان سوى عدتيهما (سرجيهما) ، أما الدلول الأسود المسكين ، فكان غير قادر على المشى ، ومتخلفًا مسافة خمسين ياردة عن الركب ، فى حين كان عبد الله يستحثه على المشى بسرعة . كان ما يزال أمامنا بضعة أميال قبل أن نصل إلى جبة ، لكن هذه الأميال فى أرض صلبة منحدرة نحو الأسفل ؛ واقترح محمد علينا أن نركب جميعاً دوابنا ونواصل المسير بغية تجهيز مكان للإبل فى القرية . وبينما كنا نسير فى طريقنا شاهدنا ذلك الذى حسبناه سحابة من الدخان كانت تتحرك من الغرب إلى الشرق ، وكان ذيل تلك السحابة يمر من فوقنا . هذا الذى حسبناه سحابة تظللنا كان عبارة عن سرب من الجراد فى المرحلة الحمراء من دورة حياته ، وهذه هى المرحلة من حياة الجراد التى يفضل الناس هنا أكله خلالها ، لكننا لم نهتم بالتوقف لجمع الجراد ، وآثرنا المضى قدمًا فى طريقنا . كانت الشمس قد غربت عندما وصلنا إلى طلائع قرية جبة ، سالتى كانت تقع فى الأسفل على حافة السبخة ، فى حين كان نخيلها داكن الخضرة يقطِّع الزّرقة الشاحبة لتلك البحيرة

الجافة ، ومن خلف هذه البحيرة الجافة ، كانت هناك مجموعة من الصخور الحمراء التى تبرز مرتفعة من بين النفود وردية اللون ؛ فى مقدمة هذا المنظر كنا نرى الرمل الأصفر الذى تتخلله أشجار الأثل ؛ تجلى لنا هذا المنظر رائعًا ، وجميلاً بصورة لا يمكن وصفها ، عندما بدأت أضواء المساء تنعكس عليه .

الفصل التاسع

" مضوا إلى أن وصلوا إلى الجبال التى تسر الناظرين ، تلك الجبال المملوكة لرب ذلك التل الذى تحدثنا عنه " .

عن رواية طريق الحج

جُبَّة – حلم مفزع – حكايات غريبة عن حاشد – التخييم فى النفود – ليلة أخيرة هناك – ضوء قوس قزح(*) – دخول نجد – سلسلة جبل شمر الجرانيتية .

جُبَّة ، واحدة من أغرب أماكن الدنيا كلها ، وانا أرى أنها أجمل أماكن الدنيا . اسمها جُبَّة ، بضم الجيم وتشديد الباء وفتحها ، أو قد يقال لها جُبِّة بضم الجيم وتشديد الباء وكسرها ؛ ومعناها البئر(**) " . وعليه نجد أن معنى الاسم يفسر لنا موقع هذا المكان ، الذى يقع فى حفرة فى النفود ؛ جبة لا تقع فى فلج بطبيعة الحال ، نظراً لأن الحوض الذى تقع فيه جبة له مستوى آخر مختلف تماماً ، ولا يشترك فى أى شىء مع منخفضات حدوة الفرس التى سبق وصفها . جبة ، فريدة بكل المقاييس ويصعب تعليلها جيولوجياً مثل الأفلاج تماماً . جبة ، أرض جرداء وسط بحر من الرمال ينخفض عن مستواها المعتاد بما يتردد بين أربعمائة وخمسمائة قدم ، أما عرضها فيصل إلى حوالى ثلاثة أميال ؛ جبة ، هى ، فى واقع الأمر ، تجويف لا يختلف

(*) ضوء قوس قزح : وهج منتشر فى السماء يرى فى الغرب بعد المغيب ، ويرى فى الشرق قبل الشروق . (المترجم)

(**) الجُب : كلمة عربية فصيحة بمعنى " البئر " وهذا يذكرنا بقصة سيدنا يوسف وحكاية الجب . (المترجم)

عن تجويف الجوف ، لكن النفود تحيط بهذا التجويف بدلاً من صخور الحجر الرملى . الواضح أن جبة كانت بحيرة فى يوم من الأيام ، وسبب ذلك أن هناك علامات مائية على الصخور التى تبرز من حوض جبة فى المنطقة التى فوق البلدة مباشرة ؛ أغرب من ذلك أن هناك موروثًا موجوًاد إلى يومنا هذا يدل على وجود الماء من قبل فى هذا المكان . ترى ما تلك القوة التى تعزل النفود وتمنعها من التعدى على هذه الحفرة ؟ والمرء عندما ينظر عبر السبخة أو حوض البحيرة الجاف ، تبدو له النفود كأنها جدار من الماء يهدد هذه الحفرة ، ومع ذلك لا يسقط الرمل نازلاً إلى هذا التجويف ، بل إنه يحافظ على حدوده حفاظًا دقيقًا .

البلدة نفسها (أو بالأحرى القرية لأن عدد منازلها ثمانون منزلاً فقط) مقامة على حافة السبخة ، أى على ارتفاع ٢٣٦٠ قدمًا فوق مستوى سطح البحر ، وفيها بساتين النخيل نفسها التى شاهدناها فى الجوف ، لكن على نطاق صغير جدًا . والأبيار التى تروى منها هذه البساتين يصل عمق الواحد منها خمسة وسبعين قدمًا ، وهى معمولة بالطريقة السائدة فى الجزيرة العربية كلها ، ويجرى جلب الماء منها باستخدام الإبل . القرية مشهودة المنظر ، بجدرانها الصغيرة المفرَّجه وبساتينها . عند مدخل القرية توجد حوالى ست أشجار جميلة من أشجار الأثل العتيقة بسيقانها المعقدة ذات الأفرع غزيرة الأوراق . الصخور المشرفة على القرية رائعة الجمال لأنها من الحجر الرملى وردى اللون ، المقلَّم والمُعرَّف باللون الأصفر ، وتغطيه قشرة سطحية سوداء اللون . هذه الصخور يتردد ارتفاعها بين سبعمائة وثمانمائة قدم ، وقواعد هذه الصخور عليها آثار علامات مائية قديمة . وقد عثر ولفريد على العديد من هذه النقوش بالأحرف السيناوية Sinaitic على هذه الصخور . هذه التلال تشكل ظهيرًا لجبة ، ويدخل ضمن هذا الظهير أيضًا حزام من الرمل الأصفر ، شبيه بالكثبان الرملية التى فى عثرى ، التى يوجد فيها حاليًا أدغال من نبات العدر شديد الخضرة مكتمل الأوراق . خلف السبخة أرى صخور الغوطة وهى تبرز من وسط النفود لتذكرنى بجلمود أليتش Aletsch، عندما يراه الرائى من طريق سمبلون Simplon .

نكتفى بهذا القدر من وصفنا لقرية جبة من الخارج . جبة ، من الداخل ، أقل سحراً وجاذبية . منازل القرية شديدة البؤس ، ولا يعتنى السكان بها مثلما يفعل أهل كاف وأهل عثرى في منازلهم . يصعب على القول إن هذه المنازل وسخة ، نظراً لأن الوساخة فى هذه المنطقة الرملية تكاد تكون أمراً مستحيلاً . من بين مزايا النفود أن الحشرات الضارة بالصحة لا وجود لها فيها . هذا يعنى أن النفود هى ونجد الواقعة خلفها خاليتان من تلك المخلوقات التى تحول الحياة إلى جحيم فى مناطق أخرى من الشرق . زد على ذلك أن البراغيث التى كانت فى شعر كلاب الصيد ماتت فور دخول هذه الكلاب دائرة الرمال الحمراء السحرية . لكن جبة بوسعها أن تصبح وسخة إذا ما أرادت هى ذلك لنفسها ؛ يضاف إلى ذلك أن سكان جبة هم أقل الناس معرفة أو تمسكاً بسلوكيات العرب التى لمسناها فى نجد . واقع الأمر أن أهل جُبَّة فقراء تماماً وليس بينهم وبين العالم الخارجى أى شكل من أشكال الاتصال أو العلاقات ، لكن يستثنى من ذلك توقف تلك القلة القليلة من الرحالة عندما يتنقلون بين حائل والجوف ويمضون ليلة بين أهل هذه القرية . أثناء مرورنا عبر جبة علمنا أن شيخها توفى منذ فترة قصيرة ، وأن من يشغل منصبه حالياً رجل يبلغ من العمر اثنين أو ثلاثة وعشرين عاماً ، ولم تكن له سلطة على رفاقه الشباب الذين كانوا يشكلون مجموعة صخابة لا نفع فيها . ابن الرشيد ليس له نائب معين فى قرية جبة ، يزاد على ذلك أن الشيخ نايف الشاب لم يكن يحصل على أى دعم أو مساندة من أى ممثل من ممثلى الحكومة المركزية ، حتى وإن كان من رجال الشرطة . ترتب على ذلك ، أننا على الرغم من استقبال الشيخ نايف لنا استقبالاً طيباً وكريماً ، فقد كنا نحس مضايقة أصدقائه لنا إلى حد بعيد وبدأنا نشعر بالقلق إلى حد ما . وأنا أورد هذا هنا ليكون مثالاً على عدم التحضر فى بلد يعد الأدب فيه هو القاعدة وليس الاستثناء .

مسألة الاحتفاء بنا فى منزل الشيخ نايف ليست بحاجة إلى التركيز عليها ، لأنها لا تختلف تماماً عن الاحتفاءات التى سبق أن لقيناها فى أماكن أخرى . كانت تلك

العزيمة حافلة بشرب القهوة ، وعامرة بقدر كبير من الحديث والحوار . والإنسان حيثما ذهب فى الجزيرة العربية ما عليه إلا أن يدخل أى منزل من المنازل وسوف يجد نفسه مكْرمًا . والقهوة تظل مفتوحة طوال اليوم ، والضيف الذى يدخل القهوة يصبح رمزًا على أمرين : شرب القهوة والحديث والحوار ، وهذان هما الشكلان الوحيدان من أشكال الضيافة التى يعرفها العرب . ويجرى شب النار فى الحال ، ويجرى صب القهوة وتوزيعها فى الفناجين على الحاضرين . وهنا يجب أن أروى حادثة من الأحداث العجيبة النى وقعت لنا أثناء مقامنا فى جُبَّة .

راح محمد على امتداد أيام عدة قبل وصولنا إلى جبة ، وهو الذى لم يكن يعبأ بأخطار الطريق ، راح الرجل يكشف عن نوع من القلق وعدم الارتياح عندما كان الأمر يتطرق إلى لقاء العرب على قارعة الطريق أو التعرف إلى أناس جديدين عليه . وقد حال محمد مرارًا بيننا وبين البحث عن خيام جديدة فى المنطقة المحيطة بنا ؛ وعندما التقينا الرجل الوحيد الذى كان يقتاد الإبل ، والرجل الذى أسميناه كشافًا أو جاسوسًا ، كان محمد يرد على أسئلتهم ردًا مقتضبًا ، وبخاصة فيما يتعلق بهويتنا ، ومقصدنا . لم يشرح لنا محمد سبب قلقه إلا فى مساء يوم وصولنا إلى جُبَّة . اتضح أن راضى أتى أثناء حواره معنا على ذكر اسم شيخ من شيوخ الشَّمَّر ، يدعى ابن عِرمال ، باعتبار أنه يقيم فى المنطقة المجاورة لنا ، ومحمد خطر بباله أن شيخًا بهذا الاسم قام منذ سنوات عدة بغزو على تدمر . وقد حدث قتال قُتل فيه رجل أو رجلان من شمر ؛ وهذا سبب كاف لاحتمال وجود عملية ثأر لم تجر تسويتها بين أسرته وأسرة الشيخ عِرمال . وبناءً على ذلك ، راح محمد يرجونا ألا نذكر اسمه فى جُبَّة ، أو حتى مسألة أنه هو وعبد الله من تدمر . والتزم محمد الحيطة والحذر فى هذا الأمر لأنه اكتشف أن نايف ، مُضيِّفنا ، يرتبط بصلة قرابة مع الشيخ عِرمال ؛ ومن يمن الطالع أن تدمر لم يرد ذكرها على لسان أى أحد من الحاضرين أثناء الحديث والحوار الذى دار بيننا . بعد ذلك ، جاء محمد إلينا فى ساعة متأخرة من المساء وهو متهلل الأسارير ، ويحمل

إلينا نبأ مفاده أننا لم يعد أمامنا ما نخشاه أو نخافه . فقد أفلح محمد بطريقة ذكية ، في توجيه الحوار مع نايف إلى الموضوع الذى يستحوذ على فكره وقلبه ، وعلم أن مسألة الثأر هذه جرى إنهاؤها ووضع حد لها . كان محمد بن الرشيد قبل توليته شياخة جبل شمر ، يعمل أميراً للحج ؛ وهذا منصب تشريفى ومربح ، فى ظل حكم شقيقه طلال ؛ واستطاع محمد بن الرشيد ، من خلال هذا المنصب ، التعرف إلى كثير من التدمريين ، فى المدينتين المقدستين ، وعندما تولى محمد بن الرشيد الشياخة قام بتسوية خلافات التدمريين مع أهله وناسه (رعاياه) . قام محمد ابن الرشيد بدفع الدية بنفسه ، أو ممارسة الضغط على ابن عِرمال ليتنازل عن مسألة الثأر هذه ، وترتب على ذلك إعلان إنهاء قضية الثأر هذه .

أيًا كانت الأسباب وراء قيام الأمير بهذا العمل ، الذى لعب فيه دور صانع السلام ، فقد كان ذلك من باب البرد والسلام علينا ، وترتب على ذلك أن أصبح محمد ونايف صديقين حميمين . ومع ذلك ، وفى صبيحة يوم رحيلنا عن جبة (التى مكثنا فيها يومين) ، حكى لنا نايف ، عندما جاء لوداع محمد ، أنه رأى فى منامه حلمًا مخيفًا فى تلك اليلة . قال : إنه دخل إلى فراشه للنوم يفكر فى مسألة ذلك الثأر ، وظن إنه سمع فى منامه صوتًا كان يوبخه ويؤنبه لإهماله وتقصيره فى مسألة الأخذ بالثأر من ذلك الرجل الذى حل عليه ضيفًا ، إلى حد أنه أصبح حائرًا بين الأخذ بالثأر والكرم ، الأمر الذى جعله ينهض من فراشه ويبحث عن سيفه ، وأنه وجد نفسه يفعل هذا الشىء عندما صحا من نومه . وهنا خطر بباله أن مسألة الثأر هذه قد أُنهيت ، وهنا ناجى نفسه قائلاً : الحمد لله ، وراح يستأنف نومه من جديد . قال نايف لمحمد عندما أنهى قصته : " ياله من عمل مشين لو أننى اضطررت إلى قتلك ، أنت ، وأنت تحل على ضيفًا ! " ومع ذلك ، أكد لنا محمد ، أنه حتى وإن لم تسو مسألة الثأر هذه ، فإن نايف لم يكن ليفعل أى شىء من هذا القبيل مادام أنه أكل وشرب معه فى منزله . هذا هو العرف السائد فى تدمر ، وعلى الرغم من أنه (العرف) قد يكون أشد من ذلك فى نجد .

لم نبق مع نايف ، كما سبق أن أوضحت ، سوى ليلتين . كان شبان القرية شديدى التطفل والفضول ، واضطررنا إلى مصارحة مضيفنا بهذا الأمر ، وهذا أمر مثير للضيق ، ولكنه ضرورى فى بعض الأحيان . أنا على يقين أن هؤلاء الشبان لم يقصدوا إلحاق الضرر بنا ، لكنهم أساءوا التصرف والسلوك ، بل إن نبرتهم كانت تحمل شيئًا من العداء للنصارى ، ولذلك كان من الحكمة اكتشاف حقيقة هذا الأمر . وأنا يسعدنى القول : إن تلك كانت الحالة الوحيدة التى شهدناها فى الجزيرة العربية كلها ، وكانت تنطوى على إشارة سيئة إلى الدين . العرب بطبيعتهم متسامحون إلى أبعد الحدود فى هذا الأمر ، يضاف إلى ذلك أن التحاملات الدينية والقومية أمور جد نادرة .

على كل حال ، أدى ذلك الحادث الصغير إلى شعورنا بالقلق بعض الشىء من احتمال استقبالنا فى حائل . ويرجع السبب فى هذا القلق إلى أنه لم يسبق لأى أوروبى أو مسيحى من أى نوع كان الوصول قبلنا إلى جبل شمر ؛ يزاد على ذلك أن كل معرفتنا عن هذا المكان وأهله كانت مجرد ذكريات مما كتبه بالجريف ، عندما زار هذا المكان متنكرًا قبلنا بحوالى ستة عشر عامًا(*) . دار بخاطرى أنه ربما يكون ابن الرشيد عنده ميول مماثلة لميول أهل جبة ، وكان واضحًا لنا أنه فى غياب وجود ابن الرشيد وحمايته لنا سنكون قد خاطرنا مخاطرة كبيرة بدخولنا حائل . مايزال السيف مسلطًا . لقد عبرنا الروبيكون(**) الصحراء الحمراء ، ولا يمكن التراجع إلى الخلف .

(*) إذا كانت أن تقول إن بالجريف سبقهم إلى زيارة هذا المكان بحوالى ستة عشر عامًا فذلك يعنى أن بالجريف قام برحلته التى أسماها " وسط الجزيرة العربية وشرقها " فى العام ١٨٦٥ ، والصحيح أنه قام بها فى العام ١٨٦٢ وربما كان ذلك خطأً طباعيًا . (المترجم)

(**) الروبيكون : نهر فى شمال إيطاليا كان يشكل جزءًا من الحدود بين الجمهورية الرومانية والولايات التابعة لها . وقد اجتازه يوليوس قيصر عام ٤٩ ق.م - مشعلاً بذلك الحرب الأهلية التى جعلته سيدًا على روما . (المترجم)

لم يكن أمامنا ما نفعله سوى إحسان الظن بالأمور ، ثم المضى قدماً فى طريقنا . تساءل راضى عن الأحوال فى حائل ، وأنا هنا يحق لى أن أورد المعلومات كلها التى أعطانا إياها . هذه المعلومات جرى توثيقها وتوسيعها بواسطة الرواة الذين جاءوا بعدنا . أما الحقائق الرئيسية فقد حصلنا عليها وسمعناها من راضى .

فى المقام الأول ، نجد أن راضى أكد بشكل عام الرواية التى استمعنا إليها بالفعل والتى تتعلق بتاريخ ابن الرشيد هو وأسرته . قبل خمسة عشر عاماً تقريباً التحق عبد الله بن الرشيد الذى كان مجرد " زلّم " ، أو إن شئت فقل : فرد عادى ، من أفراد فرع عابدى من قبيلة شمر - بقوات ابن الرشيد المسلحة فى نجد العليا ، وعينه ابن سعود الأمير الوهابى نائباً على جبل الشمّر - كان عبد الله بن الرشيد محارباً شجاعاً ، واستطاع إقرار النظام فى البلاد بمساعدة من شقيقه عبيد بن الرشيد ، البطل الرئيسى فى المورووث الشمرى . ولم نسمع عن عبيد بن الرشيد سوى الرواية السيئة التى رواها بالجريف . وعلى العكس من ذلك نجد أن عبيد ترك لدى العرب ذكرى طيبة عن ضيافته وكرمه ، وشجاعته ، وهى الصفات الثلاث التى تعد دستوراً عند العرب . لم يحدث أن كان عبد الله بن الرشيد أميراً على جبل شمر ، لكنه بعد وفاة أخيه قام بحكم البلاد . وكان عبيد هو الذى خطط لسحق الجنود الأتراك فى النفود . عاش عبيد بن الرشيد عمراً مديداً ، ولم توافه المنية إلا منذ تسع سنوات مضت ، إذ أصابه الشلل فى نصفه الأسفل قبل وفاته . ويروى أن الرجل لم يخلف وراءه أية ممتلكات ، إذ وزع كل ما يملك قبل وفاته - لم يكن له من ممتلكاته سوى سيفه ، وفرسه ، وزوجته الشابة . وقد ترك عبيد كل شىء لابن أخيه محمد بن الرشيد ، الأمير الحاكم فى حائل حالياً ، وترك وصية مفادها ألا يستل أحد على سيفه ، وألا يركب أحد فرسه ، وأن تظل زوجته بلا زواج من بعده . وقد استجاب ابن الرشيد لطلبى عمه الأولين ، لكنه ضم زوجة عمه إلى حريمه .

توفى عبد الله بن الرشيد فى العام ١٨٤٣ الميلادى ، وخلفه فى مشيخة شمر ونيابة حائل ولده طلال ، الذى أطلق على نفسه لقب أمير ، واستقل عن الحكم الوهابى

استقلالاً تاماً. الناس لا يتكلمون كثيراً عن طلال فى هذه الأيام . طلال لم يخلف وراءه سمعة كبيرة على حد رواية بالجريف عنه . فى زمن حكم طلال ، استطاع شقيقه الثانى متعب ، الاستيلاء على الجوف ، وعثرى ، وأصبح اسم متعب أكثر شهرة وذيوعًا عن اسم طلال . ومنذ حوالى اثنى عشر عامًا مضت ، فقد طلال صوابه ومات منتحراً . فقد قام الرجل بطعن نفسه بخنجره وهو فى حائل . وترك طلال وراءه أبناء عدة ، أكبرهم بندر، وأخين هما متعب ومحمد ، إضافة إلى عمه عبيد ، الذى كان رجلاً طاعنًا فى السن فى ذلك الوقت، كما خلف وراءه أيضًا عدداً كبيراً من أبناء أعمامه . كان بندر ما يزال صبيًا صغيراً فى ذلك الوقت ، وعليه تولى متعب الحكم بعد طلال بموافقة أفراد العائلة كلهم . لم يحكم متعب سوى ثلاث سنوات ، ومات الرجل موتًا مفاجئًا ، وهنا تنازع أفراد الأسرة ولاية الحكم. كان محمد بن الرشيد ، الذى سبق أن شغل منصب أمير الحج ، خارج حائل فى ذلك الوقت، فى مهمة لتسوية أمر يتعلق بمنصبه مع ابن سعود فى الرياض ، وعليه ونظراً لأن بندر كان يبلغ من العمر عشرين عامًا فقد أُعْلن أميراً على حائل . وأيدته الأسرة كلها فيما عدا محمد بن الرشيد هو وحمود أكبر أولاد عبيد بن الرشيد ، الذى تربى مع محمد كشقيق له . وعندما سمع محمد بتولى بندر منصب الإمارة ، غضب جداً ، واستمر ذلك الغضب أيامًا عدة، على حد قول راضى ، وكانت كوفيته فوق وجهه إشارة إلى حزنه ، ورفض الحديث مع أى إنسان . بقى محمد بن الرشيد فى الرياض ، رافضًا كل العروض والدعوات التى قدمها له بندر إلى أن مات عمه عبيد بن الرشيد ، وعندما وافق محمد على العودة إلى حائل ، واستئناف منصبه أميراً للحج . كان ذلك المنصب يعود عليه بمال كثير . لكنه كان يتآمر طول الوقت أملاً فى الوصول إلى الشياخة ، متآمراً فى ذلك مع بعض شمر والبدو الآخرين الخاضعين لحكم بندر . واستطاع محمد بن الرشيد بهذه الطريقة تحقيق مطمحه إلى السلطة ، فقد تصادف أن جاءت قافلة من الشرارات طلبًا لشراء التمر ، ووضعت هذه القافلة نفسها تحت حماية محمد بن الرشيد بدلاً من الأمير . وقد أغضب ذلك التصرف بندر أشد الغضب ، الأمر الذى جعله يرسل فى طلب محمد بن الرشيد ، وطلب منه توضيح معنى هذه البذاءة والصلافة. سأله بندر : " هل أنت

الشيخ أم أنا ؟ " ثم ركب فرسه وخرج بعد ذلك مهدداً بمصادرة إبل الشرارات ، لأنهم كانوا مخيمين داخل حدود حائل . لكن محمد بن الرشيد تبعه ودارت بينهم مناقشة حامية ، استل فيها محمد شبريته (الشبرية : خنجر معقوف يحمله أهل نجد كلهم) ، وطعن بها ابن أخيه ، الذى سقط ميتًا فى الحال . واتجه محمد بعد ذلك ، وعلى وجه السرعة إلى القلعة ، ووجد فيها حمود ، وحصل على عون منه ، واستولى على المكان . ثم أمسك محمد بعد ذلك بأولاد طلال الصغار ، كما ألقى القبض أيضًا على أشقاء بندر ، ولم يترك منهم سوى طفل واحد ، أما نايف وبندر ، اللذان كانا خارج حائل فقد جرى قطع رأسيهما بواسطة عبيد محمد فى بلاط القلعة . وهم يقولون : إن حمود احتج على ذلك . لكن محمد أصابه التهور والطيش ، أو بالأحرى كان يريد نشر الخوف والفزع ، ولم يكتف بما فعل ، وراح يواصل إعدام أقاربه وأهله . كان لمحمد أبناء أعمام ، أو إن شئت فقل: أبناء عمه جبر ؛ وجبر هذا هو الشقيق الأصغر لكل من عبد الله وعبيد ؛ ولذلك أرسل محمد بن الرشيد فى طلب هذين الرجلين . وصل الرجلان مذعورين إلى القلعة ، ومع كل منهما عبده . كانوا جميعًا شبانًا صغاراً ، يسرون الناظرين ، ومتميزين بشكل واضح ؛ وكان قد جرى تنشئة عبديهما معهما ، حسب التقاليد المرعية ، وبذلك يصبح هؤلاء العبيد إخوانًا أكثر منهم عبيداً أو خدمًا . وجرى إدخالهم إلى قهوة القلعة ، واستقبالهم استقبالاً رسميًا إلى حد بعيد ، وتقدم خدم محمد بن الرشيد لدعوتهم إلى داخل القلعة . وقد جرت العادة فى حائل ، أن الزائر عندما يقوم بزيارة أحد من الناس ، فإنه يتعين عليه تعليق سيفه فى وتد من الأوتاد المثبتة فى الجدار ، وهذا هو ما فعله ابنا جبر ، وحذا خادميهما حذوهما . ثم جلس الجميع أرضًا ، وراحوا ينتظرون ، لكن لم تقدم لهم القهوة . وأخيراً ظهر لهم محمد بن الرشيد محاطًا بحراسه ، لكنه لم يلق عليهم السلام ، وفى الحال أصدر أمراً بإلقاء القبض على ولدى عمه وتقييدهما . واندفع الرجلان ليحضرا سيفيهما ، لكن عبيد القلعة اعترضوهما ومنعوهما من ذلك ، وجرى أسرهما . وهنا أمر محمد بطريقة وحشية وغير متحضرة وهمجية بقطع أرجلهما وأيديهما ، ثم أمر بعد ذلك بتقطيع أرجل وأيدى عبديهما ، وأمر بسحبهما هم وخادميهما ، وهم جميعًا ما يزالون أحياء ،

إلى ساحة القصر وتركهم يموتون هناك . هذه الجرائم البشعة ، بل إنها الأبشع في بلد يعد فيه سفك الدماء أمراً غير معتاد تماماً ، ونشرت الرعب والفزع هنا وهناك ، ولم يجرؤ أحد أن يرفع يده في وجه محمد بن الرشيد . الناس يقولون الآن إنه نادم على ما اقترفه من جرم ، وإنه " غير راضٍ عن نفسه " بسبب الجرائم التي ارتكبها . لكن راضي يرى أن السماء (الله) غاضبة عليه (محمد بن الرشيد) ، لأنه على الرغم من زواج محمد بن الرشيد عدة مرات ، فإن " الله سبحانه وتعالى " لم يمن عليه بالخلف ولداً أو بنتاً . ومع ذلك ، فإن حكم بن الرشيد إذا ما نحينا جانباً بدايته الشريرة ، يعد حكماً خيراً ، على الرغم من حزمه وتشدده . الأشخاص الآخرون ، باستثناء شخص واحد منهم ، الذين ماتوا خلال حكم محمد بن الرشيد ، هم من قطاع الطرق ، الذين جرى استئصالهم على بُعد مسافة ثلاثمائة ميل من حائل . وهذا يعني أن المسافر ، أي مسافر أو رحال يمكنه التنقل في أمن وسلام في أي جزء من الصحراء وهو يحمل معه ذهبه كله ، دون أن يضايقه أي أحد من الناس . هؤلاء اللصوص لم يعد لهم وجود في المدن . ومحمد بن الرشيد هو الذي جعل جبل شمر مستقلاً استقلالاً تاماً عن الرياض ، بل إن محمد بن الرشيد قاوم محاولتين تركيتين لاحتوائه وعزله . ومحمد بن الرشيد جواد مع الجميع ، وضيافته للناس لا تعرف الحدود . وهو لا يسمح بأن يغادر أي إنسان ، غنياً كان أم فقيراً ، قصره دون أن يصيب شيئاً من الطعام ، وهدية من الملابس أو النقود ؛ والضيافة في الجزيرة العربية تغطي وتستر عدداً كبيراً من الخطايا . يزاد على ذلك ، أن العرب سريعي النسيان ، وقد أوشكوا أن يغفروا لمحمد بن الرشيد بعض الأخطاء التي ارتكبها في حق الناس . بعد أن أعطانا راضي هذه التفاصيل كلها قال : " الله يطول عمره" .

الاستثناء الوحيد من كل ذلك جاء على النحو التالي . بعد حوالي عامين من استيلاء محمد بن الرشيد على الحكم ، بدأ بدر ، الابن الثاني من أبناء طلال ، الذي هرب من المذبحة التي أقيمت لإخوته ، يطلق لحيته ، أي تقدم في العمر على حد قول التعبير العربي ؛ ونظراً لأنه كان صاحب همة عالية ، وصاحب مبادئ سامية فقد قرر

الرجل أن يثأر لوفاة إخوته . من هنا ، كانت تلك مهمة بدر ، طبقًا للأعراف العربية . كان بدر وحيداً وبلا حول أو طول، اللهم باستثناء مجموعة صغيرة من عبيد والده ، الذين عادوا إلى بيتهم سراً فى حائل . وبمساعدة من هؤلاء العبيد تمكن بدر من رسم خطة للهجوم على محمد بن الرشيد عندما يقوم بزيارة حمود ، فى منزله الذى يلى القلعة مباشرةً . ذهب بدر بصحبة واحد من العبيد إلى منزل حمود ، واستأذن فى الدخول ، واصطحبوه إلى القهوة ، التى لو وجد الأمير فيها لاستل سيفه وأجهز عليه ؛ لكن الذى حدث هو أن محمد كان قد غادر المنزل منذ فترة وجيزة قاصداً الحديقة ، ولم يكن فى المنزل سوى حمود وحده . سأل حمود بدر عما يريد ، ورد عليه بدر بأنه يود التحدث مع الأمير ، لكن حمود تشكك فى الأمر ، فاحتجز بدر ثم أنذر محمد بما يدور . وبعد أن ألقى القبض عليه ، ثم كشف شخصيته ، جرى استجواب بدر مرة ثانية ، وهنا أعلن بدر عن اعتزامه الثأر لموت أخيه بندر ، كما أعلن أنه لن يحيد عن ذلك قيد أنملة. يقال إن محمد بن الرشيد ، بحث عن بدر ليسأله عن السبب ، وعرض عليه إطلاق سراحه إذا ما وافق على الابتعاد عن هذا الموضوع . قال محمد : " أنا لا أود سفك المزيد من الدماء، لكنك ينبغى عليك أن تعدنى بأنك ستترك حائل " . وأصر الشاب الصغير على رأيه وموقفه ، وفى لحظة يأس أمر محمد بن الرشيد بقتل بدر . لم يسئ محمد إلى العبد المرافق لبدر . وواقع الأمر ، أن محمد أطلق العبد لحال سبيله بعد أن أعطاه بعض الهدايا ، وهو يعيش حاليًا عيشة هنيئة فى بلدة سماوة فى منطقة الفرات .

بعد ذلك ، أرسل محمد الذى استشعر الأسف والندم على حماقته ، فى طلب نايف الابن المتبقى من أبناء الراحل الأمير طلال ، وهو الذى كان ما يزال صبيًا صغيراً ، وأخذه للعيش معه ، وراح يعامله كما لو كان ابنًا له . ومنذ عام واحد فقط ، وعندما رأى الصبى ينمو ويترعرع ، حثه على الزواج ، وعرض عليه واحدة (بنتًا) من بنات أخيه كما عرض عليه أيضًا منصبًا مناسبًا . لكن الناس يقولون : إن الصبى تراجع عن قبول هذه العروض .

قال الصبى . " ما هذا؟ إنك ستعاملنى كما لو كنت تعامل حملاً أو تيساً تسمنه قبل أن تذبحه "، بكى محمد بن الرشيد وراح يتوسل إلى الصبى ويرجوه ، وأقسم بأنه سيكون أبًا لنايف ؛ وما يزال الصبى يعيش عيشًا كريمًا فى منزل الأمير . ومع ذلك ، فإن الرأى السائد فى حائل هو أن نايف عندما يشب عن الطوق ويصبح يافعًا سيتحتم وفاته أو وفاة عمه . وسوف يتعين على نايف استكمال المحاولة التى بدأها بدر ، وأن ينتهى إلى نهاية إذا ما اضطر إلى ذلك .

من المسلّم به ، أن ذلك كله كان بمثابة استخبارات مفيدة لنا ، أثناء سفرنا إلى حائل . أحسسنا كما لو كنا متجهين صوب عرين حيوان مفترس . ومع ذلك ، كان ما يزال أمامنا أربعة أيام من الراحة والهدوء اللذين تهيئهما لنا الصحراء ، واتفقنا على التمتع بتلك الأيام إلى أبعد الحدود . هواء نجد فيه شىء ما ينعش الإنسان المهموم ، ونحن كنا أبعد ما يكون عن الهم والهموم . فى وجود مثل هذه الشمس الساطعة وهذا الهواء النقى اللذيذ يصعب على المرء أن يكتئب أو يشعر بالحَصَر أو القلق . ربما كان يراودنا الإحساس بالخطر ، لكننا لم نكن نستشعر الهلع أو العصبية .

كرسنا ليالينا الثلاثة الأخيرة فى النفود للمرح والسرور ، وشبت نيران كبيرة فى حطب اليورتا yerta، وكنا نتحلق حول هذه النار فى ضوء النجوم ، ونأكل من التمور التى اشتريناها من جُبَّة ، ونشاهد استعراض القوة واللُّعب التى يلعبها الخدم . وهنا يتعين علىّ أن أورد مذكرات اليوم الثانى والعشرين من شهر يناير : " كنا نسير متباطئين فى الرمل العميق طوال النهار ، والرجال يغنون ويمزحون ، لأننا لم نعد بعد فى عجلة من أمرنا ؛ لم يعد بيننا وبين قرية عجنة سوى مسير يوم واحد ، وعجنة هى

(*) المقصود بالبقر الوحشى هنا هو الوعل الأبيض (المها) وقد ورد ذكره عند بالجريف ، وعند دوتى ، وللمزيد عن هذا الحيوان يرجى مراجعة كتاب " مغامرة فى الجزيرة العربية " الذى نشره كتاب الجمهورية ، الصادر عن دار التحرير للطباعة والنشر فى جمهورية مصر العربية ، ترجمة الدكتور صبرى محمد حسن . (المترجم)

أولى قرى جبل شمَّر . وعلى الرغم من أن الإبل متعبة ، فإنها لا تخشى الآن من الإصابات ، فضلاً عن وجود مراعى غزيرة من عشب الناسى الذى تفضله الإبل ؛ هذه جذور الحشائش قد بدأت تكتسى بالبادرات الجديدة . النفود فى هذه المنطقة كبيرة مثلما هى دائمًا ، والأفلاج هنا عميقة مثل الأفلاج التى شاهدناها من قبل ؛ وها نحن نمر على أثر من آثار البقر الوحشى(*) ، وتوقفنا قبل أن تنقضى علينا ساعة من الزمن . عند الساعة الثالثة والنصف التقينا راعيًا يقتاد أربعين من الغنم إلى السوق فى حائل . هذا الراعى من شمر ، وهو من رجال ابن راحى ، أحد الشيوخ ؛ وقد شاهدنا خيامه اليوم على بُعد مسافة كبيرة فى اتجاه الشمال الشرقى ، والرجل ينتوى بيع قطيعه الحجاج الفارسيين الذين ينتظر وصولهم اليوم إلى حائل . يقول الرجل : إن الحجاج الفارسيين فى طريق عودتهم إلى وطنهم قادمين من مكة ، وسوف يبقون مدة أسبوع فى حائل . ومن يدري، هل يمكن لنا أن نتنقل معهم ؟ الغنم التى حسبتها ماعزًا لأول وهلة كانت كلها نعاجًا وخرافًا ، وهى مخلوقات طويلة الأرجل ، وشعرها ناعم كالحرير ، وهو ليس صوفًا ، وهذا الشعر ينمو من حول مؤخرة الخروف أو النعجة ، ومن حول الأذنين المتدليتين ، وفى منطقة الوجه . هذه الأغنام سوداء اللون ولها رؤوس بيضاء ، وبقع سوداء حول العينين ومن حول الأنف ، الذى يبدو كما لو كانت تلك الأغنام تشرب الحبر . هذه الأغنام تختلف عن الأغنام العادية إلى حد بعيد ، ومن حيث الأرجل والذيل والوجه . لكن هذه الأغنام تمتاز بأنها يمكن أن تعيش مدة شهر على نبات الأثل دون أن تكون بحاجة إلى الماء . وأنا أرى أن هذا النوع من الأغنام مقصور على نجد . جاء لقاؤنا مع الراعى بمثابة إشارة إلى التوقف لفترة قصيرة وإلقاء نظرة على فلج صغير بهيج ، يتسع لأن نجلس فيه جميعًا ، وسط حوض من عشب الناسى – وجهنا خيولنا ناحية منحدر رملى ، وتبعتنا الإبل ، فى حين كان محمد يتفاوض مع الراعى ويساومه

(*) استفسار : ألا يمكن أن تكون هذه المسارات هى العلامات الحلزونية التى لاحظها بالجريف ، والتى عزى تكوينها إلى الرياح ، عندما كان يصف عاصفة فى النفود .

على شراء أسمن خروف (طلى) من بين أغنامه . نزلنا فى هذا المكان ، وتبعثرت الإبل بعدنا بعشر دقائق فى سائر أنحاء هذا الجانب من التل الرملى ، إذ إن هذه المنطقة فيها ، فى أضعف الأحوال ، تل رملى واحد يصل ارتفاعه إلى حوالى مائة قدم . وجرى تكليف إبراهيم بمراقبة الإبل ، فى حين كان الأفراد الآخرون مشغولين بإقامة المخيم . المكان عامر بالحطب ، كتل جميلة بيضاء تحترق مثل خشب الكبريت . تسلقنا قمة التل لتحديد اتجاهات المنطقة ، لأن منظر جبل شمر رائع من هذا المكان ، المنظر من هنا خال من القمم المنعزلة ، مثلما قال الدكتور كولفيل Colvill فى العام الماضى ، لكنه عبارة عن سلسلة طويلة من الجبال الرائعة ، ممتدة إلى مسافات بعيدة فى اتجاه الشرق والغرب ، مما يذكرنا إلى حد ما بسلسلة جبال سيرا Sierra جوادراما Guadrama فى إسبانيا . أرى أيضًا بعض القمم البعيدة المتميزة عن هذه السلسلة الجبلية . من خلفنا وفى اتجاه الشمال الغربى ، أرى مجموعة قمم وتلال جبة ، وهى تمتد فى اتجاه الغرب والجنوب الغربى . وفى اتجاه الشرق توجد منطقة منعزلة هى جبل عطوة . حائل تقع فى اتجاه الجنوب الشرقى على وجه التقريب . موقع حائل يتميز بانحدار صخرى مفاجئ فى الطريق الشرقى من سلسلة جبال أجا ع . والأفق الشمالى كله هو الوحيد الذى يبدو غير مكسر . بعد أن انتهينا من تسجيل هذا المنظر ورصد هذه الاتجاهات توجهنا نحن الاثنين نازلين نحو الأسفل لقياس فلج يبعد عنا قرابة نصف ميل ، ووجدنا عمق هذا الفلج يصل إلى حوالى مائتين وسبعين قدمًا ومن تحته أرض صلبة . هذا الفلج فيه علامات منتظمة على جانبة المنحدر ، هى عبارة عن آثار لأقدام الأغنام ، مما يشير إلى مدى ثبات سطح بقايا النفود ، وسبب ذلك أن هذه المسارات الصغيرة الناتجة عن أقدام الأغنام يرجع تاريخها إلى زمن بعيد . عندما عدنا وجدنا قهوة حنا جاهزة ومعها طبق من الدقيق والكارى ، لكن تعين علينا الانتظار جوعى إلى أن ينتهى حنا من طبخ الخروف . كان عواد الذى يتباهى بأعمال الجزارة قد قام بذبح الخروف فى وسط المخيم . إذ جرت العادة أن تتم عملية الذبح عند خيمة الباب ، كما راح يلطخ الإبل باللون الأحمر . وعندما سألناه عن سبب عملية التلطيخ هذه قال : " سيدل هذا على أننا جرى دعوتنا إلى وليمة من الولائم " ويبدو أن مسألة

تلطيخ الجمل بالدم تبدو أمرًا طيبًا ومناسبًا . وكان عواد قد صنع حاملاً من ثلاثة أعمدة من أعمدة الخيام ليعلق فيه الخروف المذبوح ، ثم راح بعد ذلك يقطع لحم الخروف بطريقة فنية للغاية . وهذا هو إبراهيم الطويل ومعه عبد الله يقومان بجمع كمية مهولة من الحطب استعداداً لدخول الليل . وهذا هو حنا يقوم بإعداد الطعام والطبخ . حنا ، هذا المسكين يعانى منذ أن كنا فى مسكاكة ؛ وسبب ذلك أن اضطرار الجميع إلى المشى سيراً على الأقدام ، حتم عليه أن يفعل الشىء نفسه ، وذلك " منعاً للمشاكل " على حد قوله ، وربما هو على حق فيما يقول . المسيحى الذى من قبيل حنا ، يفعل الخير عندما ينكر ذاته وينزع الحقد من داخله ، اللهم إلا إذا كان قادراً على المخاواة ، والإيحاء للغرباء باحترامه ، بالشكل الذى فعله إبراهيم . حنا رجل صبور ، لا تعرف الشكوى إلى نفسه سبيلاً، وهو من النوع المثابر ، الذى يحمل وجهه مسحة من الحزن ، لكنه يتهلل بشراً عندما يداعبه الآخرون . وأنا أبذل قصارى جهدى لحمايته ، لكنه لا يجرؤ على القيام بدوره المخصص له . وأخيراً ، هذا هو محمد جالسٌ يُرَتِّق قميصه ، جاعلاً نفسه كما لو كان فى محكمة ، ويتجاذب أطراف الحديث مع اثنين من أهل جُبَّة ، يزاملاننا فى السفر، – عن فضائل ابن الرشيد ، وعن عظمة و أبهة ابن عروق . أسطورة ابن عروق هذه، يزداد حجمها كلما تدحرجت مثل كرة الثلج ، ونحن نتوقع أن يبدو محمد مثل أمير من الأمراء عندما نصل إلى حائل . هذا هو محمد يتكلم عن نجد فعلاً كما لو كانت من ممتلكاته الشخصية ، كما يمارس معنا نوعًا من الحماية ، كما لو كان مُضَيِّفا يقوم بما يجب عليه تجاه ضيوفه . ولّى إلى غير رجعة خوف هذا الرجل من ابن عِرمال . على كل حال ، سواء أكان محمد أميراً أم فلاحًا فإن الرجل يتحلى بفضيلة الطبع الحسن ، وهو فى هذا المساء شخصية مسلية للغاية . كان محمد يحكى لنا طوال هذه الليلة تاريخ أقاربه مع حسين باشا فى الدير ، ونحن لم يسبق لنا مطلقًا الوقوف على هذا التاريخ (وأنا أخشى الدخول فى تفاصيل هذا التاريخ منعًا لجر المتاعب على محمد) . لقد دخل محمد السجن مرتين أو ثلاث مرات ، لكن حسين باشا المسكين كان يجرى استغفاله والضحك على ذقنه . وروى لنا محمد رواية صادقة وكاملة عن وفاة أحمد بك معالى ؛ ثم جرى بيننا بعد ذلك حديث

طويل عن الشكل الصحيح الذى ينبغى أن نكون عليه عندما نقدم أنفسنا لابن الرشيد فى حائل . يفضل محمد أن يتظاهر ولفريد بأنه تاجر مسافر إلى البصرة لاسترداد دين من ديونه ، لكننا لم يرق لنا هذا الزعم ، لقد وجدنا أنه من الأنسب والأصلح أن نكون مباشرين وصرحاء ، وقررنا أن نقول لابن الرشيد إننا أناس مرموقون نبحث عن أناس مرموقين آخرين ؛ وإننا تعرفنا بالفعل على ابن سمير وابن شعلان ، وعلى شيوخ الشمال كلهم ، وإننا فى كل مرة نلتقى فيها رجلاً عظيمًا ، وكانوا يقولون لنا إن هؤلاء لا شىء إلى جانب عظمة وأبهة ابن الرشيد أمير حائل ، وإننا عندما سمعنا ذلك ونحن فى طريقنا إلى البصرة ، وجدنا أنفسنا نعبر النفود حبًا فى زيارة ابن الرشيد ، مثلما فعل الناس فى الماضى عندما ذهبوا لزيارة سليمان بن داود ، وهذا حتم علينا تقديم الهدايا للأمير والدعاء له بطول العمر . واضطر محمد إلى الاعتراف بوجاهة هذه الخطة ؛ واستقر الأمر على ذلك . أما راضى الذى بدأنا نثق به إلى حد ما ، فيرى أن الأمير سوف ينشرح صدره لذلك ، كما وعد راضى أيضًا بالتغنى بفضائلنا وامتداحها، وهو يحكى أيضًا عن فرنجى وصل إلى حائل ، وخرج منها ومعه نقود وملابس حصل عليها من ابن الرشيد . من هو ذلك الفرنجى ؟ هذا ما لا يمكن أن نتخيله ، نظرًا لأن بالجريف لم يُعرَف فى حائل على أنه أوروبى . أزجينا الوقت على هذه الشاكلة إلى أن حضر الطعام ، وبعد أن أكل الجميع ، وجاء محمد إلينا ليعزمنا على نار الخدم الذين كانوا يمارسون ألعاب القوى . فى البداية استلقى عبد الله على الأرض فوق الرمل ، ووضعوا سرجًا واحدًا من الإبل على ظهر الرجل ، ومن فوق هذا السرج وضعوا خرجين كبيرين زنة كل واحد منهم حوالى مائة ثقل . ويحاول الرجل الزحف على ركبتيه خطوات عدة يترنح بعدها ويسقط من فوقه الحمل الذى كان يحمله . وهذا هو محمد يبرز عندما يرفع إبراهيم القصير ، الذى يزن ما لا يقل عن اثنى عشر حجرًا على راحة يده . و يروحون يلفون مثل العجلات كما لو كان فى سيرك ويلعبون لعبة شبيهة بقفز الضفدعة ، يقفون فيها الواحد خلف الآخر فى حين يقوم شخص آخر بالقفز من فوق أكتافهم ، ويواصل الجرى إلى أن يصل إلى خط النهاية ، حيث يتعين عليه الشقلبة ثم يترجل بعد ذلك . هذه لعبة مسلية ولا يترتب عليها أى أذى ما داموا يلعبونها على

الرمل . كان الجميع ، باستثناء حنا يشاركون فى هذه الرياضات البدنية ، لكن عواد بحكم مولده البدوى ، يشارك فى هذه الرياضات وهو ممتعض الوجه . البدو لا يمارسون الألعاب الرياضية مثلما يفعل الحضر ، إضافة إلى أن البدو لا يتمتعون بقوة بدو الحضر البدنية . وهذا هو عواد يثأر لنفسه بأن راح من باب الحقد ، يخبئ قطعًا من الفحم المشتعل فى الأرض ، الأمر الذى كان يسفر بين الحين والآخر ، عن شخص يدوس فوق هذه الفخاخ بقدميه العاريتين ، ثم نسمع صراخًا بعد ذلك . هذا السِّحر العظيم أضاف إليه ولفريد اللعبة القديمة التى تقوم على الدوران ثلاث مرات والرأس متكئ على عصا قصيرة ، ثم محاولة المشى بعد ذلك مباشرةً .هذه اللعبة كانت طريفة إلى حد بعيد ، إذ كانوا يسقطون فوق حنا عندما يحاولون المشى بعد الدوران ، وكانوا عندما يجعلون حنا يمارس هذه اللعبة يرتبون له أن يدوس فى النار عندما يحاول السير بعد الدوران. أفضل الألعاب فى رأيى هذه اللعبة التى تشبه فى بعض الأحيان تلك اللعبة التى يمارسها البحارة على ظهور السفن . يقوم الخدم بوضع عباءاتهم كلها على شكل كومة ، ويتولى أحدهم حراسة هذه الكومة . ثم يقوم الباقون بالتراقص من حوله ، محاولين سرقة هذه العباءات دون أن يلمس أحد منهم . إبراهيم الطويل رائع فى هذه اللعبة ، إذ يروح يدافع عن الكومة بيديه الكبيرتين وقدميه ، ويروح يكيل الركلات والضربات لمن يحاول الاقتراب من الكومة ، محققًا بذلك نتائج طيبة. أما عبد الله الذى لايستلطفه باقى أفراد الجماعة بسبب حدة طبعه ، يصاب بضربة فى قدمه جراء ركلة مباشرة مثل ركلات كرة القدم ، وجهها إليه إبراهيم الطويل ، وكاد أن يشب بينهما عراك إثر ذلك. ويتنوع ذلك السمر عندما يقوم عواد العبقرى بالتسلل إلى مسافة بعيدة ومعه بندقيته ، ثم يقوم بفتح نيران تلك البندقية فجأة من فوق قمة فلج من الأفلاج ، ثم يسقط متشقلبًا رأسًا على عقب نحو الأسفل ممثلاً بذلك طريقة الغزو. وتنقضى فترة المساء على هذا النحو ، وبعد أن نعود إلى خصوصيتنا ، نشاهد للمرة الأولى الضوء البروجى فى السماء الغربية .

كانت تلك ليلتنا الأخيرة في النفود ، وقد استعدنا ذكراها باعتبارها معياراً من معايير سعادتنا ، استعدنا هذه الذكرى عندما انحبسنا بين جدران حائل ، وعندما كنا نترجل في أراضٍ لا تناسبنا طبعًا أو روحًا. وصلنا قرية عجنة في اليوم التالي ، عجنة هي أولى قرى جبل شمر، وفي اليوم الثالث وصلنا إلى الجبال نفسها ، التي يسمونها " الجبال السعيدة " ، التي كانت الهدف المبتغى من وراء عملية الحج هذه .

اليوم الثالث والعشرون من شهر يناير . الجلوس هنا يشبه الحلم، وأنا أكتب مذكراتي عن هذا اليوم ، وأنا جالسة على صخرة من صخور جبل شمر . وأنا أتذكر ، قبل سنوات قراءتي لذلك الوصف الرومانسي الذي جاء به بالجريف، والذي لم يصدقه أحد من الناس ، عن دولة مثالية في قلب الجزيرة العربية ، وتلك الأرض السعيدة التي لم يرها أحد سواه ، وكيف بدت له بعيدة المنال وغير واقعية ؛ كما استرجعت أيضًا ، كيف أننا خلال أسفارنا سمعنا الكثير عن كل من نجد وحائل ، بل وعن جبل شمر نفسه الذي أجلس عليه الآن ، والذي تحدث عنه حديثًا مرعبًا كل أولئك الذين عرفوا هذا الاسم ، بما في ذلك البدو أنفسهم ، وذلك بدءًا من وجودنا في حلب عندما قام السيد سين بالإجابة لأول مرة على أسئلتنا الغامضة عن جبل شمر بقوله : " بالإمكان الذهاب إلى هناك ، ولماذا لا تذهبون ؟ " .

مبلغ علمي أننا حققنا شيئًا لم تتحقق لأحد فرصة القيام به . وهذا هو ولفريد يعلن على الملأ أنه إن مات فسيكون سعيداً ، حتى وإن قطعوا رأسينا في حائل . يرى ولفريد أن الأماكن كلها صورة طبق الأصل من بعضها البعض ، أما جبل شمر فلا يشبه أي مكان آخر ، بل إنه ليس له مثيل ، على الأقل في الأماكن التي شاهدتها من العالم ، اللهم إلا إذا استثنينا جبل سيناء من ذلك ، مع أن جبل سيناء أجمل من جبل شمر . كان ترحالنا طوال هذا اليوم حكاية من الحكايات . مررنا عبر قرية عجنة في الصباح الباكر ، ولم نتوقف إلا لنسقي دوابنا . عجنة قرية صغيرة جميلة ، تشبه قرية جُبَّة إلى حد ما ، وهي تقع على حافة الرمال ، لكن فيها أشياء ليست في جُبَّة ، فيها حقول مربعة الشكل عامرة بنباتات الشعير الخضراء ، وهذه الحقول ليست مسوَّرة،

ولعل عدم وجود الأسوار راجع إلى مسألة الرى ، التى شاهدناها ، ونحن ننتظر ، قائمة على قدم وساق من بئر كبيرة ، يولونها المزيد من الاهتمام الزراعى ، عن بيارات النخيل المسوَّرة التى سبق أن شاهدناها . بعد عجنة مباشرةً وصلنا إلى أرض متماسكة، وأطلقنا خيولنا فى مرعى خيالي لم يتسبب فى تيبس أرجلها ، وإنما أفادها . كانت التربة ثابتة ومتماسكة لأنها مكونة من صخر جرانيتى مطحون ، مختلف تمامًا عن كل من الجوف وجبة اللتين تتكون تربتهما من الحجر الرملى . هنا أيضًا وجدنا الحياة النباتية مختلفة ؛ اختفت هنا نباتات اليورتا yert وأشجار الأثل ، ونباتات النفود الأخرى ، وحلت محلها جنبات وشجيرات، أذكر أنى سبق أن رأيتها فى وديان جبل سيناء ، التى تتخللها من حين لآخر أشجار السنط ، التى يعرفها الحجاج باسم " الجنبة الحارقة " – أو " الطلح " باللغة العربية – كما شاهدنا أيضًا نباتًا له أوراق خضراء سميكة وليس له ساق ، ويطلق الناس عليه هنا اسم" الغيسة " ، التى يقولون : إنها تفيد العينين . كنا نصادف أيضًا بين الحين والآخر جلمودًا منعزلاً ، كله من الجرانيت الأحمر ، يرتفع من وسط السهل ، كما كنا نشاهد هنا وهناك مجموعات من الأحجار المستديرة ، التى أزعجنا فيها الكثير من الأرانب البرية . المنظر الذى أمامنا جميل إلى الحد الذى يفوق الوصف ، والسهل مستوٍ استواء تامًا ، وينحدر انحدارًا متدرجًا نحو الأعلى ، تبرز من خلاله هذه الصخور والتلال على شكل جزر ، ومن خلف هذا السهل توجد الجبال بنفسجية اللون القريبة منا تمامًا فى هذه اللحظة ، وفيها صخرة شديدة الانحدار كنا قد اتخذناها علامة أرضية على امتداد أيام عدة وترتفع مُطِلة على كل ما حولها . الحدود الخارجية لجبل شمر خيالية ورائعة بشكل غريب ، وهى تمتد على شكل ذرى ، وقباب ، وقمم مستدقة ، وتتخللها هنا وهناك فتحات يستطيع المرء أن يرى من خلالها السماء ، أو جلمود رائع شبيه بالحجر الصخرى عند خط السماء . هذه صخرة من الصخور تشبه الجمل من حيث الشكل ، ويمكن أن تخدع أى إنسان لا يعرف أن الجمل لا يمكن أن يصل إلى مثل هذا المكان .عند الساعة الواحدة والنصف تجاوزنا أول الكتل المنعزلة ، التى تقف وتتبدى للرائى كما لو كانت أبراجًا أو حصونًا خارج قلعة من القلاع ، وتنحرف انحرافًا متدرجًا إلى ناحية

اليسار ، لتصل إلى قاعدة مجموعة التلال الرئيسية . هذه التلال كلها تبرز فجأة من سطح السهل المنحدر الناعم ، وهي على العكس من معظم البلاد كلها ، وليس بينها مسافات من الأرض المكسَّرة . جبل سيناء هو الجبل الوحيد الذى رأيته وله مثل هذه السمة . وفى الحالين يمكنك الوقوف فوق السهل ، وتلمس الجبل بيديك . والوديان الصغيرة لا توجد إلا على بعد مسافات من الشقوق التى فى التلال ، مما يدل على أن السماء تمطر فى بعض الأحيان على جبل شمر . والواقع أننا سوف نشهد فى هذه الليلة برهاناً ودليلاً على ذلك ، نظراً لأن هناك سحابة سوداء كبيرة تتجمع خلف القمم فى الناحية الغربية ، إضافة إلى أن السماء تُرعد بين الحين والآخر . كل شىء محكم وآمن فى خيمتنا تحسباً للمطر . هناك شق صغير فى الصخرة القريبة من المكان الذى نخيم فيه ، فى هذه الصخرة خزان طبيعى عميق ملىء بالماء الرائق . كان من الممكن ألا نكتشف ذلك الخزان لولا ذلك الراعى الذى صحبنا اليوم ، وهذا الخزان مخبأ فى مكان بعيد تحت بعض الجلاميد الصخرية الجرانيتية العملاقة ، وللوصول إلى ذلك الخزان يتعين الزحف خلال حفرة فى الصخرة . وهذه مجموعة من النباتات شديدة الاخضرار تنمو فى بعض التجاويف ، وقد شاهدنا أيضاً زوجاً من الحبارى ، التى هى طيور صغيرة مناقيرها صفراء اللون وألوانها مثل ألوان طيور اليمام .

مررنا على مجموعة صغيرة من بدو شمر اليوم ، وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر ، وكان أحد أفراد هذه الجماعة يحمل معه على جمله بازاً (*) صغيراً . لم يكن بصحبة هذه الجماعة أى نوع من الخيول ، ونحن بدورنا لم نمر على أى أثر من آثار أقدام الخيل منذ أن غادرنا بئر الشقيق . نسيت القول إننا التقينا بالأمس بدوياً من بدو الحرب ، وهو رجل صغير الحجم أسود وكئيب الطلعة ؛ وقد أبلغنا ذلك البدوى أنه يربى غنماً للأمير . والحرب هم تلك القبيلة التى تستحوذ على الأرض المجاورة للمدينة المنورة ، وسمعتهم سيئة بين الحجاج .

(*) الباز : نوع من الصقور يُصطاد به . (المترجم)

اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير: هبت علينا عاصفة رعدية أثناء الليل . وقد أوفدنا راضى قبلنا فى الصباح الباكر ، حاملاً رسائلنا إلى حائل إذ لم يعد بيننا وبينها سوى أميال قلائل . كان الصباح جميلاً بعد سقوط المطر ، وكانت الطيور تغرد ، تغريداً عذبًا بين الأدغال والشجيرات ، لكننا جميعًا كنا نشعر بالقلق . حتى محمد لزم الصمت هو الآخر وبدا عليه الانشغال لأننا جميعًا لم نكن نعرف شيئًا عما تخبئه لنا الأقدار . ومع ذلك ، ارتدينا أبهى ملابسنا ، وحاولنا إضفاء مسحة من الجمال على خيولنا . كنا نتوقع أن نجد فى حائل الجانب الآخر من التلال ، ولكن هذا التوقع لم يكن فى محله . وبدلاً من عبور التلال واصلنا مسيرنا على حافة التلال ، وأخذنا نتحول تدريجيًا ناحية اليمين ، وكانت الأرض ما تزال آخذة فى الارتفاع . كان البارومتر الموجود فى المخيم يبين أننا على ارتفاع ٣٣٧٠ قدمًا ، وها هو الآن يبين أننا نرتقى مطلعًا يقدر ارتفاعه بحوالى مائة قدم .

مررنا على قريتين تبعدان عنا قرابة ميل واحد فى الجانب الشمالى ؛ هاتان القريتان هما العقيت والعوطة؛ وفى واحدة منهما انضم إلينا بعض الفلاحين المسافرين إلى حائل على ظهور الحمير . وهذا الذى شاهدناه منذ أن غادرنا الشام يشكل حضارة أكثر منه أى شىء آخر . كنا قد بدأنا نشعر بالقلق إزاء الرسائل التى أرسلناها لابن الرشيد ، وعندما ظهر راضى ليقول لنا إن الأمير قرأ رسائلنا ، ويسره أن يلتقى بنا . وقد أصدر الأمير أوامره بتجهيز بيتين لنا ، ولم يكن أمامنا شىء آخر نفعله ، سوى الدخول إلى المدينة ، ونتجه فوراً إلى قصر الأمير . لم نكن بعيدين عن القصر ، لأننا عندما وصلنا إلى قمة سلسلة الجبال المنخفضة ، التى كنا نراها أمامنا منذ مدة ، شاهدنا حائل فجأة تحت أقدامنا ولم تكن تبعد عنا سوى نصف ميل فقط . ولم تكن البلدة مبهرة تمامًا ، نظراً لأن السواد الأعظم من منازلها ، كانت تستره بيارات النخيل ، وكان السور المحيط بالبلدة لا يتجاوز ارتفاعه عشرة أقدام . كان المبنى الوحيد المرئى من الجميع هو تلك القلعة الكبيرة القريبة من مدخل المدينة ، وهنا قال لنا راضى إن ذلك هو القصر ، أو بالأحرى قصر ابن الرشيد .

على الرغم من مشاغلى فأنا لا يمكن أن أنسى مطلقًا ذلك الانطباع الحى الذى ارتسم داخلى ، عندما دخلنا مدينة حائل ، جراء الأناقة غير العادية للجدران والشوارع ، التى أوحت لنا بجو خيالى وغير واقعى .

الفصل العاشر

" ابتسامات الرجال فيها خناجر " .

شكسبير

حائل – الأمير محمد بن الرشيد – حيواناته الوحشية – خيوله – الحاشية – الزوجات – تسالى سيدات حائل – حياتهن المنزلية – أمسية فى القلعة – الهاتف .

بعد أن أمضينا شيئًا من الوقت فى حائل ، لن أتطرق إلى التفاصيل اليومية . لو فعلت ذلك ، ستتحول العملية إلى أمر ممل ومرهق وسوف يترتب عليه الكثير من التكرار واللت والعجن ، وسوف يتمخض ذلك عن القيام بكثير من التصويبات ، نظراً لأننا تعلمنا بصورة متدرجة ، فهم كل ذلك الذى رأيناه وسمعناه .

جاء استقبالنا على النحو الذى تمنيناه . وبينما كنا على ظهور خيولنا وندخل فناء القصر ، التقانا حوالى عشرين رجلاً مهندمين تمامًا ، وكل واحد منهم أكثر أناقة من حيث المظهر عن سائر العرب الذين التقيناهم من قبل فى حياتنا . همس إلينا محمد الذى انبهر كثيراً بروعة الاستقبال وقال : " هؤلاء أبناء الشيوخ . " كان يقف وسط هؤلاء الرجال رجل رائع كبير السن، يلبس رداء قرمزى اللون ، أوحى لنا طوله الفارع ولحيته البيضاء بياض الثلج بالشكل الذى كان عليه (سيدنا) سليمان إبان عظمته . كان الرجل يحمل عصا طويلة فى يده ـ كانت تلك العصا شبيهة بالصولجان ـ ثم تقدم إلى الأمام لتحيتنا . وهمس لنا محمد ونحن ننزل عن فرسينا قائلاً : ".الأمير " . وهنا قام ولفريد بإلقاء السلام بالطريقة المعتادة قائلاً : " سلام عليكم " ، ورد الجميع السلام قائلين " عليكم السلام " ، ردوا السلام بنغمة عالية تشرح الصدر ، وبطريقة ودية أثرت

فينا كثيراً . خطر ببالى أنى لم أر مطلقًا مثل هذا الجو . كان الرجل المتقدم فى السن يبتسم ، أو أشار لنا بالدخول ، وقام بعض آخر من الرجال بفسح الطريق أمامنا . وبعد ذلك قيل لنا إن هؤلاء هم خدم الأمير ، وإن الرجل كبير السن هو كبير ياوران الأمير . مروا بنا فى بداية الأمر من خلال مدخل مظلم ، من الواضح أنه أنشئ أصلاً تلبية لمطلب من مطالب الدفاع ، ثم مشينا بعد ذلك فى ممر مظلم ، كان أحد جانبيه مكونًا من أعمدة ، الأمر الذى نكرنا بعض الشيء بمداخل بعض المعابد المصرية القديمة . وهنا قام واحد من الخدم بالطرق على باب منخفض ، وتبادل بعض الإشارات مع الشخص الموجود فى الداخل ، وانفتح الباب بعد ذلك ، لنجد أنفسنا داخل قهوة كبيرة ، أو إن شئت فقل غرفة استقبال . كانت الغرفة أنيقة من حيث إنها تحتوى على صف مكون من خمسة أعمدة ، ويقع فى منتصف الغرفة ، حاملاً السقف . كان قطر العمود الواحد يصل إلى حوالى أربعة أقدام ، والأعمدة من النوع العادى البسيط ، التى لكل واحد منها رأس مربع الشكل ، ترتكز عليه رافدات الحمل . كانت الغرفة مضاءة بواسطة فتحات تهوية صغيرة مربعة الشكل قريبة من السقف ، ومضاءة أيضًا بواسطة الباب ، الذى تركوه الآن مفتوحًا . كانت الغرفة من الداخل مدهونة كلها باللون الأبيض ، أو بالأحرى اللون الأبيض المشوب باللون البنى ، وكانت الغرفة خالية من أى نوع من الأثاث على اختلاف أنواعه ، ولم يكن فى الغرفة أى نوع من أنواع التركيبات ، اللهم باستثناء المشاجب الخشبية التى تُعلّق عليها السيوف ، وفى الغرفة أيضًا حلبة مقابلة للباب موضوع فوقها الهون الذى يستخدم فى طحن البن ، كما يوجد على الحلبة أيضًا وجار(*) مقام فى ركن من أركان الحلبة ، جاهز لإعداد القهوة . كانت الغرفة مظلمة تمامًا ، لكننا استطعنا تبين بعض العبيد ، المشغولين بدلال(**) القهوة حول النار . دعينا إلى الجلوس بالقرب من وجار القهوة ، وجرى بعد ذلك تبادل الكثير جداً من

(*) الوجار : عند النجديين هو الموقد الذى يستخدم فى إعداد القهوة . (المترجم)

(**) دلال : واحده دلة : وهى الوعاء المستخدم فى عمل القهوة . (المترجم)

الكلام المؤدب والمجاملات ، والسؤال عن الصحة الذى تكرر ما لا يقل عن عشرين مرة ، وفى كل مرة يكون ذلك مصحوبًا بذكر لفظ الجلالة ، إذ إن الأدب والتأدب فى نجد يتطلب أن يكون الحوار على هذه الشاكلة . وسرعان ما جرى تقديم القهوة ، وبعدها تحول الحوار إلى الطابع العام بين خدمنا وخدم الأمير ، وهنا حدث شىء من الحركة الخفيفة، هب الحاضرون بعده واقفين ، وسرت فى المكان كلمة تقول : " يجى الأمير" بمعنى " الأمير قادم " . نهضنا نحن واقفين ، وكان الأمير فعلاً هو القادم فى هذه المرة . دخل الأمير الغرفة على رأس جماعة من الرجال الذين يرتدون ملابس أنيقة ، بل أكثر أناقة من الملابس التى شاهدناها من قبل ، ومد الأمير يده إلى ولفريد ، ثم مدها لى ، ومن بعدى محمد ، متبادلاً معنا التحيات كل حسب دوره ، وهو يبتسم ابتسامة توحى بالعطف واللطف . ثم جلسنا جميعًا ، وألقى ولفريد كلمة قصيرة من النوع الذى سبق إقراره والاتفاق عليه ، ورد الأمير على هذه الكلمة ردًا مفعمًا بالود ، وقال إنه مسرور جدًا بلقائنا ، وإنه يأمل أن نتصرف فى بيته كما لو كنا فى بيتنا . ثم سأل الأمير محمد بعد ذلك رفيقنا محمد عن أحوال الطريق ، كما سأل أيضًا عن جوهر وعن مسكاكة ، كما سأل بصفة خاصة عن الحرب الدائرة بين صدام وابن سمير . وبذلك تصبح الأمور على ما يرام لحد الآن ، واتضح لنا هنا أنه ليس هناك ما يخيفنا ، ومع ذلك لم أطق النظر بين الحين والآخر إلى تلك المشاجب المركبة على الجدار ، ولم أطق أيضًا التفكير فى قصة أبناء جبر الشبان هم وعبيدهم الذين جرى قتلهم بطريق الغدر والخيانة فى هذه الصالة نفسها ، وبيد هذا الرجل ، الذى هو مُضَيفنا فى الوقت الراهن .

وجه الأمير واحد من الوجوه الغريبة ، قد يكون ذلك مجرد خيال ، استثارته فى داخلى معرفتى لحياة ابن الرشيد الماضية ، لكن وجه الأمير أعاد إلى ذاكرتنا ملامح الملك رتشارد **Richard** الثالث : خدّان شاحبان هزيلان وغائران ، شفتان نحيفتان ، وجه يحمل تعبيرًا عن الألم ، اللهم عند الابتسام ، لحية سوداء غير كثة ، حاجبان أسودان مرسومان ، عينان ملفتتان للنظر؛ عميقتان غائرتان وثاقبتان ، مثل عينى

الصقر ، لكنهما تتحولان دومًا وفى قلق من وجه إلى الآخر ، ثم تنتقلان بعد ذلك إلى الجالسين بجانبه . وجه الأمير هو نفسه وجه الشخص الذى يعانى من آلام الضمير ، أو بالأحرى وجه الرجل الذى يخشى ويخاف أن يقتله أحد . كانت يدا الأمير طويلتين أيضًا وشبيهتين بالمخالب ، لا تهدآن ولو للحظة واحدة ، وتتلاعبان دومًا عندما يتكلم ، بحبوب مسبحته أو بحافة عباءته . وعلى الرغم من كل ذلك فالأمير له مظهر مميز ، فهو فارع الطول ، ويرتدى ملابس أرجوانية اللون من الكتان الفاخر ، ويبدو ملكًا بمعنى الكلمة . كان لباس الرجل فخمًا ، فى بداية الأمر حسبته يلبس ذلك اللباس من باب تشريفنا ليس إلا ، لكنى اكتشفت أن ذلك كان خطأ من جانبى ، يزاد على ذلك أن ابن الرشيد لا يلبس أو يرتدى سوى الفخم والرائع - كان لباس الرجل مكوّنًا من جبات متعددة من الحرير الهندى المقلم ، وعباءة سوداء ، مجدولة بخيوط من الذهب ، وما لا يقل عن ثلاث كوفيات الواحدة فوق الأخرى ، من النوع الذى يصنع فى بغداد ، والذى سبق أن قلت : إنه لا تلبسه سوى النساء ، والذى له أطراف وحواف من خيوط الفضه والذهب ، هذه الكوفيات تتدلى على جبهته كما لو كانت تاجًا . فيما يتعلق بالسلاح كان الأمير يتمنطق بخناجر عدة لها مقابض من الذهب ، كما كان مسلحًا أيضًا بسيف أنيق له مقبض من الذهب ، ومزين بالفيروز والياقوت ومصنوع فى حائل ، وهذا هو ما اكتشفناه فى مرحلة لاحقة . وعلى الرغم من أن خدمه المباشرين كانوا أقل منه روعة ، فقد كانوا يرتدون ملابس فخمة أيضًا .

بعد حوار دام حوالى ربع الساعة نهض محمد بن الرشيد من مجلسه وخرج من القهوة ، وجرى اقتيادنا إلى الدور العلوى إلى طرقه جرى فيها تقديم التمر لنا ومعه الخبز والزبد . ثم وصلتنا رسالة من الأمير ، تلتمس إلينا التفضل بحضور مجلس الأمير ، أو بالأحرى مجلس العدل الذى يعقده جلالته كل يوم فى فناء قصره . لم نكن مستعدين مطلقًا لمثل هذا العمل ، وعندما فتحت بوابة القصر ، وأشير إلينا بالخروج إلى ضوء الشمس ، انبهرنا تمامًا بالمنظر الذى التقى أعيننا .

كان فناء القصر الذى يبلغ من الطول حوالى مائة ياردة ومن العرض حوالى خمسين ياردة ، محاطًا كله بالجنود ، ليسوا من نوعية الجنود الذين اعتدنا أن نراهم فى أوروبا ، وانما هم جنود هادئون . كان اولئك الجنود ، يرتدون إلى حد ما زيًا موحدًا ، هذا يعنى أن هؤلاء الجنود كانوا جميعًا يرتدون عباءات بنية اللون وكوفيات زرقاء أو حمراء على رءوسهم . يزاد على ذلك ، أن كل واحد منهم كان يحمل سيفًا مقبضه مصنوع من الفضة . أحصيت من هؤلاء الجنود مايقرب من ثمانمائة رجل كانوا يشكلون مربعًا ، وكانوا يجلسون على شكل صف مزدوج بجوار سور الفناء ، أما الصف الثانى فكان يجلس على الأرض أمام الصف الأول . وكان الأمير يجلس على مقعد مرتفع بجوار السور الرئيسى ، وكان يحيط به أصدقاؤه وبخاصة حمود ؛ ابن عمه ، الذى يرافقه فى كل مكان يذهب إليه ، كما كان عبده المفضل قريبًا منه أيضًا ؛ هذا العبد اسمه مبارك ، وتتمثل مهمته فى حماية الأمير دومًا من القتلة(*). كان يقف أمام الأمير ستة من المتضرعين ، فى حين كان يقف خارج مربع الجنود ، جمهور من المواطنين والحجاج ، لأن موسم الحج هلَّ علينا ونحن فى حائل . كان علينا أن نسير عبر المربع فى حراسة عبد من العبيد ، وأشار لنا الأمير بالجلوس إلى جانبه ، وهو ما فعلناه بالفعل ، وواصل الأمير عمله .

تقدم أناس له بالتماسات قرأها عليه حمود ، وختمها بختمه بلا جدل أو نقاش ، ثم عرض على الأمير نزاعًا أملاً فى تسويته ، ولم أفهم مستحقاته نظرًا لأن العربية التى يتكلمها الناس فى حائل تختلف عن العربية التى سمعناها فى الأماكن الأخرى . ومع ذلك فقد لاحظت أنه على الرغم من أن أفراد البلاط والحاشية ينادون محمد بلقب الأمير ، فإن الرعايا الفقراء ، والأرجح أنهم من البدو ، كانوا ينادونه قائلين : " يا شيخ " ، وفى بعض الأحيان كانوا ينادونه قائلين : " محمد " . وهذا واحد ، يُحتمل أن يكون شيخًا شمريًا صغيرًا ، يقوم بتقبيل الأمير فى خده ، بعض الحجاج الذين أصابهم

(*) الخطر الذى يخشاه محمد هو خطر شخصى تبلور داخله بسبب سفك الدماء الذى أقدم عليه ، وليس خطرًا متعلقًا بالمنصب والجاه ، لأن رعاياه يحبونه ويجلونه فى منصب الإمارة .

الظلم جاءوا يشتكون للأمير ، وجرى البت فى شكاواهم على وجه السرعة ، ثم جرى بعد ذلك إبعادهم عن طريق الجنود . لم تكن القضية تستغرق أكثر من ثلاث دقائق ، لينتهى المجلس كله خلال نصف ساعة . وينهض الأمير واقفًا بعد انتهاء المجلس ، وينحنى لنا ، ثم يدخل إلى القصر ، فى حين كنا نحن نسعد بفرد أرجلنا التى أصابها الشد العضلى نتيجة الجلوس على مقعد خشبى لا يزيد اتساعه على قدم واحدة ، ورافقنا الحرس إلى المسكن الذى سنقيم فيه ، وكان معنا أيضًا كبير الياوران واثنان آخران من الجنود.

وجدنا بيتًا مزدوجًا جرى تجهيزه لنا فى شارع حائل الرئيسى ، ولا يبعد سوى مائتى ياردة عن القصر - منزل خال من المظهريات لكنه يفى باحتياجاتنا كلها ، كما كان المنزل مؤمنًا ضد المعتدين ، نظرًا لأن الباب الرئيسى قابل للغلق والفتح ، كما كانت جدران المنزل متينة . كان المنزل مكونًا من منزلين منفصلين ، وهو فى ذلك لا يختلف عن السواد الأعظم من منازل الجزيرة العربية ، أحد المنزلين للرجال والآخر للنساء . فى بيت الرجال كانت هناك قهوة وغرفتان صغيرتان ، ولذلك أعطينا هذا المنزل لمحمد هو والخدم ، واحتفظنا بمنزل الحريم لنا . منزل الحريم هذا ، كان فيه حوش صغير مفتوح ، يكفى لثلاثة أفراس فقط، وكان فى المنزل أيضًا ردهة مفتوحة من النوع الذى يطلقون عليه فى دمشق اسم الليوان ، كما كان فيه أيضًا مخزنان صغيران . وضعنا أمتعتنا فى واحد من هذين المخزنين، وفردنا فراشنا فى المخزن الآخر . كانت أبواب هذه الغرف الداخلية ، أو إن شئت فقل المخزنين ، تقبل الغلق عندما نكون خارج المنزل ، وكانوا يستعملون أقفالاً غريبة من الخشب ولها مفاتيح من الخشب ، كانت الأبواب مصنوعة من خشب الأثل . كل شىء هنا كان بسيطًا ، ولكنه نظيف وصالح للاستعمال ، كانت الزينات الوحيدة التى فى المنزل عبارة عن نماذج محددة باللون الأبيض وسط الدهان البنى الذى دُهنت به الجدران . بدأنا نستريح فى ذلك المنزل ، ولم نندم مطلقًا على هذه الراحة ، التى أصبناها بعد رحلتنا الطويلة .

على كل حال ، لم تكتمل راحتنا بعد . كانت الساعة تشير إلى الواحدة عندما وصلنا إلى منزلنا ، وقبل أن تشير الساعة إلى الثانية أرسل الأمير فى طلبنا مرة ثانية . كان الاستقبال خاصاً فى هذه المرة ، وفى الغرف الموجود فى الدور العلوى من القصر ، حيث وجدنا الأمير وحده مع ابن أخيه حمود . استقبلنا الأمير بحرارة وود أقوى من المرة السابقة ، ولم يكن الاستقبال عامراً بالرسميات إلى حد بعيد . كنا قد أحضرنا معنا بعض الهدايا ، وتركنا لمحمد مهمة الكشف عن هذا الموضوع ؛ كان محمد قد أسهب فى قيمة هذه الهدايا وطبيعتها كما لو كان تاجراً من تجار العاديات الشرقية . أما فيما يتعلق بنا ، فقد كنا نشعر بشىء من الخجل لضآلة قيمتها ، لأننا لم تكن لدينا فكرة عن مكانة ابن الرشيد الحقيقية عندما غادرنا دمشق ، يزاد على ذلك أن الجُبَّة قرمزية اللون التى حسبناها أروع ما جئنا به كانت لا تساوى شيئًا أمام الملابس الفارهة التى فى حائل . كنا قد أضفنا مسدسًا إلى العباءة والملابس الأخرى ، التى تدخل ضمن الهدايا الرسمية المعتادة ، وكنا قد وضعنا ذلك المسدس فى قراب أنيق ومطرز ، كما أضفنا إلى هذه الهديا أيضًا تلسكوبًا جيدًا ، وبندقية من طراز ونشستر Winchester، وكان أى من هذين الشيئين كفيلاً بأن يجعل كلاً من جدعان وابن شعلان يفخر عجبًا واندهاشًا وفرحًا ؛ لكن ابن الرشيد نشئ على نحو لا يجعله يفرط فى الإعجاب أو القبول ، ولم يهتم بهذه الأشياء ، إذ سبق له رؤيتها جميعًا من قبل . زد على ذلك أن البندقية لم تكن شيئًا جديداً على ابن الرشيد ، إذ كان لديه ضمن أسلحته بندقية مثيلة لهذه البندقية تماماً . ومع ذلك ، استمر محمد فى وصفه للأشياء بطريقة توحى بسذاجة الرجل ، فى حين راح الأمير ينظر من خلال التلسكوب من النافذة ، متظاهراً بأنه كان يتفحص الجدار المقابل ، لأنه لم يكن أمامه ما يراه . حمود ، ابن عم الأمير ، الذى سبق أن تعرفناه ، كان أكثر وداً معنا عن الأمير ، على الرغم من أنهما يشبهان بعضهما تماماً من حيث الوجه ، لكن حمود يفرق عن عمه فى أنه مرتاح الضمير ، ولم يكن لديه تاريخٌ يخاف منه أو يخشاه .

كان الاثنان يلبسان ملابس متشابهة تمامًا ، إلى الحد الذى يصعب معه تمييز أحدهما عن الآخر؛ ربما كان هناك هدف من وراء ذلك ، كما هو الحال عند آل رتشموند Richmonds عند شكسبير . كانت غرفة الأمير فى الدور الذى فيه القهوة ، لكنها أصغر من القهوة ، وليس فيها سوى عمودين ، وكان ركن القهوة فى الناحية اليمنى بالنسبة إلى الداخل إلى الغرفة ، وكانت دفاية الأمير مشتعلة ، فوق لوح من الحديد موضوع فى المقدمة . جرى فرش السجاد العجمى الإيرانى ، وكان هناك عدد كبير من المخاد لكى يتكئ عليها الجالسون بجوار الحائط . دعونا للجلوس على يسار الأمير هو و حمود الذى لا يغادر جانب الأمير مطلقًا . أما محمد فقد جلس فى مكان على الجانب الأيمن فيما بينهما وبين الباب . وجرى تقديم القهوة والشاى شديد الحلاوة ، وأعقب ذلك حوار طويل . كنا قد أحضرنا معنا رسالة من نواب إقبال الدولة ، الذى زار حائل قبل حوالى أربعين عامًا ، فى زمن عبد الله بن الرشيد (*) وتذكر الأمير فعلاً مجىء نواب إقبال الدولة ، لكنه ربما كان طفلاً فى ذلك الزمان ، وقال بعض الأشياء الطيبة فى ذكر محاسن ذلك الرجل . ثم سأل الأمير محمد عن أقاربه من آل عروق فى الجوف ، وقال إنهم من الرعايا المخلصين له دومًا . يبدو أن آل عروق وقفوا إلى جانب الأمير فى التمرد الذى حدث فى حائل منذ سنوات قلائل . كان هناك ابن عروق آخر فى الجوف ؛ ابن عروق هذا كان شيخًا بدويًا قال الأمير عنه إنه كان واحداً من أصدقائه : هذا يعنى أن ابن عروق هذا ، لم يكن فى أضعف الأحوال ، على وئام مع ابن سعود والوهابيين ، وهذا اللقب يحظى بكثير من الحب والمحاباة فى حائل . ابن الرشيد شديد الغيرة من ابن سعود ، وحاسد له ، والآن وبعد انهيار الدولة الوهابية ، نجد أن ابن الرشيد يدعم ويساند أى تمرد يمكن أن يحدث فى العارض . وأنا على يقين أن كثيراً من شيوخ البدو فى نجد العليا قد انضموا إلى جانب ابن الرشيد . وفى ضوء هذا التشجيع ، انطلق محمد فى سرد حكاياته المفضلة ، وراح

(*) جرى فى واقع الأمر أسر نواب فى حائل مدة شهرين . لكننا لم نكن على علم بذلك ؛ كما أن ابن الرشيد لم يشر أو يأتى على ذكر هذه الظروف .

يكرر ويعيد أسطورة ابن عروق ، التى أعترف وأقر أننى بدأت أملها وأسأمها ، ثم استطرد محمد بعد ذلك فى وصف عجائب تدمر ، التى راح يتحدث عنها تلميحاً لا تصريحاً ، ليقول للمستمعين إنه شيخ حقيقى . قال محمد : إن البيت الذى يعيش فيه فى موطنه كانت فيه أعمدة من الرخام ، طول الواحد منها حوالى ستين قدماً ، وإن هذا البيت بناه فى الأصل سليمان بن داود (. قال محمد أيضاً : إن هناك مائتى عمود فى البيت وخارجه ، وإن سُمك الجدران يصل إلى عشرين قدماً . وهنا طلب الأمير منا ، بعد أن أحاره ما سمعه ، تأكيد ذلك الذى يقوله محمد ، وقلنا للأمير إن ذلك كله موجود فى تدمر ؛ واقع الأمر ، أنه لا يمكن إنكار الحقيقة التى مفادها أن منزل والد محمد كان فيه بعض الأشياء التى أتى محمد على ذكرها ، على الرغم من أن المنزل نفسه ليس سوى مربع صغير مبنى من اللبن . يزاد على ذلك ، أن سور المدينة يشكل جانباً من جوانب الحظيرة ، وأن عموداً أو اثنين جرى إدخالهما فى المبنى الحديث ؛ لكننا وجدنا أن الأمر لا يتطلب شرح هذه المسألة أو توضيحها . بدأت سمعة محمد فى التزايد بطريقة متدرجة ، وبدأت أخشى أن تكون كياسة الأمير ولطفه قد لعبا برأس محمد . سمعته يهمس إلى حمود أن السيف ذا المقبض الذى يحمله ، والذى أعطاه ولفريد إياه فى دمشق ، هو ذكرى من ذكريات أسلافه ؛ قال محمد : إن هذا السيف موجود " من زمان " أى " منذ زمن بعيد " فى أسرة العروق . كما نسج محمد أقصوصة أخرى ، ودّ لو أننا شاركنا فيها ، ومفاد هذه الأقصوصة أننا بدأنا من محل الإقامة ومعنا صقر (نظراً لأن أفضل أنواع الصقور تأتى من تدمر) ، وأننا فقدنا ذلك الصقر أثناء الرحلة (*).

بينما كنا نناقش هذه الأمور المهمة ، انطلق صوت الأذان ، ورجانا ولدا الرشيد أن نبقى جالسين ، وانصرفنا خارجين من المكان .

(*) مسألة الترحال بصحبة صقر تعد علامة أو إشارة من إشارات النبالة .

تغيبا عنا دقائق قليلة ، وعند عودتهما ، عرض الأمير أن يرينا حدائقه ، ثم راح يتقدمنا عبر الممرات الرائعة ، مروا بالصالات والأبواب إلى أن وصلنا إلى بيارة نخيل يحيط بها سور عالٍ . وانضم إلينا في تلك البيارة عدد من العبيد ، البعض منهم أسود والبعض الآخر أبيض ، لأن النوعين موجودان في حائل . شاهدنا في تلك البيارة عدداً من الغزلان كان يجري هنا وهناك ، وجاء إلينا بصورة أليفة تماماً عندما دخلنا البيارة . كان الغزال صنفين : صنف منهما لونه البني أغمق من لون الصنف الثاني ، وهذا يتفق حسب علمي مع ما يسمى " غزال الغابات وغزال السهول" ؛ وهذان الصنفان موجودان في الجزائر . كان في البيارة أيضاً وعلان أبيضان لهما رأسان كبيران ، مستأنسان مثل الغزال تماماً ، وكانا يسمحان بتمرير الأيدي على شعرهما ، كان الغزال يبدو كأنه في موطنه وبيئته ؛ وقالوا لنا هذا الغزال يتوالد في الأسر . ومع ذلك كانت أهم الحيوانات ، من بين الحيوانات التي في هذه الحديقة ، عبارة عن ثلاث أبقار برية (يقولون لها بقر الوحش)، وجاءوا بها من النفود ، وكنا نتمنى من قلبينا مشاهدة هذه الحيوانات الثلاثة . وقد ثبت أن هذه الأبقار الثلاثة كانت ، على حد زعمنا ، نوعًا من الوعل، (*) على الرغم من أن التشابه الكبير بين هذه الوعول والأبقار المعتادة يقترب كثيراً من هذه التسمية . كانت تلك الوعول تقف مطاولة في ارتفاعها قامة عجل من عجول الألدرني Alderney يبلغ من العمر ستة أشهر ؛ وكان لكل وعل من هذه الوعول قتب على كتفه مثل الماشية الهندية . من حيث اللون نجد أن هذه الوعول يميل لونها الأصفر إلى السواد عند الأقدام . وجه الوعل مكون من لونين ، والقرنان أسودان ، ومستقيمان ومائلان قليلاً إلى الخلف ، ويصل طول الواحد منهما إلى ما لا يقل عن ثلاثة أقدام ، وفيهما علامات حلزونية . هذا البقر البري ، أو إن شئت فقل : الوحشي كان أقل استئناساً عن الحيوانات الأخرى ؛ يزاد على ذلك أن العبيد كانوا يخشون هذه الأبقار ، لأنها على استعداد لاستخدام قرونها المدببة والحادة مثل الإبر . وعلى الرغم

(*) الاسم العلمي لهذه الوعول هو Oryx beatrix .

من أن هذه الوعول تبدو سمينة ، فإنها تعانى من الحبس بشكل واضح ، إذ كانت الأبقار الثلاثة مصابة بالعرج ، كما كانت إحداها مصابة بتورم فى الركبة ، أما بقية البقر فكانت حوافرها أطول من اللازم . وبعد أن شاهدنا هذه الحيوانات وأبدينا إعجابنا بها ، وبعد أن أطعمنا الوعول شيئًا من التمر ، انتقلنا من خلال باب خفيض ، كدنا نزحف من خلاله ، لندخل حديقة أخرى ، عامرة بأشجار الليمون (الذى يسمونه هنا " ترنج ") ، والليمون البلدى (الذى يسمونه حامض) ، والرمان . كان الأمير كيِّسًا جداً ولطيفًا معى ومصغيًا لكلامى وأهدانى باقة ورد من نوع من الزعتر ، الذى هو الزهرة الوحيدة التى تنمو هناك . شاهدنا بعض الإبل وهى تعمل فى جلب الماء من بئر كبيرة ، يصل عمقها إلى ما يتردد بين مائة ومائة وخمسين قدمًا ، وذلك من خلال طول الحبل . دخل الأمير من خلال باب منخفض ، ودخلنا نحن من بعده ، لنجد أنفسنا داخل إسطبل ملىء بالأفراس والخيول ، مربوطة على شكل صفوف إلى المَعْلَف . وهنا وجدتنى أبلغ من الانفعال حداً عجزت معه عن النظر إلى الخيول ، لأن ذلك كان هدفًا ومبتغى أساسيًا لنا .

كان ذلك الإسطبل يحتوى على عشرين فرسًا ، ومن بعده إسطبل آخر يضم عدداً مساويًا لهذا العدد على وجه التقريب . ثم شاهدنا بعد ذلك إسطبلاً آخر يضم حوالى ثمانية أحصنة مربوطة بالطريقة نفسها ؛ ومن خلف ذلك الإسطبل كان هناك إسطبل رابع يضم حوالى ثلاثين أو أربعين مهراً صغيراً . وأنا لن أصف الآن كل ذلك الذى رأيناه ، وسبب ذلك أن إسطبل خيول الأمير يحتاج إلى فصل مستقل بذاته . يكفينى القول هنا : إن انطباع ولفريد الأولى هو وانطباعى كانا متماثلين . هذه الحيوانات التى رأيناها أمامنا ليس لها مثيل من حيث الجمال أو الشكل أو النوعية بين أفضل أنواع الخيول التى شاهدناها عند الجموصة ، ومع ذلك لم يتح الأمير لنا فرصة التفكير والتدبر ، لأنه اقتادنا بحركة رائعة من يده ، وراح يشرح لنا بطريقة متواضعة وهو يقول : " خيول عبيدى " ، وأخذنا من حظيرة إلى أخرى ، ولم يسمح لنا سوى بقليل من الوقت كى نسأله خلاله عن السلالة ، وكان يحيلنا إلى حمود للإجابة عن هذه الأسئلة .

كنا قد شاهدنا الكثير ، الذى أسعدنا كثيراً ، كما وعدنا حمود بأننا سنرى هذه الخيول مرة ثانية . ومع ذلك لم يكن هناك شك ، فى أنه على الرغم من تنصل الأمـيـر ، فإن خيول ابن الرشيد الأصيلة هذه ، إنما تعد صورة طبق الأصل من إسطبل فيصل بن سعود ، الذى ينسج الناس حوله كثيراً من الحكايات والروايات .

المنظر الآخر المهم لنا ، فى رأى الأمـيـر ، هـو مطبخ الأمـيـر ، الذى بدأ سـمـوه يقتادنا إليه. هنا ، فى المطبخ ، وبفخر واضح ، راح الأمير يعرض علينا أوانيه ومواعينه ، وبخاصة تلك القدور السبعة الهائلة الحجم ، التى يتسع الواحد منها لطهو لحم ثلاثة من الإبل . وكـان العـديد من تلك الأوانى والمواعين يجرى اسـتـعمـالها بالفعل ، نظراً لأن ابن الرشيد يستقبل يوميًا حوالى مائتى فرد ، إضافة إلى أفراد العائلة . هذا يعنى أن فاتورة الطعام اليومية تكلفه ثمن سبعة من الإبل أو أربعين من الغنم . وعندما خرجنا من المطبخ وجدنا الجوعانين مجتمعين بالفعل . كل الغرباء الذين يتصادف وجودهم فى حائل يأكلون على مائدة ابن الرشـيد ، وقبيل غروب الشـمس يبدأ فناء القـصـر يغص بالبشر . الأمير لا يحضر هذه الولائم بنفسه . وهو يتناول طعامه وحيداً ، أو فى سكن الحريم لكن الخدم والعبيد مدبرون تدبيراً جيداً ، و يتصرفون تصرفات كيِّسة مع الزوار كلهم ، سـواء أكـانوا أغنيـاء أم فقـراء . جرى إحـضـار عـشـائنا لنا فى منزلنا . وبذلك ينتهى أول يوم من أيامنا فى حائل، يوم رائع ومـهم ، لكنه لم يكن خـاليًا من الإرهـاق . قال محمد بن عروق لولفريد ، عندما كانا جالسين فى المساء يشربان القهوة ويدخنان : " يا أخى ، ألم أعدك بأنك سترى نجد ، وابن الرشـيد ، وخيل ابن الرشيد، ألم تر ذلك كله ؟ " شكرناه بل شعرنا بالامتنان له . ولم تكن الأفضـال كلها من جانب واحد ؛ لأن المواقف الإخوانية كانت متوازنة تمامًا ، لأن محمد كان شغوفًا بالقيام بهذه الرحلة مثلما كنا نحن شغوفين بها أيضًا . لكن ، يا أسفاه ! لقد أوشك لقاؤنا الطيب مع محمد على نهايته .

يمكن لنا أن نصف وصفًا موجزًا تلك الأيام القلائل التى أمضيناها بعد ذلك فى حائل . كان محمد هو و ولفريد يذهبان كل صباح لحضور المجلس ، ثم يقومان بعد

ذلك ببعض الزيارات ، كما كانا يزوران حمود في بعض الأحيان ، ومبارك في أحيان أخرى ، وكانا يزوران الأمير في أحيان ثالثة . كان هناك عبد يقوم بإحضار الإفطار إلينا صباح كل يوم من القصر ، وجاء جندى ليرافقنا أثناء تجوالنا في الشوارع ، كان محمد قد تعرف هو الآخر على بعض الناس ، الأمر الذى كان يجعله يغيب عنا طوال النهار . كنت أمضى القسم الأكبر من وقتى في المنزل، اللهم إلا إذا كنت مدعوة إلى الحضور إلى القلعة ، وسبب ذلك أننا اتفقنا على أن الحذر والحرص والتعقل هو الذى يشكل أفضل ما في الشجاعة والبسالة . وأنا أرى أن هذا الحرص له ما يبرره ؛ وسبب ذلك أننا على الرغم من أنه لم نلق من أهل حائل سوى الأدب والكياسة ، فقد علمنا بعد ذلك أن البعض منهم لم يكونوا راضين عن الاستقبال الذى لقيناه من الأمير . يزاد على ذلك ، أن الأوروبيين لم يسبق أن جاءوا إلى حائل أو رآهم أهلها ؛ ويحتمل أن ينشأ لدى هذه الفئة من أهل حائل إحساس متطرف لو أننا أتينا شيئًا مثل هذا الشعور . صحيح أن الوهابية آخذة في الأفول ، لكن ذلك لم يتضح بعد في حائل ؛ ومن المرجح أيضًا أن يكون الوهابيون أعداء لنا. في منزل الأمير ، أو بالأحرى برعاية واحد من ضباطه ، كنا نحس بالأمن والسلامة ، لكن تجوالنا على انفراد يعد نوعًا من التهور والاندفاع . يزاد على ذلك ، أن الهدف من خروجنا من المنزل لم يكن له ما يبرره ، ذلك أن حائل ليس فيها ما يستحق الرؤية غير البلاط الأميرى .

تصادقنا مع حمود وأسرته صداقه متينة . حمود شخص يوحى بالثقة من الوهلة الأولى، وليس هناك ما يدعونا إلى الأسف على التصرف معه في ضوء أول انطباع لدينا عن شخصيته . يقولون : إن حمود كان يرفض دومًا الحصول على أية هدايا من الأمير ؛ ولم يكن في يوم من الأيام موافقًا على تصرفات الأمير ، على الرغم من وقوفه إلى جانبه من الناحية السياسية ، وعلى الرغم أيضًا من خدمته للأمير باعتباره أخًا له . شخصية حمود ، شخصية مميزة مثل أية شخصية في الدنيا كلها ؛ يزاد على ذلك أن حمود شخصية ذكية ومثقفة ثقافة طيبة . أما الأمير فهو مختلف عن حمود ؛ إذ إن في

هذا الرجل جين (مورِّث) محدد . كان من المستحيل نسيان قصة الاغتصاب المريعة التى نفذها ؛ كما أن هذا الأمير فيه شيء ما ، يجعل المرء لا يحس بالأمان فى وجوده . وعلى الرغم من إتقان الأمير لكيفية التصرف بتعال وكرامة وكبرياء ، فهو لا يفعل ذلك بصورة دائمة . وفى بعض الأحيان ، يصعب التوفيق بين سلوكه الطفولى وقدراته التى قدم لها براهين كثيرة . هذا يعنى أن هذا الأمير فيه شيء من تصرفات الطفل المدلل ، وهذا يتجلى فى سلوك الرجل عندما ينتقل من موضوع إلى آخر ؛ وهو مثل جوهر ، فيه خصلة طرح الأسئلة وعدم الانتظار لسماع الرد عليها ، وهذا مظهر سلوكى من شيم سلوك الملوك ، وربما كان ذلك أثر من آثار إحساسه بأنه صاحب سمو ملكى. الأمير مغرور أيضًا إلى حد السذاجة ، وهو فى ذلك يستوى مع أولئك الذين يتغذون بصورة دائمة على التملق والنفاق ؛ والرجل يقظ وحريص دومًا على المديح والثناء الذى يكال لسلطته ، كما أنه حريص أيضًا على امتداح الناس لحكمته وممتلكاته . يضاف إلى ذلك أن حقد ابن الرشيد وغيرته من كبار الشيوخ الآخرين الذين التقيناهم يظهر على شكل أعمال طفولية. أما حمود فليس فيه أية خصلة من هذه الخصال . وأنا أتخيل أن حمود بالمقارنة مع محمد ولد عمه ، هو مثل مورنى **Morny** بالمقارنة مع لويس **Louis** نابليون **Napoleon**، اللهم باستثناء أن مورنى لم يكن مثل حمود رجلاً طيبًا أو مهذبًا . وحمود يسدى النصح للأمير ، ويكلمه بصراحة تامة عندما يكونان على انفراد ، لكنه يظهر أمام الدنيا كلها كأنه تابع مخلص وأمين على أميره . حمود له أبناء عديدون ، أكبرهم ماجد الذى يتمتع بكل أخلاقيات والده المبهرة ، فضلاً عن جاذبيته الناجمة عن كونه شابًا صدوقًا وصريحًا وصادقًا إلى أبعد الحدود ؛ إضافة إلى جماله المثالى . ماجد يبلغ من العمر ستة عشر عامًا ؛ وقد جاء هو وأخوه وعم شاب لهم ، لزيارتنا فى اليوم الثانى لوصولنا ، وقد أوفدهم والدهم لتحيتنا والسلام علينا . تكلم ماجد كثيرًا وبصراحة عن كل شيء ، وقدم لنا قدرًا كبيرًا من المعلومات عن الأفراس المختلفة التى فى إسطبل الأمير ، كما أعطانا معلومات أيضًا عن أفراس والده ، وعن خيوله هو . ثم راح بعد ذلك يحكى لنا عن حملة قام بها هو والأمير على منطقة الكويت المجاورة وكيف أنه رأى البحر هناك . هذا يعنى أنهم قاموا بغزو الفلاحين على ساحل

البحر ، ثم عادوا بعد ذلك . سألنى ماجد عن ركوبى للخيل ، وأريته السرج الذى أركب عليه ، الذى لم يكن مفاجأة له . قال : " هذا شداد ، أنت تركبين كما لو كان الرجل يركب جملاً " . هذا الماجد صغير السن ، على الرغم من أنه يبدو صبياً صغيراً ، فهو متزوج ؛ وقيل لنا إن أبناء الأسر الطيبة فى حائل لا يؤخرون الزواج إلى ما بعد السادسة عشر . تعرفت إلى زوجته أرغية ، وهى شديدة الجمال ، وصغيرة الحجم ، وصغيرة السن أيضاً ؛ وهى واحدة من بنات متعب بن الرشيد ، وأختها متزوجة من حمود ، وبذلك يصبح الأب والابن أنسباء .

كان مبارك ، كبير عبيد الأمير ، واحداً من أهم معارفنا . مبارك يقيم فى منزل شديد الأناقة ، قياساً على منازل حائل ؛ وقد قام ولفريد بزيارة مبارك أكثر من مرة فى هذا المنزل؛ ومنزل مبارك مزين برسوم من الجبس على شكل طيور وحيوانات ـ نعام ، ووعول ، وإبل. وعلى الرغم من أن مبارك عبد ، فإن مظهره لا يكشف عن أقل القليل من الدم الزنجي ؛ وما يزال الأمر مستغلقًا علينا فى مسألة عبودية مبارك هذه . مبارك شخص مُرَبى تربية حسنة ، وبذل ما فى وسعه من أجل أن يسر خاطرنا .

فى اليوم الثانى لوصولنا ، وبعد التحيات والسلامات المعتادة ، وبعد شىء من الحوار ، طلبت من الأمير أن يأذن لى بزيارة الحريم . ويبدو أن محمد بن الرشيد كان راضيًا عن طلبى ، الأمر الذى جعله يوافق على الفور قائلاً : إنه سوف يرسل إلى الخواتين (السيدات) لكى يعلمهن بهذه الزيارة ، ورغبته فى جعلهن يجهزن أنفسهن لهذا الاستقبال . وبناءً على هذا الكلام ، أرسل محمد بن الرشيد مراسلاً لإبلاغ ذلك الخبر ، فى حين بقينا نتحدث معه فترة طويلة قبل أن يصل الرد ؛ كنت قد سئمت الانتظار ، وكنت أعجب متى يمكن أن نعود إلى منزلنا ، حتى أتمكن من كتابة مذكرات اليوم فى شىء من السرية ، وعندما دخل علينا المراسل ليقول لنا : إن عموشة ، زوجة الأمير الرئيسية ، على استعداد لاستقبالى . وأنا أتخيل أن النساء هنا لا يولين ملابسهن أو لبسهن اهتماماً إلا عندما يردن استعراض حرائرهن ومجوهراتهن أمام بعض زوارهن ؛ وأنهن فى مثل هذه المناسبات تكون زينتهن فى أبهى صورها ، بما فى

ذلك الكحل ومواد التجميل ، وذلك يستغرق منهن وقتًا طويلاً . على الفور أوكل الأمير أمرى إلى جارية سوداء ، فسحت الطريق أمامى إلى محل إقامة الحريم . زوجات حمود وأيضًا زوجات الأمير محمد كلهن يعشن فى القصر ، لكن كل واحدة منهن فى مسكن منفصل . والقصر يعد مدينة بحد ذاته ، وتعين علىّ أنا ومرشدتى السوداء المشى بسرعة عبر كثير من الطرقات والأحواش ، وتجاوزنا كثيراً من الأركان عن اليمين وعن الشمال ، إلى حد أننى إذا ما طلب منى العودة من الطريق نفسه بلا عون أو مساعدة ، فلن أستطيع القيام بذلك . أخيرًا ، وبعد أن عبرنا فناءً كبيرًا توقفنا أمام باب صغير منخفض . كان ذلك الباب مفتوحًا ، ومن خلال ذلك الباب المفتوح أمكننى رؤية بعض الناس الجالسين حول النار فى الداخل ، لأن ذلك كان المدخل المؤدى إلى قهوة عموشة ، هذه الغرفة كان فيها عمودان يحملان السقف ، مثل بقية الغرف التى شاهدتها فى القصر ، فيما عدا القهوة الكبيرة ، التى تحتوى على خمسة أعمدة . المدفأة ، أو بالأحرى وجار القهوة كالعادة ، عبارة عن حفرة بيضاوية الشكل فى الأرض ، وعلى الجانب الأيسر من مدخل القهوة ، وفى الركن القريب من الباب ؛ فى هذه الحفرة كان يوجد الوجار الحامل للنار ، فيما بين الحفرة والجدار توجد سجادات أنيقة مفروشة على الأرض . وقفت كل الحاضرات عندما وصلت إليهن . كان من السهل تمامًا تعرُّف عموشة من بين الحاضرات كلهن ، حتى قبل أن تتقدم هى للترحيب بى . هذه السيدة لها مظهر مميز وسلوك مميز يمكن تعرفه فى أى مكان وكان نجمها طاغيًا على بقية المجموعة . لكنها ، ابنة عبيد بن الرشيد ، وشقيقه حمود ، كان معها الحق كل الحق فى أن تتفوق وتتألق دونًا عن سائر الأصدقاء ، والأقارب والزوجات الأخريات . وعلى الرغم من أن وجهها كان أقل اتساقًا من وجه أخيها فهو جميل بما فيه الكفاية ، وأنف جميل و فم جميل أيضًا ، كما أن فيها أيضًا نوعًا فريداً من التلألؤ والبريق والذكاء . أما حدوشة و لولية، الزوجتان الأخريان ، اللتان كانتا حاضرتين ، فكانتا ترتديان فستانين مقصبين بالذهب والفضة مثل فستان عموشة ، وكانت خدودهن وشفاههن مخضبة باللون الأكثر حمرة عن شفاه عموشة ، وكانت عيونهن مكحلة بالكحل مثل عيون عموشة أيضًا ، لكن عيونهن كان ينقصها السحر والجاذبية اللذان

فى عيون عموشة . يضاف إلى ذلك أن عموشة من النوع الذكى والمسلى والأنيس ، وتمكنت من المحافظة على استمرار الحوار ، الذى لم تجرؤ الزوجتان الأخريان على المشاركة فيه . كانتا جالستين يبدين جمالهن لكنهما كانتا فى وضع ثانوى . تشترك لولية مع عموشة ، على حد قول عموشة لى ، فيما بعد فى امتياز خاص وأنهما لم تغادرا المدينة مطلقًا ، ولذلك فهما يسبقان حدوشة ، التى تقع عليها مهمة رعاية شئون الأمير فى الصحراء ، عندما يذهب إليها لتمضية جزء من العام فى الخيام . مسألة الالتزام بهذه الخدمة الغريبة ينظر الناس إليها على أنها تحط من القدر ، وبالتالى تعترض سيدات حائل على هذه المسألة . وهن لا يعرفن معنى السمر والأنس والتسلية والإمتاع ، إن قدر لى أن أقول ذلك ، من منطلق ما حكينه لى ؛ لكنهن على قناعة تامة أن السعادة الكاملة والاحتشام يتمثل فى الجلوس الهادئ والتزام الصمت .

تمتعت أنا وعموشة بهذه السعادة شيئًا من الوقت . جلسنا معًا فوق سجادة واحدة جرى فردها فوق واحدة من الحشيات (المراتب) ، فى حين جرى وضع التكايات على طول الحائط الموجود فى الخلف ، حتى يمكن لنا الاتكاء عليها ، فى حين كانت النار أمامنا تداعب حرارتها وضوؤها خدودنا ونحن نتسامر معًا . كانت هديوشة تجلس عن يمينى ؛ ومن خلفها كانت تجلس لولية حدوشة ومعها بقية المجموعة ، مشكلة بذلك دائرة حول المدفأة . وبعد وقت قصير ، قدمن لى عطوة ، تلك الفتاة الجميلة الصغيرة ، الزوجة الرابعة للأمير ، التى دخلت علينا واتخذت لنفسها مكانًا خلف لولية . كانت عطوة تبدو زوجة مستقبلية وليست امرأة متزوجة بالفعل ، إذ كانت صغيرة السن تمامًا ؛ وسرعان ما ظهر لى أن عطوة إنما جرى إحضارها لمجرد رعايتها والنظر إليها والتفكير فيها ، وعرفت أيضًا أن الأمير رفضها باعتبار أنها مازالت طفلة . وليست جميلة بالقدر المطلوب(*) . واقع الأمر ، أن ذهن الأمير كان مركزًا على

(*) لم أسمع شيئًا عن أرملة عبيد ، ولم يكن بوسعى السؤال عنها .

نوع من الرباط الذى يتعين أن يجلب عليه المزيد من التأييد السياسى ، والمزيد من الراحة المنزلية . ولما كانت تلك هى أهداف الأمير من زواجه الجديد فقد سمعته وهو يقول ، وذلك من خلال الأسئلة التى طرحها علىّ حول بنات شيوخ البدو اللاتى فى سن الزواج . هل هناك فى واقع الأمر من هى أنسب لهذا الغرض غير ابنة من بنات واحد من شيوخ الصحراء العظام ، الذى يمكن أن تكون عائلته حليفة قوية للأمير فى زمن الحرب ، فى حين تكون الفتاة نفسها ، الزوجة الرابعة المثالية ، وأن تكون على العكس من هذه النساء الحضريات ، فى أن تكون على استعداد دائم لمرافقة زوجها إلى الصحراء ، وأن تفضل الصحراء على المدينة ؟

كانت من بين الحاضرات نساء أخريات مسنات عديدات من القريبات اللاتى ضاعت من ذاكرتى أسماؤهن وقرابتهن ؛ كما كان من بينهم أيضًا عدد كبير من الخادمات الجوارى السود ، وكان السواد الأعظم من تلكم العبدات سوداوات . كن جميعهن يتجمعن حول النار ، وتحاول كل واحدة منهن الدخول ضمن الصف الأمامى ، وينتهزن فرصة إبداء ملاحظة هنا أو هناك ، وذلك من باب المشاركة فى الحوار والحديث عن محاسنهن . ولم تكن أية واحدة من تلكم الغريبات ترتدى سوى لباس بسيط مصنوع من القطن المصبوغ باللون الأزرق الداكن أو اللون الأسود ، أو من قماش الصوف الذى تستخدمه البدويات العاديات فى هذا الجزء من الجزيرة العربية ، والذى غالبًا ما تكون له حافة ضيقة جدًا على شكل كردون (حبل) أو رباط جميل المنظر . هذه الملابس الفارهة التى ترتديها كل من عموشة هى والزوجات الأخريات ، يصعب إلى حد بعيد وصفها ، لأنها تشكل مظهرًا لروعة عديمة الشكل . كل سيدة من هذه السيدات كانت ترتدى رداء شبيهًا بالعباءة ، لكنه مغلق من أعلى المقدمة لكى يتحتم وضعه على الرأس ؛ ونظرًا لأن هذا الرداء يُلْبس بدون حزام ، أو رباط حول الخصر ، فإنه يشبه الجوال . هذه الجوالات تصنع من قماش رائع ، من الحرير المقصَّب (المطرز) بالذهب ، لكنه لا يناسب ولا يصلح لإخفاء أى شىء من مفاتن الجسم . كانت عموشة ترتدى رداءً قرمزيًا مطرزًا بخيوط من الذهب ، وكانت تضع

حول عنقها كتلة من السلاسل الذهبية المرصعة بالياقوت واللؤلؤ . وكان شعرها يتدلى منسدلاً إلى الأسفل على شكل أربع ضفائر طويلة ، ناعمة الملمس بفعل مادة يميل لونها إلى الاحمرار ، فى حين كانت تضع على رأسها زينة من الذهب والياقوت ، على شكل طبق صغير قطره حوالى أربع بوصات . هذا الطبق موضوع على أعلى مقدمة جبهة عموشة ، ومثبت من الخلف بسلاسل من الذهب واللؤلؤ فى زينة أخرى شبيهة بالطيَّة ، وهو مصنوع أيضًا من الذهب والياقوت ، ومثبت بمشبك فى الرأس من الخلف ، وله أطراف تتدلى على جانبى الرأس والعنق وينتهى بخيوط طويلة من اللؤلؤ وشراريب على شكل أجراس مصنوعة من الذهب واللؤلؤ . كان اللؤلؤ المستخدم مختلف الأشكال ، وغير مصنف من حيث الحجم ، أما الياقوت فلم يكن متساويًا من حيث الشكل ، أو الحجم أو النوع . أما المرجان فكان على شكل حبوب . وكانت الأعمال الذهبية جيدة فى معظمها ، وقيل إن البعض منها جاء من إيران ، لكن القسم الأكبر من هذه الأعمال الذهبية كان من صنع حائل . نسيت تمامًا التطرق إلى خزام الأنف ، وهو هنا أكبر من أى خزام شاهدته من قبل فى بغداد وفى أماكن أخرى ، إذ يتراوح عرضه بين بوصة ونصف البوصة إلى بوصتين . وهذا الخزام عبارة عن حلقة رفيعة من الذهب ، فيها عقدة من الذهب والياقوت مثبتة بواسطة سلسلة فى الطيَّة سالفة الذكر . والخزام تلبسه المرأة فى فتحة الأنف اليسرى ، لكن صاحبته تخلعه إذا ماكانت تأكل أو تشرب . تلك زينة من الزينات غير المناسبة تمامًا ، هذا هو ما دار بخلدى وما قلته ، لأن هذا الخزام عندما يرفع أو يخلع يخلِّف وراءه ثقبًا مقززًا ، يجرى عمله بطريقة سيئة فى فتحة الأنف ومنظره غير مريح بالمرة أكثر من الثقوب التى تحدثها النساء الأوروبيات فى آذانهن . لكن الموضة تحكم نساء حائل مثل النساء فى الأماكن الأخرى ، الأمر الذى جعل معارفى الجديدات يضحكن من هذه الانتقادات ويسخرن منها . هن يجدن فى هذه الحليات الصغيرة لُعَبًا مفيدة لهن ، وتسلين أنفسهن بخلع وتركيب هذه الحليات مرة بعد أخرى . يزاد على ذلك أنه كلما كبر حجم الحلقة كان ذلك علامة على علو المكانة ، ومن هنا يمكن اعتبار قطر الخزام مقياسًا لمرتبة صاحبته ، ذلك أن خُزم من هن أقل من عموشة ، لا يتعدى قطر الواحد منها البوصة الواحدة .

كانت عموشة من النوع الصريح ، كثير الكلام ، لكنها حدثتني عن أسماء كثيرة جديدة إلى حد أني لا أقوى على تذكر كل المعلومات التي تطوعت بإعطائي إياها عن أسرة ابن الرشيد وأقارب هذه الأسرة . وقد أبدت ملاحظة مفادها أنها لا هي ولا بقية زوجات محمد الأخريات أنجبن أطفالاً ، وهذه حقيقة أنا أعرفها فعلاً ، ولم تقتصر معرفتي لهذه الحقيقة على الحصول عليها من راضي وحده ؛ لأن هذه الحقيقة هي حديث المدينة وحديث القبيلة أيضًا ؛ والناس يعتقدون أن هذا هو حكم الله في الأمير عقابًا له على جرائمه . كانت تتكلم بحب وشغف بالغ بابن أخيها ماجد وأخيها حمود ، كما تكلمت بوقار واحترام عن والدها عبيد ، وأنا لا أتذكرأنها قالت لي جديداً عنهما . حدثتني أيضًا عن طلال بن الرشيد ، لكنها لم تأت على ذكر بندر وعلى الرغم من أني كنت أعرف الكثير عن تاريخ عائلة ابن الرشيد ، كما كنت أعرف من الأسرار ما يجعلني أخاطر بطرح أسئلة كثيرة ، يزاد على ذلك، أن الكشف عن فضولي يمكن أن يجعلها تتشكك في أن لدي دوافع غير معلنة . من هنا بدأت أحس المزيد من الارتياح عندما بدأ الحوار يبتعد عن مناطق الخطر ، ويدخل في الأمور الآمنه التافهة والصغيرة ، التي من قبيل سلوكيات وأخلاقيات وعادات وتقاليد مختلف البلاد . سألتني عموشة ، وهي تمسك بجديلة من جدائل شعرها الأصحر(*) الطويل الجميل كي أبدي إعجابي بها : " لماذا لا تصففين شعرك مثل شعري ؟ " وكان عليّ أن أوضح لها أن خصلات شعري القصير لا تصلح لتصفيفه على هذا النحو . ثم سألتني : " لماذا لا ترتدين ملابس مقصبة بخيوط الذهب والفضة ؟ " وأجبتها قائلة : " هذا لا يناسبني . هل تصلح هذه الأشياء الجميلة لأعمال الترحال الشاقة ، والصيد ، وركوب الخيل في الصحراء . " عندما تطرق حديثنا إلى ركوب الخيل ، بدت عموشة للحظة كأنها تتشكك في مسألة رضاها الكامل عن مصيرها وقدرها في هذه الحياة – قالت عموشة : إنها تود أن تراني وأنا ممتطية صهوة فرسي ؛ ووعدتها بأن ذلك سيحدث (بمشيئة الله) ،

(*) الشعر الأصحر : هو الشعر الأسمر المحمر . (المترجم) .

إذا ما تمكنتُ من ذلك . لكن الفرصة لم تتهيأ لى كى أفعل ذلك ، وربما كانت السلطة العليا هى التى حالت دون حدوث ذلك . وربما تكون قد تضايقت من عدم تحقيق ذلك . مر الوقت سريعًا ونحن نتسامر على هذا النحو ، وهنا انطلق صوت المؤذن معلنًا دخول وقت صلاة الظهر . وهنا طلبت منى مضيفتى أن أسمح لها بالانصراف ، و أضافت قائلة : " أود أن أصلى " . وهنا نهضت ومعها باقى الحاضرات ورحن يؤدين صلاة الظهر فى وسط الغرفة . وبعد أن انتهت من الصلاة عادت وواصلنا حديثنا من حيث توقفنا .

بعد ذلك قام بعض العبيد بإحضار صينية ، وضعوها أمامى . وكان فوق هذه الصينية الإفطار الجاف المعتاد ؛ طبق كبير من الأرز فى منتصف الصينية ، محاط بمجموعة من الأطباق (السلطانيات) الصغيرة متباينة الأنواع ومليئة بنوع من الصلصة ، أو إن شئت فقل المرق ، التى تؤكل مع الأرز . حاولت الاعتذار قدر المستطاع ، لأنى لم تكن شهيتى مفتوحة للطعام ، وقلت لعموشة إننى أكلت اليوم أرنبًا من الأرانب البرية التى أرسلها لنا الأمير . وألحت عموشة علىّ ، وأصرت على أن أتناول الطعام ، واضطرتنى إلى الدخول فى شكل من أشكال محاولة تناول الطعام ؛ ومن حسن الطالع أن كانت هناك أفواه جائعة أخرى ، وعيون كانت تترقب وتنتظر وصول الأطباق إليها ، وبذلك أمكن لى التخلص من مسألة الأكل بمنتهى السهولة .

عزمتنى عموشة بعد ذلك على الصعود إلى الطابق العلوى ، كيما تُرينى سكنها الخاص، وفى الطابق الذى يعلو القهوة . تبعتها وصعدنا سلمًا منحدرًا ، كان ارتفاع كل درجة من درجات السلم حوالى ثمانية عشرة بوصة . هذا السلم لم يكن يوصّل إلا إلى غرفة واحدة ، حجمها مساوٍ لحجم الغرفة الموجودة أسفلها ، ومبنية بالطريقة نفسها ، وفيهما عمودان يحملان السقف ، ولها نافذة فى تجويف مماثل للباب الموجود فى الأسفل . هذا المسكن كان مفروشًا بالسجاد الجيد ، وكان فيها أيضًا سرير كبير ، أو إن شئت فقل كوشة ، مكونة من القطيفة المذهبة ، كما كان فى الغرفة أيضًا شىء

شبيه بالخزانة ، او بالخزانة ذات الرفوف ، أو بالأحرى صندوق على حد قولها ، مصنوع من نوع من الخشب الغامق ، ومزين بألواح رقيقة من الفضة ملصقة على بعض أجزاء هذا الصندوق . كان الصندوق مسنوداً على الجدار ، وقد يصل طوله إلى حوالى خمسة أقدام وارتفاعه يتردد بين قدمين وثلاثة أقدام ، وله بابان ، ويرتفع عن الأرض حوالى قدمين على أربعة أرجل رفيعة . تحت هذه الخزانة (الدولاب) وأمامه توجد ثلاثة أو أربعة صفوف من الصينى (الخزف) والأوانى الفخارية الشائعة ، كما توجد أيضًا بعض السلطانيات الهندية ، كل ذلك مرصوص على السجادة كما لو كانت سلعًا معروضة للبيع فى الشارع . سألتنى عموشة عن رأيى فى بيتها ، وهل هو لطيف ؟ وبعد أن أرضت نفسها بسبب استحسانى لمنزلها ، صحبتنى إلى الدور الأرضى مرة ثانية ، وجلسنا من جديد على الحشية بين المدفأة والجدار .

زار الأمير القهوة مرتين أثناء مقامى فى حائل ، وفى كل مرة كان يظهر فيها عند الباب، كانت الحاضرات كلهن والزوجات يقفن باستثناء عموشة ، ولا يجلسن إلا بعد أن يغادر الأمير ، كانت عموشة تكتفى بانحناءة أو حركة بسيطة كما لو كانت توشك أن تنهض واقفة ، وتحتفظ بمكانها إلى جانبى فى حين وقف زوجها يتكلم فى مواجهتنا . كان يوجه كلامه كله لى ، وكان يتكلم بطريقة صبيانية لعوب ، كان دائمًا ما يفتعلها . سألنى عن رأى فى زوجاته ، وهل هن أجمل من زوجة ابن شعلان أم لا ، وزوجة ابن شعلان اسمها غبوشة ، وهى شقيقة الحميدى بن مشور ، وهل هن أجمل من زوجة ابن شعلان السابقة تركية ، ابنة جدعان ، التى تركته وعادت إلى خيمة والدها . خلال ثمانٍ وأربعين ساعة من وصولى إلى حائل ، كان الأمير قد طرح علىّ كثيراً من الأسئلة عن هاتين السيدتين : غيوشة وتركية ؛ وأنا الآن أجيبه للمرة المئة أن تركية جميلة ولطيفة ، لكن غيوشة أجمل ، ومسيطرة إلى أبعد الحدود . ومع ذلك وجدت الأمير مصراً على عقد مقارنة بين العائلتين ، وأنا الآن حظيظة لأنى رأيت كلاً من عموشة ، وحدوشة ، ولولية ، وكذلك عطوة ، ومن هذا يمكننى القول بصدق إن نساء ابن الرشيد كن أكثر أناقة ، بما فى ذلك عطوة المسكينة المرفوضة ، كانت هى الأخرى أجمل وأكثر

أناقة من حريم ابن شعلان . كان الأمير يشعر بالقلق من عطوة لأنها أدرجت ضمن النساء الأخريات ، ولذلك قال الأمير : " أنا لا أريد عطوة ؛ وهي لا تساوى شيئًا " . شخصية الأمير ، كما سبق أن قلت ، عبارة عن خليط غريب من القدرة والكفاية الواضحة والتبصر السياسى من ناحية ، وخليط غريب من الناحية الثانية من الميل إلى مضيعة الوقت سدى ، هو والفكر فى مسائل شديدة التفاهة ، إذا ما كانت تتعلق بغروره الشخصى . وأنا أحكم على قدرة محمد بن الرشيد من واقع ملاحظاته بالغة الأهمية فى المسائل المهمة ، ومن واقع المكانة التى استطاع الوصول إليها والمحافظة عليها . لا أحد يشك فى طاقة هذا الرجل ، لأنه أثبت هذه القدرة ، للأسف ، ومن خلال جرائمه التى ارتكبها ، لكن الرجل تتملكه الأحقاد الشخصية الوضيعة ، إلى حد أنى أتعجب فى بعض الأحيان مما إذا كانت هذه الأحقاد يمكن أن تؤثر على سلوكه فى أية أزمة من الأزمات السياسية المهمة . مبلغ علمى ، أن الرجل فى مثل هذا الحال يمكن أن يتناسى كل هذه الصغائر التى تقوم على الغرور والمباهاة ، وسبب ذلك أن محمد بن الرشيد رجل طموح أولاً وآخراً ، كما أن غرور هذا الرجل ، على مايبدو ، يعد جزءًا لا يتجزأ من طموحه . محمد بن الرشيد شخصيًا يغار من الرؤساء الشهيرين الآخرين ، وسبب ذلك أن البطولة الشخصية فى الجزيرة العربية ، ربما كانت عالية القدر هنا فى الجزيرة العربية عنها فى أى مكان آخر من العالم ، وذلك منذ عصر الفروسية ، تعد آلية من آليات السلطة السياسية . والرجل على استعداد ، وأنا لا أشك فى ذلك ، للتحالف مع صدام ، إذا ما استدعى الأمر ذلك ، ابتغاء لتحقيق أهدافه وأغراضه ؛ وعلى الرغم من ذلك لم يقو محمد بن الرشيد على منع نفسه من الكلام معى عن ابن شعلان فى هذه اللحظة غير المناسبة تمامًا ، على أمل أن يسمع منى شيئًا يسىء إلى سمعة غريمه ومنافسه . وأنا هنا أعترف بأنى استشعرت شيئًا من الحرج وهو يسألنى عن مزايا ومناقب كل من غيوشة وتركية ، فى وجود زوجاته ، اللاتى كن يسمعن ما أقول بآذان صاغية، وأعين مفتوحة ، واهتمام بالغ . وزاد حرجى بعد أن انصرف الأمير ، عندما قامت عموشة من جانبها بالهجوم على الفور موجهة إلىّ سيلاً من الأسئلة . عندما كان محمد بن الرشيد موجوداً ، كان يطرح أسئلته بصورة ملحة عن

تركية ، إلى أن وضعني في ركن لا مخرج منه ، إلى حد أنى نفد صبرى فى نهاية المطاف وقلت متعجبة : " لكن لماذا تسألنى هذه الأسئلة ؟ لماذا تود سماع أشياء عن تركية ؟ وما الذى يعنيك إذا كانت جميلة أم لطيفة ؟ أنت لم يسبق لك أن رأيتها ، وليس من المحتمل أن تراها مطلقًا ! " رد علىّ قائلاً : " لا ، أنا لم أرها مطلقًا . ومع ذلك أود أن أعرف بعض الشيء عنها ، وأستمع أيضًا إلى رأيك فيها . ومن يدرى ، قد أتزوجها في يوم من الأيام . وقد آخذها بدلاً من هذه البنت الصغيرة " ، وراح يشير بيده إلى عطوة " التى لن تكفينى ، والتى لن أتخذها زوجة . إنها لا تساوى شيئًا " . وكرر كلامه " إنها لا تساوى شيئًا " . وقفت عطوة المسكينة تستمع إلى ما يقوله الأمير ، لكنها فى رأيى ، لم تكن مكترثة بما يقوله الرجل ، لأنى كنت أراقب قسمات وجهها ، ولم ألاحظ عليها أى شيء من الأسف أو الندم أو خيبة الأمل . واقع الأمر ، أن عموشة ، دونًا عن باقى الزوجات ، كانت هى التى تضمر إحساسًا شخصيًا بالحب تجاه الأمير . وما أن غادر الأمير المقهى حتى انهالت علىّ عموشة بالأسئلة . سألتنى وهى تكاد تفقد أنفاسها : " من هى تركية ؟ " وقد اندهشت عندما عرفت أنها لا تعرف شيئًا عن هذا الموضوع ، لأنها كانت تعرف من هو الحميدى ابن مسحور . وكان على أن أوضح لعموشة أن غيوشة أخت الحميدى بن مشور كانت قد تزوجت من صدام بن شعلان ، وكان على أن أحكى لها قصة صدام بن شعلان للمرة الثانية ؛ وكيف حاولت غيوشة التخلص من غريمتها ، ونجحت فى بث القلق والاضطراب فى نفس هذه الغريمة ، الأمر الذى جعل تلك الغريمة تترك المكان ولا تعود إليه ثانية . واقع الأمر أن عموشة مشغولة بابن الرشيد ، وخطر ببالى أن عموشة ربما كانت تخشى دخول عنصر من عناصر النزاع والشقاق إلى الأسرة من جديد . أما فيما يتعلق بمكانة عموشة فهى لا تخشى أو تخاف دخول زوجة جديدة ؛ وهى بحكم أنها شقيقة حمود ، لابد أن تشعر بالأمان فى مسألة مكانتها ونفوذها ، يزاد على ذلك ، أن الأمير الذى يعانى من وخز الضمير ، لن يجرؤ مطلقًا ، حتى وإن رغب فى ذلك ، على التقليل من شأنها أو شأن حمود الذى يدين له الأمير بكثير من العون والمساعدة .

انتقلت بصحبة عبدة صغيرة السن سوداء من منزل عموشة إلى منزل آخر داخل القصر، ذلك هو منزل زوجة حمود ، التي تدعى بنية ، وهى إحدى بنات متعب والتقيت فى ذلك المنزل امرأة تدعى أُرغية ، وهى شقيقة بنية ، ومتزوجة من ماجد ولد حمود ؛ كما شاهدت والتقيت فى ذلك المنزل زوجة أخرى من زوجات حمود . هذه الزوجة الأخيرة التى التقيتها لم تكن من نفس عيار الزوجة . وعندما سألت عن مولدها ووالديها قيل لى : " هى ابنة لواحد من الشمَّر " . تساءلت : " ومن هو ذلك الشمرى ؟ " أجابونى : " اسمه أحد لكن من هو ذلك الأحد ؟ " " أحد ينظر إلى هذه الزوجة باعتبارها أحد أفراد العائلة . الزوجتان الثالثة والرابعة ، اللتان التقيتهما فيما بعد ، هما مثل الزوجة الأولى ، أى من الأقارب ، واحدة منهما من بنات طلال ، والأخرى من بنات سليمان ، خال حمود . هذه الزوجات الأربع شابات صغيرات السن ؛ كانت والدة ماجد التى لم أسمع اسمها مطلقًا ؛ قد ماتت ، على حد علمى ، منذ سنوات عدة . حمود ، مثل الأمير ، لا يحتفظ إلا بأربع زوجات طبقًا لما ينص عليه القرآن ، ومن تموت منهن أو تعجز عن إرضاء الزوج يجرى استبدالها مثلما نستبدل نحن الخدم .

التقتنى بنية عند باب بيتها ، ودخلنا من خلال غرفة صغيرة مجاورة للباب، أو إن شئت فقل : دهليز إلى قهوة بنية . لم نبق فى القهوة سوى لحظات قلائل ، إلى أن جرى إحضار ثلاثة كراسى من الكراسى ذات المساند ، وجرى وضعها فى الغرفة المجاورة . جلست على هذه الكراسى مع بنية ، وجلست معنا زوجة الدرجة الثانية ، ورحنا نشرب الشاى من أكواب موضوعة فوق أطباق ومعها ملاعق خاصة بالشاى . كانت أكواب الشاى مليئة عن آخرها ، وبدأ الشاى الذى فى الأكواب يطفح على الجوانب بعد وضع كتل السكر فى الشاى . ومع ذلك ، كان الشاى طيبًا بحق . ثم أحضرت لنا كومة كبيرة من الليمون الحلو ؛ وراحت الخادمات يقشرن الليمون ، ثم رحن يقسمن كل ليمونة إلى أربعة أقسام ، ورحن بعد ذلك يوزعن هذه الأقسام على الحاضرات . بعد تناول هذه المنعشات أرادت بنية أن تُرينى غرفتها فى الدور العلوى . وصلنا الغرفة ، وكانت مثل غرفة عموشة تمامًا ، وصلناها عن طريق سلم مفروش بالسجاد وقادم من القهوة ،

ومبنى بنفس طريقة السلم المؤدى إلى غرفة عموشة ، وكان فى الغرفة عمودان يحملان العوارض ، لكن غرفة بنية لم يكن لها مَطَلّ ، ولم يكن الضوء يدخلها إلا من فتحتين صغيرتين فى أعلى الجدار . كانت غرفه بنية أهم من غرفة عموشة ، نظراً لأن جدران الغرفة كانت مزينة بالسلاح . كان فى الغرفة حوالى ثمانية عشراً أوعشرين سيفًا ، كما كان فيها أيضًا العديد من البنادق والخناجر التى نظمت على نحو يوحى بأنها زينات . كانت البنادق من الطرز القديمة ، وكانت مواسيرها من النوع الطويل ، لكن السواد الأعظم من تلك البنادق كان مطعماً بالفضة. كنا قد شاهدنا اثنين من الخناجر فى فترة المساء ، عندما أرسل الأمير فى طلبهما لكى يرينا عينات من جودة الصناعة الذهبية فى حائل . كانت مقابض السيوف فارهة بدرجات متفاوتة ، وأنا لم أر أنصال هذه السيوف . ومن سوء طالعى أنى فى تلك اللحظة لم يخطر ببالى عبيد أو أمنياته الثلاثة ، وبذلك نسيت أن أسأل بنية إن كان سيف عبيد من بين هذه السيوف ؛ ولم يكن من المناسب أن أسأل عن أرملته ، ولكن مسألة سؤالى عن سيف عبيد قد تكون غير لائقة أو فى غير محلها ، لكنى ندمت على عدم سؤالى هذا بعد ذلك ، لأن تلك كانت الفرصة الوحيدة التى تهيأت لى . ربما كان عجيبًا أن أؤكد ما إذا كان عبيد يحمل سيفًا عاديًا خاليًا من الزينة وذلك من باب مسايرة التقشف الوهابى . لو كان عبيد تنبأ أو أدرك ذلك الذى حدث قبل وقوعه لرفض أن يكون سيفه عاديًا ، ولربما زينه بالذهب والمجوهرات ، ناهيك عن أنواع الحرير ، والقماش المقصّب بخيوط الذهب والفضة الذى يرتديه أحفاده اليوم ؛ وسبب ذلك أن أبناء عبيد ليس فيهم شيئًا من التشدد والتقشف الذى كان فى والدهم ، على الرغم من أنهم ورثوا عن الرجل حبه للصلاة .

صعد حمود إلى الطابق العلوى بينما كنت أنا هناك مع بنية ، لكن الرجل لم يبق معنا سوى دقائق معدودات . ويبدو أنهما على وفاق تام ، وبعد أن غادر حمود راحت بنية تتحدث كثيراً عنه ، ويبدو أنها فخورة به جداً . قالت : " هذا لحمود ، وهذا أيضًا ، وذلك كذلك . وهذا هو فراشه " ، قالتها وهى تشير إلى كومة من الحشيات التى فوقها لحاف جميل . كان فى الغرفة قطع متعددة من الأثاث الأوروبى ، هذا سرير من الحديد

مفروش عليه حشيات ، وهذه بعض المرايا ، سيئة الأطر ، تلك ساعة من ساعات الأوزان . وهنا انضمت إلينا أرغية، وأرتنى بنية عقداً أنيقًا كانت تلبسه أختها ، وهو مصنوع من الذهب والمرجان ، المصنوع صناعة جيدة . قالت : " هذا العقد كان من مقتنيات والدى " ، وأردفت قائلة إن هذا العقد جاء من بلاد فارس . بنية فخورة جداً بولدها عبد الله ، ذلك الطفل الصغير الذى يبلغ من العمر أربعة أشهر . كانت بنية هى وأختها أنيستين وتواقتين ، إلى حد أنى كنت على استعداد لتمضية بقية فترة العصر معها . لكن موعد زيارتى الثانية كان قد دخل . بعد كثير من التوديعات والتمنيات أمسكت مرشدتى السوداء يدى ومضينا إلى سكن زوجة أخرى من زوجات حمود ، هى زهوة ، وهى من بنات طلال بن الرشيد . زهوة امرأة عاطفية وذكية ، حجمها صغير جداً ونحيل ، ويداها صغيرتان تماماً . وهى مثل السيدات الأخريات كانت تلبس خواتم فى أصابعها فى كل منها حجر كبير من الياقوت . جلسنا بجوار المدفأة ورحنا نأكل الليمون الحلو والترنج وشربنا الشاى . أرسلت زهوة فى طلب ابنتها ، التى هى طفلة عمرها حوالى تسعة أشهر لكى ترينى إياها ، وقلت لها إنى لى ابنة ، وقلت لها أيضاً إن البنات أفضل من الأبناء ، وقد انشرح صدرها لكلامى هذا ، وردت علىّ قائلة : نعم ، الابنة لأمها ، أما الولد فلأبيه " .

يظهر فجأة أحد الحراس ، رجل أسود طويل ، يرتدى لباساً قرمزى اللون ، جاء يحمل إلىّ رسالة ؛ طلبًا من البك يفيد أنى يتحتم علىّ اللحاق به فى قهوة الأمير ، التى كان ينتظرنى فيها . وراحت كل من زهوة وبنات عمها يرجوانى رجاء حاراً أن أبقى معهم ، أو أعدها بزيارة أخرى إذا ما أتيح لى الوقت المطلوب لمثل هذه الزيارة ، واستأذنت منها وتبعت الحارس هو والسيّاق الأسود عبر الأحواش ، والدهاليز ، والممرات إلى أن وصلت إلى القهوة ، حيث وجدت ولفريد جالساً . كان يجرى الاحتفاء به بواسطة رجل كبير السن يقدم له القهوة ويتجاذب معه أطراف الحديث . هذا الشخص هو مبارك الذى سبق الإشارة إليه باعتباره رئيساً للعبيد ، وكان يعطى ولفريد كمًا هائلاً من المعلومات المهمة عن الخيول ، وبخاصة ما يتعلق منها بانتشار

سلالة الخيول التى لدى فيصل بن سعود ، وعن الأصول الرئيسية التى انحدرت منها هذه السلالة أو إن شئت فقل تلك المجموعة الشهيرة والمتميزة . قال مبارك : إن هذه المجموعة من الخيول جرى تجميعها عن طريق البدو . وبخاصة بدو نجد وبدو الشمال عن طريق الشراء وعن طريق الحرب .

لم تتهيأ لى مطلقًا فرصة زيارة زهوة ، أو بنية ، أو حتى عموشة مرة ثانية ، وسبب ذلك هو انشغالى التام على امتداد الأيام القلائل التى تلت ذلك ، يزاد على ذلك أننا عندما وجدنا أنفسنا داخلين فى إطار شبكة من الغموض ، وعندما وجدنا أنفسنا معرضين لتأثيرات معاكسة ، بدأت ضغوطها تكشف عن نفسها دون أن نتمكن من الوقوف ، فى بداية الأمر ، على أى شىء محسوس منها ، أو حتى عن طريق تحذير الأسباب ، عندما وقفنا على ذلك كله قررنا الهدوء والتزام السكينة محاولين بذلك ألا نكون تحت رقابة أى أحد من الناس . ومع ذلك فأنا أتوقع أن تكشف الظروف لنا عن المزيد من التفاصيل .

بعد ذلك بحوالى ثلاثة أيام ، قمت بزيارة حريم خال حمود هذا الخال الطيب الرقيق المدعو سليمان ، سبق لنا تعرّفه ، عندما التقيته فى البلاط الأميرى فى مناسبات عدة . كان سليمان قد أرسل لى دعوة يطلب منى فيها زيارة عائلته ، وجاء عبدان أسودان لمرافقتى إلى أن أصل إلى بيت سليمان ، الذى هو ملحق من ملاحق القصر . فى قهوة تطل على فناء صغير ، وجدت الرجل كبير السن منتظراً لاستقبالى . هذا الرجل يصبغ لحيته باللون الأحمر ، ويحب الكتب ، التى كان يجلس وسط كومة منها . كنت آمل أن يكون حواره مثقفًا ، وما أن بدأنا حوارنا حتى دخلت علينا زوجته مندفعة ومعها مجموعة من النساء الأخريات ، الأمر الذى جعل الرجل يجمع كتبه وبعض المخطوطات التى كانت ملقاة هنا وهناك ، وراح يضع البعض منها فى دولاب ، ثم رفع بقية الكتب وترك لنا المكان .

كانت غوث ، زوجة هذا الرجل ، أغنى الناس الذين رأيتهم فى حائل ، لكنها ثرثارة إلى حد بعيد جداً ، ومضيافة من حيث التمور ، والزبد الطازج الذى يطفو وسط

مخيض اللبن ، وكتل السكر . هذا الجمع مختلف الألوان من الأبيض ، إلى البنى ، إلى الأسود ، وكلهن من الخدم ، والعبدات والأطفال ، لم يكن يخشون غوث ، وكن يثرثرن بلا تحفظ ويفضين بما فى دواخلهن . ومع ذلك كن كلهن يحترمننى ويصغون إلىّ . وتدخل علينا فجأة ابنة غوث ، واسمها هى الأخرى زهوة ومعها عبدة تحمل لها طفلها عبد الرحمن ، الذى يبلغ من العمر عامًا واحدًا . هذه الزهوة كانت جميلة الملامح ، لكنها كانت شبيهة بأمها من حيث الغباء والملل . كانت زهوة مهتمة جدًا بمسألة جعلى أرى صندوق مجوهراتها ، الذى أرسلت فى طلبه متعمدة بذلك إطلاعى على ما بداخله . كانت مجوهرات زهوة من النوع العادى ، زينات ذهبية للرأس والذراعين والساقين ، ومرصعة بالياقوت وخيوط اللؤلؤ . أما أثاث الغرفة ، الذى لفتت هى وأمها انتباهى إليه ، فكان هو الآخر شبيهًا بما سبق أن رأيته - خزانات (دواليب) على أرجل ، ومزينة بألواح أو صفائح من الفضة .

كان الحوار الذى دار بيننا كئيبًا ومملاً . وأنا أورد هنا عينة من هذا الحوار . أنا : " ما الذى تفعلينه طول اليوم ؟ " زهوة : " نحن نعيش فى القصر " . أنا " ألا تخرجين إطلاقًا ؟ " زهوة : " لا ؛ نحن نبقى فى القصر بصفة مستمرة " . أنا . " إذن فأنت لا تركبين الخيل مطلقًا " . (كنت أسألهن دومًا عن مسألة ركوب الخيل ، حتى أرى تأثير ذلك عليهن) " مثلما نفعل نحن ؟ " زهوة :" لا طبعًا ، نحن لا نركب الخيل " . أنا :" لكن ، ماذا تفعلين لتزجية الوقت ؟ " زهوة : " نحن لا نفعل شيئًا " . وهنا قاطعنا صبى أسود قائلاً : " يا خاتون، هؤلاء بنات شيوخ ، وليس لهن عمل - لا يفعلن شيئًا مطلقًا ، ألا تفهمين ذلك ؟ " أنا : " طبيعى أن أفهم ذلك حق الفهم ؛ لكنهن يمكن أن يسلين أنفسهن دون أن يقمن بأى عمل من الأعمال " . ثم تحولت إلى زهوة وأردفت قائلة : " ألا تذهبين إلى الخيل وتلقين عليها نظرة ؟ " زهوة : " لا نحن لا نفعل شيئًا " . أنا . " أنا يمكن أن أموت إذا لم أفعل شيئًا " . أنا عندما أكون فى بلدى ، أتجول بصورة مستمرة وأول شىء أفعله فى الصباح هو إلقاء نظرة على خيولى . كيف تمضون حيواتكم ؟ " زهوة : " نحن نجلس " . أقصى مراد الحريم هنا هو أن يجلسن متعطلات تمامًا . هذا شىء

غريب ، فى حين أن رجال الجزيرة العربية يتسمون بالنشاط والمغامرة ، إلى الحد الذى يجعل النساء متشبعات ومتضايقات ؛ لكنى أرى أن هذا شكل من أشكال استبداد أصحاب الطبقة الراقية الرفيعة .

اعتدنا كل مساء بعد تناول الغداء ، على تلقى رسالة من الأمير ، يدعونا فيها إلى تمضية فترة المساء معه . وكان ذلك عندنا بمثابة أجمل وأبهى أجزاء اليوم كله ، لأننا كنا فى كل مرة نرى زائراً أو اثنين من الزائرين المهمين مع الأمير .

وأنا أورد هنا من مذكراتى اليومية ما يوضح ذلك :

" وجدنا الأمير مساء هذا اليوم منشرح الصدر . فقد وصل نبأ من الحميدى بن مشور ، وهو شيخ من شيوخ الروالة من الفرع المعادى لصدام ، ومفاد هذا الخبر أن معركة دارت منذ حوالى شهر بين الروالة وَوِلْد على ، وأن صدام جرى كسره فى هذه المعركة . كان صدام قد قام على رأس غزو قوامه حوالى ستمائة خيال ، وهجم على ابن سمير فى جيرود ، لكن ابن سمير رفض الخروج ومقاتلة صدام ، لذلك تراجع صدام منسحباً . ومع ذلك اصطدم صدام وهو فى طريق عودته بمخيم من مخيمات وِلْد على يقع فى مكان ما شرقى حوران ، وطلب صدام إلى ذلك المخيم الاستسلام . كان عدد الخيالة فى ذلك المخيم لا يزيد بأى حال من الأحوال عن مائة وخمسين خيالاً ، دخلوا فى بداية الأمر ، فى تفاوض مع صدام ، ويقال إنهم عرضوا التخلى عن مخيمهم وإبلهم إذا ما سمح لهم صدام بالانسحاب ومعهم خيولهم (أما النساء والأطفال فلا يمكن أن يصابوا بأى أذى تحت أى ظرف من الظروف) ، وكان صدام يرغب فى الموافقة على ذلك . لكن الشبان صغار السن من جماعته ، وبخاصة أسرة ابن جندل ، الذين كان لهم ثأر ، لم يوافقوا على أى حل من الحلول الوسط ، وأعقب ذلك نشوب القتال . والغريب فى الأمر ، أن تنتهى المعركة لصالح الجانب الأضعف الذى نجح فى قتل أربعة من الروالة ، وكان من بينهم طلال بن شعلان ، وابن عم صدام ، الوارث المنتظر. ويقال إن الذى أنقذ صدام هو سرعة فرسه . وعلى الرغم من أن القوة المشتبكة لم تكن متكافئة ، فإن أحداً هنا لم يفاجأ بالنتيجة ، لأن النصر والهزيمة

" من الله " ؛ لكن الجميع فرحون ، والأمير يكاد يطير فرحًا . تساءل قائلاً : " ما رأيكم الآن فى صدام ؟ هل لديه عقل أم لا ؟ " أجبته قائلة : " أخشى القول بأنه ليس صاحب عقل . لكنى أشعر بالأسف عليه . صدام ضعيف ولا يعرف كيف يدير أهله وناسه ، ومع ذلك له قلب طيب " . " وابن سمير ، ماذا تقولين لابن سمير ؟ " قلت إن عقله أكبر من قلبه . " وقد انشرح صدر الأمير لذلك . ورد علىّ قائلاً : " آه ! أنت يا خاتون ، التى تملكين العقل ماذا تقولين عنى ؟ هل أنا صاحب عقل أم لا ؟ " أجبته : " أنت صاحب عقل " . وماذا عن حمود ؟ " أجبته : " أنتم جميعًا هنا أصحاب عقول ، عقولكم هنا أكبر بكثير من عقول البدو ، الذين يشبه السواد الأعظم منهم الأطفال " . قال : " لكننا نحن أيضًا من البدو " . أجبته : " أنا أحب البدو حبًا جمًا ؛ والأفضل أن يكون الإنسان صاحب قلب لا صاحب عقل " . ثم استطرد الأمير فى استجوابى عن كل الشيوخ الذين يعرف أسماءهم . سألنى الأمير : " من هو الأفضل من بين الشيوخ الذين التقيتيهم ؟ " قلت : " إنه محمد الدوخى ، هو أذكاهم ، وفرحان بن هديب أحسنهم سلوكًا ، لكن الشيخ الذى أفضله على الجميع هو قريبك الذى فى الجزيرة ، المدعو فارس جربه " . وأنا أعتقد أنه لم يعجبه هذا الرد . قال : إنه لم يسمع مطلقًا صالحًا أو طالحًا فى حق ابن هديب ، الذى ينتمى إلى قبيلة البشر لم يكن ابن الرشيد على وفاق مع أى من البشر باستثناء مشور بن مرشد ، الذى زاره منذ عامين . أبلغنا الأمير أن كلاً من مشور والفارس إنما هما " أخان " من أخوان ولفريد Wilirid صحيح أن محمد بن الرشيد كان يستلطف مشور ، أما فارس فلم يكن محببًا إليه . وأنا أتخيل أن الأمير وقف إلى جانب فرحان فى النزاع العائلى . والمؤكد أن عمشه ، أرملة صفوق ووالده عبد الكريم عندما جاءت بابنها فارس إلى نجد ، لم يكن الأمير يرغب فى رؤية أى أحد منهما . وبقيا فى الصحراء طوال وجودهما هنا ، ولم يجيئا إلى حائل . رشيد بن على، هو الآخر صديق من أصدقاء فارس ، وبالتالى فهو لا يحظى برضا البلاط (*). سألنى الأمير بعد ذلك عن جدعان ، ومس مسألة عبط

(*) كان أبناء على شيوخًا للشمر من قبل ، لكن أبناء الرشيد حلوا محلهم منذ خمسين عامًا مضت .

وسذاجة تركى مسًا خفيفًا ؛ وتركى هذا هو ولد جدعان ، وهنا أطلق بعض الطرف والنكات على حساب واحد من معارفنا القدامى ، سمير بن زيدان ، تعجب الأمير قائلاً : " ياله من أحمق عجوز ، لماذا أرسلوه إلى هنا ؟ كان بوسعهم إرسال جمل بدلاً عنه ! " هذا هو سمير الذى جاء إلى نجد قبل عام ونصف العام ، وجاء من أجل الحصول على مساعدة ابن الرشيد لصدام، وعمل تحالف فى مواجهة الجدعان والسباع . ولقد سمعنا عن فشل مهمته ، ولكن واقع الأمر أن ابن الرشيد تأكله الغيرة والحسد من أى إنسان قد يذيع صيته فى الصحراء . وقد اندهشنا عندما وجدنا الرجل ملمًا بكل شىء وبكل إنسان فى أقصى الشمال ، ونحن أيضًا كنا مهتمين نظرًا لأن الأمير حل لنا مشكلة من المشكلات الخاصة بنجد ، التى كانت تحيرنا جميعًا ، وهى بالتحديد مسألة القرابات التى بين القبائل فى جبل شمر والقبائل التى فى الشمال . أخبرنا الوزير أن شمر الجزيرة هم وشمر حائل يعدون أنفسهم أقارب . قال الأمير : " خيولنا ، كلها من سلالة واحدة " . وقد أبرم الأمير اتفاق سلام مع الروالة ، ومع ابن هدَّال ، لكن السباع هم وبقية عشيرة البشّر لا يدخلون فى حسابه وبعيدين أيضًا عن طريقه . هذا يعنى أن السباع ، هم والبشر لا يقتربون من نجد بأى حال من الأحوال ، اللهم إلا إذا كان ذلك من باب الغزو ليس إلا ، وأن هذا الغزو يُعد مسألة نادرة الحدوث . ومع ذلك ، حدث ذات مرة أن قام الفدعان بغزو وصل إلى منطقة القصيم ، وقام الأمير بمواجهة ذلك الغزو ، واستولى على فرس من أفراس جردان الصقلاوى ، وهى من سلالة ابن سبينى ووعد الأمير أن يرينا تلك الفرس . تكلمنا كثيرًا عن الخيول وأحدثت معرفتنا لهذا الموضوع اندهاشًا كبيرًا عند الأمير . واقع الأمر أن لدينا معرفة بالسلالات أوسع بكثير من معرفة ابن الرشيد . هذه الخيول التى لدى ابن الرشيد عندما عاشت فى المدينة (الحضر) فقدت الكثير من خصالها البدوية . ومع ذلك ، نجد أن حمود ، الذى يكشف عن اهتمام كبير بالخيول وذلك على العكس من الأمير ، راح يحكى لنا عن كثير من الحقائق المهمة الخاصة بإسطبل الخيل هنا ، من ناحية ، وإسطبل المرحوم أمير الرياض ، فيصل بن سعود ، وبذلك يحل حمود لنا مشكلة أخرى ، ألا وهى مشكلة

السلالة النجدية الخرافية ، لكننا بدورنا ندون ملاحظات مستقلة عن كل إسطبل من هذين الإسطبلين .

لم يدم حديثنا طويلاً مع الأمير وحمود ، إذ دخل علينا رجل متين شعبى المظهر . قدموه لنا وطلبوا منه الجلوس إلى جوارنا . كان الرجل يتحدث لكنة بغدادية قوية ، وكان الجميع ينادونه " يا حاج". كان واضحًا أن الرجل ينتمى إلى قافلة الحج . لكن ما الذى جاء به إلى هنا ؟ وسرعان ما انجلى الغموض وبعد حديث هامس مع حمود ، تحول الزائر الجديد ناحية ولفريد ، وراح يخاطبه بلُغة حسبناها بربرية ، أو لغة غير مفهومة فى بداية الأمر، إلى أن وجد أننا لا نرد عليه ، وهنا انفجر متعجبًا وهو يقول بالعربية : " قلت لك ، إنه ليس إنجليزيًا ! " وهنا قاطعه ولفريد وراح يسأله ، إلى أن توصل إلى الحقيقة التى مفادها أن هذا الرجل كان يعمل وقَّاداً على ظهر واحدة من بواخر شركة الهند البريطانية فى الخليج الفارسى ، وأن اللغة التى يتكلمها إنما هى لغة إنجليزية . ونحن لم نستطع أن نتبين من كلام الرجل الإنجليزى المزعوم سوى عبارتين فقط هما " جيد good جداً Very و " كبير المهندسين" - وبعد أن تعرفنا هاتين العبارتين وأعطينا دلالتهما العربية ، اعترف الحاضرون بهويتنا . وهنا أرسل ذلك الرجل لحال سبيله ، وحل محله رجل نحيف الجسم جداً ، ومؤدب جداً كان ذلك الرجل متميزاً بين هؤلاء الشمر المهندمين هندامًا جيداً ، ومن خلال لباسه البسيط ، المكون من عباءة لونها بنى غامق ، وخالية من الحواف والزينات ، وكوفية من القطن على رأسه ، وليس فوقها عقال من أى نوع كان . كان الجميع يعاملون الرجل باحترام كبير ، وكان من السهل علينا تبين أن هذا الرجل واحد من رجال المهمات . دخل الرجل معنا فى حوار ، وتكلم مع محمد عن أقاربه فى العارض ، وسرعان ما اتضح أنه (الرجل) كان من جنوبى نجد . ولعل ذلك يفسر قسوة لباسه ، إذ إن الوهابيين لا يطيقون لبس الذهب أو الحرير. هذا الرجل كان شيخ الحريق ، آخر مدن نجد من ناحية الجنوب ، بالقرب من الدهناء ، أو إن شئت فقل : الصحراء الكبرى الجنوبية . وقد وصف لنا هذا الشيخ الدهناء باعتبارها صورة طبق الأصل من النفود التى كنا قد عبرناها

بالفعل ، اللهم باستثناء توفر الحياة النباتية فيها بكميات كبيرة . صحيح أن الغاضة هى النبات الرئيسى فى الدهناء ، لكن فيها أيضاً نخيل فى بعض الأماكن .

التدخين لا يشكل عادة من عادات حائل ، وليس هذا ناتجًا عن التحامل الوهابى ، أو على حد تفكيرى أن التبغ لم يخترق المناطق الداخلية اختراقًا يجعل من التدخين عادة عامة بين الناس . ومع ذلك ، لم يحدث أى اعتراض على غليون ولفريد ، الذى يشعله متى وحيثما شاء، وفى مساء هذا اليوم وعندما أذّن المؤذن لصلاة المغرب ، وبعد أن خرج كل من الأمير هو وحمود لأداء الصلاة ، ألح الرجل العجوز ، الذى سبق أن أتيت على ذكره ، أعرب عن رغبته فى أن يأخذ نفسًا من الغليون . هذا الرجل العجوز اسمه نصر بن حنيزى، تشاجر هذا الرجل مع ابن سعود ، والأرجح أنه يكره الممارسات الوهابية كلها ، وكان يشعر بسعادة بالغة إذ ستتهيأ له فرصة ارتكاب ذلك العمل الأحمق . ومع ذلك ، حرص ذلك العجوز على إعادة الغليون قبل عودة الآخرين . على أى حال ، إذا كان هذا الرجل وهابيًا ، فهو ليس بالقطع واحداً من أولئك الوهابيين المتشددين الذين وصفهم السيد بالجريف، لأن الرجل وجّهَ إلينا دعوة صادقة بالسفر معه إلى بلده الحريق . على كل حال ، لقد غضب الأمير من ذلك العرض ، وراح يحكى لنا بطريقة مزعجة ذلك الذى يمكن أن يحدث لنا إذا ما ذهبنا إلى الرياض ، الأمر الذى جعلنى أفكر أن ليس من الحكمة فى شىء الذهاب إلى الرياض فى الوقت الحالى . هذا يعنى بطبيعة الحال أننا لا يمكن لنا الذهاب إلا بموافقة وإذن من الأمير . وأنا لا يعنينى هذا الأمر كثيراً ، لأن حياة المدينة متعبة ؛ لقد سئمنا حياة الحضر، إضافة إلى أنى لم أكن مشتاقة إلى رؤية نجد أو زيارتها ، اللهم إلا إذا كان ذهابنا إلى نجد سيكون مقرونًا بوجودنا بين البدو . يبقى بعد ذلك أن ابن سعود ما يزال لديه مجموعة من ثمانية أفراس ، وأن هذه المجموعة تحتاج إلى شىء من المخاطرة ، ومع ذلك كانت سلالة خيول ابن سعود قد انتشرت منذ زمن طويل ؛ ويؤكد لنا نصر بن حينزى أن الجزيرة العربية كلها ليس فيها من الخيول سلالة يمكن مقارنتها بالسلالة التى لدى ابن الرشيد . وابن حنيزى ، شأنه شأن أى إنسان آخر ، يسخر ، من قصة سلالة نجد ،

ويقول مثلما يقول الآخرون ، أن الأفراس التى فى الرياض هى مجموعة قام فيصل ابن سعود بتكوينها منذ زمن قريب .

فى ساعة متأخرة من مساء اليوم ، قدموا لنا صائغًا محليًا من صاغة الذهب ، ومعه بعض المصنوعات التى صنعت فى حائل . كانت تلك المصوغات جميلة لكنها لم تكن لها أهمية خاصة ، ولم تكن تختلف كثيراً عما نشاهده فى الأماكن الأخرى مقابض وجرابات خناجر ، وبعض الزينات القليلة جداً . هذا الرجل هو الذى صنع كل المقابض الذهبية التى تستعملها الأسرة المالكة فى سيوفها . وتفحصنا هذه المقابض واكتشفنا أنها جيدة بحق .

أهم حوادث ذلك المساء الطريفة ، هو ذلك الحادث الذى لم نكن مستعدين له تماماً ، ألا وهو إحضار الأمير وبصورة مفاجئة لواحدة من تلك اللعب التى يسمونها التليفونات (الهواتف) التى كانت طراز (موديل) العام الماضى فى أوروبا . طلب الأمير من اثنين من عبيده أن يجربا التليفون ، بأن ذهب أحد العبدين إلى الحوش الخارجى ، وراح العبد الثانى يستمع وينصت إليه . وجرى فعلاً استقبال الرسالة ، إذ راح العبد الموجود فى الفناء الخارجى ، من باب التأكيد على الأمور ، يصيح بأعلى صوته قائلاً : " يا عبد الله وين أنت ؟ يريدك الأمير" ، بمعنى " أين أنت يا عبد الله ؟ الأمير يريدك " ، وعبارات أخرى من هذا القبيل . عبرنا عن اندهاشنا ، من باب الاحترام ؛ واقع الأمر أن تلك كانت المرة الأولى التى شاهدنا فيها هذه اللعبة ، وإنه لأمر غريب تماماً أن نجد فى حائل اختراعاً شديد الحداثة من هذا القبيل .

فى حوالى الساعة العاشرة ، بدأ الأمير يتثاءب ، وهنا وقفنا جميعاً وتمنينا له ليلة طيبة . وأرسل الأمير فى طلب بعضٍ من الترنج والبرتقال ، وأصدر أوامره بتوصيل ذلك الترنج والبرتقال إلى منزلنا ، ومعه بيضة حديثة من بيوض النعام ، " أول بيضة فى هذا الموسم " ، وكانت هذه البيضة قد أحضرت إلى الأمير من النفود .

الفصل الحادى عشر

" سوف أبلى بلاءً حسنًا

الناس يحبوننى والصحراء ملكى :

قوتى هلال ، وأملى العرّاف

يقول إنه سيتحقق كاملاً " .

شكسبير

السياسة والتاريخ – حكم الرعاة فى الجزيرة العربية – سياسة موروثة – الجيش – القانون – الضرائب – مالية جبل شمر – طموح ابن الرشيد .

فيما يلى نورد نتيجة التحريات التى أجريناها عندما كنا فى حائل ، عن الأحوال السياسية وموارد البلاد . هذه النتائج لا تدّعى الدقة الكاملة ، وبخاصة الأرقام الواردة ضمن هذه النتائج ، لكنها تفيد فى إعطاء فكرة عن نوع الحكم الذى وجدناه فى الجزيرة العربية ، كما تعطينا فكرة عن قدرة العرق العربى على الحكم الذاتى .

الدستور السياسى فى جبل شمر عجيب للغاية ؛ لا من حيث أن هذا الدستور لا يشبه شيئًا من الأشياء التى تعودناها فى أوروبا ، وإنما الأرجح هو أن هذا الدستور فريد حتى فى آسيا . يبدو أن هذا الدستور يمثل ، فى واقع الأمر ، شكلاً قديماً من أشكال الحكم القديم المعروف والمألوف لهذه البلاد ؛ وأن هذا الشكل نشأ بشكل طبيعى ، من احتياجات البلاد الفعلية ، وطبيعة سكان هذه البلاد . وأنا أُرَجِح ان يكون حكم ابن الرشيد صورة طبق الأصل من حكم ملوك الرعاة ، الذين استولوا ، فى تاريخ

أسبق لهذا التاريخ ، على مصر وبابل ؛ وأنا لا يخامرنى شك أن هذا الشكل من أشكال الحكم مدين فى نجاحه إلى الحقيقة التى مفادها أنه ينسجم مع الأفكار العربية والموروث العربى . ونحن إن أردنا فهم نظام الحكم هذا فهمًا حقيقيًا ، فإن ذلك يحتم علينا فهم هوية الجزيرة العربية ، وهوية الشخصية العربية وأسلوب الحياة العربية . شبه الجزيرة العربية كلها ، وربما باستثناء اليمن وبعض مناطق حضر موت الواقعة تحت تأثير الرياح الموسمية ، شحيحة الأمطار ، وهى عبارة عن منطقة شحيحة الماء ، وهى صحراء بمعنى كلمة صحراء . تربة الجزيرة العربية تربة فقيرة ، وهى مكونة بصفة أساسية من الحصى والرمل ، اللهم باستثناء بعض البقاع المفضلة ، لا تناسب أو تصلح للزراعة ؛ واقع الأمر أن الزراعة أمر مستحيل فى نجد كلها ، اللهم إلا إذا توفر الرى ، ويزاد على ذلك أنه لا توجد مياه فوق سطح الأرض حتى يمكن الحصول عليها من الأبيار واستعمالها فى الرى . أضف إلى ندرة الأبيار ، الطابع العام للهضبة الوسطى ، هى وشبه الجزيرة ، عبارة عن مرتفعات واسعة من الحصى والزلط ، وتكاد تكون خالية من الغطاء النباتى ، وغير قادرة على الاحتفاظ بالماء ، حتى على أعماق كبيرة . والأبيار لا يتوقع وجودها إلا فى بعض منخفضات السهل ، التى تنخفض مئات الأقدام عن السطح العام ، وفى الأماكن التى يتوفر الماء فيها بكمية كافية يجرى إنشاء البلدان والقرى العامرة بالحدائق حول تلك الأبيار . هذه الأبيار تتباعد عن بعضها مسافات كبيرة ، لتظهر على شكل بقع منعزلة على خارطة الجزيرة العربية ، لا ترتبط ببعضها البعض عن طريق منطقة زراعية وسطية . وواقع الأمر ، أننا لن نبالغ إذا ما قلنا : إن نجد ليس فيها إقليم زراعى ، بالمعنى المفهوم لكلمة الزراعة ، وأن إنتاج نجد كله عبارة عن إنتاج بستانى . هذه الظروف أدت إلى عدم وجود طبقة ريفية ، كما أدت أيضًا إلى عزلة البلدان بعضها عن بعض بشكل يستحيل وجوده فى بلادنا . الصحراء هنا تحيط بالبلدان مثل البحر تمامًا ، ليس بين هذه البلدان نقاط اتصال على شكل حقول متوسطة ، أو قرى متوسطة ، أو حتى مراعى متوسطة. هذا يعنى أن هذه البلدان منعزلة عن بعضها البعض بالمعنى الحرفى لكلمة الانعزال ، ومن هنا نشأت

فكرة التفرد السياسى الذى تحرص هذه البلاد على المحافظة عليه دومًا . هذا يعنى أن كل مدينة من المدن إنما هى ولاية مستقلة .

فى ذات الوقت نجد أن الصحراء الخارجية ، على الرغم من أنها ليست مأهولة بالسكان المستقرين ، فإن القبائل البدوية ترتادها ، التى تُكَوِّن القسم الأكبر من العرق العربى . هذه القبائل البدوية تحتل القسم الأكبر من النفود ، التى هى المكان الوحيد الذى تتوفر فيه المراعى ؛ لكن هذه القبائل تتردد أيضًا على المناطق المرتفعة كلها ؛ وهذه القبائل محبة للحرب وأكثر عدداً من أهل الحضر ؛ هذه القبائل تسيطر أيضًا على الطرق التى تربط المدن بعضها ببعض ، ولذلك فإن مسألة قطع الاتصال تمامًا مع العالم فى وجه المواطنين يعتمد اعتماداً تامًا على نوايا هذه القبائل ومزاجها الخاص .

البلدان ، كما سبق أن قلت ، تعول نفسها بنفسها فى السواد الأعظم من احتياجاتها ؛ لكن إنتاج هذه البلدان هو من قبيل المنتجات البستانية ، والتمر . هذه البلدان لا تزرع القمح ولا تربى الماشية ، ولذلك فهى تعتمد على الخارج فيما يتصل بالقمح واللحم . هذه البلدان بحاجة أيضًا إلى سوق لتصريف صناعاتها مثل نسج الأقمشة ، وصناعة الأسلحة ، والأوانى والمواعين ، ومن الضرورى فى جبل شمر ، فى أضعف الأحوال ، إرسال القوافل السنوية إلى منطقة الفرات للحصول على القمح . من هنا تصبح مسألة تأمين السفر إلى خارج هذه البلدان تعتمد على مسألة الأمن هذه . ومن هنا نجد أن كل بلدة من البلدان تحت حماية الشيخ البدوى الكبير فى منطقتها ؛ الذى يضمن لهذه البلدة ، لقاء إتاوة سنوية ، حماية وسلامة مواطنيها عندما يكونون خارج حدود البلدة وبذلك يُمَكّنهم من التنقل بلا مضايقات داخل مناطق سلطته ، والمعروف أن هذه المناطق قد تمتد إلى مئات الأميال ، وقد تشمل مدنًا كثيرة ، لكن ذلك يعتمد بالدرجة الأولى على قوة القبيلة ونفوذها . من هنا يقال : إن " البلدان " تنتمى إلى هذه القبيلة أو تلك ، وبذلك يتحول الشيخ البدوى إلى سيد أعلى ، أو حامٍ أعلى لهذه البلدان ، إلى أن يؤدى الخضوع العام ، وحرية الحركة

المترتبة عليه وكذلك اختلاط الناس بعضهم ببعض ، إلى بذر بذور الاتحاد ، وقد يتحول إلى قومية فى بعض الأحيان .

هذا ، فى رأيى ، هو حال الجزيرة العربية القائم بالفعل .

يلى ذلك تطور آخر ؛ هذا الشيخ البدوى بعد أن يثرى من وراء الإتاوة التى يجبيها من تلك البلدان ، يبنى لنفسه قلعة بالقرب من واحدة من تلك البلاد ويعيش فى هذه القلعة طوال أشهر الصيف . بعد ذلك ، وبفضل نفوذه وامتيازه العرقى (إذ ما يزال العرق البدوى هو أنقى الأعراق) ، وبعون من قوته فى الصحراء ، يتحول ذلك الشيخ على وجه السرعة ، إلى حاكم للبلدة ، وبالتالى يتحول من حام للمواطنين إلى سيد عليهم . وهنا يوقر المواطنون الشيخ ويطلقون عليه لقب أمير ، وعلى الرغم من بقائه شيخًا عند البدو ، فإنه يصبح ملكًا على البلدان التى تدفع له الإتاوة .

هذا الشكل من أشكال الحكم ، الذى يرتكز على أساس طبيعى ، هو الذى يجرى اتباعه دومًا فى الجزيرة العربية ، عندما تنجح البلاد فى تحرير نفسها من فترة من فترات الاستبداد الأجنبى أو الداخلى . ولم تستطع الإمبراطوريات الفارسية ، أو المقدونية أو الرومانية احتواء هذا النظام ، والأرجح أن نجد ، فى أضعف الأحوال ، بقيت إلى مجىء محمد (تحت هذا الشكل) جزءًا من الإمبراطورية الإسلامية ، وأسهمت فى الإدارة المركزية وشبه المركزية للخلفاء ، التى استبدلت نظام الحكم الثيوقراطى (الدينى) بأشكال أبسط سابقة عليه . وعلى الرغم من أن الجزيرة العربية هى محل ميلاد الإسلام ، فقد كانت ، دونًا عن سائر أجزاء الإمبراطورية العربية ، الجزء الوحيد الذى تمرد على النظام الجديد وثار عليه . فى القرن الثانى من الحكم الإسلامى ، كان شبه الجزيرة العربية كله قد رجع إلى استقلاله القديم ، ولم يجر - إلا بصورة مؤقتة - إدراج نجد نفسها ضمن النظام الإمبراطورى لأى ملك أو عاهل أجنبى . فى منتصف القرن الماضى ، وبعد أن أكد محمد سلطته الروحية على شبه جزيرة العرب كلها ، قام أمير العارض الوهابى مرة أخرى بتأسيس نظام حكم مركزى وثيوقراطى (دينى) فى الجزيرة العربية . وجرى بعد ذلك تجريد

أمـراء البـدو من سلطتـهـم ، وجـرى من جـديد إنشـاء إمـبـراطورية عـربيـة . هذه الإمبراطـورية الجديدة لم تشمل نجد وحدها ، وإنما شملت ، فى وقت من الأوقات ، كلاً من اليمـن ، والحجـاز ، والأحسـاء ، إضـافة إلى الصحراء الشماليـة إلى خط عـرض دمـشـق . وجرى على امـتـداد سـتـين عـامًا تقـريبًا سحق استـقلال المدن والقبائل الداخلية ، وجرى استبدال النظام القديم بنظام إمبراطورى جديد . وحكم أبناء سعود ، " أئمة نجد " بما يشبه إلى حد بعيد جداً حكم الخلفاء الراشدين ، متبعين فى ذلك الشـرع الإلهى . لكن حكم أولاد سـعود انتـهى فى العام ١٨١٨ الميـلادى ، عندما استـولى الأتراك علـى نجـد ، وجرى أسر ابن سعود ، وقطع رأسه فى القسطنطينية (إسطنبول) . بعد ذلك ، عقب تراجع الأتراك ، (لأنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بالبلد المهزوم) راح نظام حكم الرعاة يؤكد وجوده مرة ثانية ، هنا تأسست بلدية (رئاسة) جبل شمّر .

قبيلة شمر هى أقوى القبائل فى شمالى نجد ، وهنا وضعت مدن حائل ، كيفر والبقـاع ، بل المدن الأخرى ، نفسها تحت حماية عبد الله بن الرشـيد ، الذى نجح فى الحصول لنفسه على شياخة الشمّر . يبدو أن عبد الله بن الرشيد كان صاحب مقدرة عاليـة ، ويرجـع إليه الفضـل فى سياسة الحكم التى انتـهجها خلفه من بعده . جعل عبد الله بن الرشيد من حائل محلاً لإقامته ، وبنى فيها قلعته ، وجعل الناس يعترفون به أميرًا ، فى بداية الأمر كان تابعًا لابن سعود ، لكنه أصبح أميرًا مسـتقلاً بذاته فيمـا بعد . يبدو أن سياسة عبد الله بن الرشيد كانت تقوم فى بداية الأمـر على مهادنة أو إخضاع القبائل البدوية الأخرى فى نجد ، مجبرًا إياها على أن تكون توابع لقبيلته الشمرية ، كما كانت هذه السياسة تقوم من ناحية ثانية على بسط حمايته على مدن الشمال كلها . كانت تلك خطة بسيطة للغاية ، وكان بوسع أى شيخ من شيوخ البدو رسمها ؛ لكن مزايا عبد الله بن الرشيد تتمثل فى تطبيقه لهذه الخطة . تبين عبد الله بن الرشيد، أنه إن أراد تحقيق هدفه ، فإن ذلك يحتم عليه تلمس الأفكار الوطنية وكذلك التحاملات والإساءات الوطنية . كان عبد الله بن الرشيد ينفق الإتاوة التى

يجبيها من المدن ، على الصحراء ، ضارباً بذلك مثلاً على كرم حاتمي بلا حدود لكل شيخ من الشيوخ الذين يتصادف قيامهم بزيارات لابن الرشيد . قدم عبد الله بن الرشيد الهدايا للشيوخ كلهم ، وكان يشغلهم بعظمته عندما يعودون إلى قبائلهم ولديهم انطباع طيب عن ثروة الرجل وقوته . وبهذه الطريقة استطاع الرجل أن يزيد من عدد أصدقائه ، الذين استطاع بفضلهم الضغط على باقي القبائل الأخرى ، وعلى أعدائه أو منافسيه . وعبد الله بن الرشيد في تعامله مع أعدائه أو بالأحرى منافسيه ، كان يجرب دائماً الصلح والمهادنة في البداية ، وكان ، إذا ما اضطر إلى اللجوء إلى السلاح ، لا يرضى إلا بالنصر الحاسم ، ثم يصادق المهزوم بعد ذلك ، بل كان يصل الأمر معه إلى حد إعادة ممتلكات المهزومين إليهم ، وهذا عمل من أعمال الكرم التي تلقى تقديراً عظيماً في الصحراء . وقد أدى ذلك إلى سرعة زيادة قوة الرجل وذيوع صيته ، وذيوع صيت شقيقه ، وذراعه اليمنى عبيد بن الرشيد ، الذي يعد بطلاً أسطورياً في نجد في الوقت الحالي .

الأمر الآخر الذي أولاه مؤسس أسرة ابن الرشيد المالكة اهتماماً كبيراً يتمثل في المالية . على الرغم من أن عبد الله بن الرشيد كان ينفق كل عام مبالغ كبيرة على الهدايا والمسليات البرية ، فقد كان يحذر دوماً ألا يزيد إنفاقه على دخله ، وعندما توفي عبد الله بن الرشيد ، ترك ، على حد قول أحد التقارير العامة ، لولده منزلاً مليئاً بقطع الفضة . ولم يكن أحد ممن جاءوا بعده أقل منه اقتصاداً . ويستحيل بطبيعة الحال علينا تخمين مقدار الكنز الذي يمثل ثروة طائلة في الجزيرة العربية ؛ امتلاك مثل هذا الكنز ، هو والامتياز الذي تضفيه الثروة على صاحبها يعدان مصدراً هائلاً من مصادر القوة .

أخيراً ، كان عبد الله بن الرشيد ، بل وأسرة ابن الرشيد كلها ، موهوبة بنصيب كبير من الحيطة والحذر . هذا يعني أن أي مشروع من المشروعات الكبيرة لم يكن يجري في عجالة ؛ والمؤكد أن شئون الولاية في الوقت الراهن تجري مناقشتها في مجلس العائلة ، قبل اتخاذ أي قرار من القرارات . ويبدو أن أبناء الرشيد درجوا على

التفكير مرتين وثلاثًا بل وعشرات المرات قبل الإقدام على أى تصرف من التصرفات ، بل إن أعمال محمد بن الرشيد العنيفة التى ارتكبها فى حق أبناء إخوانه كانت مدروسة ، وأعمل فكره فيها قبل التنفيذ بأشهر عدة . كان أبناء الرشيد فى تعاملهم مع أبناء سعود من ناحية ، ومع الأتراك من الناحية الأخرى ، يتحينون الفرص ، ويتحاشون المواجهة العلنية أو المباشرة . من الواضح تمامًا أن الكثيرين من أفراد هذه الأسرة يتعين أن يكونوا رؤساء ، إذ من الصعوبة بمكان الحكم على من هو الأكثر كفاءة وقدرة من بينهم : عبيد ، أم طلال ، أم محمد أو ابن عمه حمود . يزاد على ذلك أن الجيل الصاعد ليس أقل ممن سبقوه .

بعد أن وحّد عبد الله بن الرشيد قبائل شمالى نجد البدوية على شكل اتحاد كونفيدرالى ، كان من الطبيعى أن يصبح هو رئيسًا للمدائن كلها ؛ لكنه لم يكن قانعًا بالقوة وحدها ، لأنه كان يود لحكمه الشعبية والانتشار . ومن حسنات عبد الله بن الرشيد ، هو ومن جاءوا بعده أن أحدًا منهم لم يسئ إلى مركزه . كانت سياسة أبناء الرشيد مع الحضر تقوم على الليبرالية والمصالحة المقرونتين فى بعض الأحيان باستعراض القوة ، مما جعلهم يقيمون حكمهم على الأساس الواحد الأمين ، ألا وهو الشعبية . فى الأيام الأولى ، كان أبناء الرشيد يقاتلون فى سبيل مكانتهم فى حائل ، ثم بعد ذلك فى الجوف ومسكاكة . لكن حكم أبناء الرشيد مستقر تمامًا فى كل مكان وعن طيب خاطر ، وبحماس شديد فى جبل الشمَّر . والرحال الحديث الذى يأتى من تركيا ، يندهش بحكم غربته ، عندما يستمع إلى التعليقات العامة التى تجرى على ألسنة الحضر فى حائل فيما يتعلق بحكومتهم ، وسبب ذلك أنه يستحيل على الإنسان إذا ما دخل فى حوار لمدة عشر دقائق مع واحد من حضر حائل ، ألا يسمع من ذلك الرجل تأكيدًا مفاده أن حكومة الأمير هى أحسن الحكومات فى الدنيا كلها . " الحمد لله ، بلدنا حظيظ ، الحال عندنا ليس كما هو الحال عند الفرس والأتراك ، الذين لا تعد حكوماتها حكومات بحق وحقيقة . نحن هنا سعداء وميسورون . الحمد لله . " لقد أعجبتنى جدًا هذه المغالاة فى حب الوطن .

فى بلدة حائل يعيش الأمير كما لو كان فى دولة ، إذ إن له حرسًا خاصًا يتردد عدده بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ رجل يرتدون كلهم زيًا موحدًا ، بمعنى أنهم يرتدون عباءات بنية اللون ، وكوفيات حمراء أو زرقاء ، ومسلحون بسيوف مقابضها من الفضة . هذا الحرس يجرى تجنيده من بين الشبان الصغار فى المدن والقرى ، عن طريق التجنيد الاختيارى ؛ هذا يعنى أن من يريدون العمل فى هذا الحرس يتعين عليهم تسجيل أسمائهم فى القلعة ، ثم يجرى استدعاؤهم فيما بعد إذا ما دعا الداعى . مهام الحرس الخاص خفيفة ، بل إن غالبية الحرس الخاص يعيشون مع عائلتهم ، ولا يتقاضون أجرًا أو تعيينات (تموينات) إلا عندما يقومون بالعمل بعيدًا عن محال إقامتهم ، أو فى مهمة حراسة فى القلاع النائية وفى الجوف . من هنا ، فإن نفقات الحرس الخاص على الأمير لا تكلفه أكثر من مجرد ثمن الزى الذى يرتدونه هو والسلاح الذى يحملونه . أفراد الحرس الخاص هؤلاء يعهد إليهم بأعمال الشرطة الضرورية فى المدن ، لكن يندر أن تحتاج سلطة الأمير إلى دعم أو مساندة غير مساعدة الرأى العام . عرب نجد أناس معتدلو المزاج ونادرًا ما يتسببون فى الإخلال بالأمن والسلامة . وإذا ما نشأت مشادات بين المواطنين فإن هذه المشادات تجرى تسويتها فى مكان الحادث عن طريق تدخل الجيران ؛ وبالتالى نجد أن العنف والمشاكسة اللذين ينتشران فى المدن الأوروبية لا وجود لهما فى حائل . وعندما لا يمكن تسوية المنازعات عن طريق تدخل الأصدقاء ، يرفع المتنازعون النزاع إلى الأمير ، الذى يحكم نهائيًا . وأنا أتصور أن الأحكام القرآنية على الرغم من الرجوع إليها فى معظم الأحيان - ليست هى القاعدة الرئيسية فى قرار الأمير ، وإنما هناك أيضًا الأعراف العربية ، التى هى سلطة أقدم بكثير من الشريعة الإسلامية . وأنا أشك فى مسألة حتمية مساعدة الجنود فى تنفيذ القرارات بالقوة . أكد الناس لى مرارًا وتكرارًا أن السرقة لا وجود لها فى حائل ، ولكن النشالين واللصوص الذين يقبض عليهم وهم متلبسون يجرى قطع أيديهم فى السرقة الأولى ، وتقطع رؤوسهم فى المرة الثانية .

في الصحراء ، وفى الأماكن الأخرى الواقعة خارج كردون المدينة نجد أن البدو هم الذين يحافظون على النظام ؛ هؤلاء البدو يقضى الأمير معهم جزءًا من العام فى البادية . وهو فى مثل هذا الحال لا يعدو أن يكون مجرد واحد منهم ، يتخلى أو ينفض عن نفسه ملابس وترف الحضر ، ويروح يتسلح بحربة ، ويحيا مع البدو حياة التجوال فى النفود . والأمير يفعل هذا الأمر مع بداية الربيع ، والمعروف أن فصل الربيع هو موسم حروب الأمير . ومع اشتداد حرارة الصيف يعود الأمير إلى حائل . الإتاوة التى تدفعها كل بلدة وكل قرية تتحدد فى ضوء ثراء هذا البلد ، أو تلك القرية من حيث النخيل ، ومن حيث الأغنام التى يحتفظ المواطنون بها عند البدو . والشجرة يدفع عنها أربعة قروش ، على حد معرفتى ؛ أما الأشجار التى يقل عمرها عن سبع سنوات فهى معفاة من هذه الزكاة . موظفو الأمير فى حائل، هم الذين يفرضون هذه الزكاة ، ولكن الشيوخ المحليين هم الذين يفرضون هذه الزكاة فى الأماكن الأخرى أما الجوف ومسكاكة ، اللتان ما تزالان فى عرف الأراضى التى جرى ضمها حديثًا ، فنجد وكيلاً لابن الرشيد ، وهذا الوكيل هو الذى يفرض الضريبة بالعملة المعدنية ، ويجرى الاعتراف بالعملة التركية من بين وسائط الصرف في كل مكان . وبدون ادعاء تحرى الدقة ، فنحن أجرينا حسبة لمعرفة متحصلات الأمير من جميع الموارد والإتاوات فوجدناها تقدر بحوالى ٦٠٠٠٠ جنيه إنجليزى سنويًا ، وأن المرور السنوى للحج خلال ممتلكات ابن الرشيد يدر عليه سنويًا حوالى ٣٠٠٠٠ جنيه إنجليزى أخرى .

فيما يتعلق بإنفاق ابن الرشيد ، نجد أننا يمكن أن نحسب هذا الإنفاق بشىء من السهولة واليسر . ابن الرشيد يدفع كل عام مبلغًا صغيراً من المال إلى شريف المدينة (المنورة) على سبيل الإتاوة جزء من هذا المبلغ على شكل تبرع دينى ، وذلك بهدف المحافظة على ممتلكاته النائية ، فى كل من خيبر ، وكاف وبقية المناطق ، من العدوان التركى . وأنا أقدر هذه الإتاوة بما يتردد بين ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ جنيه إنجليزى ، لكننى لا يمكننى القطع تمامًا بالمبلغ . كما أن إنفاق الأمير على جيشه لا يمكن أن يكون كبيراً ، حتى عندما نضيف إليه قائمة الخدمات المدنية ، وبقية الإنفاق الحكومى ، هذا

الإنفاق لا يمكن أن يتعدى ١٠٠٠٠ جنيه إنجليزى . وقد ينفق الأمير على عائلته حوالى ٥٠٠٠ جنيه إنجليزى ، وعلى إسطبله حوالى ١٠٠٠ جنيه إنجليزى . من هنا يمكن القول إن القسم الأكبر من ميزانيته يذهب للاستقبالات والضيافة . ومحمد بن الرشيد شأنه شأن من جاءوا قبله يطعم فى قصره كل يوم عدداً من الضيوف يتردد بين مائتين وثلاثمائة فرد ؛ فى هذا القصر تجرى كسوة الفقراء ، أما الغرباء الأثرياء فتقدم لهم الهدايا فى شكل إبل وملابس ، وبخاصة أولئك الذين يأتون من مسافات بعيدة . والوجبة تتكون من الأرز ولحم الإبل ، وأحياناً لحم الضأن ، وهناك تمر وقهوة يقدمان طول اليوم ويقدران بما لايقل عن ٥٠ جنيهاً إنجليزياً فى اليوم الواحد ، وبذلك تصل كلفة القهوة والتمر على مدى عام بما يقدر بحوالى ٢٠٠٠٠ جنيه إنجليزى ، وإذا ما أضفنا إليه الهدايا يصل إلى حوالى ٢٥٠٠٠ جنيه إنجليزى فى العام . وبذلك يبلغ إجمالى الإنفاق فى الميزانية حوالى ٤٥٠٠٠ جنيه إنجليزى مقابل إيرادات تقدر بحوالى ٨٠٠٠٠ إلى ٩٠٠٠٠ جنيه إنجليزى ، وبذلك يتبقى للحرب والطوارئ الأخرى مبلغ معتبر ، الأمر الذى يساعد على تكوين الثروات وهو ما يشتهر به ابن الرشيد . وهنا ينبغى علىّ القول مرة ثانية ، إن هذه الأرقام كلها من باب التخمين ، ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك فى جبل شمر سوى الأمير نفسه هو وحمود ولد أخيه .

يتضح من ذلك كله أن جبل شمر ، يشهد من الناحية المالية حالة من حالات الازدهار الشديد . يزاد على ذلك أن لعنة الربا لم تصب بعد جبل شمر ، فضلاً عن أن الأمير ولا أى أحد من شعبه على استعداد لإنفاق مليم واحد أكثر من دخله . لم يجر حتى الآن القيام بأعمال عامة تحتاج إلى إنفاق أو قروض شعبية ، ومن الصعوبة بمكان تخيل مكونات الأعمال العامة التى يمكن أن تنفذ هنا . حفر أبيار جديدة هو العمل الوحيد الذى يمكن لأى " شركة " القيام به ، وسبب ذلك أن الطرق لا أهمية لها فى بلد هو بحد ذاته يشبه الطريق السريع ؛ البلد ليس فيه أنهار حتى يستفاد منها فى شق القنوات ؛ كما أن البلد ليس له ضواحى سكنية حتى يمكن ربطها ببعضها عن طريق خطوط الترام . وأستطيع القول بثقة تامة : إن سر المحرك البخارى سيختفى قبل أن يصل أى خط حديدى إلى جبل شمر .

فيما يتعلق بشكل الحكومة ، نرى أنه جيد لأنه فعال . هذا النظام الحكومى لا يتفق مع الأفكار الأوروبية الخاصة بالاتساق السياسى ، لأن السلطة العليا هنا فى حائل ينبغى أن تكون فى أيدى البدو . لكن فى الجزيرة العربية نجد أن البدو هم الوحيدون الذين يستطيعون استعمال هذه السلطة . هذا يعنى أن المدينة (الحضر) لا يمكن أن تغلب الصحراء (البدو) على أمرها ، أو تجبرها على فعل أشياء بعينها ؛ من هنا ، إذا أرادوا العيش فى سلام ، فذلك يعنى أن الصحراء (البدو) يتحتم أن تجبر المدينة (الحضر) على الطاعة والولاء . وهؤلاء هم الأتراك ، بكل آلياتهم الإدارية ، وقوتهم المالية والعسكرية ، ولم يستطيعوا مطلقًا تأمين الحياة والممتلكات الخاصة بالمترحلين والمسافرين عبر الصحراء ؛ وفى الجزيرة العربية لم يفلح الأتراك إلا فى الاستيلاء على المدن . يضاف إلى ذلك أن طريق الحج الذى كان فى حوزتهم، لم يكونوا يستطيعون عبوره إلا بمصاحبة جيش ، ومواجهة الكثير من المخاطر . ابن الرشيد، من ناحية أخرى ، وبمحض إرادته يحافظ دومًا على أمن وسلامة الصحراء . فى سائر أنحاء جبل شمر ؛ الذى يضم بعض الصحارى البرية ، التى يسكنها فى سائر أنحاء جبل شمر ؛ الذى يضم بعض الصحارى البرية ، التى يسكنها بعض من أشرس البشر فى الدنيا كلها ، يستطيع الرحال والمسافر التنقل فى سائر الأنحاء وهو أعزل من السلاح ، وبلا أى حرس مرافق ، دون أن يلقى معارضة ، أو يواجه أية إعاقة تمامًا كما لو كان يسير فى طريق من الطرق السريعة فى إنجلترا . فى كل طرق جبل شمر ، تجد الحضر راكبين حميرهم ، وحدهم ، أو راجلين ، ولا يحملون بندقية أو حربة ، ومعهم كل ثرواتهم . وأنت إذا ما سألت عن أخطار الطريق ، يردون عليك سؤالك قائلين : " ألسنا هنا فى بلاد ابن الرشيد ؟ " .

وليس هناك نظام - ، مهما كان اكتماله - من الدوريات والقلاع ، والأحراس المرافقة ، قادر على إحداث نتيجة مثل النتيجة التى شاهدناها هنا فى حائل .

على الجانب الآخر ، نجد الأمير البدوى ، على الرغم من استبداده مع الحضر فهو يخضع للرأى العام . مواطنو جبل شمر ليس لديهم ذلك الذى ينبغى أن نسميه

الحقوق الدستورية ؛ هذا يعنى أن سكان جبل شمر ليس لديهم الآليات التى تمكنهم من تأكيد سلطتهم ؛ لكن الأرجح هو أنه ليس هناك فى العالم القديم ، الذى يكون للمشاعر الشعبية فيه تأثير كبير على الحكم ، تأثير أكثر مما هو موجود حاليًا فى حائل . والأمير ، على الرغم من عدم مسئوليته عن الأعمال الفردية ، يعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يعتدى اعتداء وقحًا على قانون الجزيرة العرفى . والشيخ الذى لا تكون له شعبية ، قد يكتشف بنفسه توقف شياخته ، لأنه على الرغم من عدم عزله من خلال مرسوم شعبى ، وعدم إخضاعه لأى شكل من أشكال المعاملة الشخصية السيئة ، يجد نفسه معزولاً لصالح عضو آخر من أعضاء أسرته يحظى بقدر كبير من القبول والرضا من جانب الناس . يزاد على ذلك أن الجنود من المواطنين لا يمكن أن يساندوا طاغية أو مستبد فى المدينة ، وهذا هو ما يفعله أيضًا البدو الذين يعيشون فى الصحراء . هذا يعنى أن الأمراء فى الجزيرة العربية يتعين عليهم أن يعملوا ألف حساب وحساب للرأى العام قبل أى شىء آخر .

نقيصة هذه المنظومة ، إذ أن لكل منظومة نقيصة ، تتمثل فى عدم التأكد من تولى الشياخة ، أو إن شئت فقل : العرش البدوى . والأمير إذا ما لقى ربه ولم يكن له ابنٌ رشيد ، وصاحب قدرة واضحة وبيِّنة ، على تولى مقاليد الحكم ، فإن المدعين المنافسين ، والأشقاء ، والأعمام أو أبناء أعمام المتوفى ، يتنازعون ولاية الحكم بالسلاح ، ويترتب على ذلك معارك وحروب حامية . وأقرب مثال على ذلك ، هو ذلك النزاع الذى انفجر فى العارض بعد وفاة فيصل بن سعود ، والذى أدى إلى تفكك وتحلل الدولة الوهابية ، وهنا لا يسعنا إلا أن نقول : إننا نخشى حدوث مثل هذا الشىء فى جبل شمر ، عندما يلقى محمد بن الرشيد ربه . محمد ليس له أبناء ، وأبناء طلال ولى العهد ، أمامهم منافس عتيد هو حمود . ومع ذلك فإن الأمير ما يزال شابًا ، إذ يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا ، وقد يعيش عمرًا طويلاً ؛ وإذا ما فعل ذلك ، أى إذا ما طال به العمر ، فقد يمسك بخيوط الولاية الوهابية بين يديه . ومحمد بن الرشيد هو ومن سبقوه هم الذين استطاعوا توحيد شيوخ البدو كلهم ، بدءًا من مشهد على إلى

المدينة المنورة ، تحت قيادته ، كما أنه على صلة وثيقة بشيوخ القصيم والعارض . وسلطة محمد بن الرشيد راسخة ومتأصلة فى الشمال إلى بلدة كاف ومايزال محمد ابن الرشيد يركز انتباهه على المدن التى أبعد من كاف فى الشمال ، وبخاصة عندما تنفض عنها القيد التركى . وأنا أتطلع إلى اليوم الذى سيدخل فيه الروالة وولد على فى تحالف مع محمد بن الرشيد ، ويحتمل أن ينضم إلى ذلك التحالف كل من السباع وابن هدّال ؛ وعلى الرغم من أنه ليس من المرجح أو المرغوب أن يعاد تأسيس الدولة الوهابية القديمة على أساس من الحكم المركزى ، فإن الاتحاد الكنفدرالى بين قبائل الشمال قد يظل محتفظاً بتقاليده القديمة . كانت حوران هى وليجة ، وكذلك الفرات ، فى يوم من الأيام ، تابعة لأبناء سعود ، وقد تصبح ، فى يوم ما تابعة ، لأبناء الرشيد مرة ثانية . هذه نظرة بعيدة من جانبنا لكنها ليست أبعد من نظرات محمد بن الرشيد نفسه .

ملاحظة : مسألة عدم قصر محمد بن الرشيد لطموحه على نجد وحدها ظهرت للعيان مؤخراً .

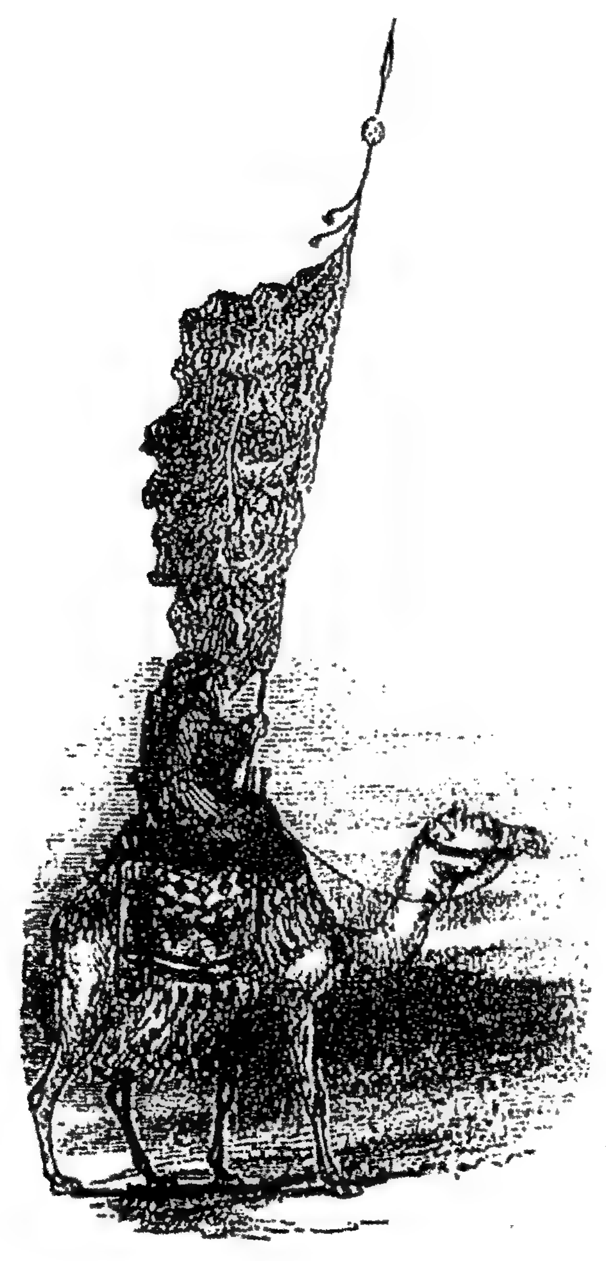
ففى شهر أبريل المنصرم من العام ١٨٨٠ الميلادى تقدم محمد بن الرشيد على رأس جيش قوامه ٦٠٠٠ رجل من حائل ، وصعد إلى وادى السرحان ، وفاجأ محمد الدوخى بن سمير فى الحرّة وسلب ونهب مخيمه ، ثم واصل سيره إلى حوران . ولم يندهش مواطنو دمشق عندما عرفوا ذات صباح ، أن الأمير وصل بزرة التى لا تبعد سوى ستين ميلاً عن العاصمة السورية ، وحدث تضارب كبير حول الهدف من وراء مجيء الأمير إلى هذا الجزء من الشمال ، وبخاصة أنه لم يحدث أن جاء جيش من نجد إلى ولاية الشام منذ أيام الدولة الوهابية . وتهامس الناس أن الأمير تصادق مع ابن سمير ، وأن النزاع الذى دار بينهما كان بطريق الخطأ ، وأن مرشداً شريراً ، هو المسئول عن عملية السلب والنهب ، وأنه جرى قطع رأس ذلك الشرارى ؛ وعليه قام ابن الرشيد بعمل وليمة هائلة بمناسبة الصلح ، على شرف قبائل الشمال ، وجرى فى تلك الوليمة ذبح ٧٥ جملاً و ٦٠٠ خروف ، وقد عاد الأمير إلى نجد بعد أن أقام بضعة أسابيع فى ملَخ .

ليس من الصعب عليّ معرفة هدف محمد بن الرشيد الحقيقى من وراء هذا الغزو دون أن أدّعى معرفة ذلك الذى كان يدور بِخُلد محمد بن الرشيد عندما قام بتلك الحملة . معروف أن انتصار ابن سمير على بن شعلان ، الذى سبق الإشارة إليه ، وضع ابن سمير فى مركز قيادى عند قبائل الشمال ؛ ومعروف أن الغزو الذى قام به ابن سمير على دروز حوران ، التى كانت تابعة فى يوم من الأيام لأمراء نجد ، جعل محمد بن الرشيد يستاء من ابن سمير . ومن عادة ابن الرشيد أن يضرب الضربة ثم يجنح بعد ذلك إلى السلم ؛ وبذلك يقلل من مكانة الشيخ المنتصر ، ثم ينزل بعد ذلك ضيفًا عليه . وقد ذاع صيت محمد بن الرشيد فى العمليات التى من هذا القبيل ، والتى كان يحبذ القيام بها ضد قبائل الشمال . وهذا يعنى أن محمد بن الرشيد كان يثبت أنه هو الأعلى فى الأماكن التى يود أن يكون فيها كذلك ، وبخاصة فى الصحراء ، كما كان يذكر سكان الحدود فى الشام بالدعاوى الوهابية القديمة فى شرق الشام. ومن المحتمل أن يكون محمد بن الرشيد بعد أن أجبر ، أو أقنع العنزة بالانضمام إلى حلفه ، كان يرمى فى حال تقسيم الإمبراطورية العثمانية إلى تولى أمر ذلك الجزء من التركة، ويجرى بعد ذلك الاعتراف به ملكًا على كل الأراضى الواقعة خلف نهر الأردن .

ملحق الصور



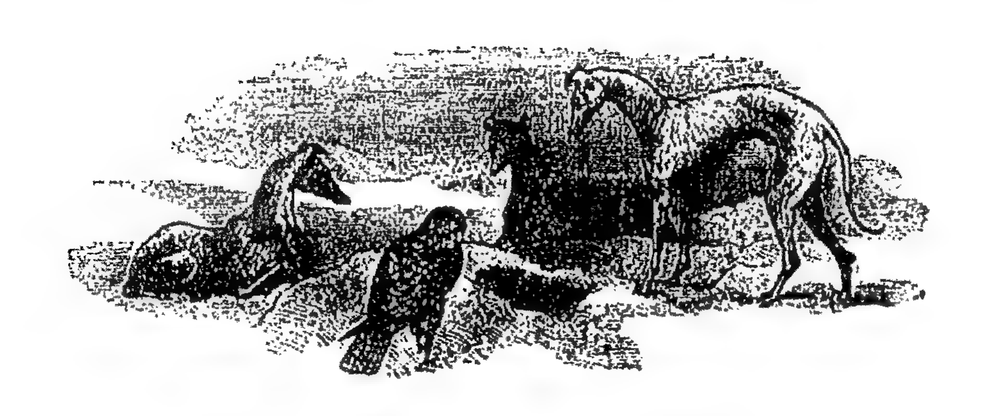
صورة للسيدة آن بلنت وهى ترتدى اللباس العربى
(بريشة رى مولونى)



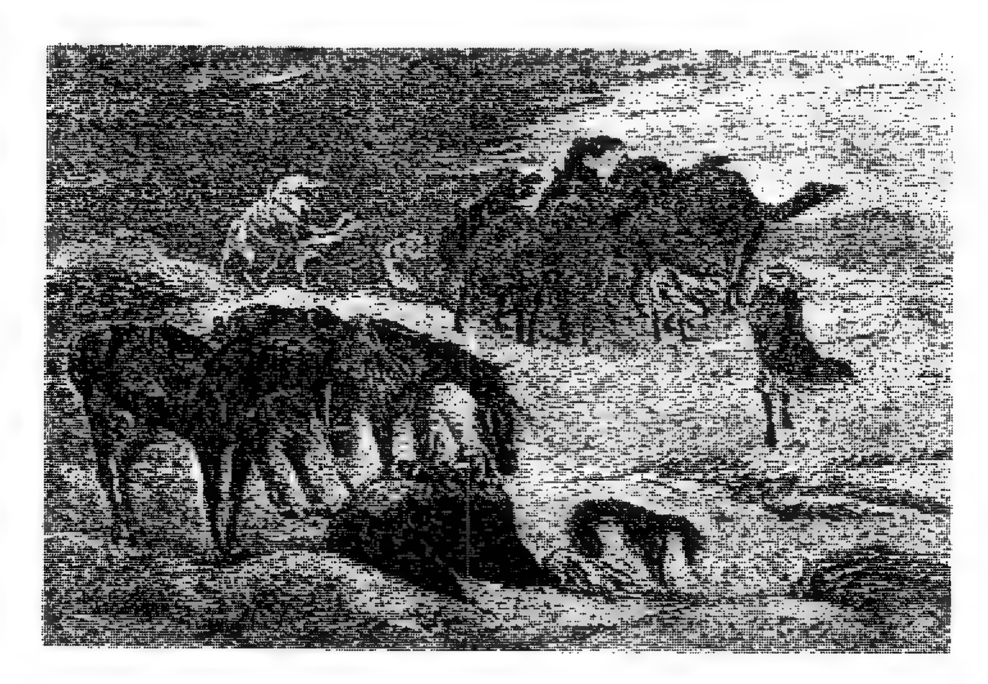
بيرق الحج



بلخـــاد



سباق على الأرض



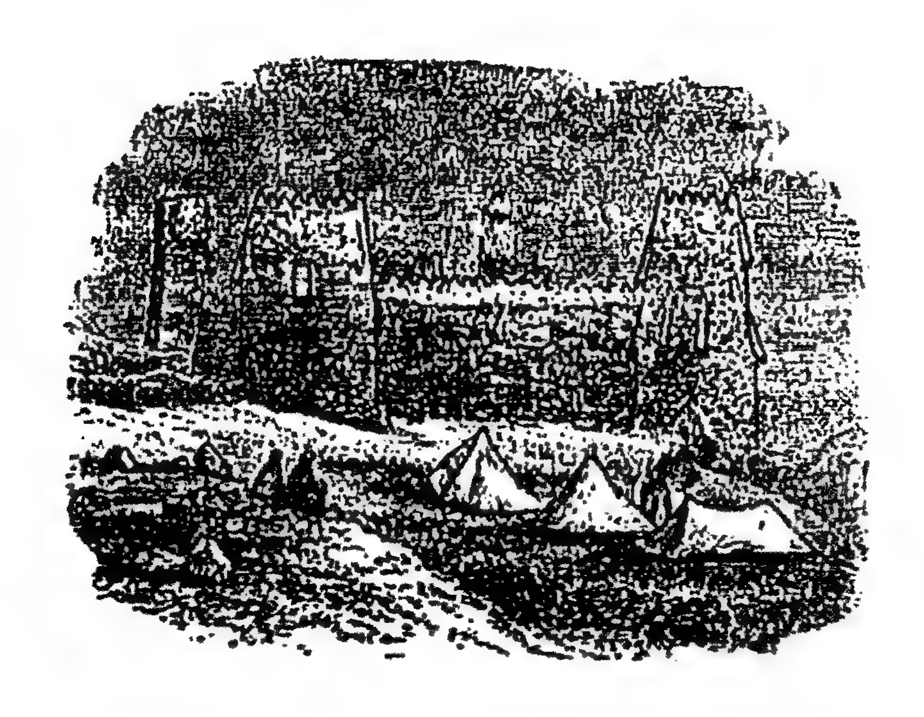
عاصفة رملية فى وادى الراجل



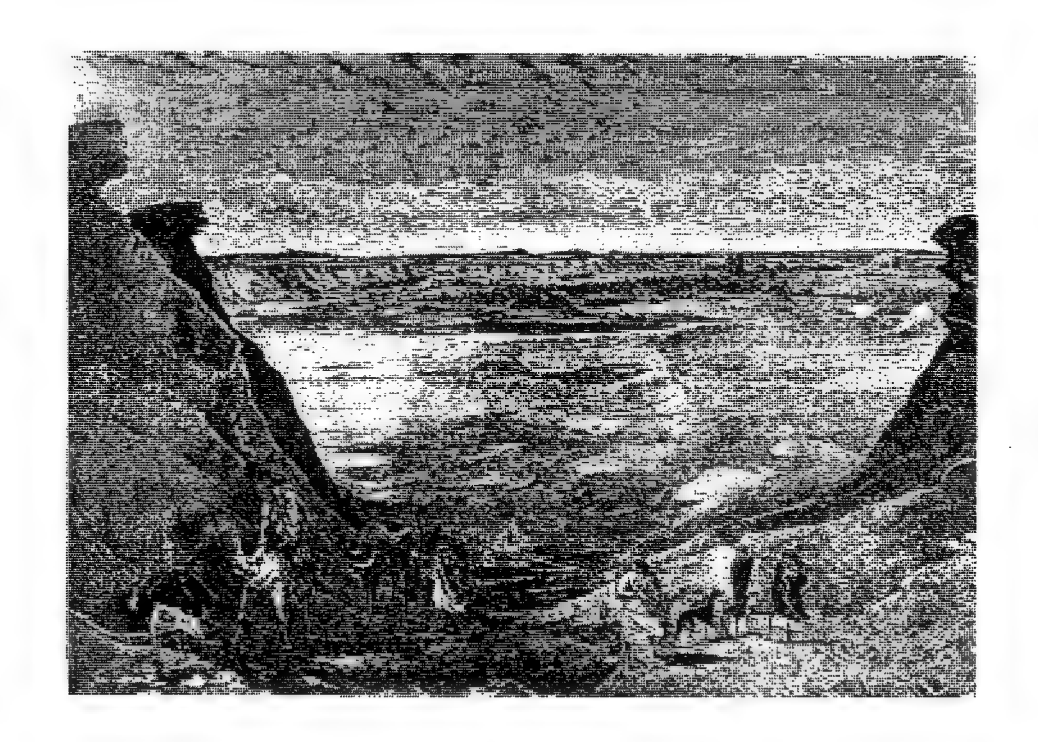
قرية قاف



غزو فى وادى السرحان



قلعة الجوف



واحة الجوف



طلـــى نجدى



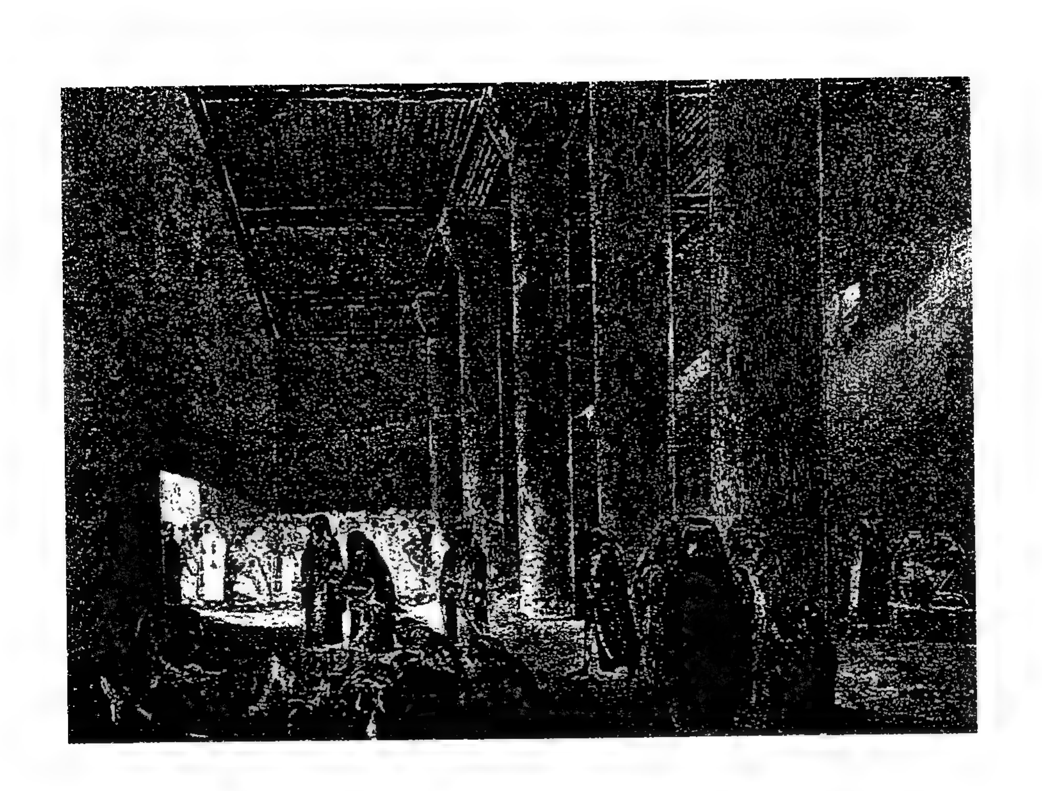
النفود: أو صحراء الجزيرة العربية الرملية الحمراء الكبرى



ركوب الدلول



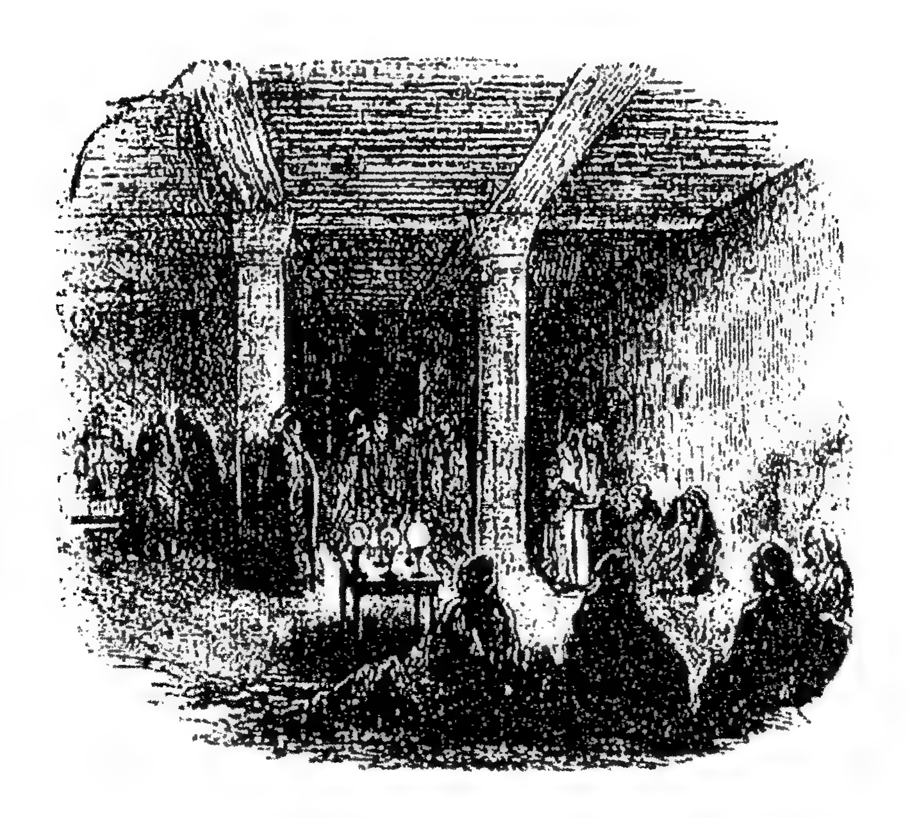
حفل استقبال فى حائل



قصر الأمير فى حائل



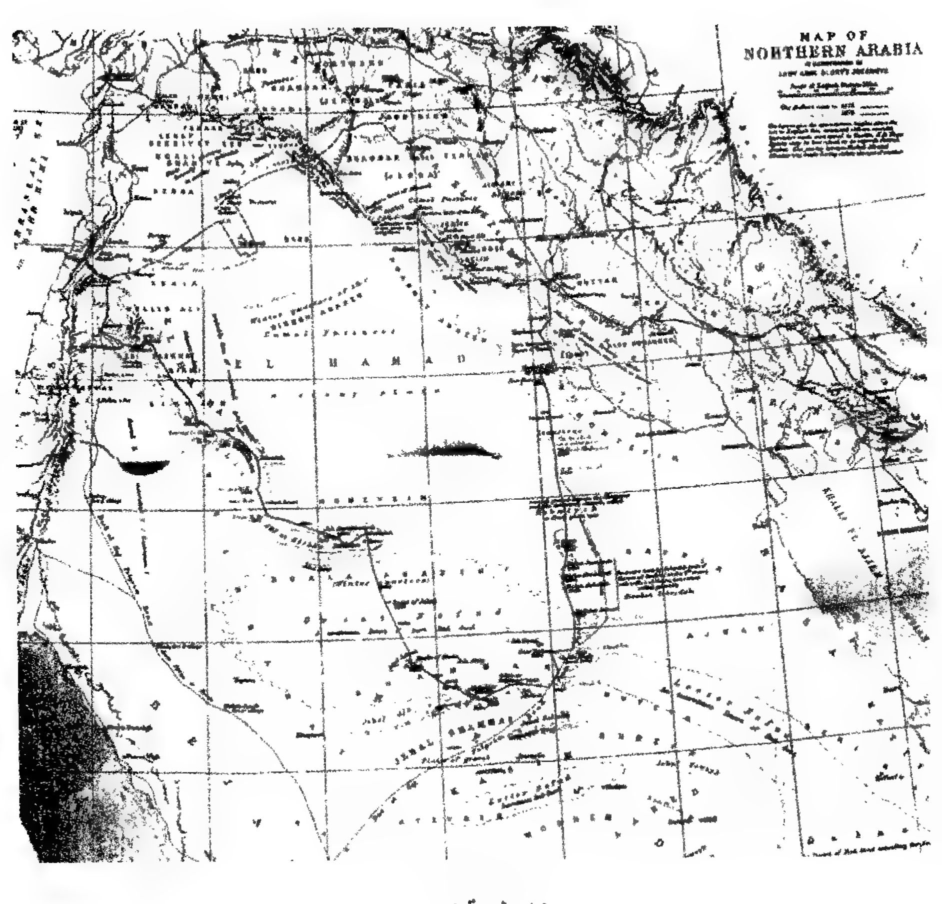
إسطبل ابن الرشيد فى حائل



أمسية مع الأمير



منزلنا فى حائل



خارطــة نجـد

المؤلفة فى سطور

آن إيزابلا نويل بلنت

ذاع صيتها تحت اسم آنابلا ، ولدت فى اليوم الثانى والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٨٣٧م ، وتوفيت فى شهر ديسمبر عام ١٩٧١م ، تزوجت من ولفريد بلنت الشاعر والكاتب الإنجليزى .

كانت تجيد عدة لغات وهى : الفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والعربية .

درست الرسم على يد جون رسكن ، وكانت تجيد عزف الكمان .

المترجم فى سطور

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت فى المجلات والصحف العربية المحلية والدولية منها :

* مقالات وأبحاث نشرت بمجلات الفيصل ، والمجلة العربية - الرياض - المملكة العربية السعودية ، ومجلة الهلال - القاهرة - جمهورية مصر العربية .

وله كتب مترجمة إلى العربية منها :

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية :

١ - التفكيكية : النظرية والممارسة ، تأليف كرسيتوفر نورس ، دار المريخ ، الرياض، المملكة العربية السعودية .

٢- الشاعر والشكل ، تأليف : جدسون جيروم - دار المريخ .

٣- الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجها لوجه - دار المريخ ،

٤ - الأطفال والمخدرات دار المريخ .

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

١- الموظف المشاكس .

٢- عمل الفريق الفعال .

(جـ) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

١ - هارون الرشيد ، تأليف فيلبى .

٢- الكوكائين والمراهقين .

٣ - بنات مدمنى ومدمنات المسكرات .

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال .

١ - حلم ليلة أفريقية .

(هـ) كتب مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ضمن إصدارات المشروع القومى للترجمة ، جمهورية مصر العربية.

١ - سبعة أنماط من الغموض ، تأليف : وليم أمبسون .

٢- وسط الجزيرة العربية وشرقها ، تأليف بالجريف (جزءان).

٣ - حركات التحرر الأفريقى ، تأليف ريتشارد جيبسون .

٤ - إرادة الإنسان فى علاج الإدمان .

٥ - قلب الجزيرة العربية (جزءان).

٦ - سيرتى الذاتية ، تأليف أحمد بللو.

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ضمن إصدارات المشروع القومى للترجمة ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

١- سكين واحد لكل رجل .

٢- نجوم حظر التجوال الجدد .

٣ - المهمة الاستوائية .

المراجع فى سطور

رءوف عباس حامد

أستاذ التاريخ الحديث كلية الآداب جامعة القاهرة .

له مؤلفات عديدة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر.

التصحيح اللغوى : هيثم الحاج على .
الإشراف الفنى : حسن كامل .